

نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ
غَيْصِنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التليسياني

حقيقته
الدكتور اجسان نجاس

المجلد السابع

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ - ۱۹۶۸ م

نفع الطيب

٧

الرياضة

الباب الخامس

(تمة)

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فنقول :

وأما مَوْشَحَاتِه وَأَزْجَالِه فكثيرة ، وقد انتهت إليه رياضة هذا الفن ، كما صرح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير ، ولنذكر بعضَ كلامه ، إذ لا يخلو من فائدة زائدة ، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه^١ : وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قُطْرِهِمْ ، وتهدبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سَمَوْهُ بالموشح ، ينظمونه أسماً أسماً وأغصاناً وأغصاناً ، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويُسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعدُ إلى آخر القطعة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددُها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يُفعل في القصائد ، وتجاوزوا^٢ في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناسُ وحمدوه^٣ الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه ، وكان المخترعُ

١ انظر مقدمة ابن خلدون: ١٣٢٧ وأصل هذا النص نفسه ورد في «المقتطف من أزهار الطرف» لابن

سعيد ، وراجع أزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ .

٢ المقدمة : وتجاروا .

٣ المقدمة والأزهار : جملة .

لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ عنه ذلك ابنُ عبد ربه صاحب العقد ، ولم يُذكر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القرّاز شاعر المعتصم بن صمّادح صاحب المريّة ، وقد ذكر الأعلام البطلانيّ أنّه سمع أبا بكر ابن زهر يقول : كلُّ الوشّاحين عيال على عبادة القرّاز فيما اتفق له من قوله :

بَدْرُ تَمِّ شَمْسِ ضُحَى غَصْنِ نَقَا مَسْكَ شَمِّ
 مَا أُمَّ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا مَا أُنَمَّ
 لَا جَرَمَ مَنْ لَمَحَا قَدَّ عَشِقَا قَدَّ حَرَم

وزعموا أنّه لم يسبق عبادة وشّاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصلياً خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، قالوا : وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول :

العودُ قد ترممُ بأبدعِ تلحينٍ وشقّتِ المذانبُ رياضَ البساتين
 وفي انتهائه حيث يقول :

تَخْطِرُ وَلَمْ تَسْلَمْ عَسَاكَ المأمونُ مَرُوعَ الكتائبِ يحيى بن ذي النون
 ثمّ جاءت الحلبية التي كانت في مدة الملتصين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان حلبتهم^١ : الأعمى التطيلي ، ثمّ يحيى بن بقي ، وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله^٢ :

١ المقتطف : وفرسان رمان حلبتهم .
 ٢ ديوان الأعمى : ٢٧٢ .

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى صَبْرِي وَفِي الْمَعَالِمِ أَشْجَانُ
وَالرَّكْبُ وَسَطَ الْفَلَاحِ بِالْخُرْدِ النَّوَاعِمِ قَدْ بَانُوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل^١ هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنقَ فيها ، فتقدم الأعمى التُّطَيْلِي للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحك عن جُمان سافر عن بدر
ضاقَ عنه الزمان وحواهُ صدري

خرَّق ابنُ بقي موشحته وتبعه الباقر^٢ .
وذكر الأعلام البطلاني^٣ أنهُ سمع ابن زُهر يقول : ما حسدت قطُّ
وشاحاً على قول إلا ابن بقي حين وقع له^٤ :

أما ترى أحمداً في مجده العالی لا يلحق
أطلعه المغربُ فأرنا مثله يا مشرق

وكان في عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان في عصرهم أيضاً الحكيم أبو بكر ابن باجة صاحب التلاحين المعروفة .
ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخلومه ابن تيفلوت^٥ صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشحته :

١ المتصنف : وسمت غير واحد من الأشيخ . . الخ .
٢ راجع هذه القصة في المجلد ٣ : ٤٠٤ .
٣ المتصنف : وسمت الأعلام البطلاني يقول . . الخ .
٤ انظر هذه الموشحة في ديوان التُّطَيْلِي : ٢٧٠ - ٢٧٢ وهي في دار الطراز : ٦٣ مضمومة لابن بقي .
٥ المتصنف : أنه لما ألقى على بعض قينات ابن تيفلوت . . الخ .

جرر الذيلَ أيّما جرّاً [وصيلِ السكرَ منك بالسكر]^١

فطرب الممدوح لذلك ، وختمها بقوله :

عقد الله رايةَ النصرِ لِأَمِيرِ العِلا أبي بكرٍ

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح : واطرباه ! وشتقّ ثيابه ،
وقال : ما أحسن ما بدأت وما ختمت ، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشي ابنُ
باجة لداره إلا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً
في نعله ومشى عليه .

ثم قال ابن خلدون بعد كلام : واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين
محمد بن أبي الفضل بن شرف ، إلى أن قال : وابن هرديوس^٢ الذي له :

يا ليلةَ الوصلِ والسعودِ بِاللهِ عودي

وابن مؤهل^٣ الذي له :

ما العيدُ في حلّةٍ وطاقٍ وشمٍّ طيبٍ
ولإنما العيدُ في التلاقي مع الحبيبِ

وأبو إسحاق الزويلي^٤ .

١ زيادة من المقتطف .

٢ ترجم له في المغرب (٢ : ٢١٠) وسماه أحمد بن هرودس بتقديم الواو على الدال ؛ وكنيته أبو
الحكم ؛ وفي التحفة (٥٤) أنه إبراهيم بن علي بن هرودس ؛ وقال إنه من أهل حصن مرشافة
من عمل المريّة وتوفي بمراكش سنة ٥٧٢ ؛ وسماه في التكملة أيضاً إبراهيم (ص : ١٥٤) وأورد
له صاحب المغرب موشحة (٢ : ٢١٥) هي التي أورد هنا مطليها ؛ وأغلب الظن أن الصواب في
نسبه « هرديوس » بتقديم الدال وهي لفظة بربرية ترمز إلى الفهولة . والأرجح أن اسمه « أحمد »
لقوله يخاطب أحمد بن عبد الملك بن سعيد « يا سمي » (انظر النسخ ٤ : ٢٠١) .

٣ ذكره في المغرب ٢ : ٣٩٠ باسم « ابن موهد » وأورد له موشحة وقال إنه شاطبي سكن مرسية
ومدح ابن مردنيش .

٤ في المقدمة والأزهار : اللويني ، وما أثبتناه هو ما ورد في المقتطف .

قال ابن سعيد : سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : إنّه دخل على ابن زُهر ، وقد أسنَّ ، وعليه زيُّ البادية ، إذ كان يسكن بحصن سبتة ، فلم يعرفه ، فجلس حيث انتهى به المجلس^١ ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها :

كحلُّ الدجى يجري من مقلّةِ الفجرِ على الصباحِ
ومعصمُ النهريِّ في حُللِ خضرٍ من البطاحِ

فتمحرك ابن زُهر ، وقال : أنت تقول هذا ؟ قال : اختبر ، قال : ومن تكون ؟ فأخبره ، فقال : ارتفع ، فوالله ما عرفتك .
قال ابن سعيد : وسابقُ الحلبة التي أدركتُ هو أبو بكر ابن زُهر ، وقد شرقت موشحاته وغرّبت ، قال : وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول : قيل لابن زُهر : لو قيل لك : ما أبدع ما وقع لك في التوشيح ؟ فقال : كنت أقول :

ما للموتى من سكره لا يُفِيقُ يا لهُ سكران
[مِنْ غَيْرِ خمرٍ ما للكئيبِ المَشُوقُ يندُبُ الأوطان]
هلْ تُستعادُ أيتامنا بالخليجِ وتيالينا
إذْ يُستفادُ مِنَ التَّسيمِ الأريجِ مسكُ دارينا
وإذْ يكادُ حَسَنُ المَكانِ البهيجِ أنْ يُحيِّينا
نهرِ أَظْلَه دَوْحِ عَليهِ أُنيقُ مؤنقُ فينان
والماءِ يَجري عاثِمٌ وغريقُ من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون ؛ إلى أن قال : وبعد هؤلاء ابن حزمون بمُرسية ، ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه ، فأشده موشحة لنفسه ، فقال له ابن حزمون : ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف ، فقال :

١ المتقطف : فجلس حيث وجد .

على مثل ماذا؟ فقال : على مثل قولي :

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيل
أو هل يرى عن هواءك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بفرناطة ، قال ابن سعيد : كان والذي يعجب
بقوله :

إن سبيل الصباح في الشرق عاد بجرأ في أجمع الأفق
فتداعت نوابد الورق أتراها خافت من الغرق
فبكت سحرة على الورق

واشتهر بإشيلية لذلك العهد أبو الحسن ابن الفضل ، قال ابن سعيد عن والده :
سمعت سهل بن مالك يقول له : يا ابن الفضل ، لك على الوشاحين الفضل ،
بقولك :

واحسرتي لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى وبت على جمرات الغضا
أعائق بالفكر تلك الطلول وألم بالوهم تلك الرسوم

قال : وسمعت أبا بكر ابن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته
غير ما مرة فما سمعته يقول « لله درك » إلا في قوله :

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما لليل المشوق من فجر
خمد الصبح ليس يطرد
ما لليلي فيما أظن غد
صح يا ليل أنك الأبد

أو تقضت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسري

ومن موشحات ابن الصابوني قوله :

ما حالُ صبِّ ذي ضنِّي واكتئابُ
عامَلُهُ محبوبُهُ باجتئابُ
أمراضُهُ يا ويلتاهُ الطَّيِّبُ
ثمَّ اقتدى فيه الكرى بالحبيبُ

جفا جفوني النومُ لكنني
وذو الوصالِ اليومَ قد غرَّني
لَمْ أبكهِ إلا لفقد الخيال
منهُ كما شاء وشاء الوصال
فلستُ باللائمِ مَنْ صدَّني
بصورة الحقِّ . ولا بالمحال

واشتهر ببر العُدوة ابن خلف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة :

يد الإصباحُ قدَّ قدَحَتْ زنادَ الأنوارِ من مجامرِ الزهرِ

وابن خزر البجائي ، وله من موشحة :

نغرُّ الزمانِ موافقُ حياكَ منه بابتسامُ

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبته من بعدها^١ :

هل درى ظنِّي الحمى أن قد حمى
فهو في حرِّ وخفقٍ مثلما
قلبَ صبِّ حلِّه عن مكنسِ
لعبت ربحُ الضِّبَا بالقبسِ

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره فقال :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همي
لم يكنْ وصلُّكَ إلا حلُّما
يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
في الكرى أو خلسة المختلسِ

١ انظر ديوان ابن سهل : ٢٨٣ وهي الموشحة التي شرحها الأفراني في كتاب سماه « الملك السهل في شرح توشيح ابن سهل » . يقول الأفراني : وقد وقفت على أزيد من اثني عشرة موشحة بما عورض به توشيح ابن سهل .

إذ يقود الدهر أشتات المني
زُمراً بين فرادى وثنا
والحيا قد جَلَل الروض سنا
فثغورُ الزهرِ مِنْهُ تبسمُ
يَنْقلُ الخطوَ على ما يرسمُ
مثلما يدعو الوفودَ الموسمُ

وروى النعمانُ عن ماء السَمَا
فكسَاهُ الحسنُ ثوباً معلماً
كيف يروي مالكٌ عن أنسٍ
يزدهي مِنْهُ بأبهي ملبسٍ

في ليلٍ كتمتُ سرَّ الهوى
مالَ نجمِ الكأسِ فيها وهوى
بالدجى لولا شمسُ الغررِ
مستقيمَ السيرِ سَعَدَ الأثرِ
وَطَرُّ ما فيه من عيبِ سوى
أنَّهُ مرَّ كلمحِ البصرِ

حينَ لذَّ الأنسُ شيئاً أو كما
غارَتِ الشَّهبُ بنا أو ربما
هجم الصبحُ هجومَ الحرسِ
أثرتُ فينا عيونُ الرجسِ

أيُّ شيءٍ لامرئٍ قد خلصا
تنهبُ الأزهارُ منه الفُرصا
فيكونُ الروضُ قد مكنَ فيه
أمنتُ من مكره ما تتقيهِ
وإذا الماءُ تناجى والحصى
وخلأ كلُّ خليلٍ بأخيه

تبصرُ الوردَ غيوراً برِما
وترى الآسَ ليبياً فهما
يكتسي من غيظه ما يكتسي
يسرقُ السَّمعَ بأذنتي فرسٍ

يا أهيل الحَيِّ من وادي الغضا
ضاق عن وجددي بكم رحبُ الفضا
وبقلبي سَكَنَ أنتم به
لا أبالي شرقه من غربه
تُعْتقوا عانيكم من كربهِ
تُعْتقوا عانيكم من كربهِ

واتقوا اللهَ وأحيوا مغرماً
حبس القلبَ عليكم كرماً
يتلاشَى نفساً في نفسٍ
أفترضون عفاءَ الحبسِ

وبقلبي منكم مقربُ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ
قَدَّ تَسَاوَى مُحْسِنٌ أَوْ مَذْنِبٌ
بِأَحَادِيثِ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ
شَقْوَةَ الْمُغْرَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدُ

ساحرُ الْمُقَلَّةِ مَعْسُولُ اللَّمَى
سَدَّدَ السَّهْمَ وَسَمَى وَرَمَى
جَالَ فِي النَّفْسِ مَجَالَ النَّفْسِ
فَقَوَّادِي نُهْبَةَ الْمُفْتَرَسِ

إِنْ يَكُنْ جَارٌ وَخَابَ الْأَمَلُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيِّبٌ أَوَّلُ
أَمْرُهُ مُعْتَمَلٌ مُمْتَثِلٌ
وَقَوَّادُ الصَّبِّ بِالشُّوقِ يَذُوبُ
لَيْسَ فِي الْحَبِّ لِمُحِبِّبِ ذَنْوَبِ
فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَرَّاهَا وَقُلُوبِ

حَكَمَ اللَّحْظَ بِهَا فَاحْتَكَمَا
مَنْصَفَ الْمَظْلُومِ مَمَّنْ ظَلَمَا
لَمْ يَرِاقِبْ فِي ضَعَافِ الْأَنْفَسِ
وَمَجَازِي الْبِرِّ مِنْهَا وَالْمُسِي

مَا لِقَلْبِي كَلَّمَا هَبَّتْ صَبَا
كَانَ فِي اللُّوْحِ لَهُ مَكْتَبَا
جَلَبَ الْهَمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا
عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدُ
قَوْلُهُ : « إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدُ »
فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدِ جَهِيدُ

لَاعَجٌ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا
لَمْ يَدْعُ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذَمَا
فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبْسِ
كِبْقَاءِ الصَّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ

سَلَّمِي يَا نَفْسُ فِي حَكْمِ الْقَضَا
دَعَكَ مِنْ ذِكْرِي زَمَانَ قَدْ مَضَى
وَاصِرِي فِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرِّضَى
وَاعْمِرِي الْوَقْتَ بَرُّجَعِي وَمَتَابِ
بَيْنَ عُنْتِي قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابِ
مَلْهَمِ التَّوْفِيقِ فِي أُمَّ الْكِتَابِ

الْكَرِيمِ الْمُتَنَهَى وَالْمُنْتَمَى
يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا
أَسَدِ السَّرْحِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدْسِ

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين ، ولا أدري لِمَ لَمْ يكملها ، وتامها قوله :

مصطفى الله سَمِيَّ المصطفى الغني بالله عَن كلِّ أحدٍ
مَنْ إذا ما عَقَدَ العهدَ وَفَى وإذا ما فَتِحَ الخُطْبُ عَقَدُ
من بَنِي قيسِ بنِ سعدٍ وكفى حيثُ بَيَّتُ النَصْرَ مرفوعُ العَمَدِ

حيثُ بَيَّتُ النَصْرَ محمى الحمى وجنى الفضلِ زكيُّ المغرسِ
والهوى ظلُّ ظليلٌ خيِّما والندى هبَّ إلى المغرسِ

هاكها يا سبطَ أنصارِ العُلا والذي إن عَثَرَ الدهرُ أقالُ
غادةً ألبسها الحسنُ مُلا تبهرُ العينَ جِلاءً وصقالُ
عارضتُ لفظاً ومعنى وحلى قول من أنطقه الحبُّ فقالُ :

« هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلبَ صَبَّ حلَّه عن مكَنَسِ »
« فهو في خفقٍ وحرٍّ مثلما لعبتُ ريحُ الصَّبَا بالقَبَسِ »

ثمَّ قال ابن خلدون : وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عاتوهُ من الموشحات ، ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري التي اشتهرت شرقاً وغرباً ، وأولها :

[يا] حبيبي ارفعِ حجابَ النورِ عَن العذار
تَنظُرُ المسكَ عَلى كافورِ في جَلَنارِ

كللي يا سَحْبُ تيجانِ الرُّبى بالحلي
واجعلي سِوارها منعطفَ الجدولِ

ولمَّا شاع فنَّ التوشيح في أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق

كلامه وتصريح أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً^١ ، واستحدثوا فنّاً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجعأوا فيه بالفرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال ، بحسب لغتهم المستعجمة ، وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر ابن قزمان ، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس^٢ ، لكن لم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها ، واشتهرت رشاقتها ، إلا في زمانه ، وكان لعهد المثلثين ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، قال ابن سعيد : رأيت أزجاله مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بمواضر المغرب ، قال : وسمعت أبا الحسن ابن جحندر الإشبيلي^٣ إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منتره مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رُخام يصب الماء على صفائح من الحجر ، فقال :

وعريشٌ قد قام على دكان بحال رواق
 وأسدٌ قد ابتلع ثعبان من غلظ ساق
 وفتح فمو بحال إنسان به الفواق
 وانطلق من ثم على الصفاح وآلقى الصياح

١ يؤخذ من هذا أن ابن خلدون يرى أسبقية الموشح على الزجل ، وهو أمر يخالف طبيعة الأشياء ، لأن الزجل في أصله أغنية شعبية ، وإنما يعني ابن خلدون أن الزجل أحرز « مكانة أدبية » بعد شيوع الموشح .

٢ ظهر من الزجالين ابن نمارة وابن راشد قبل ابن قزمان ولكنه خالف طريقة القدامى - كما يسميهم - واختار العودة بالزجل إلى سهولة الأغنية الشعبية ورقتها .

٣ هو علي بن جحندر (المغرب ١ : ٢٦٢ واختصار القدح : ١٧٢) قال ابن سعيد : أكثر اشتهاؤه بالانطباع في الزجل ، وجالسته كثيراً بإشبيلية ، وطال عمره حتى جاوز التسعين ومات سنة ٦٣٨ .

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية ، ويتتاب
نهرها .

إلى أن قال ابن خلدون : وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس^١ ،
وقعت له العجائب في هذه الطريقة ، فمن قوله في زجله المشهور :

ورذاذٌ دقٌ ينزلُ وشعاعُ الشمسِ يضربُ
فترى الواحدُ يفضضُ وترى الآخرُ يذهبُ
والنبتُ يشربُ ويسكرُ والغصونُ ترقصُ وتطربُ
وتريدُ تجمي إلينا ثم تستحي وترجع

ومن محاسن أزجاله قوله :

لاح الضياء والنجوم سكارى

ثم قال : وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحندر الذي فضل على الزجالين
في فتح ميثورة بالزجل المشهور الذي أوله :

من يعاند التوحيد بالسيف يحق أنا بري ممن يعاند الحق

قال ابن سعيد : لقيته ولقيت تلميذه البعبع^٢ صاحب الزجل المشهور الذي
أولُه :

ليتني إن ريت حبيبي أقتل أذنو بالرسيل
لش أخذ عتق الغزيرل وسرق فم الحجيل

١ اسمه أحمد بن الحاج ، وكان في دولة بني عبد المؤمن ، وهو شيخ الزجالين بعد ابن قزمان (المغرب
٢ : ٢١٤) وقد أورد له ابن سعيد (٢ : ٢٢٠) زجلين وله في العاقل الحالي أزجال (١٨ -
٢٥) وأخرى منقولة عن سفينة ابن مباركشاه (العاقل ٢٠٤ - ٢١٤) وانظر النفع ٣ : ٣٨٥ .
٢ ق : اليعبع .

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك إمام الآداب ، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع ، فمن محاسنه في هذه الطريقة :

امزج الأكواس° واملاي نَجَدَد° ما خُلِقَ المال° إلا أن يُبَدَد°

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو منحى الششثري منهم :

بين طلوع° وبين نزول° اختَلَطَت° الغزول°
ومضى من لَمْ° يَكُنْ° وبقي مَنْ° لم يزول°

ومن محاسنه أيضاً قوله في ذلك المعنى :

البعْدُ عَتَكَ يا ابني أعظم° مصايبي° وحين حَصَلَ° لي قربك سَيَّبْتَ أقاربي°

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون ، وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا المقصد ، ولم° أَرِدْ إيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلق الغرض به ، وفيما ذكرته منه كفاية لتعلقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى ، وشهادته له أنه شاعر الإسلام غير مدافع ، وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشحية .

[ترجمة ابن باجة من القلائد]

وأبو بكر بن باجة° الذي أشار إليه ابن خلدون : هو أبو بكر ابن الصائغ الشَّجَبِي السَّرْقُسْطِي ، الذي قال في حقّه لسان الدين في « الإحاطة » : إنه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس ، وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب « القلائد » معاداة فلذلك هجاه في القلائد ، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصّه ١ : الأديب أبو بكر ابن الصائغ ، هو رَمَدُ عَيْنٍ ٢ الدين ، وكمَدُ نفوس

١ القلائد : ٣٠٠ - ٣٠٦ . ٢ القلائد : جفن .

المهتدين ، اشتهر سُخْفاً وجنوناً ، وهَجَرَ مفروضاً ومسنوناً ، فما يتشرع ، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع ، ناهيك من رجل ما تطهرَ من جنابة ، ولا أظهرَ مَخِيلَةَ إنابة ، ولا استنجى من حَدَثٍ ، ولا أشجى فؤاده بتوارٍ في جَدَثٍ ، ولا أقرَ بباريه ومصوره ، ولا قرَّ عن تباريه في ميدان تهوِّره ، الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده أهدى من الإنسان ، نظر في تلك التعاليم ، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذه وراء ظهره ثانيَ عِظْفِهِ ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على المهيئة ، وأنكر أن تكون لهُ إلى الله تعالى فيئثة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترم على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهي والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (القصر : ٨٥) فهو يعتقد أن الزمان دَوْرٌ ، وأن الإنسان نبات أو تَوْرٌ ، حِمَامَه تمامه ، واختطافه قِطَافَه ، قد محي الإيمان من قلبه فما له فيه رَمَمٌ ، ونسي الرحمن لسانه فما يمرّ له عليه اسم ، وانتمت نفسه إلى الضلال وانتسبت ، ونفت ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (غافر : ١٧) ، فقصر عمره على طَرْبٍ ولهو ، واستشعر كلَّ كبرٍ وزهو ، وأقام سوق المويستقى ، وهام بحادي القطار وسقًا ، فهو يعكف على سماع التلاحين ، ويقف عليه كل حين ، ويعلن بذلك الاعتقاد ، ولا يؤمن بشيء قادنا إلى الله تعالى في أسلس مقاد ، مع منشأ وخيم ، ولؤم أصل وخيم ، وصورة شوهاها الله تعالى وقبحها ، وطلعة إذا أبصرها الكلب نبحتها ، وقنارة يؤذي البلاد نفسها ، ووضارة يحكي الحداد دتسها ، وفند لا يعمر إلا كنفه ، ولدد لا يقوم إلا الصَّعادُ جَنَفَه ، وله نظم أجاد فيه بعض إجادة ، وشارف الإحسان أو كاده ،

فمن ذلك ما قاله في عبد حبشي كان يهواه ، فاشتمل عليه أسراً سَعَرَ حَشَاهُ ،
ونقله إلى حيث لم يعلم مَشَوَاهُ ، فقال :

يا شاتقي حيثُ لا أسطيعُ أدركهُ ولا أقولُ غداً أغدو فألقاهُ
أما النهارُ فليلي ضمَّ شملته على الصِّباحِ فأولاهُ كأخراهُ
أغرَّ نفسي بآمالٍ مزوَّرةٍ مِنها لقاؤكَ - والأيامُ تأباهُ
وله فيه لما بلغه موته ، وتحقق عنده فَوْتُهُ :

ألا يا رزقُ والأقدارُ تجري بما شاءت نِشأ أو لا نشأ
هل أنتَ مطارحي شجوي فتدري وأدري كيفَ يحتمل القضاء
يقولون الأمورُ تكونُ دوراً وهذا فقدته فمتى اللقاء

وله في الأمير أبي بكر ابن إبراهيم قدس الله تعالى تربته ، وآنس غربته ،
مدائح انتظمت بلبّات الأوان ، ونظمت على كل شتيت من الإحسان ، فمن
ذلك قوله :

توضَّحَ في الدجى طرفٌ ضريبُ سنّاً بلوى الصريمةِ يستطيرُ
فيا بأبي ولم أبذل يسيراً وإن لم يكفهم ذاك الكثيرُ
بريقٌ لا تقلُّ هو ثغرُ سلمى فتأثمُ ، إنّه حُوبٌ وزورُ
فكيفَ وما أطلَّ الليلُ منه ولا عبت بساحته الخمرُ
تراعى بالسدير فزاد قلبي من البرحاء ما شاء السديرُ
فلولا أنَّ يومَ الحشرِ يقضي عليَّ بحكمِ مولى لا يجرُ
دعوتُ على المشقَّر أن يجازي بما تجزى به الدار الغرورُ

ومنها :

لقد وسع الزمان عليه عدوى وضرَّ بِسِبْلِهِ اللَّيْثُ الهَصُورُ
وقلتنا الزمان فلا بَطُون تضمنتِ الوفاء ولا ظهور
سوى ذكرٍ أطارحه فلولا الـ أميرٌ لقد عفا لولا الأمير
همامٌ جوده يصفُ السَّواري وسطوته يُعَيِّرُهَا الهجير
وقلنا نحن كيفَ وراحته بحورٌ يلتظي فيها سعي
فهَلْ فيما سمعت بهِ خصام يكون الحصم فيه هو العذير

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه المائة ويراها ، ويجودُ أبداً ثراها ،
فلماً ولي الثغر والشرق لم يغفله من رَعِي ، ولم يَكِلْهُ^١ إلى شفاعة وسَعِي ،
وحمله على ما كان يعتقد فيه من المقت ، واستعمله على ما كان يقتضيه خُلُقُ
الوقت ، من إقامة الوعد^٢ ، وتسويغه كل نعيم رَغْد ، وتغليب حجة داحضة ،
وإنهاض عثرة غير ناهضة ، فتقلد وزارته ودولته تزهى منه بأندى من الوَسْمِي
المبتكر ، وأهدى من النجم في الليل المعتكر ، وألويته تيمسُ زهواً ميسَ الفتاة ،
ورعيته تبتهج بملكه ابتهاج حبيي بابن المومة^٣ ، ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها ،
وكتائبه لا يكاد العدو يعشرها ، فجاش إليه وانبرى ، وراش في تنكيلهم وبرى ،
وأقطعهم ما شاء من مُقَابجته ، وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتيحه ، فوغرتُ

١ القلائد : لم يغفلها . . . ولم يكلها ؛ والضمير عائد على « المائة » .

٢ القلائد : من إقامة كل وغد . ق : من إقامة وعد .

٣ كذا ؛ وفي القلائد : ابتهاج جابر بعهد البوابة ، وفي النصين خطأ في اسم العلم ، أما البوابة
والمومة فيدلان على شيء واحد هو الأرض المتسمة ؛ وأرى أن الإشارة إلى من اسمه « جرير » وهو
المشهور باسم « المتلمس » إذ يقول في ذكر البوابة :

لن تسلكي سبل البوابة منجدة ما عاش عمرو وما عمرت قابوس
والبوابة هنا ثنية في طريق نجد .

صلورهم السليمة ، واعتلت صحة ضمائرهم بنفوسهم الأليمة ، ولم يزل يأخذ في الإضرار بهم ولا يدع ، ويعلن به ويصدع ، حتى تفرق ذلك الجمع ، وألقاه بين بصر السباب والسمع ، وأفرد الدولة من ولاتها ، وجردّها من حماتها ، فاستعجل العدو بذلك واستشري ، وزأر منه على سرقسطة ليث شري ، ولما رأى الشرقد ثار قتامه ، وبدا من ليله إعتامه ، ارتحل واحتمل ، وقال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل ، وأقام ببلنسية يشفي نفسه ، ويستوفي أنسه ، ونجوم سعدّها كل يوم غائرة ، والعدو يتربص بها أسوأ دائرة ، ويروم منازلها ثم يدع الاقتحام ، ويريد التقدم إليها فيؤثر الإحجام ، تهيأ لذلك الملك السري ، والليث الجري ، وفي خلال هذه المحاولة ، وأثناء تلك المظالمة ، عاجل الأمير أبا بكر حمامه ، واستسرّ فيها تمامه ، وأجته الثرى ، وحاز منه بدر دجئة وليث شري ، فعطلت الدنيا من علاء وجود ، وأطكت عليها بقلده حوادث أجذبت تهاونها والنجود ، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجماً ، ويبيت به الأمى لسامعه ضجياً :

أيتها الملك قد لعصري نعى المج د نواعيك يوم قمنا
 كم تقارعت والخطوب إلى أن غادرتك الخطوب في الرب رهنا
 غير أنني إذا ذكرتك والدهم سر إخال اليقين في ذاك ظناً
 وسألنا متى اللقاء فقبل ال حشر قلنا : صبراً إليه وحزناً

وكثيراً ما يُغير هذا الرجل على معاني الشعراء ، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعراء ، ويأخذها من أربابها أخذ غاصب ، ويعوضهم منها كل هم ناصب ، فهذا مما أظال به كد أبي العلاء وغمه ، فإنه أخذه من قوله يرثي أمه ٢ :

١ يريد أنه كان بدأ كاملاً فأصابه السرار .

٢ شروح السقط : ١٤٦٠ ، ١٤٦٨ .

فيا ركب المنونِ ألا رسولٌ يبلِّغُ روحَهَا أَرْجَ السلامِ
سألتُ متى اللقاءَ فقليلَ حتى يقومَ الهامدونَ من الرِّجامِ

ولما فانت سرقسطة من يد الإسلام ، وباتت نفوس المسلمين فرقا منهم في يد الاستسلام ، ارتاب بقبح أفعاله ، وبريء من احتذائه بتلك الآراء وانتعاله ، وأخافه ذنبه ، ونبا عن مضجع الأمن جنبيه ، فكراً إلى الغرب ليتوارى في نواحيه ، ولا يترأى لعين لائمه ولاحيه ، فلما وصل شاطبة حضرة الأمير لإبراهيم بن يوسف بن تاشفين وجدَّ باب نفاذه وهو مبهم ، وعاقه عنه مدلول عليه ملهم ، فاعتقله اعتقالاً شفى الدين من آلامه ، وشهد له بعقيدة إسلامه ، وفي ذلك يقول ، وهو معقول ، ويصرح بمذهبه الفاسد ، وغرضه المستاسد :

خَقَّضْ عَلَيْكَ فَمَا الزَّمَانُ وَرِيئُهُ شَيْءٌ يَدُومُ وَلَا الْحَيَاةُ تَدُومُ
وَأَذْهَبُ بِنَفْسٍ لَمْ تَضَعْ لِتَحْلُهَا حَيْثُ احْتَلَّتْ بِهَا وَأَنْتَ عَلِيمُ
يَا صَاحِبِي لَفْظًا وَمَعْنَى خَلْتَهُ مِنْ قَبْلِ حَتَّى بَيْنَ التَّقْسِيمِ
دَعْ عَنكَ مِنْ مَعْنَى الْإِحْيَاءِ ثَقِيلَهُ وَانْبِذْ بِذَاكَ الْعَبَاءَ وَهُوَ ذَمِيمُ
وَاسْمَحْ وَطَارِحِي الْحَدِيثَ فَإِنَّهُ لَيْلٌ كَأَحْدَاثِ الزَّمَانِ بِيَمِ
خَذَنِي عَلَى أَثَرِ الزَّمَانِ فَقَدْ مَضَى بُوْسٌ عَسَى أُنْسَاءَهُ وَنَعِيمُ
فَعَسَى أَرَى ذَاكَ النِّعِيمَ وَرَبَّهُ مَرِحٌ وَرَبُّ الْبُوْسِ وَهُوَ سَقِيمُ
هِيَاهُ سَاوَتْ بَيْنَهُمْ أَجْدَانَهُمْ وَتَشَابَهَ الْمَحْسُودُ وَالْمَحْرُومُ

ولما خلاص من تلك الحباله ونجا ، وأثار من سلامته ما كان دجا ، احتال في إخفاء ماله ، واستيفاء أماله ، فأظهر الوفاء للأمير أبي بكر بالثناء له والتأبين ، وتداهيه في ذلك واضح مستبين ، فإنه وصل بهذه التزعة من الحماية إلى حرم ،

وحصل في ذمة ذلك الكرم ، واشتمل بالرعي ، وأمن من كل سعي ، فاقتنى
 قياناً ، ولقنهن أعاريض من القريض وركب عليها ألحاناً أشجى من النوح ،
 ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبسوح ، فسلك بها أبداع مسلك ، وأطلعها
 نيرات ما لها غير القلوب من فللك ، فمن ذلك قوله :

إنَّ غراباً جرى بيئتهمُ جاوبه بالثنية الصردُ
 طاروا فيها أنت بعدهم جسدُ قد فارق الروح ذلك الجسدُ
 واكتموا صُبحه بينهمُ فبئس والله ما الذي اعتمدوا

وكفوله :

سلامٌ وإمامٌ ووسميّ مزنةٌ على الحدّثِ النَّائي الذي لا أزورهُ
 أحقّاً أبو بكرٍ تقضى فلا يرى تردُّ جماهيرَ الوفود ستوره
 لئن أنست تلك القبورُ بلحده لقد أوحشت أنصاره وقصوره

ومن قلّة عقله ونزارته ، أنه في مدة وزارته ، سقر بين الأمير أبي بكر
 رحمه الله تعالى وبين عماد الدولة بن هود رحمه الله تعالى بعد سعايات عليه أسلفها ،
 وذخائر كانت له على يديه ألقها ، فوافاه أوغر ما كان عليه صدراً ، وأصغر
 ما كان لديه قدراً ، قال به ذلك الانتقال ، إلى الاعتقال ، فأقام فيه شهوراً
 يغازله الحمام بمقلة شواه ، وتنازله الأوهام بفطرته الورهاء ، وفي ذلك يقول :

لعلك يا يزيد علمت حالي فتعلم أيّ خطبٍ قد لقيتُ
 وإني إن بقيتُ بمثل ما بي فمن عجب الليالي أن بقيتُ
 يقولُ الشامتون شقاءً بحتُ لعمرو الشامتين لقد شقيتُ
 عندهم الأمان من الليالي وسالمهم بها الزمن المقيتُ
 وما يدرون أنهم سيسقوا على كره بكأسٍ قد سقيتُ

وعزم عماد الدولة يوماً على قتله ، وألزم المرقبين به التحيلَ على ختله ،
فمني إليه الأمر الوعر ، وارتمى به في بلج اليأس الذعر ، فقال :

أقولُ لنفسي حينَ قابلها الردى فراغتُ فراراً منه يُسرَى إلى يمني
قيرى تحمدي بعضَ الذي تكرهينه فقدَ طالما اعتدتِ الفرار إلى الأهنا

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره ، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره ،
ويمهل الفاجر حكمةً من الله تعالى وعلماً و﴿ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُم لِيُزَادُوا إِثْمًا ﴾
(آل عمران : ١٧٨) ؛ انتهى نص القلائد .

[ثناء الفتح على ابن باجة]

وأين هذا من تحليته له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته : نور فهم ساطع ،
وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرجت
من طيب ذكره الأمصار ، وقام أوانُ المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فتناً
وتهدل ، وعطل بالبرهان التقليد ، وحقق بعد عدمه الاختراع والتوليد ،
إذا قدح زندُ فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل
شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبُعد الفساد من كونها ، والتحقيق ،
الذي هو للإيمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يودُّ
عطارده أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشتري أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبآت
والنحور ، وتداعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، وقد أثبت منه ما تهوى الأعين
النَّجْلُ أن يكون إثمها ، ويزيل من النفوس حزنها وكملها ، فمن ذلك قوله
يتنزل :

أَسْكَنَ نَعْمَانَ الْأَرَكَ تَيَقَّنُوا بِأَنْكُمُ فِي رَيْعِ قَلْبِي سَكَّانُ

ودوموا على حفظِ الودادِ فطالما
 سلوا الليلَ عني إذ تناءتْ دياركم
 وهل جرّدتْ أسيافُ برقِ سمائكم
 بلينا بأقوامٍ إذا استَحفظوا خانوا
 هل اكتحلّتْ لي فيه بالنومِ أجفان
 فكانتْ لها إلا جفونيَ أجفان
 وله :

أتأذنُ لي آتي العَقيقَ اليمانيَا
 وهَلْ داركم بالخزنِ قفراءِ إنتي
 فيا مَكْرَعِ الوادي أما فيكِ شَرْبَةٌ
 ويا شجراتِ الجزعِ هل فيكِ وقفةٌ
 أسائلُهُ ما للمعالي وما ليا
 تركتُ الهوى يقتاد فضل زاميا
 لقد سالَ فيكِ الماءَ أزرقَ صافيا
 وقد فاء فيكِ الظلُّ أخضرَ ضافيا

وأورد له في «المطمح» أنه استأذن على المستعين بالله ، فوجده محجوباً، فقال :

مَنْ مَبْلُغٌ خَيْرَ إِمَامٍ نَشَا
 قَوْلَ امرئِ لَوْ قاله للصفَا
 عبدكَ بالبَابِ له خجَلَةٌ
 لَوْ أَنَّهَا بالزَجْسِ أَحْمَرًا
 ذا عِزَةٍ وسامياً قَدَرًا
 أنبتَ فيه ورقاً خضراً

وحكي غير واحد أنه مات له سَكَنٌ كان يَهْوَاهُ ، فبات مع بعض أصحابه
 عند ضريحه ومثواه ، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل ،
 فزور في نفسه بيتين في خطاب القمر أتقنهما ولحنهما ، حتى إذا كان قبيل وقت
 الكسوف بقليل تغنى فيهما بذلك الصوت المشجي ، واللحن يسوق الشوق
 ويُرْجِي ، وهما :

شقيقك غيَّب في لحدِه
 فهلاً كسفت فكان الكسوفُ
 وتُشرقُ يا بدرُ من بعدِه
 حداداً لبست على فقدِه

فكسف القمر في الحال ، وعُدَّتْ هذه من نوادره التي جيدُ الأخبار بفرائدها
 حال ، سامحه الله تعالى .

ثم رأيت في « الإحاطة »^١ نسبة ذلك لغيره ونصه : محمد بن أحمد بن الحداد ، الوادي آشي ، يكنى أبا عبد الله .

حاله - شاعر مفلح ، وأديب شهير ، مشار إليه في التعاليم ، منقطع القرين منها في الموسيقى ، مضطلع بفك المعتمى ، سكن المرية ، واشتهر بمدح رؤسائها من بني صُمادح ، وقال ابن بسّام : كان أبو عبد الله هذا شمس ظهيرة ، وبحر خبر وسيرة ، وديوان تعاليم مشهورة ، وضح في طريق المعارف وضوح الصبح المهلّل ، وضرب فيها بقدرح ابن مُقبِل^٢ ، إلى جلالته مقطع ، وأصالة منزع ، ترى العلم يتم على أشعاره ، ويبين في منازعه وآثاره .

تأليفه - ديوان شعره كبير معروف ، وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية .

بعض أخباره - حدثت بعض المؤرخين مما يدل على ظرفه أنه فقد سكناً عزيزاً عليه ، وأحوجت الحاجة إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء ، وكان قد رصد الحسوف القمري ، فلما حقق أنه ابتداء أخذ العود وغنى « شقيقك غيب - إلى آخره » وجعل يرددّها ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك إلا واعترضه الحسوف ، وعظم من الحاضرين التعجب .

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره : وقال^٣ :

أقبلن في الخبرات يقصرن الخطا ويرين في حُللِ الوراشين القطا
سرب الجوى لا الجوى عود حسنه أن يرتعي حبّ القلوب ويلقطا

١ الإحاطة ٢ : ٢٥٠ .

٢ ينسب القدرح إلى الشاعر ابن مقبل لأنه أجاد وصفه (ديوانه : ٢٨ - ٢٩) .

٣ لم ترد هذه القصيدة في الإحاطة ، وهي في الذخيرة ٢/١ : ٢١٩ .

٤ الوراشين : جمع ورشان وهو من الطيور المفردة .

مالت معافهنّ من سكر الصبا
وبسقط العلمين أوضح معلّم
ميالاً يخيفُ قدودها أن تسقطا
لمهفهف سكن الحشا والمسقطا
ما أخجلَ البدر المنير إذا مشى
يختالُ والغصن^١ النضير إذا خطا
ومنها في المدح :

يا وافردي شرق البلادِ وغربها
ورأيتما ملكَ البريةِ فاهناً^٢
أكرمتما خيلَ الوفادةِ فاربطا
ووردتما أرضَ المريّةِ فاخططا
يدي^٣ نحوور الدارين إذا ارتأى
ويذلُّ عزّ العالمين إذا سطا

انتهى المقصود منه ، وأورد له في الإحاطة قصيدة ثانية أوطا :

حديثك ما أحلى ، فزيدي وحديثي

وهي طويلة .

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورته : سمعتها من لفظ شيخي أبي جعفر
ابن خاتمة بالمريّة في سنة خمس وستين وسبعمائة ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .

رجع إلى أخبار ابن الصائغ ، ومن نظمه قوله :

ضربوا القباب على أقاحي روضة
وتركتُ قلبي سارٍ بين حموهم
خطرَ النسيمُ بها ففاح عيرا
دامي الكلوم يسوقُ تلك العيرا
هان يُفكُّ ولو سألت غيورا
لهم وصاغ الأقحوان ثغورا
إلا شهقتُ له فعاد سعيرا
ما مرّ بي ريح الصبا من بعدهم
لا والذي جعل الغصونَ معافقاً

١ الذخيرة : والحوط ، ق : والحود .

٢ الذخيرة : قاطباً .

٣ الذخيرة : يرمي .

وتوفي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة ٥٢٣ ، وقيل : سنة خمس وعشرين ، مسموماً في بادنجان بمدينة فاس ، وهو تُجِيبي بضم التاء وفتحها ، وباجة : بالباء الموحدة ، وبعد الألف جيم مشددة ، ثم هاء ساكنة ، وهي القصة بلغة الفرنج ، وسَرَفُسْطَة - بفتح السين والراء وضم القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة - مدينة كبيرة بالأندلس ، استولى عليها العدو سنة ٥١٢ .

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة »^١ إن ابن الصائغ كان عالماً فاضلاً ، له تصانيف في الرياضات والمنطق ، وإنه وَزَرَ لأبي بكر الصحراوي صاحب سَرَفُسْطَة ، ووزر أيضاً ليحيى بن يوسف ابن تاشفين عشرين سنة بالمغرب ، وإن سيرته كانت حسنة ، فصلحت به الأحوال ، ونجحت على يديه الآمال ، فحسده الأطباء والكتّاب وغيرهم ، وكادوه ، فقتلوه مسموماً ؛ انتهى .

وأُشِدُّ لَهُ بَعْضُهُمْ :

همُ رحلوا يومَ الخميسِ عشيّةً فودّعَهمُ لما استقلّوا وودعوا
ولمّا تولّوا ولتِ النفسُ مَعَهُمْ فقلتُ: ارجعي قِالتِ: إلى أين أرجع
إلى جَسَدٍ ما فيه لحمٌ ولا دمٌ وما هوَ إلا أعظمُ تنقعق
وعينين قد أعماهما كثرةُ البُكا وأذنٍ عَصَتِ عُدَّأها ليس تسمع

وقد ذكر بعضهم في تعزيز بيتي الحريري : أنه لابن الصائغ الأندلسي ، وليس هو بهذا فيما أعلم :

انقدَّ مَهوى أزرِهِ فانثى مَهَ يا عدولِي في الذي انقدَّ مَهَ
مندمةٌ قَتَلُ المعنى فلا ترسلُ سهامَ اللَظِّ تَأْمَنُ دَمَهَ

١ هو تاريخ كبير مرتب على حسب السنين انتهى فيه إلى سنة ٧٢٤ ؛ وتوفي ركن الدين بيبرس المنصوري الدواداري سنة ٧٢٥ .

[ترجمة الفتح عن الإحاطة]

رجع إلى ابن باجة - وقد ذكر لسان الدين في « الإحاطة » سبب العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة الفتح ولذا كررها بنصه فنقول^١ : قال رحمه الله تعالى :
الفتح بن محمد بن عبيد الله ، الكاتب ، من قرية تُعرف بقلعة الواد^٢ من قرى
يَحْصُب ، يكنى أبا نصر ، ويُعرف بابن خاقان .

حاله - كان آية من آيات البلاغة لا يُشَقَّ غُبَارُه ، ولا يُدْرِك شأوه ، عذب
الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعباً بأطراف الكلام ، معجزاً في باب
الحلى والصفات ، إلا أنه كان محارفاً مقدوراً عليه ، لا يمل من المعاقرة والقصف ،
حتى هان قدرُه ، وابتذلت نفسه وساء ذكره ، ولم يدع بلداً من بلاد الأندلس
إلا ودخله مسترفداً أميره واغلاً في عليته ، قال الأستاذ في « الصلة » : وكان
معاصراً للكاتب أبي عبد الله ابن أبي الحصال ، إلا أن بطالته أخذت به عن
مرتبته . وقال ابن عبد الملك^٣ : قصد يوماً إلى مجلس قضاء أبي الفضل عياض
مخمرأ ، فتنسم بعضُ حاضري المجلس رائحة الخمر ، فأعلم القاضي بذلك ،
فاستثبت^٤ وحدَه حدّاً تاماً ، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الحد بشمانية دنانير
وعمامة ، فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه : عزمت على إسقاط القاضي أبي
الفضل من كتابي الموسوم بـ « قلائد العقيان » ، قال : فقلت : لا تفعل ، وهي
نصيحة ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقلت له : قصتك معه من الجائر أن تُنسى ،
وأنت تريد أن تركها مؤرخة ، إذ كل من ينظر في كتابك يجده قد ذكرت

١ الإحاطة ، الورقة : ٣٥٣ .

٢ الإحاطة : بصخرة الولد ، وهامش إحدى نسخ الذيل والتكملة : من قرية شرقي قلعة يحصب تعرف
بشجرة الولد . ق : بقرية الواد .

٣ قلت انظر الذيل والتكملة ٥ : ٥٣٠ .

٤ الذيل : فاستثبت في استنكاهه ؛ وفي الإحاطة : فاستتابه .

فيه مَنْ هو مثله ودونه في العلم والصيت ، فيسأل عن ذلك ، فيقال له ،
فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغر ، قال : فتبين ذلك ، وعلم صحته وأقر
اسمه .

وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقه على ابن باجة أبي بكرٍ آخِرِ فلاسفة
الإسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائته به وتكذيبه إيّاه في مجلس إقرائه ،
إذ جعل يُكثِرُ ذكر ما وصله به أمراء الأندلس ووصف حلياً ، وكان يبدو من
أنفه فضلة خضراء اللون - زعموا - فقال له : فمن تلك الجواهر إذن الزمردة
التي على شاربك ؟ فثلبه في كتابه بما هو معروف ، وعلى ذلك فأبو نصر نسيحُ
وَحَدِّه ، غفر الله تعالى له .

مشيخته - روي عن أبي بكر : ابن سليمان بن القصيرة وابن عيسى ابن
اللبانة ، وأبي جعفر ابن سعدون الكاتب ، وأبي الحسن ابن سراج ، وأبي خالد ابن
بشتغير ، وأبي الطيب ابن زرقون ، وأبي عبد الله ابن خلصة الكاتب ، وأبي عبد
الرحمن ابن طاهر ، وأبي عامر ابن سرور ، وأبي محمد ابن عبدون ، وأبي الوليد
ابن حجاج ، وابن دريد الكاتب .

تواليفه - ومصنفاته شهيرة : منها « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس »
والمطمح أيضاً ، وترسيه مدون ، وشعرة وسط ، وكتابته فائقة .

شعره - من شعره قوله ، وثبت في قلائده ، يخاطب أبا يحيى ابن الحاج :

أكعبة علياء وهضبة سنودد وروضة مجد بالمفاخر تُمطرُ
هنيئاً لملك زار أفقك نوره وفي صفحته من مضائك أسطرُ
ولتي خلفاق الجناحين كلما سرى لك ذكر أو نسيم معطرُ
وقد كان واش هاجنا لتهاجر فبت وأحشائي جوى تنفطرُ

١ انظر أيضاً القلائد : ١٨٠ والمطرب : ١٨٩ .

فهل لك في ودِّ ذَوِي لكَ ظاهراً وباطنه يَتَدَى صفاءً ويقطرُ
ولست بعلقٍ بيعٍ بخساً وإنَّني لأرْفَعُ أَعْلَاقِ الزَّمانِ وأُخْطِرُ
فروجع عنه بما ثبت أيضاً في قلائده مما أوَّله :

ثبتَ أبا نصرٍ عَناني ، وربما ثنتُ عزيمةَ السهمِ المصممِ أسطُرُ

نثره - ونثره شهير ، ونثبت له من غير المتعارف من السلطانيات ظهيراً كتبه
عن بعض الأمراء لصاحب الشَّرْط ، ولا خفاء بإدلاله وبراعته : كتاب تأكيد
اعتناء ، وتقليد ذي منة وغنائه ، أمر بإنفاذه فلان ، أيده الله تعالى ، لفلان
ابن فلان ، صانه الله تعالى ، ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها ، ويَضْرَحُ^١
ما تكاثف من العدوَّ وأن في جنباتها ، تنويهاً أحظاه بعلائه ، وكساه رائق ملاءه ،
لما علمه من سنائه ، وتوسمته من غنائه ، ورجاه من حسن منابه ، وتحققه من
طهارة ساحته وجنابه ، وتيقن - أيده الله تعالى - أنه مستحق لما ولاه ، مستقل^٢
بما تولاه ، لا يعتربه الكسَل^٣ ، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسل ، ولم
يَكِل الأمرَ منه إلى وَاكِل ، ولا ناطهُ بمناط عجز ولا فِشَل ، وأمره أن يراقب
الله تعالى في أوامره ونواهيهِ ، وليعلم أنه زاجرُهُ عن الجور وناهيه ، وسائله عما
حكّم به وقضاه ، وأنفذه وأمضاه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ
يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار : ١٩) فليتقدم إلى ذلك بجزم لا يحمّد توقّده ، وعزم
لا ينفد تفقّده ، ونفس مع الخير ذاهبة ، وعلى متن البر والتقوى راكبة ، ويقدم
للاحتراس من عرف اجتهاده ، وعلم أرقه في البحث وسهاده ، وحمّدت
أعماله ، وأمن تفريطه وإهماله ، ويضم إليهم من يحدو حلومهم ، ويقفو شأومهم ،

١ يضرح : يزيل وينسل ؛ وفي ق : ويصوح .

٢ مستقل : حامل العبء ؛ وفي الإحاطة : مشتتل .

٣ الإحاطة : الكلل .

ممن لا يستراب بمناحيه ، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه ، وأن يُدْهِكِي
العيون على الجنّاة ، وينفي عنها لذيذ السنّات ، ويفحص عن مكامنهم ، حتى
يفحص بالريق^١ نفس آمنهم ، فلا يستقر بهم موضع ، ولا يفر منهم خب ولا
مُوضِع ، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه ، وبث السؤال في مواضع
تصرفه ومواطنه ، فإن لاحت شبهة أبدأها الكشف والاستبراء ، وتعدّأها البغي
والافتراء ، نكّله بالعقوبة أشدّ نكال ، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال ،
بعد أن يبلغ إناه ، ويقف في طرفه مداه ، وحدّ له أن لا يكشف بشرة إلا في حد
يتعين ، وإن جاءه فاسق أن يتبين ، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور ، وأن
لا يسمع من مكشوف في مستور ، وأن يسلك السنّ المحمود ، ويتزه عقوبته من
الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود ، وإذا انتهت إليه قصّة مشكلة أخرها إلى
غده ، فهو على العقاب أقدر منه على رده ، فقد يتبين في وقت ما لا يتبين في وقت ،
والمعالجة^٢ بالعقوبة من المقت ، وأن يتغمّد هفوات ، ذوي^٣ الهيئات ، وأن
يستشعر الإشفاق ، ويخلع التكبر فإنّه ملابس أهل النفاق ، وليحسن لعباد الله
تعالى اعتقاده ، ولا يرفض زمام العدل ولا مقّاده ، وأن يعاقب المجرم قدر
زلته ، ولا يعتر عند ذلّته ، وليعلم أن الشيطان أغواه ، وزين له مشوّاه ،
فليشفق من عثاره ، وسوء آثاره ، وليشكر الله تعالى على ما وهبه من العافية ،
وألبسه من ملابسها الضافية ، ويذكره جلّ وعلا في جميع أحواله ، ويفكر في
الحشر وأهواله ، ويتذكر وعداً ينجز فيه ووعيداً ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا
عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا﴾ (آل عمران : ٣٠) والأمير أيده الله تعالى ولي له ما عدل وأقسط ، وبرىء
منه إن جار وقسّط ، فمن قرأه فليقف عند حدّه ودرّسه ، وليعرف له حق

١ الإحاطة : ينهض بالروح .

٢ الإحاطة : والمجل .

٣ الإحاطة : أولي .

قطع الشرّ وحسّمه ، ومن وافقه من شريف أو مشروف ، وخالفه في نهي عن منكر أو أمر بمعروف ، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبآل خبّله ، ولا يجيق المكر السيء إلا بأهله ، وكتب في كذا .

وفاته - بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام تسعة^١ وعشرين وخمسائة ، ألفي قتيلاً ببيت من بيوت فندق أحد فنادقها ، وقد ذُبح وعُثب به ، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من قتله ؛ انتهى نص الإحاطة .

[ترجمة الفتح عن المغرب]

وقال في « المغرب » ما ملخصه^٢ : فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس : أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي ، صاحب « القلائد » و « المطمح » ، ذكره الحجاري في المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملة فرائده ، طلع من الأفق الإشبيلي شمساً طبّقَ الآفاق ضياؤها ، وعمّ الشرق والغرب سناها وسناؤها ، وكان في الأدب أرفعَ الأعلام ، وحسنه الأيام ، وله كتاب « قلائد العقيان » ومن وقف عليه لا يحتاج في التنبيه على قدره إلى زيادة بيان ، وهو وأبو الحسن ابن بسّام الشتمري مؤلف الذخيرة فارساً هذا الأوان ، وكلاهما قسّ وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناً في الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشّقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به ممّا عُرف من أجله بابن خاقان ، لكان أحدَ كتّاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولي على الرهان ، وإنّما أُخِلَّ به ما ذكرناه ، مع كونه اشتهر بدم

١ الإحاطة : سبعة .

٢ ترجمته في المغرب ١ : ٢٥٤ وبين ما أورده المقرئ وما جاء في المغرب اختلاف كبير ، هذا مع أن المقرئ يصرح بأنه يلخص .

أولي الأحساب ، والتمريرن بالطعن على الأدباء والكتّاب ، وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجة ، فوجد في فندق بحضرة مراکش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه ، وتركه مقتولاً وفي دبره وتد ، والله سبحانه يتغمده برحمته .

ومن شعره قوله من أبيات في المدح :

إلى أين ترفقي قد علوت على البدرِ وقد نلت غاياتِ السيادةِ والقدرِ
وجدّدت لي أن ليس يذُكرُ حاتمٌ وأغنيت أهل الجذبِ عن سبيلِ القطرِ
وكم رام أهلُ اللومِ باللومِ وقفهً وبحركَ مدًى لا يؤول إلى جزرِ
ولو لم يكن فيكَ السماحُ جيلةً لأثرَ ذلكَ اللومِ فيك مع الدهرِ

وذكره ابن الإمام في « سمط الجمان » وأنشد له :

لله ظبي من جنابك زارني يختالُ زهواً في ملاءِ مراحِ
ولي التماسك في هواه كأنه مروانُ خافَ كتائبَ السفاحِ
فخلعتُ صبري بالعرأ ونبذته وركبتُ وجدي في عنانِ جماحِ
أهدى لي الوردَ المضعفَ خدُهُ فقطفته باللحظِ دون جنّاحِ
وأردتُ صبراً عن هواه فلم أطقُ وأريتُ جيداً في خلالِ مزاحِ
وتركتُ قلبي للصبابة طائراً تهفؤُ به الأشواقِ دون جنّاحِ

وذكره ابن دحية في « المطرب » ونعته بـابن خاقان ، قال : والشيخ أبو الحجاج البياسي ينكر هذا ، وقيل : إنما قيل له ابن خاقان لما تقدم ذكره في كلام الحجاري ، وقال ابن دحية : إنه قُتل ذبحاً بمسكنه في فندق بيت من حضرة مراکش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين .

وقال أبو الحسن ابن سعيد : رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول افتتاحه في خطبة قلائده « الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا ، وشاد مثواه في أجننتنا » لكون ما تضمنته الفقرة الأولى أصوب مما تضمنته الفقرة الثانية ، والصواب ضد ذلك ؛ انتهى .

وقال ابن الأبار في « معجم أصحاب الصديقي »^١ : إنه لم يكن مرضياً ، وحذفه أولى من إثباته ؛ انتهى . ولذا لم يذكره في التكملة .

وقال ابن خاتمة : إنه لم يُعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب . وما حكاها في « الإحاطة » من تاريخ وفاته مخالف لما حكاها ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسائة ، قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به . وحكى ابن خلكان^٢ قولاً آخر أنه توفي سنة خمس وثلاثين وخمسائة ، قيل : وهو خطأ ، على أنه حكى القول الآخر أيضاً .

ودفن بباب الدباغين ، رحمه الله تعالى .

وقد قيل : إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أخي إبراهيم الذي ألف برسمه « قلائد العقيان » .

وقد ذكر ابن خلكان أن المطمح ثلاث نسخ : صغرى ، ووسطى ، وكبرى ، والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط : صغرى ، وكبرى ، ولعله الصواب ، إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ومن تأليف الفتح « راية المحاسن وغاية المحاسن » ومجموع في ترسيبه ، وتأليف صغير في ترجمة ابن السيد البَطْلَيْنِيُّ نَحْوِ الثَّلَاثَةِ كَرَارِيسَ عَلَى مَنَهِاجِ الْقَلَائِدِ^٣ .

١ انظر المعجم : ٣٠٠ (رقم : ٢٨٥) .

٢ وفيات الأعيان ٣ : ١٩٤ .

٣ هذا التأليف نقله المقرئ في أزهار الرياض ٣ : ١٠٣ - ١٤٩ ؛ وذكر ابن عبد الملك له مؤلفاً اسمه « حديقة المآثر » ولم أجده مذكوراً عند غيره .

١ - ومن بديع إنشاء الفتح المذكور ساعه الله تعالى قوله : أطال الله تعالى بقاء الوزير الأجل ، عتادي الأسرى ، وزنادي الأورى ، وأيامه أعياد ، وللسعد في زمانه انقياد ، أما أنا - أدام الله تعالى عزه - فجوي عاتم ، وأعيادي مآتم ، وصُبْحِي عِشاء ، وما لي إلاّ من الخطوب انشاء ، أبيت بين فؤاد خافق و طرف مُسَهَّد ، نائي المحلّة من مزار العود ، حين لا أرى الروض المنور ، ولا أحس سُهَيْلاً إذا لاح ثم تَهَوَّر^١ ، وقد بعدت دار إليّ حبيبة ، ودنت مني حوادثُ بأدناها تؤذّي الشيبة ، وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يرِمُّها ، حتى ألفه رِمُّها ، قد رمته النوائب فما اتقى ، وارتقت له الجوائح في وُعود المرتقى ، يُواصل النوى ولا يهجر سبراً ، ولا يزجر في الإراحة طيراً ، قد هام بالوطن ، هيام ابن طالب بالحوض والعطن ، وحنّ إلى تلك البقاع ، حنينه إلى أثلاث القاع^٢ ، ولا سبيل أن يشعب صدر بينه شاعب ، أو تكلمه أحجار للدار وملاعب ، وليس له إلى أين يجنح ، ولا يرى أمله يسّتح ، قد طوى البلاد وبسطها ، وتطرّف الأرض وتوسطها ، ولم يُلّف مقيلاً ، ولا وجد مقيلاً ، إلى الله أشكو ما أقاسي وأقاصي ، ويده الأقدام والنواصي ، ولقاؤه موعد كلّ موعد ، وكل معمر سيدركه يوماً حِمام الموعد ، وأنفذته وقد صدرتُ عن فلانة بعد أهوال لقيتها ، وأنكال سقيتها ، وسفر لقيت منه نصباً ، وكدر أعقبني وصباً ، وإلى متى يعتزني السعد؟ والله الأمر من قبل ومن بعد ؛ انتهى .

١ ق : تنور ، وصوابه « تغور » .

٢ يشير إلى يحيى بن طالب الحنفي حين اغترب عن وطنه اليمامة إلى العراق وانقر ، وهو يقول في الحنين إلى أثلاث القاع :

أيا أثلاث القاع من بطن توضح حنيني إلى أفيانكن طويل

وقد شرح ياقوت قصته في معجم البلدان (قرقرى) .

٢ - وكتب رحمه الله تعالى من رسالة : سيدي لا عدمت ارتفاقاً ، ولا حُرمتَ تكيفاً من السعد وانفاقاً ، أنا الآن مشتغلُ البال ، لا أفرق بين الإعراض والإقبال ، وعند تفرغي أوجه لك ما حضر ، ومثلك أرجأ الأمر ، وأنظر ، وفي علم الله تعالى لو أمكنتني حملتك على كاهل ، وأوردتك منه أعذب المناهل ، وأبحت لك السعد ثغراً ترشفه ، وخلعته برُداً عليك لتلحفه ، لكن الزمان لا يجد ، وصروفه لا تنجد ، وعلى أي حال فلا بد أن تجد قيراک ، وتحمد سُرّاک ، إن شاء الله تعالى .

٣ - وكتب إلى أبي بكر بن علي^١ عند ولايته لإشبيلية : أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجلّ أبي بكر للأرض يتملكها ، ويستدير بسعده فلکها ؛ استبشر الملك وحق له الاستبشار ، وأوماً إليه السعد في ذلك وأشار ، بما اتفق له من توليتك ، وحقق عليه من ألويتك ، فلقد حُبّي منك بملك أمضي من السهم المسدّد :

طويل نجاد السيف رَحْب المقلد

يُقدّم حيث يتأخر الذابل ، ويكرم إذا بخل الوابل ، ويحمي الحمى كربيعة ابن مُكدّم ، ويسقي الظبي نجيماً كلون العندّم ، فهنيئاً للأندلس لقد استردت عهد خلفائها ، واستمدت تلك الإمامة بعد عفائها ، حتى كان لم تمر أعاصرها ، ولم يمت حكمها ولا ناصرها ، اللذان عمرا الرُصافة والزّهرا ، ونكحا عقائل الروم وما بدلا إلا المشرفية مهراً ، والله تعالى أسأله انتصار أيامك ، وبه أرجو انتشار أعلامك ، حتى يكون عَصْرُكَ أعجب من عصرهم ، ونصْرُكَ أعزّ من

١ أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين أكبر أبناء علي وكان يعرف ببيكور (تصغير تحجب) ، نشأ في إشبيلية ، وكان مؤدبه أبو مروان ابن زهر ، وقد ولي أمر المدينة سنة ٥١٨ هـ وعزل عنها سنة ٥٢٢ هـ .

نصرهم ، والسلام ؛ انتهى .

٤ - وقال بعضهم : من أحسن ما رأيت له قوله : معاليك أشهر رُسوماً ، وأعطر نسيماً ، من أن يغرب شهاب مسعاهاً ، أو يجذب لرائد مرعاهاً ، فإن نيهتك فإنما نيهت عمراً^١ ، وإن استترتك فإنما أستنير قمرأً ، والأمير أيده الله تعالى أجل من أعتصم في ملكه ، وأنتظم في سلكه ، فإنه حسام بيد الملك ، طلاقته فيرنده ، وشهامته حده ، وقضيب ، في دوحة الشرف رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ، وقد توسمت نارك لعلّي أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس ، وعسى الأمل أن تعلقو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مصباحه ، فجرّد - أيديك الله تعالى - صارم عزم لا تفلّ غروبه ، واطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ؛ انتهى .

ولنذكر بعض كلامه في «المطمح» لغرابته في هذه البلاد الشرقية بخلاف «القلائد» فإنها موجودة بأيدي الناس فيه .

[نماذج من تراجم المطمح]

١ - قال رحمه الله تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي^٢ :
إمام اللغة والإعراب ، وكعبة الآداب ، أوضح منها كل إبهام ، وفضح دون الجهل بها محل الأوهام ، وكان أحد ذوي الإعجاز ، وأسعد أهل الاختصار والإيجاز ، نجّم والأندلس في إقبالها ، والأنفس أول تهتمّتها بالعلم واهتبالها ، فنفتت له عندهم البضاعة ، واتفقت على تفضيله الجماعة ، وأشاد الحكمم بذكره ، فأورى بذلك زناد فكره ، وله اختصار «العين» للخليل ، وهو معدوم

١ أخذه من قول يشار في مدح عمر بن العلاء :

إذا أيقظتك حروب العدا
ففيه لها عمراً ثم ثم

٢ المطمح : ٥٣ - ٥٥ .

النظير والمثل ، و « لحن العامة » و « طبقات النحويين » وكتاب « الواضح »
 وسواها من كل تأليف مُخجَل لمن أتى بعده فاضح ، وله شعر مصنوع ومطبوع ،
 كأنما يتفجر من خاطره يَنْبُوع ، وقد أثبت له منه ما يقترح ، ولا يطرح ،
 فمن ذلك قوله :

كيف بالدين القديم لك من أم تميم
 ولقد كان شفاءً من جوى القلب السقيم
 يشرقُ الحسنُ عليها في دجى الليلِ البهيم

وكتب مراجعاً :

أغرقتني في بحورِ فكري فكدتُ منها أهوتُ لَمَّا
 كلتني غامضاً عويصاً أُرجمُ فيه الظنونَ رجماً
 ما زلت أسرو السجوفَ عنه كأنتي كاشفُ لظلمنا
 أقربُ من ليله ، وأناى مستبصراً تارة وأعمى
 حتى بدا مشرقُ المحيا لما اعتلى طالعاً وتما
 لله من منطلقٍ وجيزٍ قد جلَّ قدرأ وجلَّ فهما
 أخلصتَ لله فيه قولاً سلّمتَ لله فيه حكماً
 إذ قلتَ قولَ امرئِ حكيمٍ مراقبٍ للإلهِ علماً
 اللهُ ربيُّ وليُّ نفسي في كل بوسٍ وكل نُعْمى

وكتب إلى أبي مسلم ابن فهد وكان كثير التكبر ، عظيم التجبر ، متغيراً^٢
 لسانه ، مقفراً من المعالم جنانه :

١ الطمح : غما .
 ٢ الطمح : متفراً .

أبا مسلم ، إنّ الفتي بفؤاده
وليس رواء المرء يغني قلامة
ومِقْوَالِه لا بالمراكب والتبسِ
إذا كان مقصوراً على قصر النفسِ
أبا مسلم طول القعود على الكرسي
وليس يفيدُ الحلم والعلم والحجى

واستدعاه الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع ، فأمرع من
آماله ما أمرع ، فلما طالت نَوَاه ، واستطلت عليه لَوَعَتُهُ وجَوَاه ، وحنَّ
إلى مستكنه بإشبيلية ومثواه ، استأذنه في اللحق بها فلوّمه ولّواه ، فكتب إلى
من كان يألفه ويهواه :

ويحك يا سلّم لا تُرَاعِي لا بدّ للبين من مساعٍ
لا تحسبني صبرتُ إلاّ كصبرٍ ميتٍ على التراعٍ
ما خلق الله من عذابٍ أشدّ من وقفة الوداعٍ
ما بينها والحمام فرقٌ إلا المناحات في النواعي
إن يفرق شملنا وشيكاً من بعد ما كان في اجتماعٍ
فكلُّ شملٍ إلى افتراقٍ وكلُّ شعبٍ إلى انصداعٍ
وكلُّ قربٍ إلى بعادٍ وكلُّ وصلٍ إلى انقطاعٍ

٢ - وقال - ساعه الله تعالى - بعد ترجمة السلطان بالمرية المعتصم بن صّمداح
ما نصّه : ابنه عز الدولة أبو مزوان عبد الله ^١ ، فتي الراح المعاقيرُ لدنانها ، المهتصر
لأغصان الفتوة وأفنانها ، المهجر لفلاة الأطباء والآرام ، المشهر في باب
الصّبابة والغرام ، نشأ في حجر أبيه نديم قهوة ، ومُدِّيم صبوة ، وخديم
شهوة ، لا يريم كاساً ، ولا يروم إلا اقتضاء وانتكاساً ، ما شهد قتلاً ولا
قتلاً ، ولا تقلد صارماً إلا مختالاً ، قد أمن منه جنانُ الجبان ، وعدت له غصون
البان ، وما زال مرتضعاً لأخلاف البطالة ، مقتطعاً ما شاء من إطالة ، متوغلاً

١ لم ترد هذه الترجمة في المطبع المطبوع .

في شباب الفتاك ، متغلغلاً في طريق الانتهاك ، إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيراً عندما بدت له وجوه الفتنة تُسْفِر ، ومعاهد الهدنة تُقْفِر ، مع أكامل أصحابهم نُفْصانه ، وذوي أديان جعلهم خُلْصانه ، يسمعون بواذر بَدَاذته ، وينظرون مناكر لذاذته ، قَالَت سَفْرته إلى الاعتقال ، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال ، فجاء كالمهر لا يعرف لجاماً ، وصار حبيسَ قوم لا يألونه استعجاماً ، وحين شالت نعامته ، وسالت عليه ظلامته ، كتب إلى أبيه :

أبعدَ السنا والمعالِي خمولُ وبعد ركوبِ المذاكي كِبُولُ
ومن بعد ما كنتُ حرّاً عزيزاً أنا اليومَ عبدٌ أسيرٌ ذليلُ
حللتُ رسولاً بغرناطة فحلَّ بها في خطبٍ جليلُ
وثُقِّفْتُ إذ جئتُها مرسلًا وقبلي كان يُعزُّ الرَسُولُ
فقدتُ المريّةَ أكرمَ بها فما للوصولِ إليها سَبِيلُ

فراجعه أبوه بقطعة منها :

عزيزٌ عليٌّ ونوحِي دليلُ على ما أقاسي ودمعي يسيلُ
وقطعتِ البيضُ أغمادها وشقتُ بنودٌ وناحتُ طبولُ
لئن كنتُ يعقوبَ في حزنه ويوسفَ أنتَ فصبرٌ جميلُ

ولم يزل يتحيل في تخلصه ، وأخذه من يد مُقْتَنِصه ، فسُرِقَ وحراسه منه بمكان السلك من النحر ، وطرق به على ثبج البحر ، فوافى المريّة ، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية ، فهنيء المعتصم بخلاصه ، وبقي مستقرّاً بعِراضِه ، إلى أن أخلوها ، ومضوا لطلبة ما نووها ، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذمة كانت بينهما وأواصر ، وأقام معه سمر لوه ، وأمير سهوه ، إلى أن انقرض أمدُه ، وطواه سروره لا كمدُه ، فلم يرَ إلا

خالعاً لعذاره ، طالعاً في ثنيات اغتراره ، غير مكثرت باتضاعه ، ولا منحرف
 عن ارتشاف الغيِّ وارتضاعه ، وبدامنه في هذه الحال ندى كاثراً به السحاب ،
 وظاهر بسببه الصَّحاب ، وتخدّم الأوطار ، وتقدم لذوي الرتب فيها والأخطار ،
 [تقدماً] حسن من ذكره ، وأولع الألسن بشكره ، فارتفع عنه الكدح ، وشفّع
 له في الذم ذلك المدح ، وكان نظمه بديع الوصف ، رفيع الرّصف ، وقد أثبت
 له ما يشهد بإجاده وإحسانه ، شهادة الروض بجود نيسانه .

أخبرني ابن القطان أنه سائر الأمير يحيى بن أبي بكر إلى طليطلة في جيوش
 فاضت سيلاً ، وخاضت المطايا قتامها ليلاً ، وكان ملكاً لم يُعقد على مثله
 لواء ، ولم يحتو على شبهه حواء^١ ، جمال مُحياً ، وكمال علياً ، وحسن شيم ،
 وبُعد همم ، أغنى العفاة ، وأحيا الرفات ، وألغى الأجواد ، وأنسى كعب
 ابن مامة وابن أبي دؤاد ، فلما شارف طليطلة وكشفها ، واشتفّ بلالتها
 وارتشفها ، وضرب بكنفها مضاربه ، وأجال بساحتها زنجه وأعاربه ، سقط
 أحدُ ألويته عن يد حامله ، وانكسر عند عامله ، فطائفة تفاعلت ، وطائفة تطيرت ،
 وفرقة ابتهجت ، وأخرى تغيرت ، فقال :

لَمْ يَنْكَسِرْ عَوْدُ اللَّوَاءِ لِطَيْرَةٍ يُخَشِي عَلَيْكَ بِهَا وَأَنْ تَتَأَوَّلَا
 لَكِنْ تَحَقَّقَ أَنَّهُ يَنْدُقُ فِي نَحْرِ الْعِدَا وَلَدَى الْوَعْيِ فَتَعَجَّلَا

وأخبرني أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبانة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه ،
 وقصر بوسه ، وكدر صفاءه ، وغدر وفاءه ، وطوى ميدان جوده ، وأذوى
 أفنان وجوده ، قوله^٢ :

يا ذا الذي هزّ أمداحي بحلبته وعزّه أن يهزّ المجد والكرما

١ الحواء : مضرب الأعراب .

٢ مر البيتان وجوابهما في النفع ج ٣ : ٣٩٦ .

واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذْ عَلَيْهِ لِأَيَّامِ الْمُنَى سَلَمَا
فَدَعَتْهُ دَوَاعِي النَّدَى ، وَأَوْلَعَتْهُ بِالْجَدَا فِي ذَلِكَ الْمَدَى ، فَتَحِيلُ فِي بَرِّ طَبْعِهِ ،
وَكُتِبَ مَعَهُ :

المجدُّ يُجْجَلُ مِنْ تَقْدِيكِ فِي زَمَنِ ثَنَاهُ عَنْ وَاجِبِ الْبِرِّ الَّذِي عَلِمَا
فَدُونُكَ التَّرَمِينَ مُصْنَفٍ مَوَدَّتِهِ حَتَّى يُوَفِّيكَ أَيَّامَ الْمُنَى سَلَمَا

٣ - ابنه الثاني : رفيع الدولة أبو يحيى ابن المعتصم :

من بيت^١ إماره ، والى السعد طوافه^٢ بها واعتماؤه ، عمرت أُنْدِيَتَهُ ،
ونشرت به رايات العزِّ وألويته ، إلى أن خوى كوكبهم ، وهوى مرقبهم ،
فتفرقوا أيادي سبأ ، وفرقوا من وقع الأسنَّة والظُّبِّي ، وفارقوا أرضاً كأرض
غَسَّان ، ووافقوا أياماً كيوم أهل اليمامة مع حَسَّان ، بعدما خامرت النفوس
مكارمهم مخامرة الرحيق ، وأمَّهُمُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ سَحِيقٍ ، وانتجعوا
انتجاع الأنواء ، واستطعموا في المحلِّ والأواء ، وصالوا بالدهر وسَطَوَا ،
وبين النهي والأمر فيه خَطَوَا ، ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح ، وضوء
ذلك المصباح ، وغصن تلك الدَّوْحَةِ ، ونسيم تلك النفحة ، لم يمتهن والدهر قد
بذله ، ولا ترك الانتصار والأمر قد خَدَلَهُ ، فالتحف بالصَّوْنِ وارتدى ، وراح
على الانقباض واغتندى ، فما تلقاه إلا سالكاً جَدَّاداً ، ولا تراه إلا لابساً سُوددَا ،
وله أدب كالروض المَجُودِ إذا أزهَر ، ونظم كزهر التهائم والنجود بل كالصبح
إذا أسفر واشتهر ، أوقفه على التسيب ، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب ، فمن ذلك
قوله^٣ :

١ المطمح : ثنية .

٢ المطمح : حبه .

٣ انظر أيضاً بعض هذه المقطعات في الحلة ١ : ٨٣ - ٨٤ .

ما لي وللبدر لم يسمح بزورته
إن كان ذلك لذنب ما شعرت به

وله أيضاً :

يا عابدَ الرحمنِ كم ليلة
إذ كنت كالغصنِ ثنته الصبأ

أرقنتني وجداً ولمْ تشعرِ
وصحن ذلك الخدَّ لم يشعرِ

وله أيضاً :

وأهيفَ لا يلوي على عتبِ عاتبِ
يحكم فينا أمره فنطيعه

ويقضي علينا بالظنونِ الكواذبِ
ونحسب منه الحكم ضربة لازبِ

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

وعلقته حلوا الشمائل ماجناً
ما زلت أنصفه وأوجب حقه

خنت الكلام مرئح الأعطافِ
لكنه بأبي من الإنصافِ

وله أيضاً :

حبيبٌ متى ينأى عن العين شخصه
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا

يكاد فؤادي أن يطير من بين
كان على قلبي توائم من عين

وله أيضاً :

أفدي أبا عمرو وإن كان جانياً
فما كان ذلك الود إلا كبارق

علي ذنوباً لا تعددُ بالعتبِ^١
أضاء لعيني ثم أظلم للقلبِ^٢

١ المطمح : بالبهت .

٢ المطمح : في الوقت .

وله وقد بلغه موثي ، وتحقق عنده فوثي ١ :

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطرس
ما كنت أحسب يوماً قبل ميته أن البلاغة والآداب تختلس
واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع ، وأبى مطلع ،
وجوانب حقه بين يدي محملة ، وسحائب رفته علي منهلته ، وكان
أجمل من مقل ، وأكمل من من المهدي إلى سرير الملك قد نُقِل ، وكتب
لبي يهيني بقدوم من سفر :

قدمت أبا نصر على حال وحشة ف جاءت بك الآمال واتصل الأنس
وقرت بك العنان واتصل المني وفازت على يأس بيغيتها النفس
فأهلاً وسهلاً بالوزارة كلها ومن رأيه في كل مظلمة شمس

٤ - وقال في المطمح في ترجمة الوزير أبي الوليد ابن حزم ٢ : واحد دونه
الجمع ، وهو للجلالة بصر وسمع ، روضة علاه راققة السن ، ودوحة بهاه
طيبة الجنى ، لم يتزر بغير الصون ، ولم يشتهر بفساد بعد الكون ، مع نفس
برئت من الكبر ، وخلصت خلوص التبر ، مع عفاف التحف به بروداً ،
وما ارتشف به ثغراً بروداً ، فعقت مواطنه ، وما استرابت ظواهره ولا بواطنه ،
وأما شعره ففي قالب الإحسان أفرغ ، وعلى وجه الاستحسان يلقي ويبلغ ،
وكتب إليه ابن زهر :

أبا الوليد وأنت سيد مدحج هلاً فككت أسير قبضة وعده
وحياة من أمد الحياة بوصله وذهابها حتماً بأيسر صدده

١ لم ترد في المطمح .

٢ المطمح : ٣١ - ٣٤ .

لَأَقَاتِلَنَّكَ إِنْ قَطَعْتَ بِمِرْهَفٍ مِنْ جَفْنِهِ وَبِصَعْدَةٍ مِنْ قَدِّهِ

فراجعه أبو الوليد :

لَبَيْكَ يَا أَسَدَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا مِنْ صَادِقٍ عَثَّ الْمَطَالُ بِوَعْدِهِ
يَمْضِي بِأَمْرِكَ سَاءَ أَوْ سَرَّ الْقَضَا وَيَقُلُّ حَدَّ النَّائِبَاتِ بِجَدِّهِ
إِيهِ وَوَأَفَقْتُ الصَّبَا فِي مَعْرُضِ ذَهَبِ الْمَشِيبِ بِهَزَلِهِ وَبِجَدِّهِ

٥ - وقال في المطمح في ترجمة أبي بكر الغساني ، ما صورته ^١ :

صليب العود ، مهيب الوعود ، لو دعني له الأسد الورْد لأجاب ، ولو رمي
بذكره الليلُ البهيم لانجاب ، ولو قعدت بين يديه الأطواد لتحرك سكونها ،
ولو عصته الطيور ما أوتها وكونها ، مع وقار تخاله يدبُّ بلا ، وفخار يفضح
بلبلاً ، وشيم لو كانت بالروض ما ذوى ، أو تقاسمت في الخلق ما رمد
أحد بعدما شوى ، وسجايا تنجلي عنها الظلماء ، كأن مزاجها عسل وماء ؛ انتهى .
وهذا الغساني هو صاحب تفسير القرآن وقد عرّف به في «الإحاطة»
فليراجع ثمة .

٦ - وقال أيضاً في المطمح ما صورته : أبو عامر ابن عقال ^٢ .

كان له ببني قاسم تعلق ، وفي سماء دولتهم تألق ، فلما خوت نجومهم ،
وعقّت رسومهم ، انحط عن ذلك الحصوص ، وسقط سقوط الطائر المقصوص ،
وتصرف بين وجود وعدم ، وتحرف قاعداً حيناً وحيناً على قدّم ، وفي
خلال حاله ، وأثناء انتحاله ، لم يدع حفظه ^٣ من الحبيب ، ولا ثنى لحظه

١ لم ترد هذه الترجمة في المطمح المطبوع .
٢ المطمح : ٨٦ - ٨٧ وكتبه فيه «ابن عقال» وقد مر في غير موطن من هذا الكتاب «ابن عيال»
ويتصفح كثيراً «ابن غتال» ... إلخ .
٣ المطمح : حفظاً .

عن الغزال الريب ، ولم يزل يطير ويقع ، والدهر يخرق حاله ويرقع ^١ ، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى أعلى ربوة ^٢ ، وأراه ^٣ أبهى حظوة ، فأدرك عنده رتبة أعلام التحجير والإنشا ، وترك الدهر قلق الحشا ، وتسم منزلة لا يتسمنها إلا من تطهر من درته ، وجمع إحسانه في ميدان حرته ، والحظوظ أقسام لا تُسام ، والدنيا إنارة وإعتام ^٤ :

ولو لم يعَلْ إلا ذو محلّ . تعالى الجيش وانحطّ القتام ^٥

وقد أثبت عنه بعض ما انتقته ، والذي أخذته مباين لما أبقيته ، فمن ذلك قوله :

يا ويح أجسام الأنا	م لما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بالغدا	ء وسقمها ذاك الغدا
وتنال أيام السلا	مة بالحياة تلذذا
فإذا انقضى زمن الصبا	ورمي المشيب فأنفذا
وجد السقام إلى المفا	صل والجوانح منفذا
ويقول مهما يعط شي	ئاً ناولوني غير ذا

وحذا في هذه القصيدة حدّو الصابي في قوله ^٦ :

وجع المفاصل وهو أيد	سر ما لقيت من الأذى
ردّ الذي استحسنه	والناس من حظّي كذا
والعمر مثل الكاس ير	سب في أواخرها القذى

١ المطح : يخفض . . . ويرقع .

٢ المطح : إلى أسى ذروة .

٣ المطح : ورداه .

٤ زاد في المطح : وصفاء يتلوه قتام .

٥ البيت للمتنبّي (شرح الواحدي : ١٦٢) .

٦ اليتيمة ٢ : ٣٠٠ .

وله يعتذر عن زيارة اعتمدها ، ومواصلة اعتقدها ، فعاقتة عنها حوادث
لَوْتَهُ ، وَعَدَّتْهُ عَنْ ذَلِكَ وَثَنَّتَهُ :

بَيْنَمَا كُنْتُ رَاجِئًا لِلِقَائِهِ وَالتَّشْفِيَّ بِالْبِشْرِ مِنْ تَلْقَائِهِ
وَتَرَقَّبْتُ مِنْ سَمَاءِ نَزَاعِي قَمَرَ الْأَنْسِ طَالِعًا مِنْ سَمَائِهِ
إِذْ دَهَانِي اعْتَرَضُ خُطْبُ ثَنَانِي عَنْ غَمَامٍ يَشْفِي الْغَلِيلَ بِمَائِهِ
فَتَدَلَّهْتُ وَانزَوَيْتُ حَيَاءً مِنْهُ وَالْعَذْرُ وَاضِحٌ لِسَانَهُ

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة
خمس عشرة وخمسمائة : وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازُه - أيده
الله تعالى - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه ،
وسهّل بعد أن رأى الشامخ من هضابه ، وصار حيّه ميّتاً ، وهذره صمّتاً ،
وجباله لا ترى فيها عوجاً ولا أمّتاً ، وضعف تعاطيه ، وعقد السلم بين
موجه وشاطيه ، فعبر آمناً من لهواته ، متمكناً لسهواته ، على جواد يقطع
الجوّ سبّحاً ، ويكاد يسبق البرق لَمْحاً ، لم يحمل لجاماً ولا سرّجاً ، ولا عهد
غير اللجة الخضراء مرّجاً ، عِنَانُهُ فِي رِجْلِهِ ، وَهُدْبُ الْعَيْنِ يَحْكِي بَعْضَ شَكْلِهِ ،
فَلَلَّهُ هُوَ مِنْ جَوَادٍ ، لَهُ جِسْمٌ وَلَيْسَ لَهُ فُؤَادٌ ، يَخْرُقُ الْهَوَاءَ وَلَا يَرْهَبُهُ ، وَيَرْكُضُ
الْمَاءَ وَلَا يَشْرِبُهُ .

٧ - وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبي ^١ ،

ما نصّه :

من ثنّية شرف وحسب ، ومن أهل حديث وأدب ، إمام في اللغة متقدم ،
فارعٌ لرُتّبِ الشّعْرِ مُتَسَنِّمٌ ، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق ، ثم عاد

المطّح : ٥٠ .

وقد توج بالعارف المفرق ، وأقام بقرطبة علماً من أعلامها ، ومتسماً لترفعها وإعظامها ، تؤثره الدول ، وتصطفيه أملاكها الأول ، ما زال فيها مقيماً ، ولا يرح عن طريق أمانيتها مستقيماً ، إلى أن اغتيل في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولاً في فراشه ، مذهولاً كل أحد من انبساط الضرب إليه على انكماشه ، وقد أثبت من محاسنه ما يعجب السامع ، وتُصغى إليه السامع ، فمن ذلك قوله :

وضاعف ما بالقلب يوم رحيلهم^١ على ما به منهم حين الأباغر
وأصبر عن أحباب قلب ترحلوا^٢ ألا إن قلبي سائر غير صابر

ولما رجع إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم ، اجتمع إليه في المجلس خلق عظيم ، فلما رأى تلك الكثرة ، وما له عندهم من الأثرة ، قال :

لإني إذا حضرتني ألف^٣ محبرة يكتبن حدثني طوراً وأخبرني
نادت بمفخري الأقلام^٤ معلنة هذي المفاخر لا قعبان من لبن

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار^٥ وقل منّا ومنك اليوم زوار^٦
وبيننا كل ما تدرية من ذمم^٧ وللصبا ورق خضر وأنوار^٨
وكل عتب وإعتاب جرى فله بدائع حلوة عندي وآثار^٩
فاذكر أخاك بخير كلما لعبت به الليالي فإن الدهر دوار^{١٠}

٨ - وقال في ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبي عمر أحمد بن عبد

ربه ٢ :

١ سقط هذا البيت من ق .

٢ المطمح : ٥١ - ٥٢ وبعض مقطعات ابن عبد ربه وردت في الأجزاء السابقة .

عالم ساد بالعلم ورأس ، واقتبس به من الخطوة ما اقتبس ، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرر الذكاء فكره ، وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية له متسفة ، وأما الأدب فهو - كان - حجتة ، وبه غمرت الأفهام بلحته ، مع صيانة وورع ، وديانة ورد ماءها فكرع ، وله التأليف المشهور الذي سماه «العقد» ، وجماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه مُشَقَّف القناة ، مرهف الشبابة ، تقصُر عنه ثواقب الألباب ، وتبصر السحر منه في كل باب ، وله شعر انتهى منتهاه ، وتجاوز سيماك الإحسان وسماه .
أخبرني ابن حزم أنه مرَّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لبَّه ، وأهلب قلبه ، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رُشَّ بماء من أعاليه ، فاستدعى رقعة ، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا مَنْ يَضنُّ بصوت الطائرِ الغردِ ما كنت أحسبُ هذا الضنَّ في أحدٍ
لو أنَّ أَسْماعَ أهلِ الأرضِ قاطبةً أصغتْ إلى الصوتِ لم ينقصْ ولم يزد
فلا تضنَّ على سمعي ومنْ بهِ صوتاً يجولُ مجالَ الروحِ في الجسدِ
أما التَّبيذُ فإنِّي لست أشربه ولا أجيئكَ إلا كِسرتي بيدي

وعزَم فتى كان يتألَّفُه ، وخامره كلفُه ، على الرحيل في غدِه ، فأذهبت عزمته قوى جلدِه ، فلمَّا أصبح عاقته السماء بالأنواء ، وساقته مكرهاً إلى الثواء ، فاستراح أبو عمر من كمدِه ، وانفسح له من التواصل ضائق أمدِه ، فكتب إلى المذكور ، العازم على البكور :

هلاً ابتكرتَ لبينِ أنتَ مبتكرُ هيهات يا أبى عليكَ اللهُ والقدرُ
ما زلتُ أبكي حذارَ البينِ ملتعباً حتى رثي لي فيكَ الريحُ والمطرُ
يا بَرْدَه من حياً مُزِنِ على كبدِ نيرانها بغليلِ الشوقِ تستعُرُ
أليتُ أن لا أرى شمساً ولا قمرأ حتى أراكَ فأنتَ الشمسُ والقمرُ

ومن شعره الذي صرّح به تصريح الصب ، وبرّح فيه وقائع اسم الحب ،
قوله :

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بلدٍ يا وحشةَ الروح بل يا غربةَ الجسدِ
إن تبك عيناك لي يا مَنْ كلفتُ بهِ من رحمةٍ فهما سهماك في كبدي
ومنه قوله :

ودّعني بزفرة^١ واعتناقٍ ثمّ نادتُ متى يكونُ التلاقي
وبدتُ لي فأشرق الصبحُ منها بين تلك الجيوبِ والأطواقِ
يا سقيمَ الجفونِ من غيرِ سقمٍ بين عَيْنَيْكَ مصرعِ العشاقِ
إنّ يومَ الفراقِ أفضحُ يومٍ ليثي متُّ قبلَ يومِ الفراقِ
وله أيضاً :

يا ذا الذي خطّ الجمالُ بخدّه خطّينِ هاجا لوعةً وبلا بلا
ما صحّ عندي أنّ لحظك صارمٌ حتى لبستِ بعارضيكِ حمائلًا

وأخبرني بعضهم أن الخطيب أبا الوليد ابن عيال^٢ حج ، فلما انصرف ،
تطلّع إلى لقاء المثني واستشرف ، ورأى أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلّة فخر لا
يحتسبها ، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ، ففاوضه قليلاً ، ثمّ
قال : أنشدني للمليح الأندلس ، يعني ابن عبد ربّه ، فأنشده :

يا لؤلؤاً ينسبي العقولَ أنيقاً ورشاً بتقطيعِ القلوبِ رقيقاً
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثلهِ درأاً يعودُ من الحياءِ عقيقاً

١ المطح : بزورة .

٢ كذا هنا وفي بعض أصول المطح : ابن عقال .

وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهه أبصرتَ وجهك في سناه غريقاً
يا مَنْ تَقطعُ خَصْرَهُ من رِقَّةٍ ما بالُ قلبك لا يكونُ رقيقاً

فلَمَّا أكملَ إنشادها استعادها منه ، وقال : يا ابن عبد ربته ، لقد تأتيتك
العراق حَبِيراً .

وله أيضاً :

ومُعَدَّرَ نَقَشَ الجمالُ بِحُطِّهِ خَدَّآ لهُ بدمِ القلوبِ مَضْرَجاً
لَمَّا تيقنَ أنَّ سيفَ جفونه من نرجسٍ جعلَ النُّجادَ بنفسجاً

وله أيضاً :

وساحة فَضَّلَ الديولِ كأنَّها قَضيبٌ من الریحانِ فوقَ كَثيبِ
إذا ما بدت من ثغرها قال صاحبي أطعني وخُذْ مِنِ وصلها بنصيبِ

وله أيضاً :

هيجَ الشوقُ دواعيَ سقمي وكسا الجسمَ ثيابَ الألمِ
أيتها الينُ أقلني مرةً فإذا عُدتُ فقد حلَّ دمي
ياخلي الذرعِ نم في غبطةٍ إنَّ من فارقته لم ينمِ
ولقد هاجَ بجسمي سَقَمًا حُبُّ من لو شاء داوى سقمي

وبلغ سنَّ عَوْفِ بنِ مُحَلِّمٍ^١ ، واعترف بذلك اعتراف مثالم ، عندما وهتْ
شدته ، وبليت جدُّته ، وهو آخر شعر قال ، ثم عثر في أذيال الردى وما
استقال :

١ هو القائل :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمي إلى ترجمان

كِلَانِي لِمَا بِي عَاذِلِيَّ كَفَانِي
 بَكَيْتُ وَأَبْلَيْتُ اللَّيَالِيَّ مُكْرَهًا
 وَمَا لِي لَا أَبْلِي لِسَبْعِينَ حَجَّةً
 فَلَا تَسْأَلَانِي عَنْ تَبَارِيحِ عَلْتِي
 وَإِنِّي بِحَوْلِ اللَّهِ رَاجٍ لِفَضْلِهِ
 وَلَسْتُ أَبَالِي مِنْ تَبَارِيحِ عَلْتِي
 طَوَيْتُ زَمَانِي بِرُهَةٍ وَطَوَانِي
 وَصَرَفَانِ لِلْأَيَّامِ مَعْتُورَانِ
 وَعَشْرُ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ
 وَدُونِكَمَا مَنِّي الَّذِي تَرِيَانِ
 وَلِي مِنْ ضَمَانِ اللَّهِ خَيْرِ ضَمَانِ
 إِذَا كَانَ عَقْلِي بَاقِيًا وَلِسَانِي

وفي أيام إقلاعه عن صَبَوته ، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوبتته ، وانثنائه عن
 مجون المجون إلى صفاء توبته ، محص أشعاره في الغزل بما ينافيها ، ونصل من
 قوادمها وخوافيها ، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة
 التي أولها :

هَلَّا ابْتَكْرَتَ لِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرٌ

محصها بقوله :

يَا رَاقِدًا لَيْسَ يَعْضُو حِينَ يَقْتَدِرُ
 عَايِنُ بِقَلْبِكَ إِنْ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ
 سَوْدَاءُ تَزْفَرُ مِنْ غَيْظٍ إِذَا سَفَرَتْ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ الْمَوْتِ مَوْعِظَةٌ
 أَنْتَ الْمَقُولُ لَهُ مَا قَلْتُ مُبْتَدَأًا :
 مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ
 عَنِ الْحَقِيقَةِ وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَقَرُ
 لِلظَّالِمِينَ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدْرُ
 لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ مُزْدَجَرُ
 هَلَّا ابْتَكْرَتَ لِيْنِ أَنْتَ مُبْتَكِرُ

٩ - وقال في ترجمة أبي القاسم المنيشي ، ما صورته ١ :

أبو القاسم المنيشي ، أحد أبناء ٢ حضرة إشبيلية المقلِّين ، الناهضين بأعباء

١ المطمح : ٨٨ والنص مختلف عما أورده المقرئ .

٢ المطمح : أناء .

الضرائر المستقلين ، لم يزل يَعْشُو لكل ضوء ، ويتتبع مَصَاب كل نَوء ،
 فيوماً يَحْصِب ويوماً يُجْدِب ، وآونة يفرح وأخرى ينتدب ، إلى أن صدقت
 مخايله ، فرمقت بخوته ومخايله ، وأتى من العجب ، بمنسدل الحُجُب ، ومن
 الأشر ، ما لم يأت من بشر ، وما تصرف إلا في أنزل الأعمال ، ولا تعرف
 إلا بأخون العمال ، لم يَفْرَعُ رَبْوَةَ ظهور ، ولم يقرع باب رجل مشهور ،
 وله أدب ولتسن ، ومذهب فيهما يُسْتَحْسَن ، لكنه نكب عن المقطع الجزل ،
 وذَهَبَ مذهب الهزل ، إلا في النادر فر بما جَدَّ ، ثم أخلق منه ما استجدَّ ، وعاد
 إلى دَيْدَنَه ، عودة أبي عبادا إلى واواته ومُدَنَه ، وأخذ في ذلك الغرض ، وليس
 شرط كتابي بذاءه ، ولا أن يقف حذاءه ، وقد أثبت له ما هو عندي نافع ،
 ولغرض كتابي موافق ، فمن ذلك قوله :

يا رَوْضَةَ باتت الأنداءُ تخدمُها أتى النسيمُ وهذا أولُ السَّحَرِ
 إن كانَ قدْكَ غصناً فالترأبُ بهِ مثلُ الكمامِ قد زُرَّتْ على الزهرِ
 اربأ بجديك عن وردٍ وعن زهرِ واغن بقرطيك عن شمسٍ وعن قمرِ
 يا قاتلَ الله لحظي كم شقيتُ بهِ من حيثُ كان نعيمُ الناسِ بالنظرِ

وله من رثاء في والدي رحمة الله عليها :

يا ناصحي غيرَ مفتاتٍ ولا شجنِ على النَّصائحِ والنُّصائحِ مفتاتُ
 لا أستجيبُ ولو ناديتُ من كَثَبِ قد وقذنتي تعلاتٌ وعلاتُ
 إن كانَ رأيك في برِّي وتكرمي بحيثُ قد ظهرتُ منه علاماتُ
 لا ترضَ لي غيرَ شجوي لا أفارقهُ فذاكَ اختارهُ والناسُ أشتاتُ

ومنها :

يا ذا الوزارة من مثني وواحدةٍ لله ما اصطنعتُ منكِ الوزاراتُ

١ أبو عباد هو معبد المفتي ، وطفه ألحان له تسمى حصون معبد .

لله منك أبا نصر أخو جلد
 أستودعُ الله نوراً ضمته كفنٌ
 قضتُ وليتُ شبابي كان موضعها
 مضتُ ولما يقمُ من دُونها أحدٌ
 إذا أَلَّتْ مَلَمَّاتٌ مَهَمَّاتٌ
 كما تُؤَارِي بدورَ التَّمِّ هالاتٌ
 هيهات ؛ لو قُضِيَتْ تلكَ اللَّبَّاتُ
 هَلَاً وقد أَعْدَرْتُ فيها المَرَوَاتُ
 ولهُ يَصِفُ زُرُوراً :

أمبرٌ ذاكَ أم قُضيبُ
 يَحْتَالُ في بُرْدِي شَبَابِ
 كَأَنَّمَا ضَمَّخَتْ عَلَيْهِ
 أَخْرَسُ لَكِنَّهُ فَصِيحُ
 يَفْرَعُهُ مِصْقَعُ خَطِيبُ
 لَمْ يَتَوَضَّحْ بِهَا مَشِيبُ
 أَبْرَادَهُ مَسْكَةٌ وَطِيبُ
 أَسْلَهُ لَكِنَّهُ لَيْبُ
 صَعِبٌ عَلَى أَنَّهُ أَرِيبُ
 جَهْمٌ عَلَى أَنَّهُ وَسِيمُ

١٠ - أبو الحسن البرقي ١ :

بلنسي الدار ، نقيسي المقدار ، ما سمعت له بشرف ، ولا علمت له بسلق ،
 ولا اطلعت منه على غير سرف ، ورد إشيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة ٢ ،
 واتصل بابن زُهْر ، فناهيك من حظ في أكتافه جال ، ومن لحظ فيما أَرَادَهُ أَجَال ،
 ومن أمل استوفر ، وحظ مسك أذفر ، ومن وجه جاه له أسفر ، سلك به ساحة
 الرغائب ، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب ، وقال فما نبذت مقالته ، وأقال
 فما قُبِدَتْ إقالته ، وكان حلو المجالسة ، مجلواً المؤانسة ، ذا نَشَبٍ وافر ،
 ومذهب في المساهمة سافر ، إلا أنه كان كلفاً بالفتيان ، مُعَنِّيَ بِهِمْ فِي كُلِّ
 الأحيان ، ونيف على السبعين وهو برداء الصبوة مرتد ، وبعترتها معتد ،
 مع أدب زهرته تَرَفٌ ، وكأنه بحر والألباب منه تغترف ، وقد أثبت له بعض

١ المطمح : ٨٩ .

٢ المطمح : سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ما وجدت له في الغلمان ، وأنشدت له في تلك الأزمان ، فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى :

إن ذكرت العقيقَ هاجك شوقٌ رُبَّ شوقٍ يهيجُهُ الادِّكارُ
يا خليليَّ حدِّثني عن الرِّكِّ بـ سُحيراً أنْجِدوا أم أغاروا
شغلونا عنِ الوداعِ وولوا ما عليهِم لو ودَّعوا ثمَّ ساروا
أنا أهواهُمُ على كلِّ حالٍ عدلوا في هواهُمُ أم جاروا

وعلق بإشيلية فتى يُعرف بابن المكر ، وبات من حبه طريقاً بين أيدي السواس والفكر ، لا يمشي إلاَّ صبياً ، ولا يفشي إلاَّ غراماً وحباً ، وما زال يقاسي لوعته ، مقاساةً يناجي بها صرعته ، ويكابد جواه ، ويلازم هواه ، حتى اكتسى خدّه بالعدار ، وانمحت عنه بهجة آذار ، فسلاً من كلفه ، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفه ، فقال :

الآنَ لَمَّا صَوَّحَتْ وجنَّتهُ شوكاً وأضحتْ سلوةَ العشاقِ
واستوحشتْ منه المحاسنُ واكتستْ أنوارُ وجهك واهنَ الأخلاقِ
أسميتَ تبدلُ لي الوصالَ تصنعاً خلقُ اللثيمِ وشيمةُ المذاقِ
هلاً وصلتَ إذ الشمائلُ قهوةٌ وإذ الحيَّا روضةُ الأحداقِ
يا كم أطلتَ غرامَ قلبٍ مُوجعٍ كم قدَّ ألبَّ إليكَ بالأشواقِ
ما كنتَ إلاَّ البدرَ ليلَةَ تمه حتى قضتَ لكَ ليلَةَ بمحاقِ
لاحَ العِذارُ فقلتُ وجدُّ نازحٍ إنَّ ابنَ دايةٍ مؤذنٌ بفراقِ

وله فيه مناقضاً لذلك الغرض ، معارضاً للوعة سلوه الذي كان عرض :

يلومون في ظبيِّ تزايدِ حُسْنِهِ بخطَّينِ خطًّا لوعتي وغراميا

ابن داية : الغراب .

وقد كنتُ أهوى خدّه وهو عاقلٌ فكيفَ وقد أضحيَ لعينيَ حالياً

وله أيضاً في مثله :

أَجِيلُ الطَّرْفِ فِي خَدِّ نَضِيرٍ يَرُدُّ نَازِرِي نَظْرِي إِلَيْهِ
إِذَا رَمِدَتْ بِحَمْرَتِهِ جَفُونِي شَفَاها مِنْهُ إِثْمَدُ عَارِضِيهِ

١١ - أبو الحسن علي بن جودي^١ :

بَرَّرَ فِي الفَهْمِ ، وَأَحْرَزَ مِنْهُ أَوْفَرَ سَهْمِ ، وَعَانَى العُلُومَ بِقَرِيحَةِ ذَكِيَّةِ ،
وَوَاحَى بِنَفْسِ فِي المَعَارِفِ ذَكِيَّةِ ، وَلَهُ أَدَبٌ وَاسِعٌ مَدَاهِ ، يَنَاعُ كَالرُّوْحِ بِلَلِّهِ
نَدَاهِ ، وَنَظْمٌ أَرَقٌ مِنْ دَمْعِ العَانِي ، وَلَطِيفٌ المَعَانِي ، وَأَعْبَقَ مِنْ نَفْسِ الحِمَائِلِ ،
فِي أَكْفِ الصَّبَا والشَّمَائِلِ ، وَنَثَرَ كَالنَّوْهِرِ المَطْلُوعِ ، أَوْ السَّلَكِ المَحْلُولِ ، إِلَّا
أَنَّهُ سَهَا فَأَسْرَفَ ، وَزَهَا بِمَا لَا يَعْرِفُ ، وَتَصَدَّى إِلَى الدِّينِ بِالِإِقْرَاءِ ، وَلَمْ يَرِاقِبْ
اللَّهَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الاجْتِرَاءِ ، وَاشْتَهَرَتْ عَنْهُ فِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ سَدَّدَتْ إِلَى المَلَّةِ نَصَالَهَا ،
وَأَبْدَى بِهَا ضَلَالَهَا ، فَعَظُمَتْ بِهِ المِحْنَةُ ، وَكُنْتُ لَهُ فِي كُلِّ نَفْسٍ إِحْنَةً ، وَمَا زَالَ
يَتَدَرَّجُ فِيهَا وَيَنْتَقِلُ ، حَتَّى عَثَرَ وَمَا كَادَ يَسْتَقِلُّ ، فَمَرَّ لَا يُلْوِي عَلَى تِلْكَ النِّوَاحِي ،
وَفَرَّ لَا يَنْثَنِي إِلَى لَوَائِمِ وَلِوَاحِي ، وَمَا زَالَ يَرْكَبُ الأَهْوَاءَ وَيَسْخُوضُهَا ، وَيَدُلُّ
النَّفْسَ بِهَا وَيَرُوضُهَا ، حَتَّى أَسْمَحَتْ بِبَعْضِ الإِسْمَاحِ ، وَكَفَّتْ عَنِ ذَلِكَ الجِمَاحِ ،
وَاسْتَقَرَّ عِنْدَ أَبِي مَالِكٍ فَأَوَاهُ ، وَمَهَّدَ لَهُ مَثْوَاهُ ، وَجَعَلَهُ فِي جُمْلَةٍ مِنْ اخْتِصَاصِ
المَبْطُلِينَ ، وَاسْتَخْلَصَ مِنَ المَعْطَلِينَ ، فَكثِيرًا مَا يَصْطَفِيهِمْ ، وَلَا يَدْرِي أَيْدِي خَرَمِ
أَمْ يَقْتَنِيهِمْ ، وَقَدْ أُثْبِتُ لَهُ مَا يَبْهَرُ سَامِعًا ، وَيُظْهِرُ بَرَقًا لَامِعًا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

أَحْنُ إِلَى رِيحِ الشَّمَالِ فَإِنَّهَا تَذَكِّرُنَا نَجْدًا وَمَا ذَكَرْنَا نَجْدًا
تَمَرُّ عَلَى رَبْعِ أَقَامَ بِهِ الهَوَى وَبَدَّلَ مِنْ أَهْلِيهِ جَائِمَةً رُبْدًا

١ المَطْمَحُ : ٩٠. وَبَيْنَ النِّصْنِينِ اخْتِلَافٌ .

فيا لَيْتَ شعري هل تُفَضِّي لُبَانَةَ
خَلِيلِي لا والله ما أحملُ الهوى

وقوله أيضاً :

سلِ الركبَ عن نجدٍ فإنَّ تَحِيَّةَ
وإلا فما بالُ المطيِّ على الوجي

وقوله أيضاً :

إذا ارتحلتَ غربيةً فاعرضاً لها
لقد ساءنا أنا بعيدٌ وأتانا
يفجعنا إماماً بعبادٍ مبرِّحٍ
ظعننا على حكمِ الليالي وخطبها
وكنتُ أرجي الدهر بعد الذي مضى
أحقاً يسيرُ الركبُ لم ترتحلُ بنا

وقوله أيضاً :

لقد هيَّجَ النيرانَ يا أمَّ مالكٍ
عشيَّةَ لا أرجو لقاءك عندها

وقوله أيضاً :

حننتُ إلى البرقِ اليماني ، وإنَّما
فيا راكباً يطوي البلادَ تحمَّلتنُ
ليالينا بالجزعِ جزعِ محجَّري
وما ضرَّ صحبي وقفةٌ بمحجَّري

فأرتشفَ اللَّمبَا وأعتقَ القَدَا
وإن كنتُ في غيرِ الهوى رجلاً جَلَدَا

لساكنِ نجدٍ قد تحمَّلتها الركبُ
خفافاً وما للريحِ مرجعُها رَطْبُ

فبالغربِ من نهوى له البلدُ الغربا
بأرضين شتَّى لا مزاراً ولا قربا
وإمَّا أمورٌ باعثاتٌ لنا كربا
فيا ليت لم ندرِ الليالي ولا الخطبا
دياراً وقرباً والأصادقِ والصحبا
إليكَ ولَمْ تحدُ الحداةُ لنا ركباً

بتدميرِ ذكري ساعدتها المدامعُ
ولا أنا أن يدنو مع الليلِ طامعُ

نعالجُ شوقاً ما هناك هانيا
تحيتنا إن كنتَ تلجأ لاقيا
سقى الله يا فيحاء تلك اللياليا
أحيي بها تلك الرسومِ البواليا

وله أيضاً :

خليلي من نجدٍ فإنَّ بنجدهم مَصِيْفًا لبيتِ العامريِّ ومَرَبَعًا
ألا رجعا عنها الحديثُ فإنَّني لأغبطُ من ليلي الحديثِ المرجعا
عزيزُ علينا يا ابنةَ القومِ أننا غريبانِ شتَّى لا نطيقُ التجمعا
فريقُ هوى منّا يمانٍ ومُشْتَمٌ يحاولُ يأساً أو يحاولُ مطمعا
كأنّا خلقتنا للنوى وكأنما جرامٌ على الأيامِ أن تتجمعا

ووجدت له في بعض نسخ «المطمح» قوله أيضاً^١ :

سقى دارك اللائي ببطنٍ مُحَصَّبٍ مَثَاكِيلَ من وفدِ الغمامِ المرتحِ
ألمَ تعلمي يا فتنةَ القلبِ أنَّني تطارحتُ من حيي لكم كلَّ مطرحِ
إذا نعبتُ غربانُ دارٍ وجدنتي وشوقي مقيمٌ بين ناءٍ ونزحِ

وله أيضاً :

ألا خسر وللبلوى ضروبُ وفيك لكلِّ مشتاقٍ حبيبُ
حباك الله بالنعمى فنوناً وجرَّ لكم مع النعمى خطوبُ
متى تقضي بحسفتك الليالي وتعصفُ فيكم ريحُ هبوبُ
فإنكم تجرون المنايا وتعمرُ من مجانيكم قلوبُ

وقد ذكر في «المطمح» له تخميساً جارياً على ألسنة الناس إلى الآن ، وهو :

أيا ساكنين بأرضِ اللوى وصالكُم لسقامي دوا
وعافاكمُ الله من ذا الجوى ملكمُ فؤادي فصار الهوى
علي رقيبٌ رقيبٌ رقيبٌ

١ وردت هذه القطعة في ق بعد القطعة التي أولها « إذا ارتحلت غريبة . . . » .

ولمّا تبدّت لهم حالتي وما حرّك الهجرُ من زفرتي
بَكَوْا رحمةً لي من ساعتي فقلتُ متى الوصلُ يا سادتي
فَقَالُوا قَرِيبٌ قَرِيبٌ قَرِيبٌ

وهو وإن لم يكن في ذروة البلاغة فقد ذكرته لأنه مطروق بالمغرب عند أهل
التلاحين وغيرهم .

ولنذكر بعض نص خطبة المطمح ، قال رحمه الله تعالى فيه : أمّا بعد حمد
الله الذي أشعرنا إيماناً^١ وإلهاماً ، وصبر لنا أفهاماً ، ويسر لنا بزود آداب ،
ونشّرنا للانبعاث لإثباتها والانتداب ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه
رحمة ، ونبأه منة منه ونعمة ، وسلّم تسليمًا ، فإنه كان بالأندلس أعلام ،
فتنوا بسحر الكلام ، ولقوا منه كل نحيّة وسلام ، فشعشعوا البدائع وروّقوها ،
وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها ، ثم هوّوا في مهاوي المنايا ، وانطوا بأيدي
الرزايا ، وبقيت مآثرهم الحسان ، غير مثبتة في ديوان ، ولا جملة في تصنيف
تحتلي فيه العيون ، وتحتني منه زهر الفنون ، إلى أن أراد الله تعالى إظهار إعجازها ،
واتصال صدورها بأعجازها ، فحللت من الوزير أبي العاصي حكيم بن الوليد
عند من رحّب وأهّل ، وأعلّ بمكارمه وأهمل ، وندبني إلى أن أجمعها في
كتاب ، وأدركني من التنشط إلى إقبال ما ندب إليه ، وكتابة ما حث عليه ،
فأجبت رغبته ، وحليت بالإسعاف لبّته ، وذهبت إلى إبدائها ، وتخليد عليها ،
وأملت منها في بعض أيام ، ثلاثة أقسام ، القسم الأول : يشتمل على سرّد غرر
الوزراء ، وتناسق درر الكتاب والبلغاء . القسم الثاني : يشتمل على محاسن أعلام
العلماء ، وأعيان القضاة والحكماء . القسم الثالث : يشتمل على ذكر محاسن
الأدباء ، النوابغ النجباء ؛ انتهى .

١ إيماناً : سقطت من ق والمطمح .

وهذه خطبة «المطمح الصغير» ، وأما الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك والسلاطين حسبما نقلنا بعضه فيما مر من هذا الكتاب ، على أننا نقلنا بعضاً من الصغير أيضاً ، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب ، ومن له أدنى ممارسة ، وليراجع من الترجمة الفرق بين كلامه في الصغير وغيره ، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه الله تعالى في تحلية الناس ، ووصف أيام الأونس ، وليس الخبر كالعيان ، وقد سردنا بعض كلامه في « القلائد » وفي « المطمح » .

[قطعة من الموشحات]

ولنرجع الآن إلى ما كنا بصدده من أمر التوشيح ، فنقول : وتام موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين هو قوله :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى	قلب صب حله عن مكس
فهو في حرّ وخفقٍ مثلما	لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بلوراً أطلعت يوم النوى	غرراً تسلك بي نهج الغرر
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى	منكم الحسن ومن عيني النظر
أجنتي اللذات مكلوم الجوى	والتذاذي من حبيبي بالفكر
كلّما أشكوهُ وجدأ بسما	كالرّبي بالعارض المنبجس
إذ يقيم القطرُ فيها مآتما	وهي من بهجتها في عرس
غالب لي غالب بالتسوده	بأبي أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل نغر نضده	أقحواناً عصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العريده	وفؤادي سكره ما إن يفيق

فاحمُ الجمّةِ معسولُ اللّمي	أكحلُ اللّحظِ شهبيُّ اللّعسِ
وجّهه يتلو « الضحى » مبتسما	وهو من إعراضه في « عبس »
أيتها السائلُ عن ذلّيّ لديه	لي جزاء الذنبِ وهو المذنبُ
أخذت شمسُ الضحى من وجنتيه	مشرقاً للصبّ فيه مغربُ
ذَهَبَتْ أدمعُ أجفاني عليه	وله خدّ بلحظي مذهبُ
يطلعُ البدرُ عليّهِ كلّما	لاحظتُهُ مقلتي في الخلسِ
ليت شعري أيّ شيء حرّما	ذلك الوردِ على المغرسِ
كلّما أشكو إليه حرّقي	غادرتني مقلّتهاه دنفا
تركتُ الحافظهُ من رمّقي	أثرَ النملِ على صمّ الصفا
وأنا أشكرهُ فيما بقي	لستُ الحاهُ على ما أتلفا
فهو عندي عادلٌ إن ظلّما	وعتولي نطقهُ كالخرسِ
ليس لي في الحبّ حكمٌ بعدما	حلّ من نفسي محلّ النفسِ
منهُ للتار بأحشائي اضطرامٌ	يلتظي في كل حين ما يشا
وهي في خديه بردٌ وسلامٌ	وهي ضرٌّ وحرّيقٌ في الحشا
أتقي منه على حكمِ الغرامِ	أسدّ الغابِ وأهواه رشا
قلت لما أن تبدّى مُعلما	وهو من الحافظه في حرّسِ
أيتها الآخذُ قلبي مغنما	اجعلِ الوصلَ مكانَ الخُمسِ

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخري المغاربة فقال :

يا عرّيبَ الحيّ من حيّ الحمى	أنتمُ عيادي وأنتم عرّسي
لم يحلّ عنكم ودادي بعدما	حلّتمُ لا وحياةِ الأنفسِ

مَنْ عَذِيرِي فِي الَّذِي أَحْبَبْتَهُ
بَلَدٍ تَمَّ أَرْسَلَتْ مُقَلَّتُهُ
إِنْ تَبَدَّى أَوْ تَنَتَّى خَلْتَهُ
مَالِكٌ قَلْبِي شَدِيدُ الْبِرْحَا
سَهْمَ لِحْظٍ لِفَوَادِي جِرْحَا
غَصْنَ بَانَ فَوْقَهُ شَمْسٌ ضُحَى

تَطْلُعُ الشَّمْسُ عِشَاءً عِنْدَمَا
وَتَرَى اللَّيْلَ أَيْضًا مَنَهْزَمَا
وَتَرَى الصَّبْحَ أَيْضًا فِي الْعَلَسِ
وَتَجْلِي مِنْهُ بِأَبْيِ مَلْبَسِ

يَا حَيَاةَ النَّفْسِ صِلْ بَعْدَ النَّوَى
قَدْ بَرَاهُ السَّقْمُ حَتَّى ذَا الْهَوَى
أَهْ مِنْ ذِكْرِ حَيْبٍ بِاللَّوَى
وَالهَأْ مُضْنَى شَدِيدَ الشَّغْفِ
كَأَدَّ أَنْ يُفْضِي بِهِ لِلتَّلْفِ
وَزَمَانَ بِالْمُنَى لَمْ يَسْعَفِ

كُنْتُ أَرْجُو الطَّيْفَ يَا حِلْمَا
هَلْ يَعُودُ الطَّيْفُ صَبَاً مَغْرَمَا
عَائِدًا يَا نَفْسُ مِنْ ذَا فَيَأْسِي
سَاهِرًا أَجْفَانَهُ لَمْ تَنْعَسِ ١

هَمْتُ فِي أَطْلَالِ لَيْلِي وَأَنَا
مَا مَرَادِي رَامَةٌ وَالْمَنْحَى
إِنَّمَا سَوْلي وَقَصْدِي وَالْمُنَى
لَيْسَ فِي الْأَطْلَالِ لِي مِنْ أَرْبِ
لَا وَلَا لَيْلِي وَسَعْدِي مَطْلَبِي
سَيِّدُ الْعُجْمِ وَتَاجُ الْعَرَبِ

أَحْمَدُ الْمُخْتَارُ طَهَ مِنْ سَمَا
خَاتَمُ الرَّسْلِ الْكَرِيمِ الْمُتَمَى
الشَّرِيفُ ابْنُ الشَّرِيفِ الْكَيْتِسِ ٢
ظَاهِرُ الْأَصْلِ زَكِيُّ النَّفْسِ

وقال في مباراة هذه الموشحات السابقة :

لَا تَلْمَنِي يَا عَذُولِي تَأْتَمَا
مِثْلَمَا شَرَحُ غَرَامِي عِلْمَا
مَا تَرَى جِسْمِي بِسُقْمٍ قَدْ كُنْسِي
حَيْثُ أَشْكُو وَحِشَةَ مِنْ مَوْسِ

١ ق : هل يرى في جنح ليل الفليس .

٢ ق : وحظي بالنور لما أن كسي .

ظبي أنسٍ عن فؤادي نفرا
وعذولي في هوى الحب فرى
أنت أعمى يا عدولي ما ترى

وله ثغرٌ إذا ما ابتسما
وثناياه كدرٌ نظما

كم ترى سحراً بجفنيه بدا
ليس سحرٌ مقلتي هذا سدى
خيفةٌ أوجس قلبي ، وغدا

يا إله العرش يا رب السما
قلبي الوهان يشكو ألما

أغيدٌ يسبي البرايا بالمثل
لورأته الشمس أضحت في خجل
من معاني حسنه رق الغزل

أخذٌ بالروح مني كلما
يقنص الأسد بلحظٍ قد رمى

يا رعى الله زماناً سلفاً
مثل دينسار وها قد صرفا
فاعذروا القلب الذي قد شغفا

بدرٌ تم أهيف حلو اللمي
كسلافٍ عهدها قد قدما

وفؤادي مكتوب من صدّه
بملام مذنبى عن وده
يباع الورد بدا من خده

كبروقٍ أومضت في الغلس
فضياها في الدجى كالبس

لفؤاد في الهوى أضحى كليم
يا فؤادي إن شفى السحر السقيم
راحلاً صبري ، وها شوقي مقيم

يا عليماً بضمير الأتفس
من جفا ظبي أغن أكيس

أدعج الجفن بعينه حور
وهو للصدر بوجه قد قمر
في غزالٍ قد غزاني بالنظر

رمق الصب بطرف أنس
أسهما تفتك من غير قسي

بلويلات تقضت بانشرأح
في ألد العيش مع حب وراح
بحبيبٍ ما له عنه برأح

ريقه شهد شهى اللعس
تنجلي في كأسها كالعرس

قهوةٌ بكرٌ عجوزٌ عفتُ
هي لما في زجاجٍ أشرقتُ
جددتُ بسطاً وكم قد مزقتُ
زمناً في ذنبا من قبلِ نوحِ
شمسُ راحِ غرّبتُ في كلِ روحِ
قلبَ صبّ في غبوقٍ وصبوحِ

حلفَ الحمارُ عنها قسماً
فاسقي صِرْفاً ولا تمزجُ بما
في رياضٍ قد شدا شحرورهُ
وانظم الشملَ ودع مثورهُ
وإذا الطلّ بدا شبورهُ
عاطنيتها بين أكنافِ الشجرِ
حول وردٍ وأقاحِ وزهرِ
كللَ الأوراقِ منه بالدررِ

ما ترى الريحانَ عبداً خدماً
جلس النسرينُ لكن ربّما
حيثُ أضحي واقفاً في المجلسِ
استحّت منه عيونُ الرجسِ

فتتزه في رياضٍ خضري
وانشق عرّف زهورٍ عطري
وشدا الزهرِ كسك أذفرِ
وغصونٍ غرّدت فيها هزارِ
ياسمين زينتُهُ الجلتنارِ
واقبل العذر لابن البزدارِ

طامعٌ في رحمةِ الله وما
يا إلهي جُد علينا كرماً
خابَ عبدٌ طامعٌ لم يئأسِ
يا كريماً قبل أخذ الأنفُسِ

رجع إلى مؤشحات ابن الخطيب :

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : ومما قلته من المؤشحات التي
انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها :

١ المؤشحة في أزهار الرياض ١ : ٣١٤ وهي في مدح السلطان يوسف أبي الحجاج .

رُبَّ لَيْلٍ ظَفَرْتُ بِالْبَدْرِ وَنَجُومُ السَّمَاءِ لَمْ تَدْرِ

حَفِظَ اللَّهُ لَيْلَنَا وَرَعَى
أَيَّ شَمَلٍ مِنَ الْهَوَى جَمَعَا
غَفَلَ الدَّهْرُ وَالرَّقِيبُ مَعَا

لَيْتَ نَهْرَ النَّهَارِ لَمْ يَجْرِ حَكَمَ اللَّهُ لِي عَلَى الْفَجْرِ

عَلَّلَ النَّفْسَ يَا أَخَا الْعَرَبِ
بِمُحَدِّثِ أَحْلَى مِنَ الضَّرْبِ
فِي هَوَى مَنْ وَصَالَهُ أُرْبِي

كَلَّمَا مَرَّ ذَكَرَ مَنْ تَلَدِي قَلْتُ يَا بَرْدَهُ عَلَى صَدْرِي

صَاحٍ لَا نَهَمَ بِأَمْرِ غَدٍ
وَأَجْزُ صَرَفَهَا يَدَا يَدِ
بَيْنَ نَهْرٍ وَبَلْبَلٍ غَرْدِ

وَعَصُونَ تَمِيلُ مِنْ سُكْرِ أَعْلَنْتُ يَا غَمَامُ بِالشُّكْرِ

يَا مُرَادِي وَمَتَّهِي أَمَلِي
هَانَا عَسَجَدِيَّةَ الْحَلَلِ
حَلَّتْ الشَّمْسُ مِنْزَلَ الْحَمَلِ

وَبُرُودُ الرِّيعِ فِي نَشْرِ وَالصَّبَا عَنَبِيَّةُ النَّشْرِ

غَرَّةُ الصَّبَحِ هَذِهِ وَضَحَتْ
وَقِيَانُ الْعَصُونَ قَدْ صَدَحَتْ
وَكَأَنَّ الصَّبَا إِذَا تَفَحَّتْ

وهنا طيبتها عن الحَصْرِ مدحة في علا بني نصرِ

هم ملوك الورى بلا ثُنْيَا
مهتدوا الدين زينوا الدنيا
وحَمَى الله منهم العَلْيَا

بالإمام المرفَعِ الحَطْرِ والغمام المبارك القطْرِ

إنما يوسفُ إمام هُدَى
حاز في المعلوات كلَّ مَدَى
قُلْ للدهرِ بملكه سعدا

افتخرُ جملةً على الدهرِ كافتخار الربيع بالزهرِ

يا عماد العلاء والمجدِ
أطلع العيدُ طالع السعدِ
ووفى الفتحُ فيه بالوعدِ

ونجَلت فيه على القصرِ غُررٌ من طلائعِ النصرِ

فتنهت من حسنه البهجِ
بجياة النفوسِ والمهجِ
واستمعها ودع مقال شجي

قسماً بالهوى لذي حجرِ ما لليلِ المشوق من فجرِ

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله ^١ :

١ الموشحة في أزهار الرياض ١ : ٣١٥ - ٣١٦ .

كم ليوم الفراق من غُصَّةُ
 نرفعُ الأمرَ فيهِ والقِصَّةُ
 في فؤاد العبيدِ
 للوليِّ الحميدِ
 رحل الرِّكبُ يقطعُ البيدا
 كلُّ وجنَّاءِ تُتلعُّ الجيدا
 بسفينِ النِّياقِ
 وتبذُّ الرِّفاقِ
 فسبتُ ليلةَ اللِّقا عيدا
 فهي ذاتُ اشتياقِ
 صائماتٌ لا تقبلُ الرُّخصه
 قَبِلَ فطيرِ وعيدِ
 فهي مُدُّ أملتَهُ مَحْتَصه
 بجهادِ جهيدِ

ومنه في آخره :

يا إمامَ العلاءِ والفخرِ
 هاكها لا عدمتَ في الدهرِ
 ذا السنِّ المبهجِ
 آملاً يَرتجِي
 عارضتُ قولَ بائعِ التمرِ
 بمقالِ شجي
 غرَّبوكِ الجِمالُ يا حَفْصه
 من مَكَانِ بعيدِ
 من سِجلماسةٍ ومن قَفْصه
 وبلادِ الجريدِ

وقد ألفت - رحمه الله تعالى - في هذا الفن كتابه المسمى بـ « جيش التوشيح »
 وأتى فيه بالغرائب ، وذيل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العَلم الشهير المنفرد
 في عصره بجيازة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد القشتالي - رحمه
 الله تعالى - بكتاب سماه « مدد الجيش »^٢ واستهله بقوله : حمداً لمن أمدَّ
 جيش محمد بعترته . وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة ،

١ هذه المخرجة قد تقرأ معربة وغير معربة .

٢ انظر روضة الآس : ١٦٢ .

وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسيني -
 رحمة الله تعالى ورضوانه عليه - ما زاده زِينًا ، وأخبرني - رحمه الله تعالى -
 أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من
 ثلاثمائة موشح ، ولا حرج في إيراد بعضها هنا ، فمنها قول أحد الوافدين من
 أهل مكة على عتبة السلطان مولانا المنصور^١ ، وهو رجل يقال له « أبو الفضل
 ابن محمد العقاد » وقد عارض بها موشحي لسان الدين وابن سهل السابقتين^٢ :

لَيْتَ شعري هل أروِّي ذا الظما من لَمَى ذاك الثَّغِيرَ الألعسِ
 وترى عيناَيَ ربَّاتِ الحمى باهياتِ بقُدودِ مُيسِرِ

يُدخلون السَّقمَ من دار اللوى كَلِمَ الهجرُ فؤادي وأسر
 هدًى من ركنِ اصطباري والقوى مُبدلاً أجفانَ نومي بالسَّهر
 حين عزَّ الوصلُ عن وادي طُوى هملتُ أعينُ دمعي كالطر

فعاكم أن تجودوا كرما بلقاكم في سوادِ الحِنْدِسِ
 وتداووا قلبَ صبِّ مغرما من جراحاتِ العيونِ النُّعَسِ

كلِّما جنَّ ظلامُ الغَسَقِ هزَّني الشوقُ إليكمُ شغفا
 واعتراني من جفاكم قلقي مُدِّ تذكرتُ جياداً^٣ والصفَا
 وتناهتُ لوعي من حرَّتي ثمَّ زادَ الوجدُ في التلفا

١ يعني السلطان أحمد المنصور الذهبي أبا العباس ابن محمد الشيخ المهدي السعدي ، وهو من أعظم
 سلاطين السعديين ؛ انتصر على البرتغاليين في موقعة وادي المخازن سنة ٩٨٦ وفتح السودان ،
 واهم ببناء المساجد والمستشفيات وشجع العلوم ؛ توفي سنة ١٠١٢ (راجع مناهل الصفا للفشتالي ،
 والجزء الخامس من الاستقصا والأعلام للشيخ العباس ابن إبراهيم) .

٢ وردت الموشحة في روضة الآس : ١٤ .

٣ جياد : يعني جبل أجياد بمكة .

فانعموا لي ثم جودوا لي بما
ساعة^١ لي من رضاكم مغنما
يُطف^١ نيران الجوى ذي القبس
وتداوي جثتي مع نفسي

كنت قبل اليوم في زهوٍ ونيه
ومعي ظي^٢ بإحدى وجتيه
مع أحبابي بسلح^٣ ألب^٤
مشرق^٤ الشمس وأخرى مغرب^٤
فرماني بهمام^٤ من يديه
ضارب^٤ العين قلبي متعب^٤

لست أرجو للقاهم صلماً
أحمد المحمود حقاً من سما
غير مدحي للإمام الأراس^٤
الشريف ابن الشريف^٤ الكيس^٤
ومنها قول بعض المراكشيين^٤ :

واخجلت^٤ للصبح
ساق^٤ يدبر^٤ الكؤوسا
والشمس إذ لاح^٤ جؤذر^٤
تضيء^٤ خمراً وتزهو^٤

تقادم^٤ في الدنان^٤
في لونها اليهرماني^٤
من عهد^٤ نوح^٤ ترووق^٤
تُدار^٤ فينا وتعبق^٤
قد^٤ أطلقت من عنان^٤
من^٤ عن صبوح^٤ يرفق^٤

يسمى بها من ملاح^٤
بالحسن^٤ يُصبي^٤ الجليسا
من كان باللحظ^٤ يسكر^٤
ويستخسف^٤ الموقر^٤

١ خرج عن الإعراب ضرورة .

٢ الروضة : الكرم ابن الكرم .

٣ انظر روضة الآس : ٢٩ .

٤ ق والروضة : البرهماني .

يثيرُ كامنَ وجدٍ في قلبِ كلِّ سقيمٍ
يَسْطُو عَلَيْنَا بَقْدٍ يزري بغصن قويمٍ
أشقى بعشقي ووُدِّي في جنَّةٍ ونعيمٍ

من ذي الوجوه الصُّباحِ يا شادناً غنّ واذكر
وهات لحناً نقيماً نرويه عنك ونأثر

في مدحٍ من سادِ طفلاً هذي البرايا وفاقا
من حاز مجداً وفضلاً بين الأنام وفاقا
في عدله قال قولاً يسري فيعدو العراقا

في أحمدٍ ذي السماحِ في الشرق والغرب يُنصر
أحيا الهدى والنفوسا وذلّ ملة قيصر

تراه ملماً وحرماً من رأيه في جنوده^١
يُختالُ لم يبع عجباً من عزّه في بروده
يهوى المعالي كبا ويقتنيها يجوده

فخار أهل البطاحِ وعزّ من قد تمصر
شناه يملأ الطروسا عن صورة المجد عبر

ملكٌ بنى في البديعِ منازلًا كالدراري
فيا له من صنيعِ الروض والماء جاري
فقلّ بصوت رفيعِ إذ بان فجرُ النهارِ

١ قافية هذا الغصن دون هاء في الروضة .

أهدى نسيمُ الصباحِ مسكاً شميماً وعنبر
وجيءَ بها خندريسا من خدِّ ساقيه تُعصر

ومن موشحات السلطان المنصور المذكور^١ :

ريّانُ من ماء الصبّا أهيفُ وممتلي البردِ

كالغصنِ هزته الصبّا فوقَ الرُّبى الشُّهبِ
قد قلتُ لَمَّا أن سبى بحُسْنِه يسبى
من عينه سلَّ ظُبي وغمدها قلنبي

أسرّني ماضي الشبّا أوطفُ مرتحُ القدِّ

يا فاضحَ الروض سنا بل محجلَ البدرِ
وقاطعي ظلماً عنا ومن مفره صدري
إن لم تكن شمس دُنا فإنها تجري

علقتُه من الظبّا أسجفُ يسطوعلى الأسدِ

قلتُ له وقد نهّدُ وجدّ في حربى
وغلبَ الظبى الأسدُ ففازَ بالغلبِ
الشمس برُجها الأسدُ فاسعَ إلى قلنبي

ولم يحضرنى الآنَ تمامها .

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني^٢ :

١ روضة الآس : ٥٦ .

٢ روضة الآس : ٥٧ .

وليلي الشعور إذ تسري ما لنهر النهار من فجرٍ

حبذا الليلُ طال لي وحدي
لو تراني جعلته بُردي
فاطمياً في خلعة الجعدي

هي ليلي أختُ بني بشرٍ فأين أنت يا أبا بدرٍ

كم سقطنا أطفَ من طلِّ^١
واجتمعنا وما درى ظلِّي
واسترحنا من كاشحٍ نذلٍ

ربّ ليل ظفرت بالبدرِ ونجوم السماء لم تدرِ^١

وبنفي مهفهِ^٢ ألى
ومطيعٍ وغرّي^٣ لما
سألته^٤ وقانعي^٤ ممّا

في رباط قسمتي صدري لحنين وناظري بدرٍ

وهلالٍ في حسنه اكتملا
هو شمسٌ وأضلعي الحملا
قام يشدو وينثي في ملا^٣

قسماً بالهوى لذي حجرٍ ما لليل المشوق من فجرٍ^٤

١ هذا القفل لسان الدين .

٢ الروضة : يا عفاي ، وسقطت اللفظة من ق .

٣ الروضة : في علا .

٤ هذا القفل لابن الصابوني .

[من مقطعات المنصور]

ثم عن لنا أن نورد هنا جملةً من مقطوعات مولانا السلطان المنصور مما تلقيناه عنه أيام كوننا في إيالته الشريفة ؛ فمن ذلك قوله زاداً على من قال في ابن أبي الحديد^١ :

لقد أتى بارداً ثقيلًا ولم يرث ذلك من بعيد
فهو كما قد علمت شيء أشهر ما كان في الحديد

ما صورته :

لقد أتى صارماً صقيلاً ولم يرث ذلك من بعيد
شديد بأس متى يعادي وشدة البأس في الحديد

ومن نظمه قوله^٢ :

لله تمرٌ طيبٌ وافى على البشرى انطوى
يا حُسنه مجتمعاً يجلو لنا بلا نوى

وقوله معنياً في « قمر » على طريقة الاكتفاء :

مُعذبي أعجزني نيله من لي بمن مسكنه في السما
لم أنس إذ قال ألا تكفي قلت بمن بالطرف قلبي رمي

وقوله :

تبدى وزند الشوق تقدحه النوى فتوقد أنفاسي لظاه وتضرم
وهش لتوديعي فأعرضت مشفقاً على كبد حترى وقلب يقسم

١ قال المقرئ لهما المؤلف « طي الفلك الدائر على المثل السائر » ولكنه لا يتذكر اسمه (الروضة : ٤٧).

٢ أكثر هذه المقطعات وردت في روضة الآس : ٣٦ - ٥٢ وفي مناهل الصفا ٢ : ٢٠٧ - ٢١٤ .

ولولا ثواه بالحشا لأهنتها
فأعجب لآساد الشرى كيف أحجمت^١
ولكنها تغزى إليه فتكرم^٢
على أنه ظي الكناس ويقدم^٣

وقال قدس الله تعالى روحه مورياً :

إن يوماً لناظري قد تبدى
فتملتى من حسنه تكحيلاً
قال جفني لصنوه لا تلاقي
إن بيئي وبين لقياك ميلاً

وقد تبارى خدماً أم حضرة هذا السلطان في تخميس هذين البيتين ، ومن أشهر ذلك قول الأستاذ الحافظ سيدي أحمد الزموري رحمه الله تعالى ، وكان يصلي بالسلطان التراويح :

ورقيب يسرددُ اللحظَ ردّاً
ليس يرضى سوى ازديادي بُعداً
سأه الطرف مذ جنى الخدءَ ورداً
إن يوماً لناظري قد تبدى
فتملتى من حسنه تكحيلاً

وتصدى من فحشه في استباق
يتمنع اللحظاً من جنى واعتناق
أيأس العين من لحاظ ائتلاق
قال جفني لصنوه لا تلاقي
إن بيئي وبين لقياك ميلاً

ومن نظم السلطان المذكور ، وهو من أوليات شعره ، قوله في وردة مقلوبة بين يدي محبوبه :

ووردة شققعت لي عند مرتهبي
راقت وقد سجدت لفاتر الحدق
كان خضرتها من فوق حمرتها
خال على خده من عنبر عبق
وقال أيضاً من أولياته :

١ الروضة : كيف تحجم .

ما خلاصي من سهام كامنه^١
وغزالي بعد خوفي آمنه^٢

شادن نَمَّ عليه عَرَفُهُ^١
أَحْلَالَ^٢ فِيهِ أَتَى خَائِفٌ

وقال في وصف رقيب ملازم :

فأين تَوَلَّى الطرفُ مني^٢ يراه
وصالي هلالٌ والسوادُ صداه

رقيبِي كأنَّ الأرضَ مرآةً شَخِصَهُ
مقيمٌ بوجهِ الوصلِ حتَّى كأنَّما

وقال :

ولمَّ يتلقَّ ناظراي سواك^٣
إذا فُتَّ طرفي على الأنفِ يراك

أيا روضةً ضنَّتْ عليَّ بزهرها
أبيحي لتَنفسي من شَدَاكِ بقاءها

وقال أيضاً :

لثلا يرى الشمسَ الرقيبةَ لي طرفُ
غريقاً ونقطاتِ العبيرِ بهِ كَلَّفُ

على جدولٍ غطَّتْ عليهِ بشعرها
فبتُّ أرى في جدولٍ بدرَ وجهها

وقال :

به فتولَّى بالظُّبِّي وهو يبعدُ
وعلِّمَ غزلانِ النقا كيف تشردُ

طرقتُ حِمَاهُ والأسودُ خَوَادِرُ
فعلِّمتُ آسَادَ الشرى كيف تقدمُ

وقال :

وأنى يعلِّني برعني كواكبه^١
والبينُ مُزنيُّ الصباحِ كواك به^٢

لمَّا نأى المحبوبُ رِقَّ لي الدُّجى
أولى غرابِ البينِ ردك يا حشا

١ الروضة : نفحه .

٢ اقرأ بخطف الياء وجعلها حركة كالكرة على النون .

٣ الروضة : سنك .

وقال معمياً باسم حَظِيَّتِهِ الشهيرة الحسن والإحسان « نسيم » :

يا هلالاً طلوعهُ بينَ جفنيَ وغزالاً كناسهُ بينَ جنبي
إنَّ سهماً رميتَ غادر همّاً لو تناهى ما شكَّ آخرُ قلبي

ورأيت بخطه على هذا المحل ما صورته : قولي « إنَّ سهماً » تنصيب ،
و « غادر همّاً » إسقاط ، وهو إشارة لإسقاط « همّاً » من هذا الاسم ، وقولي
« لو تناهى » انتقاد ، والانتقاد : الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء
الاسم المطلوب ، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس ، ويعني به
الحرف الأول من الكلمة ، والقلب والجوف والحشا والخصر ، ويراد به الوسط ،
والآخر والنتهى والختام ، ويقصد به آخر الكلمة ، فقولي « لو تناهى » معناه
أنه أخذ لفظة هم غير متناه ، فبقيت الميم من همّاً ، وقولي « ما شكَّ آخر قلبي »
انتقاد أيضاً ، وأردت بآخر قلبي الياء ، ويسمى أيضاً التسمية ، وهو : أن تذكر
الاسم وتريد المسمى ، أو تذكر المسمى وتريد الاسم ، وقد تم الاسم .

واعلم أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم^١ بطريق التعمية حصولها بحركاتها
وسكناتها ، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع
ذلك فمن المحسنات ، ويسمى العمل « التذييلي^٢ » . انتهى كلامه على البيتين
في اسم نسيم .

وقال في اسم « غزال » وقد جمع تعميتين ولغزاً :

وأملد مطوي الحشا زال ردفه فلا خصر إلا إن تصورته وهما^٣
بنصف اسمه يرمي القلوب وعكس ما بقي أبدأ أذن المحبّ به أصمى

١ الروضة : الكلمة .

٢ ق : التذييل .

٣ سقطت اللفظتان من ق ، وأثبتناهما من الروضة .

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت به بعمل الترادف غصن ، و « مطوي الحشا » انتقاد ، و « زال ردفه » قضيت به غرضين ، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقي بعد طي الصاد التي بوسطه ، وأثبتته - أعني « زال » - في موضعها : أي النون من غصن ، والحال أن الصاد محذوفة ، وذلك بعمل الانتقاد ، وأوضح ذلك بقولي « فلا خصر » وإن كنت لا أحتاج إليه ، لتلا يكون في البيت شيء خارج عن التعمية ؛ انتهى تفسيره ، رحمه الله تعالى .
 ويعني بقوله « بنصف اسمه يرمي القلوب » غز ؛ لأنه نصف غزال ، ويعني بقوله « وعكس ما بقي إل آخره » لفظة « لا » لأنها مقلوب ما بقي وهو « ال » .

وقال في اسم « سلاف » على منهاج ما تقدم :

وأحورَ وسنانِ الجفونِ كأنما سقى لحظه من ريقٍ فيه بقرقفٍ
 نضا صارماً لا قلَّ صارم لحظه تزايد فيه منذ سل تلاه في

وفسره بقوله : قولي « تلاه في » من طريق التسمية ، و « في » من العمل التذييلي وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها وسكناتها ، وهي من المحسنات كما سبق .
 وقال في اسم « آمنة » من التعمية أيضاً :

من شقائي قنصته وهو خشفٌ في رضاه عن الملوك ابتدلتُ
 أملدٌ منه مذ تحلل خصرٌ وتثنى عن حبه ما عدلتُ

وكتب عليه ما صورته : قولي « أملد » أردت الألف بعمل التشبيه ، و « خصر منه » انتقاد ، وأردت بالخصر وسط لفظة « منه » وتحلله : أن ينحل السكون الذي على النون ، وقولي « وتثنى » أي الألف من التثنية ، لا التثني ، فتم الاسم

١ الروضة : لم أقل ف أن قلت فات فهمت .

بمركباته وعدده ؛ انتهى تفسيره .

وقال وقد ليس منصورية من النوع الذي يقال له « قلب حجر » ، والمنصورية :
نوع ليس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه :

وصَفُّوا اشتياقي للحبيب وسرَّهم قولُ الحبيبِ أنا أنا فيه
فكُنِّي له حجرٌ ، فقلت مغالطاً للعاذلِ المؤذي أنا فيه

قال : وفي هذين البيتين عدة من المحسنات غير التعمية : منها جناس التركيب
المسمى بالملفق ، وحدهُ : بأن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين ، وهذا
هو الفرق بين الملقق وبين المركب ، وقلَّ مَنْ فرق بينهما ، ومنها الانسجام ،
ومنها الاستخدام . وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيطمي تعرض إلى شرحهما
بكراسة . والتعمية في هذين البيتين بالعمل الحسابي وهو كثير ، إلا أن هذا
العمل أحسبني أبا عنزته إذ لم أره لغيري ، ومادة التعمية فيه « أنا أنا فيه » ، قلبي
له حجر « فقولي « أنا أنا فيه » معناه أن تضرب « أنا » في ه ، وقولي « في ه »
نص في الضرب ، ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقك ،
وقولي « قلبي له حجر » بعمل القلب يصير « رجح » فصار المجموع « هيماني
وحقك يرجح » ، وفيه التورية ، و « هيماني وحقك » الخارج من هذا الضرب
فيه تهكم بالواشي ، فهو من المحسنات أيضاً ، أعني قوله « وحقك » ، ويصلح
أن تسمى هذه التعمية بالافتنان ، لأن الافتنان عندهم : أن يفتن الشاعر فيأتي
بفتنٍ متضادين من فنون الشعر في بيت واحد ، وهذا وقع التضاد فيه في كلمة
واحدة ، فظاهر « أنا أنا فيه » يضاد « هيماني وحقك يرجح » الذي يخرج بطريق
الحساب ، فافهمه ، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعاذل المؤذي
« أنا فيه » ؛ انتهى .

والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله « أنا فيه » أي في هذا الثوب المسمى بقلب حجر ، كما دلت عليه الحكاية ، وأما المعنى الثاني لقوله « أنا فيه » فظاهر .
وقال وقد قطف وردة من روض المسرة في زمن الرجس :

وافى بها البستانُ صنوكَ وردةً يقضي بها لما مَطَلَّتْ وعوده
أهدى البهارَ محاجراً وأتى بها في وقته كيما تكونَ خدودا
فبعثها مرتادةً بنسيمها تشي من الروضِ النضيرِ قُدُودا

وقال :

لي حيبٌ يأتي بكلِّ غريبٍ هو عندي مُتَكَرِّرٌ ومعرَّفٌ
لستُ أشكو لصيرفيٍ ونحوي أنه بي نَحَا وفيَّ تصرَّفٌ
فعله فيَّ لازمٌ متعدِّدٌ ومزيدٌ مجردٌ ومضعَّفٌ

وقال :

لا وطيفَ علمِ السيفِ فقد في قوامِ كفننا الخطَّ نهدٌ
ووميضٍ لاحَ لئسا بسمتِ فأرتنا منه دُرّاً أو برَدٌ
ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ منه حسناً وعلاءٌ وغيدٌ
ولذا عاش قليلاً ناحلاً كيف لا يفتنى نحولاً من حسدٍ

وقد ضمنَّ قوله « ما هلال الأفق » أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال :

قسماً بالبيت والركن الذي طابَ حجاً واستلاماً للأبدِ
« ما هلالُ الأفقِ إلا حاسدٌ » منه حسناً وعلاءٌ وغيدٌ

وقد اتفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية ، هو والعقاد المكي

السابق والشريف المدني ، وهو رجل وافد من أهل المدينة انتمى إلى الشرف ،
فقال إمام الدين : يا أمير المؤمنين ، إن المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال
شَدَّ أهلها إليك الرحال : هذا مكِّي ، وذاك مدني ، وأنا مقدمي ، ثم أنشد ١ :

إنَّ أمير المؤمنين أحمدُ بحرُ الندى وفضله لا يُجحدُ
فطيةٌ ومكةٌ أهلهما والمسجدُ الأقصى بذاك شهدوا

رجع إلى نظم المنصور ، وقال :

وكيف بقلبٍ في هواه مقلَّبٍ وأنى له بين الضلوعِ مقامُ
فيا شادناً يرعى الحشائنتَ بالحشا أما لمحلِّ أنتَ فيه ذِمَامُ

وقال يخاطب رئيس كتابه صاحبنا سيدي عبد العزيز الفشتالي السابق الذكر :

يا كاتباً ألفاظه تغرس^٢ روضاً ذا فن
إنَّ جوابي للذي يشكو دناه اردد حزن

وقال مؤرباً بمصانعه الثلاثة : البديع ، والمسرة ، والمشتهى :

بستانُ حسنك أبدعتَ زهراته ولكم نبيتُ القلبَ عنه فما انتهى
وقوامُ غصنك بالمسرةِ ينثني يا حسنه رمانةٌ للمشتهى

ولولا خوف الإطالة المُملة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور
— رحمه الله تعالى — بعض ما أؤدي به حقه ، سقى الله تعالى عياده ، وقد
بسطت الكلام على السلطان المذكور في كتابي « روضة الآس العاطرة الأنفاس
في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » وأطال الكلام على ترجمته صاحبنا

١ الروضة : ١٤ .

٢ الروضة : إذا كتب يفرس .

الوزير الكبير الشهيد سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي في كتابه المسمى بـ « مناهل الصفا في فضائل الشرفا » وعهدي به أكل منه ثمانى مجلدات ، وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وذويه ، وألف كتاب أسرار الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى فيه كتاباً سماه « المملود والمقصور من سنا السلطان المنصور » وهذه التسمية وحدها مطربة ، رحم الله تعالى الجميع .

رجع إلى التوشيح :

كتب لى بعض أذكىاء الأصحاب الأعيان موشحاً يمدحني به في آخره
عارض به موشح لسان الدين السابق الذي أوله :

جارك الغيث إذا الغيث همتى يا زمان الوصل بالأندلس

ونصه :

عطرَ الأرجاء لما نَسَمَا شمَّالٌ للصبح عندَ الفلَسِ
وأنت شمسُ الضحى تنسخُ ما يقرأ الليلُ لنا من عبَسِ

طافَ بالكأسِ من الزهرقى مولىً بالصدِّ عني مذ قتي
فن الألبابَ لما التفتا واحتسى منه بعضِ الشفةِ
وأنا ما بينَ حتى ومتى صدّه تيهُ الهوى عن ألقى

وكؤوسُ الراحِ بينَ الندما أوجتْ بالعرفِ أفقَ المجلسِ
خمرةٌ صفراءُ في البلورِ ما أشبهَ الحانَ بروضِ الرجسِ

بادرِ اللذةِ واجمعْ شملها بمسدامٍ وغسلامٍ مطربِ
ذي عيونِ ناعساتٍ كم لها من فنونِ السحرِ ما يلعبُ بي
وافرِ الأردافِ عانى حملها ناحِلِ الحصرِ ، وذا من عجبِ

كَلِمَا أُتْرِعَ كَأْسًا قَالَ مَا
فَابْدِلِ الْجَهْدَ وَكُنْ مَغْتَنِمًا
أَنْتَ بِالشَّارِي حَيَاةَ الْأَنْفَسِ
لِنَفْسِ النَّفْسِ طَيْبَ الْأَنْفَسِ

فُرِّصُ الْأَيَّامِ كُنْ مُنْتَهَزًا
وَرِحَابَ الْأَنْسِ لُحْجٌ مُتَجَزِّأً
مَبْتَدَاهَا قَبْلَ حَذْفِ الْخَبْرِ
قَبْلَ أَنْ تَمْضِيَ كَلِمَحَ الْبَصْرِ
وَاجِنٍ مِنْ زَهْرِ الْهَوَى مَحْرَزًا
مِنْ جَنَائِثِ هَجُومِ الْكَبْرِ

لَا تَخْفُ لَوْمًا وَيَمُّ حَيْثَمَا
مَا مَضَى أَنْسٌ وَوَأْفَى مِثْلَمَا
لَا حِثَّ اللَّذَاتُ كَالْمَخْتَلَسِ
كَانَ ذَا الدَّهْرِ لَنَا بِالْحُرْسِ

لِلرِّيَاضِ إِذْ هَبْتُ تَرَى بُلْبُلَهَا
وَخَلُودُ الْوَرْدِ قَدْ كَلَّلَهَا
لَا شَتِيَاقِ الْوَرْدِ مِثْلَ الثَّكْلِ
دَمْعٌ طَلَّ لِأَشْتِيَاقِ الْبَلْبَلِ
وَقَلُودُ الْبَانِ قَدْ قَامَ لَهَا
مَانِعُ الْوَصْلِ بِحَدِّ الْأَسْلِ

وَالرُّبِّي فَاحَتْ تَحَاكِي خَدَمَا
جِيهًا زُرَّرَ بِالزَّهْرِ كَمَا
وَعَلِيهِنَّ ثِيَابُ السَّنْدِسِ
زُرُّ بِالْفِضَّةِ ثَوْبُ الْأَطْلَسِ

وَجَلَا الرُّوضُ لَنَا أَشْجَارَهُ
وَتَرَى فِي جِيدِهَا نُورَهُ
مَائِسَاتٍ فِي قَبَاءِ أَخْضَرِ
يَتَلَلَا كَعُقُودِ الْجَوْهَرِ
فَقَدَا كَالصَّبْحِ بَاهِي الْمَنْظَرِ
خَلَعَ اللَّيْلُ بِهِ أَطْمَارَهُ

وَبَقَايَاهُ زَهَتْ فِيهِ أَمَا
كَعِدَارٍ فِي عَيْتَا عِلْمَا
فِي شِفَاهِ الْعَيْدِ حُسْنُ اللَّعَسِ
فَبَدَا لِلغَيْرِ لَا الْمَتَمَسِ

حَبْدًا الصَّبُورَةَ أَيَّامَ الصَّبَا
فَإِذَا أَيْقَظَهَا دَهْرٌ صَبَا
وَعْيُونَ الشَّيْبِ فِي سَهْوِ الْوَسَنِ
لِصُرُوفِ حَدِّ شَفْرِهَا وَسَنِ
جَرَدَ الشَّيْبُ لَنَا بِيضَ الشَّبَا
وَاقْتَضَى شَرْحَ شَبَابِ وَطَنِ

وغدا الإنسانُ شيخاً هَرِمًا
فاتَ إذ ماتَ فيقضي ندمًا
واعتراه لاعجٌ من وجَسٍ
واغتنامُ الوقتِ شغلَ الكَيِّسِ

لا تدعُ عُمرَكَ يمضي هَدَرًا
وارقَ بالجهدِ من السؤلِ الذرا
أنتَ إذ ذاكَ جَبانٌ غافلٌ
واجتهدْ والضرعُ ضخمٌ حافلٌ
إنما الأيامُ أمثالُ الشرى
والجرىءُ الشهمُ ليثٌ باسلٌ

ووحوشُ الإنسِ تسمى مغنما
تركَ الوهمَ وخاضَ الظلما
باردًا لئلا سَدَ المفترسِ
ولهُ العزمُ أضأ كالقبسِ

ليسَ يحظى بالمُنَى إلا الذي
كانَ للراحةِ كالمتبذِ
كابَدَ الأهوالَ حتى ظفرا
مِن وراءِ الظهرِ أتى ظهرا
يقطعُ الليلَ جميعاً سهرا
مثلما قد باتَ ذا طرفِ قَدِي

في طِلابِ العلمِ حتى علما
أحمدَ الناصبِ فينا علما
أنهُ يملا بروحِ القدسِ
للتقى فاز به منْ يأتي

حلَّ في مصرَ وإن كان العُلا
ورياضُ الفضلِ لما أن علا
قد عفتْ لما اعتراما في خَلَلْ
نَقَعُ جهلٍ جفَّ منهن البلل
قاعها منْ عَدَبَ ما يَشفي العلال
ازدَرَّتْ أغصانها حتى خلا

نفرتَ إذ حلَّ فيها كالسما
حوله الطلابُ كالشُّهبِ سما
وهو بدرٌ بكمالِ مكتسِ
قدرها من نورهِ المقتبسِ

أيها الطالبُ للعلمِ اتدَّ
إن ترمِ نَيْلَ المرجى فاجتهدْ
ليسَ إلا بابهُ ينفعا
في اتِّباعِ للذي يرفعا
منهُ واتركْ حاسداً يدفعا
عِلْمُ مَنْ يَعْمَلُ إِكْسِيرٌ فزَدَ

والزَمِ الأَعْتَابَ وانزَلْ بِالْحَمَى
باعتقادٍ فَازَ من قَد لثَمَا
مذ خَبَّرْتُ النَّاسَ طَرّاً نظراً
لم أَجِدْهُ إِلا مَقَالاً صدراً
غَيْرَ ما يَمْلِيهِ فانظُرْ لَتَرى
بِيدِيعِ التَّنَطُّقِ لَمَّا نظماً
وَأَتَى يَخضَعُ جَمْعُ العِلْمَا
إِنَّمَا المَجْدُ الرَفِيعُ المِمتطِي
يَدْعُ المَرْفُوعَ كالمُنهَبِطِ
نَاطِراً في أَمْرِهِ بالأَحْوِطِ
كَلَّ من أَمِّ حَمَاهُ قَد حَمَى
فَإِذَا جَرَدَ مِنْهُ انفِصَمَا
جَبَدَا المَغْرِبُ قَطِراً بالسَّنَا
قَطْرُهُ الشَّامِخُ قَد أَهْدَى لَنَا
كَلَّ من فَاتَتْهُ أُسْبَابُ المُنَى
قَل لِمَن يَرْتَجُو سِوَى المَذكُورِ مَا
لَا ، وَلَا النَّاسُ سِوَا إِنَّمَا
لُدَّ بِشَهْمٍ فَازَ مَنْ أَمَلَهُ
أَثَقَلَ السُّودُودُ إِذِ حَمَلَهُ
وَحِمَاهُ الأَمْنُ ، من أَمِّ لَهُ

خَالَعِ الرِّبْقَةَ من قَوْلِ المَسِي
نَعْلَهُ وَالكَبِيرُ شَأْنُ المَبْلِسِ ١
لِمَنَاطِ الأَمْرِ في هَذَا الزَّمَانِ
عَن دَعَاوِ أَخْلَفَتْ عِنْدَ العِيَانِ
دُرَّرَ الأَلْفَاظِ في سِمَطِ البَيَانِ
بُهَيْتَ المُنطِيقُ مِثْلَ الأَخْرَسِ
نَحْوَ ذَا المَفْرُودِ في المَلْتَمَسِ
أرؤس الآسادِ قسراً مِثْلَ ذَا
ثُمَّ لِلنَّازِلِ يُعْلِي مِثْلَ ذَا
خَافِضِ الطَّرْفِ عَلى حَرِّ القَدَى
بِحُسامِ العِزْمِ هِشَّ المَلْمَسِ
جَلَمَدُ الصَّخْرِ بِذَاكَ المِيسِ
فَضْلُهُ يَبْهَرُ بِدَرِّ الأَفْقِ
سَيِّدَا قَد فَاقَ شَمْسَ المَشْرِقِ
بِعُـلَاةِ اللُّرْيَا يَرْتَقِي
يَنْبُتُ الزَّهْرُ بِأَرْضِ اليَيسِ
رَأْيُ مَنْ سِوَاهُمْ في هِوسِ
بِنِوَالِ فَاقَ سَحَّ الهَامِلِ
وَقَرَّ فَضْلَ مَسْتَبِينِ شَامِلِ
بَلِغِ القِصْدِ ، فَبِشْرِ الأَمَلِ

بحره الوافرُ بالعلم طما كاملَ الأمدادِ لم يحتبسِ
نال منهُ الناسُ حتى عمما مشرقاً والغربَ للأندلسِ
رجع إلى موشحات لسان الدين ابن الخطيب ، رحمه الله تعالى ،
فمن المنسوب إلى محاسنه قوله :

قد حرّكَ الجلجلُ بازي الصباح والفجرُ لاح
فيا غراب الليلِ حثَّ الجناح

وهذا مطلع موشح بديع له لم يحضرني الآن تمامه ؛ لكوني تركته وجملة من
كلام لسان الدين في كتبي بالمغرب جبرها الله تعالى عليّ ، وهو معارض للموشح
الشهير الذي أوله :

بنفسحُ الليلِ تذكّي وفاح بينَ البطاح
كأنه يسقى بمسك وراح

وهذا المنحى هو الذي سلّكه الجمالُ ابنُ نُبّاتة^١ إذ قال مادحاً لجلال الدين
الخطيب رحم الله تعالى الجميع :

ما سَحَّ محمراً دموعي وساحَ على الملاح
إلاّ وفي قلبي المعنى جراح
بي من بي الأتراك حلّوا الشبابُ مرُّ السطا
عشقتُهُ حينَ عدمتُ الصوابُ من الخطا
تشكّو حشا الغزلان منهُ التهابُ إذا عطا
وربّما تشكّو الغصونُ اكتابُ إذا خطا

١ هو محمد بن محمد بن محمد ابن نبّاتة الفارقي وله ترجمة مسهبة في الوافي ١ : ٣١١ - ٣٣١ ولم
ترد الموشحة هنالك أو في ديوانه .

ما ماسَ ذلكَ الغصنُ بينَ الوشاحِ إلا وراح
 قولُ عدُو لي كلُّهُ في الرياحِ
 أما لصبٍ دمعهُ حيثُ كانُ دمعُ أريقِ
 هذا أسيرٌ في وجوهِ الحسانِ وذا طليقِ
 أرقَ جِسمي بالضنى يومَ بانُ بدرُ الفريقِ
 فها أنا اليومَ لهُ يا فلانُ عبدُ رقيقِ
 يزيدُ أجفاني ندى وارتياحِ نهى اللّواحِ
 مثلَ جلالِ الدينِ يومَ السّماحِ
 حبرٌ لهُ في الخلقِ ذكرٌ جميلُ لا يُفتري
 ما حِ على غيظِ الغمامِ البخيلِ محلّ التّرى
 ما رأيتُ العينَ لهُ من مثيلِ ولا ترى
 يوقدُ في أوطانِهِ للنزِيلِ نارَ القِرى
 شرارها في الكيسِ حمراً صحاحِ لها اقتداحِ
 لكتها في القلبِ عذبٌ قراحِ
 يا مالكَ العِلمِ وفيضَ الندى جُزت المدى
 فابنقَ وكلُّ العالمينَ القِدا دع العِدا
 أنتَ الذي أصبحَ غيثُ الجِدا صبحَ الهدى
 كم يُفتنى منكَ وكم يُقتدى ويُجتدى
 علمٌ جليٌّ ونوالٌ صُراحِ صفو مُباحِ
 يروي بهِ راوي الرّجا عن رباحِ

ومُغْرَمٍ لا يَخْتَشِي مِن رَقِيبٍ ولا عذولٍ
 معلق القلب بشجوة عَجِيبٍ ولا وصولٍ
 يَسْكُرُ لكن بصفات الحَيِّبِ لا بالشَّمولِ
 لما رنا الظبي وماس القَضِيبِ أضحى يقول
 كم يتنضي جفنك وعطفك صِفاحٍ على رماح
 ما ذي محاسنٍ ذي خزائنٍ سلاح

ومن الموشحات الصادرة من المشاركة المعارضة للمغاربة قول عثمان البلطي^١
 مدح القاضي الفاضل :

وبلاه من رَوَّاعٍ بجوره يَقبُضي
 ظبي له إغذاذٌ منه الجفا حظي

ولم أقف على تمامها ، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة ، وهو :

عقاربُ الأصداعُ في السوسن الغضِّ
 تَسْبِي تَقَى من لاذ بالنسكِ والوعظِ
 مِن قَبْل أن يَعْدُو عليَّ لَمَّ أَحسبُ
 أن تَخْضَعُ الأَسَدُ لِحُؤْذِرِ الرِّبْرِبِ
 ظبي له خدٌّ مُفَضَّضٌ مُذْهَبٌ
 وشادنٌ يَبْدُو في صدغه عَقْرَبُ

١ في ق : الملطي والتصويب عن معجم الأدياء (١٢ : ١٤١) وقال نسبة إلى بلط التي تقارب الموصل
 وذكرها في معجم البلدان بالياء . وعثمان بن عيسى البلطي انتقل إلى دمشق وعلم في الزبداني ولما فتح
 صلاح الدين مصر انتقل إليها وفيها توفي سنة ٥٩٩ بعد أن كان يدرس النحو ويقرئ القرآن ؛
 وقد أورد ياقوت موشحته ص : ١٤٧ كما أوردها ابن شاعر في الفوات ٢ : ٦٧ في ترجمة
 البلطي .

رقة زهر الباغ^١ في جسمه الفضي
وقسوة الأفلاذ في قلبه الفظ

مهفهف بدع أصبحت مغرى به
قلبي له ربع لو كنت في قلبه
أصابني صدع مذ لج في عتبه
السهد والدمع حظي من قربه

والعين لا ينساع لها جنى الغمض
والدمع ذو إغذاذ ناهيك من حظ

ومن أحسن ما للمشاركة من التوشيح قولُ الشهاب العازمي يعارض أحمد
ابن حسن الموصل^٢ :

يا ليلة الوصل وكأس العقار دُونَ استتار
علّمتماني كيف خلع العذار

اغتم اللذات قبيل الذهاب
[وجرّ أذيال الصبا والشباب]^٣
واشرب فقد طابت كؤوس الشراب

على خدود تبتُّ الجلنار ذات احمرار
طرزها الحسنُ بأس العذار

١ الباغ : الحديقة .

٢ انظر المنهل الصافي ١ : ٣٤٤ وتوشيح التوشيح : ١٠٩ .

٣ سقط هذا الشطر من ق .

الراح لا شك حياة النفوس
فحل منها عاطلات الكؤوس
واستجلاها بين الندامى عروس

تُجلى على خطابها في إزار من النصار
حبابها قام مقام النصار

أما ترى وجه الهنا قد بدا
وطائر الأشجار قد غردا
والروض قد وشاه قطر الندى

فكمل اللهو بكأس تدار على اقرار
مبسم النوار غب القطار

اجن من الوصل ثمار المني
وأوصل الكأس بما أمكنا
مع طيب الريقة حلو الجني

بمقلة أفتك من ذي الفقار ذات احورار
منصورة الأجنان بالانكسار

زار وقد حل عهود الجفا
وافتر عن ثغر الرضى والوفا
فقلت والوقت لنا قد صفا

يا ليلة أنعم فيها وزار شمس النهار
حييت من بين الليالي القصار

ويعجبي من موشحات الغزالي المذكور قوله ١ :

ما على من هام وجداً بذوات الحلى
متلى بالحدق السود وبيض الطلى

بالسوى ملكي حسن لديوني لوى
كم نوى قتلي وكم عذبي بالنوى
قد هوى في حبه قلبي بحكم الهوى

واصطفى نار تجنيه ونار القلى
كيف لا يتوب من هام بريم الفلا

هل ترى يجمعنا الدهر ولو في الكرى
أم ترى عني محياً من الجسمي برى
بالسرى يا حاديتي ركب يليلي سرى

عللاً دون الحمي ، حي الحمي منزلاً
قلبي بتذكار اللقاء عللاً

بي رشا دمني بسرّي في هواه فشا
لو يشا برّد مني جمرات الحشا
ما مشى إلا انثى في سكره وانثى

عطلا من الحميا يا مدير الطلا
ما حلا إذا أدار الناظر الأكحلا

هَلْ يَلَامُ	مَنْ غَلَبَ الْحُبُّ عَلَيْهِ فَهَامَ
مُسْتَهَامٌ	بِفَاتِرِ اللَّحْظِ رَشِيقِ الْقَوَامِ
ذِي ابْتِسَامٍ	أَحْسَنَ نِظْمًا مِنْ حَبَابِ الْمَدَامِ
لَوْمِلا	مَنْ رَيْقَهُ كَأْسًا لِأَحْيَا الْمَلَا
أَوْ جَلَا	وَجْهًا رَأَيْتَ الْقَمَرَ الْمُجْتَلَى
لَوْ عَقْنَا	قَلْبُكَ عَمَّنْ زَلَّ أَوْ مِنْ هَقْنَا
أَوْ صَفْنَا	مَا كَانَ كَالْجَلْمَدِ أَوْ كَالصَّفَا
بِالسُّوفا	سَلَّ عَنْ فَيِّ عَذْبَتِهِ بِالْجَفَا
هَلْ خَلَا	فُؤَادَهُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَلَا
أَوْ سَلَا	أَوْ خَانَ ذَاكَ الْمَوْثِقَ الْأَوْلَا

وقوله أيضاً يعارض الموصلي^١ :

مَا سَلَّتِ الْأَعْيُنُ الْفَوَاتِرُ	مَنْ غَمَدِ أَجْفَانِهَا الصَّفَاحِ
إِلَّا أَسَالَتْ دَمَ الْمَاجِرُ	مَنْ غَيْرِ حَرْبٍ وَلَا كِفَاحِ
تَاللَّهِ مَا حَرَّكَ السُّوَاكِنُ	غَيْرُ الظُّبَّاءِ الْجَاذِرِ
لَمَّا اسْتِجَاشَتْ بِكُلِّ طَاعِنُ	مَنْ الْقُسُودِ النَّوَاضِرِ
وَفُوقَتْ أَسْهَمَ الْكِنَانِ	مَنْ كُلِّ جَفْنٍ وَنَاظِرِ
عُرْبٌ إِذَا صَحَنَ بِالْعَامِرِ	بَيْنَ سَرَايَا مِنَ الْمَلَّاحِ
طَلَّتْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاجِرِ	طَلَائِعُ تَحْمَلُ السَّلَاحِ

١ المنهل الصافي ١ : ٣٤٧ .

أَحْبَبُ بِمَا تَطْلَعُ الْجُيُوبُ
من أَمْرٍ مَا لَهَا مَغِيبُ
هِيَهَاتَ أَنْ تَعْدَلَ الْقُلُوبُ
لَمَّا تَوْشَحْنَ بِالْغَدَائِرُ
فَانْهَزِمِ اللَّيْلُ وَهُوَ عَائِرُ
وَأَهْيَفِ نَاعِمِ الشَّمَائِلُ
فَيَنْثَنِي كَالْقَضِيبِ مَائِلُ
لَهُ عِذَارٌ كَالنَّدَى سَائِلُ
شُقَّتْ عَلَى نَبْتِهِ الْمَرَائِرُ
تَكَلُّ فِي وَصْفِهِ الْخَوَاطِرُ
ظَهِيَ إِلَى الْإِنْسِ لَا يَمِيلُ
الْحَسَنُ قَالُوا وَلَمْ يَقُولُوا
وَطَرْفَهُ النَّاعِسُ الْكَحِيلُ
أَذَلَّ بِالسَّحْرِ كُلِّ سَاحِرُ
يَجُولُ فِي بَاطِنِ الضَّمَائِرُ
أَمَا تَرَى الصَّبْحَ قَدْ تَطَلَّعَ
وَالْبَدْرَ نَحْوَ الْغُرُوبِ أَسْرَعُ
وَالْبَرْقَ بَيْنَ السَّحَابِ يَلْمَعُ
وَتَحْسَبُ الْأَنْجَمَ الزَّوَاهِرُ
فَانْهَزِمِ النَّهْرُ وَهُوَ سَائِرُ

١ المنهل : في ذيله .

وموشحة الموصلي التي عارضها الغزالي هي قوله ١ :

رنا بأجفانه الفواتر	لمّا انثنى واحدٌ الملاح
فسلّ من طرفه بواتر	وهزّ من عطفه رماح
ناظره جرّد المهتد	وغمده منّي الحشا
وعامل القدّ فهو أملد	يطعن للقلب ^٢ إن مشى
والعارض القائم المزد	لفتنة الناس قد نشا
والحاجب القوس ^٣ ، بالفواتر	لنبله في الحشا جراح
ومشرف الصدغ فهو جائر	سلطانه للدما أباح
فجفنه ^٤ الفاتك الكِناني	من تُعل ^٥ رآش لي نبال
وهو الخفاجي ^٥ قد غزاني	ووجهه من بني هلال
عبسي ^٥ لحظ له سباني	جسم زيدي ^٥ بالدلال
والردف يدعى من آل عامر	وواضح الصلّت من صباح
وخصره من هشيم ^٥ ضامر	يلور من حوله وشاح
فوجهه ^٥ جنّة وكوثر	رُضابه العذب لي حلا
والنار في وجتيه تسعر	حياها خاله ^٥ اصطل
عجبت ^٥ من خاله المعنير	إذ يعبد ^٥ النار كيف لا

١ المنهل الصافي ١ : ٣٥٠ .

٢ المنهل : في القلب .

٣ المنهل : من مقل ؛ وتعل : قبيلة مشهورة بالرماية .

٤ المنهل : هتيم .

٥ ق : وأخال خياها .

يُحَرِّقُ ^١ بِالنَّارِ وَهُوَ كَافِرٌ	وَمَا سَقَى رَيْقَهُ الْقِرَاحُ
كَامِلٌ حَسَنٌ مَعْنَاهُ وَافِرٌ	بَسِيطٌ وَوَصَفٍ كَالْمَسْكِ فَاحٌ
مَا اخْضَرَ نَبْتُ الْعَذَارِ إِلَّا	بِأَسِهِ سَيْحٌ الشَّقِيقِ
وَهُوَ كَنَمَلٍ سَعَى وَوَلَّى	وَلَمْ يَجِدْ لِلْجَنِيِّ طَرِيقَ
مِنْ رَيْقَةِ الْبَدْرِ إِذْ تَجَلَّى	فِي هَالَةِ الْعَارِضِ الْأَيْقِ
لَمَّا تَبَدَّى بِالْوَجْهِ دَائِرٌ	وَحَبَّرَ الْعَقْلَ حِينَ لَاحَ
شَقٌّ عَلَى خَدِّهِ الْمَرَائِرِ	وَقَطَعَ الْأَنْفُسَ الصَّاحِ
وَرُبَّ يَوْمٍ أَنَى وَحَيًّا	كَالشَّمْسِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ
بِالْكَاسِ وَالرَّاحِ وَالْمَحْيَا	ثَلَاثَةٌ تَفْتَنُ الْبَشَرَ
وَقَالَ قَوْمٌ يَا نَدِيمُ هَيَّا	اقْضِ بِنَا لَذَّةَ الْوَطْرِ
فَالْحَمْرُ تُجَلِّي عَلَى الْمَزَاهِرِ	مِنْ اغْتِيَابِ إِلَى اصْطِبَاحِ
وَطَافَتِ الرَّاحُ بِالْمَجَامِرِ	مِنْ عَنَبِ الزَّهْرِ فِي الْبَطَاحِ

وَمِمَّا يُطْرَبُنِي مِنَ الْمَوْشِحَاتِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ^٢ :

مَا بِي شَمُولٌ إِلَّا شَجُونٌ	مَزَاجُهَا فِي الْكَاسِ دَمْعٌ هَتُونٌ
لِلَّهِ مَا بَدَّرَ	مِنْ الدَّمْعِ
صَبًّا قَدِ اسْتَعْبَرُ	مِنْ الْوَلْوَعِ
أَوْدَى بِهِ جَوْذَرٌ	يَوْمَ الطَّلْوَعِ ^٣

١ المنهل : يبهج .

٢ هذه الموشحة لابن بقي (دار الطراز : ٦٧) .

٣ دار الطراز : يوم البقيع .

فهو قتيل لا بل طعين بين الرجا والياس له سنون

جرحت للحين
وحيل ما بيني
لا شك بالبين
كفتي بكفتي
وبين انثي
يكون حتفي

حال الرحيل ولي ديون إن ردّها العباس فهو الأمين

أما ترى البdra
قد اكتسى خضرا
إذا انثي نظرا
بدر السعود
من البرود
من القود

أضحى يقول مت يا حزين قد اكتسى بالأس الياسمين

قلت وقد شرد
وأياس العود
صد فلما صد
النوم عني
السقم مني
قرعت سني

جسمي نحيل لا يستبين يطلبه الجلاس حيث الأنين

تجاوز الحدا
وكلف السهدا
قلت وقد مدا
قلبي اشتياقا
من لا أطاقا
ليلي رواقا

ليلي طويل ولا معين يا قلب بعض الناس أما تكين

الباب السادس

في مصنفاته في الفنون ، ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون ،
وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المتون

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمتُ نحوُ الستين ، وكلها في غاية البراعة ،
بحيث إنه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به ، بل وكثير من غير أهل
عصره رحمه الله تعالى ، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها ، وفيها أقول مضمناً
ببعض تغيير :

تصانيفُ الوزيرِ ابنِ الخطيبِ ألدُّ من الصبِّ الغضِّ الرطيبِ
فأيةُ راحةٍ ونعيمِ عيشٍ توازي كتبه أم أيُّ طيبِ

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر « الإحاطة » ما صورته^١ :

التوايف : « التاج المحلى في مساجلة القدح المحلى » ، و [« الكتيبة الكامنة في
أدباء المائة الثامنة »]^٢ ، و « الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر »
ثم « النقاية بعد الكفاية » هذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد ،
و « طرفة-العصر في دولة بني نصر » في أسفار ثلاثة ، و « بستان الدول » موضوع
غريب ما سُمع بمثله ، قلَّ أن شدَّ عنه فن من الفنون ، يشتمل على شجرات

١ الإحاطة ، الورقة : ٣١٢ .

٢ سقط ذكر الكتيبة الكامنة من ق ، وهو الأصوب لأن المقري سيستدرك ذكره من بعد بين الكتب
التي لم تذكر قبلاً .

عشر : أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة الكتابة ، ثم شجرة القضاء والصلاة ، ثم شجرة الشرطة والحسبة ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهي فرعان : أسطول ، وخيول ، ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيازرة والبياطرة والفلاحين والندماء والشرطنجيين والشعراء والمغنين ، ثم شجرة الرعايا ، وتقسيم هذا كله غريب يرجع إلى شعب ، وأصول ، وجراثيم ، وعمد ، وقشر ، ولحاء ، وغصون ، وأوراق ، وزهرات ثمرة ، وغير ثمرة ، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصيغ اسم الفن المراد به ، وبرناجه صورة بستان ، كل منه نحو من ثلاثين مفراً ، ثم قطع عنه الحادث على الدولة ، وديوان شعري في سفرين سميت « الصيَّب والجهام والماضي والكهام » ، والنثر في غرض السلطانيات كثير ، والكتاب المسمى بـ « اليوسفي في صناعة الطب » في سفرين كبيرين ، كتاب منيع ، و « عائد الصلة » وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير ، في سفرين ، وكتاب « الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » كتاب كبير في أسفار تسعة ، هذا متصل بآخرها ، و « تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة » ، و « جيش التوشيح » في سفرين ، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كيد الدولة « نفاضة الجراب في علاة الاغتراب » موضوع جليل في أربعة أسفار ، وكتاب « عمَلٌ مَن طَبَّ لِمَن حَب » ومترلته في الصناعة الطيبة بمتزلة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية ، لا نظير له ، ومن الأراجيز المسماة « رقم الحلل في نظم الدول » والأرجوزة المسماة « الحلل المرقومة في اللع المنظومة » ألفية من ألف بيت في أصول الفقه ، والأرجوزة المسماة بـ « المعلومة » معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم

إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالاً لا يشينه نقص ،
والأرجوزة المسماة بـ « المعتمدة في الأغذية المفردة » والأرجوزة « في السيامة
المدنية » ، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز « في عمل الترياق الفاروقى » ،
و « الكلام على الطاعون المعاصر » ، و « الإشارة » ، و « قطع السلوك » ،
و « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » حتى في الموسيقى والبيطرة والبيزرة ،
هذر كُثِفَ به الحجاب ، ولعب بالنفس الإيجاب ، وضاع الزمان ولا تيبيل
بين الرد والقبول والنفي والإيجاب ، والله در القائل - وهو المؤلف ١ - :

والكونُ أشراكُ نفوسِ الورى طوبى لنفسٍ حرةٍ فازت
إن لم تحزْ معرفةَ الله قد أورطها الشيءُ الذي حازت

وكلُّ ميسرٍ لما خلق له ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم ، انتهى
ما له في آخر « الإحاطة » بحروفه .

قلت : ولنذكر ما تأخر تأريخه عن الإحاطة أو أشير إليه فيها مجملًا فنقول :
من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب « ربحانة الكتاب ونجعة المتاب »
في عدة مجلدات ، وهو داخل في قوله السابق في الإحاطة : والنثر في غرض
السلطانيات كثير ، وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض
شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم
وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى ، وذكر في صدره خطب
بعض كتبه ، وفي آخره بعض مقاماته وتحليته لأهل عصره ، وغير ذلك ،
وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابيه .

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى في
كتابه « نثر فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان » ما صورته ٢ : لابن الخطيب

١ وهو المؤلف : زيادة من ق ، لم ترد في الإحاطة .

٢ نثر فرائد الجمان : ٢٤٤ وأزهار الرياض : ١٨٩ .

الأوضاع المصنّفات ، التي آذانُ إحسانها هي المُصَرَّطات المُشَنَّفَات ، منها في التصوف ، الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف « روضة التعريف بالحب الشريف » ؛ انتهى ، وسرَدَ غير هذا الكتاب ممّا قدمنا ذكره وغيره .

وهذا الكتاب - أعني « روضة التعريف » - غريب المتزج ، وعارض به « ديوان الصباية » لابن أبي حجلة صاحب « السكردان » ، وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العُجاب ، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطلقة ، وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ، ونَسَبُوهُ إلى مذهب الحلول وغيره ، ممّا ذكره يطول حسبنا المعنا بذلك فيما سبق ، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود ، مشتمل على القشر والعود ، وأوراق ، وصورة طائر فوقها ، ولم أر في فنّه مثله ، جازاه الله تعالى عن نيته ؛ فإنّه في الحب الشريف الرباني ، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته .

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق « اللحة البدرية في الدولة النصرية » وكتاب « السحر والشعر » و « معيار الأخبار » و « مفاضلة مالقة وسلا » و « خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف » وقد ذكرهما في الريحانة بنصهما ، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه ، و « المسائل الطبية » في مجلد ، و « الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة » ورسالة « تكوّن الجنين » و « الوصول لحفظ الصحة في الفصول » وكتاب « الوزارة » و « مقامة السياسة » و « الغيرة على أهل الحيرة » و « حمل الجمهور على السنّ المشهور » و « الزبدة المخوضه » و « الرد على أهل الإباحة » و « سد الذريعة في تفضيل الشريعة » و « تقرير الشبه وتحرير الشبه » و « استتزال اللطف الموجود في سر الوجود » و « آيات الآيات » فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ما له من الشعر ، و « فُتات الخوان ولقط الصوان » في سفر يتضمن المقطوعات فقط ، و « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ، و « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » جمع فيه نظم ابن صفوان ، و « أعمال الأعلام فيمن بويج قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك

من شجون الكلام » و « المباخر الطيبة في المفاخر الخطيبة » و « خلج الرسن
 في أمر القاضي ابن الحسن » وتلويح شعر شيخه ابن الجياب ، وجمع نثر المذكور
 وسماه « تافه من جمّ ونقطة من يسمّ » وشرحه لكتاب نفسه « رقم الحلل في
 نظم الدول » ؛ فهذا ما حضرني علمه من توالييف لسان الدين رحمه الله تعالى ،
 فأما « البيزرة » ففي مجلد ، وأما « البيطرة » فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من
 محاسن الخيل وغير ذلك ، وأما « رجز الأصول » فقد شرحه قاضي القضاة ولي
 الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور ، وأما « رقم
 الحلل في نظم الدول » فهو في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة ، وقد كنت
 بالمغرب أحفظ أكثره ، فنسيته الآن ، وابتدأه بقوله :

الحمد لله الذي لا ينكره من سرّحت في الكائنات فكره

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد :

ثمّ الوليد بن يزيد العائثُ قد نُقلت من فعله خبائثُ
 وفي آخر دولة بني أمية قوله :

وصار قصر الملك من أمية أقفّر ريباً من ديار مية

وفي الأمين :

باع العلاء بشادين وكاس وصحبة الشيخ أبي نواس

وفي المعتصم :

وهو الذي تألف الأتراكا فتصّبوا لقومه الأشراكا

ومن أبيات هذا الكتاب قوله :

وَيَفْسُدُ الْمَلِكُ بِالْإِحْتِجَابِ كَذَاكَ بِالزَّهْوِ وَبِالْإِعْجَابِ

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك :

وأفقرت من ملكه أوطانهُ سبحان من لا ينقضي سلطانه

[معلومات عن كتاب الإحاطة]

وأما كتاب « الإحاطة » فهو الطائر الصيت بالشرق والمغرب ، والمشاركة أشد إعجاباً به من المغاربة ، وأكثر لهجاً بذكره ، مع قلته في هذه البلاد الشرقية ، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي^١ ، وسمّاه « مركز الإحاطة في أدباء غرناطة » وهو في مجلدين بخطه ، رأيت الأخير منهما بمصر ، وقال في آخره ما نصّه : هذا آخر ما أردت إيرادَه ، وفوّتُ أبرادَه ، من كل طرفه وتحفة وفائدة أدبية ونادرة تاريخية ، في كتاب « الإحاطة بتاريخ غرناطة » ، ولما كان الممول عليه ، والباعث الداعي إليه ، ذكر أدبائه ، ومآثر علمائه ، سمّيته « مركز الإحاطة بأدباء غرناطة » والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً ، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقير إلى عفو ربه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي ، لطف الله تعالى به بمنه وكرمه ، مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى . وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلد ، إذ هو في مجلدين كما سبق ، ونسخة الأصل في ثمانية مجلدات ، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها . ولما وقف سلطان الأندلس من كتاب « الإحاطة » نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابنُ عاصم حجة الوقفية بخطه ، ولتبتها لما فيها من الفوائد ، قال

١ هو محمد بن إبراهيم بن محمد أبو اليقاف بدر الدين الأنصاري البشتكي المشقي الأصل المتوفى بالقاهرة سنة ٨٣٠ (انظر الفهرست لللاح ٦ : ٢٧٧ وطالع البدر ١ : ٨٠) .

الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آثي نزيل تلمسان المحروسة : كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال ، والفائقة الكمال ، من « الإحاطة بتاريخ غرناطة » المحبسة على المدرسة اليوسفية ، من الحضرة العلية ، بخط قاضي الجماعة ، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة ، صدر البلغاء ، وعلم العلماء ، ووحيد الكبراء ، وأصيل الحسباء ، الوزير الرئيس المعظم أبي يحيى ابن عاصم - رحمة الله تعالى عليه - ما نصه : الحمد لله الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام ، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام ، وهو الحجّة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام ، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرّضت الأوهام ، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة ، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلة ، فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالتقبول ، ويستنبط المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول ، وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلة مالك على سواء سبيل ، ومستمّر من صحة النظر إلى أكرم قبيل ، فلا خفاء أن كتاب « الإحاطة » للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - من أثر هذه الدولة النصرانية أدامها الله تعالى بكل اعتبار ، ومآثرها التي هي عبرة لأولي الألباب وذكرى لذوي الأبصار ، أما الأول فلأن الأنبياء التي أظهرت بهجتها ، وأوضحت حجتها ، وشرفت مقصدها ، وكرمت مصعددها ، إنما هي مناقب ملوكها الكرام ، ومكارم خلفائها الأعلام ، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأقلام ، وأفذاذ حفاظة الدين والدنيا ، والشرف والعليا ، والملك والإسلام ، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك ، ويتنظم نظم الجثمان في ذلك السلك ، من حصانة قلعتها ، وأصالة منعتها ، وقديم اختطاطها ، وكريم جهادها ورياطها ، وحسن ترتيبها ووضعها ، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس أهل ربّعها ، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل ، ومما يرجع إلى شرف الحضرة ممن انتابها

من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل ، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة ، ومُبدع محاسنها المجلوة ، وناقل صورتها من الفعل إلى القوة ، إنمّا هو حسنة من حسنات هذه الدولة النصرية الكريمة ، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الدائمة ، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف ، على الانصاف ، فأخلاف هذه المكارم النصرية أروعته ، وعناياتها الجميلة أسمته فوق الكواكب ورفعتّه ، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب ، ومن كريم تشریفها اكتسب ، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره ، بل أفقّه الذي أشرق فيه بدره ، والتشريفات السلطانية التي فتحت لها باللها ، وأحلت من مرافي العز فوق السها ، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق ، وطوقت المن كالفلاذ في الأعناق ، وقلدت الرياسة والأفلام أقلام ، وثنت الوزارة والأعلام أعلام ، فبهرت أنواع المحاسن ، ووُردَ معينُ البلاغة غيرُ المطروق^١ ولا الآسن ، وبرعت التوايف في الفنون المتعددة ، واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكدة ، إذ أظهر هذا الاستدلال ، وأوضح البيان ما كتبه الإجمال ، فلنُفصِح الآن بما قصّد ، ولنحقق من أنجم السعادة ما رصّد ، وذلك أن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين ، أيده الله ونصره ، وسنتى له الفتح المبين ويَسره ، ماثِرَ لم يُسبق إليها ، ومكارم لم يجز أحد ممن وسم بالكرم عليها ، بلحالة قدرها ، وضخامة أمرها ، من ذلك هذا المقصد الذي أُثِر لها كالكتاب المذكور وسواه ، مما هو واحد في فنّه وفد في معناه ، عقّد في جميعها التحجيس على أهل العلم والطلبة بحضرتة العليا هنالك ليشمل به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع ، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم ، وهذه النسخة في اثني عشر سفرأ متفقه الخط والعمل ، اكتب هذا

١ المطروق : الماء الذي يالت فيه الدواب .

على ظهر الأول منها ، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة ، عرف الله تعالى ببركته بمنه ؛ انتهى .

وكان لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - أرسل في حياته نسخة من « الإحاطة » إلى مصر ، ووقفها على أهل العلم ، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء ، وقد رأيت منها المجلد الرابع ، وهذا نص وقفيته : الحمد لله وحده ، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي - نفع الله تعالى به - عن موكله مصنفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السلماني - فسبح الله تعالى في مدته ، وفتح لنا وله أبواب رحمته ، ومنحنا وإياه من رفده وعطيته ، وأسكننا وإياه أعالي جنته - جميع هذا الكتاب « تاريخ غرناطة » - ، وهو ثمانية أجزاء ، هذا رابعها ، عن مصنفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره ، وهو أنه فوض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلها ، وشؤونه جميعها ، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها ، تفويضاً تاماً على العموم والإطلاق ، والشمول والاستغراق ، لم يستثن شيئاً مما تجوز النيابة فيه إلا أسنده إليه ، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بغير الإسكندرية المحروس - أدام الله تعالى أيامه - كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربيعي المالكي ثبوته مؤرخ بئال ذي الحجة عام سبعة وستين وسبعمائة ، وفقاً شرعياً على جميع المسلمين يتتبعون به قراءة ونسخاً ومطالعة ، وجعل مقره بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء ، رحم الله تعالى واقفها ، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة ، حرسه الله تعالى ، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة ، فلا يحل لأحد ، يؤمن بالله العظيم ، ويعلم أنه صائر إلى ربه الكريم ، أن يطله ولا شيئاً منه ،

ولا يبدله ولا شيئاً منه ، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين
يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور
جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام
ثمانية وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء ، فمن
ذلك ما كتبه الحافظ المقرئ المؤرخ ، ونصّه : انتهى منه داعياً لمؤلفه أحمد
ابن علي المقرئ في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة .

وما رقمه الحافظ السيوطي ونصّه : الحمد لله وحده ، طالعت على طبقات
النحاة واللغويين ، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين
وثمانمائة ؛ انتهى

وبعد هذين ما صورته : انتهى منه داعياً لمؤلفه محمد بن محمد القوصوني
سنة أربع وخمسين وتسعمائة .

وبعد ما صورته : أنهاه نظراً وانتقاء علي الحموي الخنفي ، لطف الله به .
وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان سيدي الشيخ محمد
البكري الصديقي ما نصّه : طالعت متهجاً برياضة الموقفة ، وأزهار معانيه
المشرقة ، مرتقياً في درج كلماته العذاب سماه الاقتباس ، مقتنياً من لطفه درراً
وجواهر بل أحاشيها بنلك القياس ، كتبه محمد الصديقي غفر الله له ؛ انتهى .

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن
دُقحاق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر ، ومن المغاربة ابن المؤلف
أبي الحسن علي [ابن] الخطيب ، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ،
والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني ، والنحوي الراعي ، والشيخ الفهامة الشهير
بجبي العجيمي شارح الألفية وصاحب التأليف ، وغير هؤلاء ممن يطول

تعدادهم ، رحم الله تعالى جميعهم .

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيراً له ثم انفصل عنه حسبما تقدم إلى ما يتعلق بكتاب « الإحاطة » في جملة كلام نصّه :
وتلقينا ممن نثق به أن الكاتب المجيد الأصيل حسباً ، البارع أدباً ، أبا عبد الله ابن جزّي وقد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فأكرم جنابه ، وكمل من تربيته واصطناعه آرايه ، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي ، وصاح بمن عدّله :

أيا وَيَحَ الشجّي من الخلي

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه ، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه ، فلم يكن شيء من الكلام إلاّ قال الإحسان وأنا معه ، استوعب ما شاء ، وأبدع في كل ما نقل سواء كان شعراً أو إنشأء ، لكن سابق آجله منعت من الإمتاع بمجمله ومفصله ، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكاتبة خاص الدولة ورئيس الحملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب ، فوقف من تاريخ ابن جزّي على شاطئ نهر فياض ، وانتشق من ورقاته أزهار رياض ، وحمله النظر في بدائمه على أن يأخذ في جمع كتابه المسمى بـ « الإحاطة فيما تيسر من تاريخ غرناطة » ووجد لذلك موجباً أغراه بجمعه ، وهو أن الشيخ الحجّة الشاعر المفلح أبا إسحاق ابن الحاج وقد على الأندلس بعد جنوبه في الآفاق ، وترحلة إلى ما وراء الشام والعراق ، وإعلامه أنه يذهب في بداية تاريخ مذهب ابن جزّي وغيره ، وكان وحيداً في فنون الآداب ، والمساجلة لأعلام الكتاب ، وبحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وجدّ الحاجب الخطير أبا

النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمى ، وبأن وقفه دون طموحه إلى عادته من المرقب الأسمى ، فأنتج الانتباز من تلك الرياسة الخطيبية أن ألقى الخطبة على جلاله مقدارها ، وتوضّح أنوارها ، في مرتقى إجلالها وإكبارها ، وأخذ في تأليف « الإحاطة » مستدياً تصحيح الموالد والوفيات ، والأسماء والمسميات ، ومستكثراً من طُرف المصنّفات ، ليم قصده من الإطناب ، ونقله العيون الراقية من كل كتاب ، وألقى جميع مقاصده ، والمعظم من تنظيم فرائده ، بيد الشيخ العنودة معلم الحملة منا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أبي عبد الله الشريشي ، قدس الله تعالى ضريحه ، وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سن الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نقله ، وأحكم جنسه وفصله ، وانحتم على مجلدات ستة . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغني بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروع من كتاب « الإحاطة » بالأصول ، وأنجز من التبحر فيه الوعد المطول ، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتممة من اثني عشر سفرأ ؛ انتهى كلامه .

وقد علمت أن المكتوب في الوقفية كما مر ثمانية مجلدات ، لا اثنا عشر ، فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
والكاتب أبو عبد الله ابن جزّي الذي أشار إليه قد عرفنا به فيما سبق فليراجع .

[ترجمة ابن الحاج النميري]

وأما العلامة ابن الحاج ، فهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النميري ، ويُعرف بابن الحاج الغرناطي ، قال

في الإحاطة^١ : نشأ على عفاف وطهارة ، وبر وصيانة ، وبلغ الغاية في جودة الخط ، وارتسم في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مع حسن سمت ، وجودة أدب وخط ، وظهور كفاية ، يقيد ولا يفتر^٢ ، ويروي الحديث مع الطهارة والنزاهة ، مليح الدعابة ، طيب الفكاهة ، شرق وحق وتطوف وقيد واستكثر ودون رحلة سفره ، وناهيك بها طريقة ، وقفل لإفريقية ، وخدم بعض ملوكها ، وكتب بيجاية ، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن ، ثم كتب عن صاحب بيجاية ، ثم تنزه عن الخدمة ، وانقطع بتربة الشيخ أبي مدّين مؤثر الجمول ، ذاهباً مذهب العكوف بباب الله تعالى ، حجة على أهل الحرص والتهاوت ، ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان ، ثم أفلت عند موته فلاحق بالأندلس ، وتلقى ببرّ وتنويه وعناية ، وولي القضاء بقرب الحضرة ، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه ، متوسط الاكتهال ، روى عن مشيخة بلده واستكثر ، وأخذ في رحلته عن ناس شتى ، وألف تواليف منها « إيقاظ الكرام بأخبار المنام » وجزء في بيان الاسم الأعظم كثير الفائدة ، و « نزهة الحدق في ذكر الفرق » وكتاب « اللباس والصحة في جمع طرق المتصوفة » المدعي أنه لم يجمع مثله ، وجزء في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالشرق ، وجزء في الأحكام الشرعية سماه ب « الفصول المقتضية في الأحكام المنتخبة » ورجز في الحدال ، ورجز صغير في الحجب والسلاح ، ورجز صغير سماه ب « مآلث القوانين في التورية والاستخدام والتضمين » ، مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وامتنحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين ، ثم فكّه الله تعالى ؛ انتهى ملخصاً .

وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب « التحفة » وغيره ، وهو من الأدباء المكثرين ، وكان عندي بالمغرب مجلد من رحلته التي بخطه ،

١ الإحاطة ١ : ١٩٣ والمقري ينقل ملخصاً .

٢ الإحاطة : وهو في أثناء هذه الحال يقيد ولا يفتر .

وقد أتى فيه بالعجب العُجاب ، وتمهر في الحديث على طريقة أهل المشرق ،
لأنه لقي جماعة من الحفاظ كالذهبي والبرزالي والمزي ، وناهيك بالثلاثة ،
وغيرهم ممن يطول تعداده ، وله النظم الرائق ، العذب الجامع بين جزالة المغاربة
ورقة المشاركة ، كما ستراه ، فمن نظمه يمدح الحافظ جمال الدين يوسف بن
الزكي عبد الرحمن المزي ، وقد أبصره على أسرته دار الحديث الأشرفية بدمشق :

جمالُ الدين للإقراء يعلو أسرته إذا اصطفَّ الرجالُ
فمذجلِّيتُ محاسنهُ بدا لي مُحَيِّبًا في أسرته الجمالُ

ضمن قول المعري :

أهلٌ فبشَّرَ الأهلين منه محيًّا في أسرته الجمالُ

وقوله في الحافظ علم الدين أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي :

نوى النوى علم الدين الرضى فأنا من بعد فرقة بالشام ذو ألم
فلا تلمني على حيي دمشق فقد أصبحت فيها زماناً صاحب العلم

وقال فيه أيضاً :

نوى النوى علم الدين الرضى فذكت نارُ اشتيائي حتى استعظموا ألمي
فقلت : إنني من قوم شعارهم جودٌ ، فلا تنكروا ناري على العلم

وقال في الحافظ شمس الدين الذهبي :

رحلت نحو دمشق الشام مبتغياً رواية عن ذوي الأحلام والأدب
ففزت في كتب الآثار حين غدت تزوى بسلسلة عظمى من الذهب (ي)

وقال في الحافظ المزّي أيضاً :

جَمالُ الدين أضحى في دمشق إماماً نحوه طالَ الذميلُ
فلَمْ أعدم بمنزله جميلاً فحيثُ هو الجمالُ هوَ الجميلُ

وقال حين بُدوره على الأمير الصالح المحدث الجليل قطب الدين أبي
إسحاق إبراهيم ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحاق ابن السلطان الملك الرحيم
بدر الدين بن لؤلؤ بن عبد الله النوري صاحب الموصل ليروي عنه :

إلى قَصْدِ قُطْبِ الدينِ وافيتُ عندما أقيمتُ على الترحالِ في الشرقِ والغربِ
وأصبحتُ كالأفلاكِ في السيرِ والسرى فها أنا في مصرٍ أدورُ على القطبِ

وقال في قاضي القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندي ،
وهو ممن أخذ عنه بغير الإسكندرية :

ولما اختيرتُ ذواتُ الورى تمجبتُ من حسن ذاتِ العمادِ
فتلكَ التي لَمْ أكنُ مبصراً مدى عُمرى مثلها في البلادِ

وقال في القاضي وجيه الدين يحيى بن محمد الصنهاجي :

أضحى وجيهُ الدين أسبقَ سابقٍ في العلمِ والعلياءِ والخلقِ النبيه
عجب الورى من سبقه وتعجبوا فأجبتهم لا تنكروا سبق الوجيه

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى قوله :

قد قارب العشرينَ ظي لَمْ يكنْ ليرى الورى عن جبه سُلوانا
وبدا الربيعُ بخده فكانتما وافى الربيعُ ينادم الثعمانا

وقوله :

وعارضٍ في خده نياته بحسه بين الورى يسحرنا
أجرى دموعي إذ جرى شوقاً له فقلت ﴿ هذا عارضٌ مطرنا ﴾

وقال وقد توفي أبو يحيى أبو بكر صاحب تونس وولي ابنه أبو حفص
عمر بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حوى الملك غاصباً
فقلت لهم كفوا فما رضي الورى
سوى عمرٍ من بعد موت أبي بكر
وقال :

أتوني فعابوا من أحبُّ جماله
فما فيه عيبٌ غير أن جفونه
وذاك على سمع المحب خفيف
مراضٌ، وأن الخصر منه ضعيف
وقال^١ :

أيا عجباً كيف تهوى الملوك
وتحسُدني وهي مخدومة
محلتي وموطن أهلي وناسي
وما أنا إلا خديم بفاس
وقال :

لي المدح يروى منذ كنت كأنما
وما لي هجاء فاعجبني لشاعري
تصورت مدحاً للورى وثناء
وكاتب سرّاً لا يقيم هجاء

وقال في حقّه القاضي أبو البقاء خالد البلوي^٢ : نقلت من خط سيدي ورفيقي
وصديقي إمام المسلمين ، برهان الدين ، أبي إسحاق ابن إبراهيم بن عبد الله بن
الحاج وأكثره ممّا كان أنشدنيه قديماً من نظمه في التورية قوله :

ومهاة تقول إن هي كلت ودعا للمزاح خلّ مراز

١ انظر أيضاً تاج المفرق ، الورقة : ٢٢١ .
٢ عندما عاد البلوي من رحلته ووصل قسنطينة (سنة ٧٤٠) نزل عند صديقه ابن الحاج (تاج المفرق ،
الورقة : ٢٠٩) .

وازرِ الردفَ إنَّ في الأزرِ مني رَمَلَ يَبْرينِ يا طيبُ وعالج
وقوله :

وزوض ممحلِ جدبِ المراعي سريعِ القيظِ وَقَدْأ والتهابا
حكى ابن أبي ربيعة لا شَجُوناً ولكن كونه يهوى الربابا
وقوله :

وظبي طرّاً عارضُهُ وأعنى عذاراً بعدُ يزهو باخضرار
رأى سقماً بمقلته فوافى بأسٍ عاد لكن من عذار

وقوله :

أتوني بنمامٍ من الروضِ يانعٍ سقته الغواصي كلَّ أسجَمَ مدرارٍ
فلا غرو إن أصليته نار زفرتي وحكم على النمام اللقاء في النارِ
وقوله :

هذه الشمسُ بالحجابِ توارتُ بعدَ نورٍ لها ورحبٍ وبشرٍ
وأتى الليلُ بالنسيمِ عليلاً فهو يمشي من أفضه لابن زهرٍ

يعني بذلك الوزير الكبير الشهير الطيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي ،
فإنه كان وحيد دهره في الطب ، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية .
وقال أبو إسحاق النميري المذكور :

أيا ضوء الصباحِ ارفقُ بصَبِّ تسيلُ دموعه في الخلدِ سيلاً
وكنْتُ بليلاً ليلاء طالتُ فيها أنا في الوري مجنون ليلاً

١ . كتبناها هكذا لتناسب التورية في « ليلاء » .

وقال يخاطب شيخه سيف الدين :

لمولاي سيف الدين في الفقه بيننا مقامُ اجتهادٍ ليسَ يلحقهُ الحيفُ
فتقليده فرضٌ على أهل عصرنا ولا عَجَبٌ عندي إذا قلَّد السيفُ

وقال :

رعى الله معطسارَ النسيم فإنه رأى من غصونِ البان ما شاء من عطفٍ
وأبدى حديثَ الغيثِ وهو مُسكسلٌ لذاكَ لعمرى ليسَ يخلو من الضعفِ

وترشحت التورية بكون المحدثين يقولون « الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف ، ولو في الترام التسلسل ، مع كون متن الحديث صحيحاً » كما قرر في محله .

وقال رحمه الله تعالى :

نظرتُ إلى روضِ الجمالِ بوجهه وسقَّيته دمعاً به العينُ تكلفُ
فصحَّ حديثُ الحسنِ عن وردِ خدِّها وإن كانَ أضحى وهو راوٍ مضعفُ

وقال رحمه الله تعالى :

بدا عارضُ المحبوبِ فاحمرَّ خجلةً وأهدى لنا ورداً به الحسنُ ناهضُ
فقلتُ له لا تنكرِ الوردَ ناضراً فقد سالَ في خدِّك من قبلُ عارضُ

وقال :

النومُ عن إنسانٍ عيني نافرٌ كالوحشِ ليسَ يقاربُ الإنسانا
والدمعُ منها فاض طوفاناً فلا عجبٌ إذا ما غرَّقَ الأجفانا

وقال رحمه الله تعالى :

بَكَتْ شَجناً ففاض الدمع بحكي يتامى الدرُّ إذ يَهْوِي تُوَامَا
وَسَلَّتْ من محاجرها سيوفاً فحفتُ على المحاجرِ واليتامى

وقال القاضي خالد البلوي رحمه الله تعالى : من نظم صاحبنا أبي إسحاق ابن
الحاج النميري يخاطب شيخه وشيخنا أيضاً صاحبَ ديوان الإنشاء الإمامَ جمالَ
الدين إبراهيم ابن الإمام العلامة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قس الفصاحة
شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي ، وقد تقرب إليه في قصد الرواية عنه :

إلى ابنِ شهابِ الدين طالَ تغرَّبِي فلما سَرَتَ عَيْسِي لَهُ وركابي
رويتُ حديثَ الفضلِ عنهُ فصَحَّ لي كما شئتُ مروياً عن ابنِ شهابِ

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور :

أشبهتَ والدكَ الرضى في فضلِهِ وأخذتَهُ عنهُ بخيرِ منابِ
وملكتني فحديثُ فضلِكَ في الورى عَن مالكٍ يروى عن ابنِ شهابِ

وقال رحمه الله تعالى :

لعمركَ ما ثغره باسمٌ ولكنهُ حَبَبٌ لَاعِبُ
ولو لم يكن ريقُهُ مسكراً لما دار من حوله الشاربُ

وقال رحمه الله تعالى ملغزاً في القلم :

سألتكَ ما واشٍ يراد حديثُهُ ويهوى الغريبُ النازحُ الدارِ إفصاحَهُ
تراهُ مَدَى الأَيَّامِ أَصْفَرَ ناحلاً كمثلِ عليلٍ وهو قد لازمُ الراحةُ

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور وشرب منها :

تعجبتُ من ثغرِ هذي البلادِ ومولايَ مِن عَيْنِها شاربُ
فلهِ ثغرٌ أرى شارباً وعينٌ بدا فوقها حاجبُ

وقال :

وحمراء في الكأسِ مشمولة
فلا غرو أن جاءني سابقاً
تحت على العود في كل بيت
إلى الأوس خلّ يحث الكميث

وقال :

بروضتنا الظمياء طال اكتئابنا
وأشبه مهياراً فهاتك عينه
فله غيث ميّت آمالنا أحيا
تفيض إذا شام البروق على ظميا

وقال :

اثنان عزّاً فلم يظفر بنيلهما
أخ مودته في الله صادقة
وأعوزامن هما في الدهر مطلبه
ودرهم من حلال طاب مكسبه

وقال مورياً بالقائد نافع على ما اختاره البخاري وجماعة أن أصح الأسانيد
مالك عن نافع :

عن نافع أسنيد حديث أحبتي
فأجل إسنادٍ وخير رواية
يا مالكا رقي بحسن صنائع
عندي رواية مالك عن نافع

وقال :

إنني لأعجب من فعالك في الهوى
ونفيت نومي ثم أثبت الأسي
لما حلت بحسن ذاتك ذاتي
فجمعت بين النفي والإثبات

وقال :

ألا معصم للصب من وشي معصم
فأبقت به عيني حلى من سوادها
أطلت إليه نظرة المتوسم
وبعض سواد وسط قلبي المتيم

وليس خضاباً ما علاه ، وإنما جرى فيه بعد الدمع ما عزّ من دمي
ولم يعد منّي اللون لون سواده خلا أنّي أشقى وقيل له : انعم

وقال وقد جاء الشاعر المفلح أبو العباس أحمد بن عبد المنان بيت الكتاب وفي
عينه خضرة :

أيا أحمد المرتضى للعلا ومن حاز في صنعه كل زين
ترايت في العلم روضاً نضيراً فلا تنكرون خضرة حول عين
وله فيه :

لك الخير عدم السبك أبدل ناظري زمردة مخضرة من بلينه
فلا تنكروا ماراع من ذلك لاني لصائع تبر القول ناقد شينه
ولا عجب إن أعوز السبك صائغاً فأوجب عدم السبك خضرة عينه
وقال فيمن يُعرف بالصهال :

ألا رب فرسان توافوا فأدركوا مع الليل أوتاراً لهم دون إمهال
وأجروا بصهال كيتاً كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهم بصهال

ولما كتب الرئيس الكاتب الخليل أبو عبد الله العزفي مداعباً :

يا عصبية كل فتي منهم علم فرغم من كتبكم ردوا القلم

أجابه ابن الحاج المذكور بقوله :

ألا احتسبوا ما قد أعرتم لفتية تكررتمكم بالصفح عن فعلهم قاضي
ولا تطمعوا في الرد فالناس كلهم رأوا أن مولانا له القلم الماضي

وقال الوادي آشي : نقلت من خط الكاتب العلامة الصدر البارح الحاج

القاضي الناظم النائر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج
النميري ما نصّه : كتب إليّ الفاضل النخبة أبو الفضل ابن رضوان ممثلاً
بقول المأمون :

ملك الثلاثُ الآنساتُ عناني

فكتبت إليه في التورية :

هَتِيناً لك البُشرى بهنّ قدم كما تريدُ بنعمى للسعادةِ جامعَه
وإن كنتَ من أهل الصلاحِ فلا تكن بمائلٍ قلبٍ منك عن حبِّ رابعَه
فأجابني بقوله :

ياسيدي ذكّرني بالرابعه لعلها لكلّ خيرٍ جامعَه
إنّي أخافُ أن تكونَ باقعَه فتفركَ المغازلَ المطاوعَه

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة :

لمن الخيامُ سَطَّتْ بيضِ صفاحٍ وارتُ سواداً غال كلّ صباحٍ
إن مُزِقَّتْ رُقعتُ بنقعِ كئائبٍ أو قُوِّضَتْ عُمُدتُ بسُمُرٍ رماحٍ

وله في رثاء الطبيب ابن عمار ، واقترح عليه ذلك ابن جُزَي :

ألا أسعدا عيني على السهدِ والبكا فقد واصلَ السهد المبرحُ تذكاري
وأبدى الردى فتكّ ابن عبادَ آذسطا فلا غرو أن أبكي لفقدي ابن عمّارٍ

وقال ممّا يُكتب في الترس :

أنا الترسُ قد أنشأتُ بالأمرِ عُدّة ليوم جهادٍ مُطلعٍ غرّةِ النصرِ

فلاقوا بني الأعداء في زحفهم ولا
ولا تنكروا ستري لمقتلِ حاملي
تبالوا بقرع الزرقِ والبيضِ والسمري
ففي اسمي كما شاهدتمُ أحرفُ السري

وله يهني السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المريني بالإبلال من المرض :

مطالبُ إلا أتتهنَّ مواهبُ
شفاءُ أمير المؤمنين وإنه
وكم قلتُ غاب البدرُ والشمسُ ضلَّةً
ولم يغيبا لكن شكَا الضرَّ فارسُ
لك الله يا خيرَ الملوكِ وخيرَ منْ
وقتلٌ لمن وافى بشيراً نفوسنا
أقول بجرْدِ الخيلِ قُباً بطونُها
طوالِجَ من تحتِ العجاجِ كأنها
مُحجَّلةٌ غُراً كأنَّ رِعالها
من الأعوجياتِ الصوافنِ ترتمي
هنيئاً فقد صحَّ الإمام الذي به
ومستأصلُ الفلِّ المُغذِّ جِيادُهُ
ومن حطَّم السَّمَرِ الطوالِ كعوبُها
وكرَّ على أرضِ العدا بفوارسِ
كأنَّ ظُبَاهُم في الهياجِ أكفُّهم
كأنَّ رماحَ الخطِّ أحسابهم ، وما
همُ ما همُ ، حدَّثَ عن البحرِ أو بني
من البيتِ شادت قيسُ عيلانَ فخره
وأحيا له مُلْكُ الخليفةِ فارسِ

قضى الله أن تقضى ، فنعم المطالبُ
لأكرمُ من تُحَدِّدُ إليه الركائبُ
ورأنتُ على قلبي الهمومُ النواصبُ
وأوحش منه مجلسَ الملكِ غائبُ
نحنُ له حتى العتاقُ الشواذبُ
فما هي إلا بعضُ ما أنت واهبُ
معقدةٌ منها لحربِ سبابُ
نعامُ بكُشبانِ الصريمِ خواضبُ
بحارُ جرتَ فيها الصبا والجنائبُ
إذا رجفتُ يومَ القراعِ مقانبُ
تُفَلُّ السيوفُ المرهفاتُ القواضبُ
لضربِ كما ترغو الفحولُ الضواربُ
بطعنِ كما امتاح الركيمةَ شاربُ
كأنَّهم في الحربِ أسدُ غوالبُ
تجودُ وأرواحُ العداةِ مواهبُ
حوتُ من نفوسِ المعتدينِ مناقبُ
مَرِينِ فتنهَجُ القولُ أبلجُ لاحبُ
فظالَّتْ معاليه وطابَّتْ مناسِبُ
ماترَ غالِتها السَّيالي الذواهبُ

كريمٌ فلا الحادي النجائب محققٌ
 أرى بذله النعمى ففضت مكاسبٌ
 أنامله يروي الورى صوب جودها
 وكم خلت برقاً في الدجى نور بشره
 فأخجلني أني أرى البرق خلّباً
 أعزني أمير المؤمنين بلاغةً
 وأنطق لساني بالبيان معلماً
 وكيف ترى لي بعد في الجود رغبةً
 وقد شبت الآمال إذ شبت ثم إذ
 بلغت بك الآمال حتى كأنها
 عجبت وما تولى ، وأوليت معجباً
 وحسي دعاء لو سكت كفته
 وما أنا إلا عبدك المخلص الذي
 فخذها تبت العذر لا المدح ؛ إنه
 بقيت بقاء الدهر ملكك قاهرٌ
 وعوفيت من ضرر وأعطيت أجره

وقال رحمه الله تعالى :

ولولا ثلاث جاء جبريل سائلاً
 مقامات إسلام أزيد بفعله
 لخير الورى عنها لا آتت فقداي
 ثواباً وإيماناً أديم وإحساني

وقال رحمه الله تعالى : أنشدني السلطان أمير المؤمنين أبو عنان فارس ابن
 أمير المسلمين أبي الحسن المريني رحمه الله تعالى لنفسه :

يا مَلَمًا بأَرْضِ تَلِكِ البَلادِ حَيَّ فاسًا وَحَيَّ أَهْلَ الوِدادِ
إن تَناءتْ بِشَخْصِها عَن عِيايِ فَحِماها مُصَوَّرٌ في فَوادِي

[قصائد في مدح تلمسان وفاس]

قلت : تذكرت بهذا البحر والروي والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة
الناظم النائر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير
المسلمين أبي حَمَو موسى بن يوسف الزباني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

أَيها الحافظون عهدَ الوِدادِ جدّوا أنسنا بباب الجِياذِ
وصلّوها أصائلًا بليالِ كلالِ نُظْمِنَ في الأجيادِ
في رياضِ مُنضّذاتِ المِجانِي بينَ تَلِكِ الرُّبى وتلكِ الوِهادِ
وبروجِ مُشيدّاتِ المَباني بادياتِ السنا كَشُهَبِ بَوادِ
رِقِّ فيها النَسِبُ مثلَ تَسبيهِ وصفنا النَهرُ مثلَ صَفوِ ودادِي
وزها الزَهرُ والغصونُ ثَقَّتْ وتغنتْ عَلَيهِ ورُقُّ شَوادِ
وانبرى كلُّ جَدولِ كحسامِ عاريَ الغمَدِ سَندِسيَّ النِجادِ
وظلالُ الغصونِ تَكتُبُ فيه أحرفًا سَطَّرتْ بِغَيرِ مَدادِ
تُذَكِّرُ الوِشمَ في مَعاصِمِ خَوَدِ نصبتْ فوَقه ذواتِ اِمتدادِ
وكؤوسِ المَني تَدارُ عَلينا بِحِي عَفَّةِ وتَقُلُّ اِعتقادِ
واصفراءُ الأصيلِ فيها مُدامٌ وَصَفيْرُ الطَيرِ نِعمَةُ شادِ
كم غَدَونا بِها لَأَنسٍ وَرَحنا جادها رَائحٌ مِنَ المَزنِ غادِ
ولَكم رِوحةٌ عَلى اللِواحِ كادَتْ أن تَريحَ الصِّبا لَنا وَهُوَ غادِ
رَقَّتِ الشَّمسُ في عَشاياهِ حَتى أَحَدثتْ مِنْهُ رِقةً في الجِماذِ
جَدَدَتْ بِالغُروبِ شَجوً غَريبِ هاجه الشوقُ بَعدَ طَولِ البِعادِ

غرسَ الحبَّ غرسَهَا في فؤادي
 وعهودَ الصبا بصوبِ العهاد
 ومرآدَ المني ، ونيلَ المراد
 ومجرُّ القنا ، ومُجرى الجياد
 وخصوصاً على ربي العباد
 كهفُ ضحّاكها على كلِّ ناد
 ونما وهُدّها على كلِّ واد
 حسنّها أنّ تلك دعوى زياد
 من حلاها فهمتُ في كلِّ وادي
 زينةَ الحلّي عاظمَ الأجياد
 وحماها من كلِّ باغ وعاد
 فالنهاياتُ عنده كالمبادي
 مظهرٌ للعُلا رفيع العماد
 جميعاً بفرارِ الظبيِّ وغرِّ الأيادي
 راحتاهُ عنِ السحابِ الغوادي
 عائداتٍ على العُفاةِ بواد
 أبحرٌ عذبةٌ على الوردِ
 فتلافى بهِ تلافَ العبياد
 كالحيا ضامناً حياةَ البلاد
 باهراتٍ من طارفٍ وتلاد
 شهدَ المجدُّ أنّها كالشهاد
 وغمامَ الندى وبدرَ النادي

يا حيا المزنِ حياها من بلادِ
 وتعاهدتُ معاهدَ الأُنسِ منها
 حيثُ مغنى الهوى ، وملهى الغواني
 ومقرّ العُلا ، ومرقى الأمانى
 كلُّ حسنٍ على تلمسانَ وَقَفُ
 ضحكُ النورِ في رُباها وأرَبى
 وسما تاجُها على كلِّ تاجِ
 يدعي غيرها الجمالَ فيقضي
 وبشعري فهمتُ معنى عُلاها
 حضرةُ زانها الخليفةُ موسى
 وحبّابها بكلِّ بذلٍ وعدل
 ملكٌ جاوزَ المدى في المعالي
 معقيلٌ للهدى منبعُ النواحي
 قاتلُ المحلِّ والأعداي
 كلما ضنّتِ السحابُ أغنّتُ
 كم هباتٍ لهُ وكم صدقاتِ
 فأيادي خليفةَ الله موسى
 ركبَ الجودِ في بسيطِ يديه
 جلٌّ باريه ملجأً للبرايا
 جلٌّ مَنْ خصّهُ بتلكَ المزايا
 شيمٌ حلوةٌ الجنى وسجايا
 يا إمامَ الهدى ١ وشمسَ المعالي

لَكَ بَيْنَ الْمُلُوكِ سِرٌّ خَفِيٌّ
فَكَأَنَّ الْبِلَادَ كَفْكَكَ مَهْمَا
قَبِضْتَ كَفْكَ الْبِنَانَ عَلَيْهِ
بِكُمْ تَصْلَحُ الْبِلَادُ جَمِيعاً
لَمْ تَزَلْ دَائِماً تَحْنُ إِلَيْكُمْ
لَوْ أُعِينَتْ بِمَنْطِقِ شُكْرَتِكُمْ
قَدْ أَطَاعَتْكُمْ الْبِلَادُ جَمِيعاً
فَأَرْبِحُوا الْجِيَادَ أَتَعَبْتُمُوهَا
وَإِهْنَأُوا خَالِدِينَ فِي عِزِّ مَلِكٍ
وَالِإِيكُم مِّنْ مَّدْهَبَاتِ الْقَوَافِي
كُلَّ بَيْتٍ مِّنَ النَّظَامِ مَشِيدٍ
ذُو ابْتِسَامٍ كَزَهْرِ رَوْضِ مَجُودٍ
لَيْسَ مَعْنَاهُ لِلْعُقُولِ بِيَادٍ
كَانَ فِيهَا مَن يَتَمَيَّ لِعِنَادِ
فَأَتَى بِالْإِذْعَانِ حِلْفَ انْقِيَادِ
إِنَّ آرَاءَكُمْ صِلَاحُ الْبِلَادِ
كَحَنَيْنِ السَّقِيمِ لِلْعُودِ
مِثْلَ شُكْرِ الْعَفَاةِ لِلْأَجْوَادِ
طَاعَةٌ أَرغَمَتْ أَنْوْفَ الْأَعَادِي
وَأَقْرَبُوا السُّيُوفَ فِي الْأَغْمَادِ
قَائِمِ السُّعْدِ دَائِمِ الْإِسْعَادِ
حِكْمًا سَهَّلَتْ لِيَانَ الْمَقَادِ
عَطَّرَ الْأَفْقَ بِالثَّنَاءِ الْمَجَادِ
وَانتِظَامِ كَسَلِكِ دَرِّ مَجَادِ

ولأبي المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب « المقدمة الآجرومية » قصيدة في المنحى وافقت قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع ، فلا ندري أيهما نسج على منوال الآخر : إذ هما متعاصران ، إلا أن ذلك قالها في تلمسان ، وهذا في مدينة فاس ؛ وهي :

أَيُّهَا الْعَارِفُونَ قَدَّرَ الصُّبُوحِ جَدِّدُوا أَنْسَنَا بِيَابِ الْفَتْوحِ

يعني بِيَابِ الْفَتْوحِ أَحَدَ أَبْوَابِ فَاسِ ، كَمَا أَنَّ بَابَ الْجِيَادِ فِي كَلَامِ الثُّغْرِيِّ أَحَدُ أَبْوَابِ تَلْمَسَانَ .

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع :

يَسْرَحُ الطَّرْفُ فِي مَجَالٍ فَسِيحٍ
 وَتَسَاقِطُنْ كَاللُّجَيْنِ الصَّرِيحِ
 شَفَقًا مَزَقْتَهُ أَيْدِي الرِّيحِ
 نُقْطُ لُحْنٍ مِنْ دَمٍ مَسْفُوحِ
 فَلتَحَلُّوا بِمَوْضِعِ التَّسْبِيحِ
 تَبْصُرُوا مِنْ ذَرَاهِ كُلِّ سَطُوحِ
 لَتَرُدُّوا بِهِ ذَمَاءَ الرُّوحِ
 كَلِّ فِي وَصْفِهِ لِسَانُ المَدِيحِ
 لَيْسَ عَنْهَا لِعَاشِقٍ مِنْ نَزْوَحِ
 هَتَفَتْ بَيْنَ أَعْجَمٍ وَفَصِيحِ
 زِي هَلُمُّوا إِلَى مَكَانٍ مَلِيحِ
 مَغْلَقٍ فِي الكِمَامِ أَوْ مَفْتُوحِ
 سَمِعْتَ صَوْتَ كُلِّ طَيْرٍ صَدُوحِ
 بٌ وَخَلُّوا مَقَالَ كُلِّ نَصِيحِ
 وَخَلِيقٌ مِنْ مِثْلِكُمْ بِالْجَنُوحِ
 إِنَّ خَلَعَ العِدَارِ غَيْرُ قَبِيحِ
 هُوَ أَجْلَى مِنْ ذَلِكُمْ فِي الوُضُوحِ
 جَاءَ كَالصَّلِّ مِنْ قَفَارِ فَسِيحِ
 بَشَدًا عَرَفَ زَهْرَهَا المُنُوحِ
 قَوْلِ مُسْتَخْبِرٍ أَخِي تَجْرِيحِ
 صَوْمِ والرَّنْدِ والغَضَا والشَّيْحِ
 بَيْنَ دَانٍ مِنَ الرَّبِّيِّ وَنَزُوحِ
 نَحْوِ هَضْبٍ مِنَ الهمُومِ مَرِيحِ

جَدُّوا ثُمَّ أَنَسْنَا ثُمَّ جَلُّوا
 حَيْثُ شَابَتْ مَفَارِقُ اللُّوزِ نَوْرًا
 وَبَدَا مِنْهُ كُلِّ مَا أَحْمَرٌ يَحْكِي
 وَكَأَنَّ الَّذِي تَسَاقَطَ مِنْهُ
 وَإِذَا مَا وَصَلْتُمْ لِلْمَصَلِّي
 وَبَطِيْفُورِهَا فَطُوفُوا لِكَيْمَا
 وَلتَقِيمُوا هُنَاكَ لِمَحَّةِ طَرْفِ
 ثُمَّ حَطُوا رِحَالَكُمْ فَوْقَ نَهْرِ
 فَوْقَ حَفَافَتِهِ حَدَائِقُ خَضْرُ
 وَكَأَنَّ الطَّيُورَ فِيهَا قِيَانُ
 وَهِيَ تَدْعُوكُمْ إِلَى قَبَةِ الجَوْ
 فِيهِ مَا تَشْتَهُونَ مِنْ كُلِّ نَوْرِ
 وَغَضُونِ تَهِيحُ رَقْصًا إِذَا مَا
 فَأَجِيبُوا دَعَاءَهَا أَيُّهَا السَّرِ
 وَاجْنَحُوا لِلْمَجُونِ فَهُوَ جَدِيرُ
 وَأَخْلَعُوا ثُمَّ لِلتَّصَابِي عِدَارًا
 وَإِذَا شْتُمُّ مَكَانًا سِوَاهِ
 فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ لِنَحْوِ خَلِيجِ
 عَطَرْتَ جَانِبِيهِ كَفُّ الغَوَادِي
 قَلِّ لِمَهْيَارِ إِنْ شَمِمْتَ شَذَاهَا
 أَيْنَ هَذَا الشَّدَا الذَّكِيِّ مِنَ القِيَمِ
 حَيْثَا ذَلِكَ المَهَادُ مَهَادًا
 ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ المَهَادِ أَفِيضُوا

فيه للحسن دَوْحَةٌ وروايا
وحجارٌ تدعى حجارَ طبولٍ
تنثرُ الشمسُ ثمَّ كلَّ غدوً
وسوى منَّ هناك يسبي عقولاً
وعيون بها تقرَّ عيونُ
فرشت فوقها طنافسُ زهرٍ
كلّما مرَّ فوقهنَّ طليحُ
فانهضوا أيها المحبُّون مثلي
هكذا يريحُ الزمانُ وإلا

وما أحسن قول الكاتب الثغري يمدح تلمسان والسلطان المذكور آنفاً :

تاهت تلمسانُ بحسنِ شبابها
فالبشر يبدو من حجابِ ثغورها
قد قابلتُ زهرَ النجوم بزهرها
حسنت بحسنِ مليكها المولى أبي
ملكٌ شمائله كزهرِ رياضها
أعلى الملوك الصيِّدِ من أعلامها
غارتُ بفرقة وجهه شمسُ الضحى
والبدرُ حينَ بدتْ أشعتها له
للهِ حضرته التي قد شرفَتْ
فاللثمُ في يَمَناه يُبلغها المنى

وبدا طرازُ الحسنِ في جلبابها
متبسماً أو من ثغورِ حبابها
وبروجها بيروجها وقبابها
حمو الذي يحمي حمى أربابها
ونداه فاضَ بها كفيضِ عبابها
وأجلتها من صفوها ولُبابها
وتنقبت خجلاً بثوبِ ضبابها
حسناً تضاءلَ نوره وخبأ بها
خُدَّامها فسَمَوْا بخدمة بابها
والمدحُ في علياه من أسبابها

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمو ،

ووصف بلاد تلمسان ، وأجاد فيها إلى الغاية ؛ وهي ١ :

قم مبصراً^٢ زمنَ الربيعِ المقبلِ
وانشقْ نسيمَ الروضِ مطلولاً وما
وانظرْ إلى زهرِ الرياضِ كأنه
في دولةٍ فاضتْ يداها بالندى
بسطتْ بأرجاءِ البسيطةِ عدلها
سلطانها المولى أبو حمو الرضى
تاهتْ تلمسانُ بدولتهِ على
راقتْ محاسنها ورقاً نسيمها
عرجَ بمنعرجاتِ بابِ جياها
ولتغدُ للعبادِ منها غدوةً
وضريحُ تاجِ العارفينِ شعبيها
فمزاره للدين والدُّنيا معاً
وبكفها الضحَّاك قفٌ متزهاً
وتمشُ في جنباتها ورياضها
تسليك في دوحاتها وتلاعها
وبربوةِ العشاقِ سلوةُ عاشقِ
بنواسمٍ وبواسمٍ من زهرها
فلو امرؤُ القيسِ بن حجرِ راءها

تَرَ ما يسرُّ المُجتني والمُجتلي
أهداك من عَرَفٍ وعُرْفٍ فاقبل
درُّ^٣ على لباتِ ربّاتِ الحلي
وقضتْ بكلِ مئى لكلِ مؤمل
وسطتْ بكلِ معاندٍ لم يعدل
ذو المنصبِ السامي الرفيعِ المعتلي
كلّ البلادِ بحسنِ منظرها الحلي
فحلا بها شعري وطاب تغزلي
وافتحَ بها بابَ الرجاءِ المُقفلِ
تصبحُ همومُ النفسِ عنك بمعزل
زُرهُ هناكَ فحببنا ذاكَ الولي
تُمحى ذنوبك أو كربك تنجلي
تسرحُ نفوسك في الجمالِ الأجلِ
واجنحْ إلى ذاكِ الجناحِ المخضلِ
نغمُ البلابلِ واطرادُ الجدلِ
فتنت وألحاظُ الغزالِ الأكلِ
تهديك أنفاساً كعَرَفِ المندلِ
قدماً تسلّى عن معاهدِ مأسل

١ القصيدة في بغية الرواد ١ : ١٣ .

٢ البغية : تجتل .

٣ البغية : درر .

٤ البغية : جفونك .

ما كان محتفلاً بحومة حومل
 فهواي عنها الدهر ليس بمنسل
 جادته أخلاف الغمام المسبل
 وبه تسلّ وعنه دأباً فاسأل
 أحسن به عطلاً وغير معطل
 أو كالحسام جلاه كف الصيقل
 وجماله في كل عين قد جلي
 وبعذب منهلها المبارك فأنهل
 أحلى وأعذب من رحيق سلسل
 ترى تلمسان العلية من عتل
 أحسن بتاج بالبهاء مكلل
 نحو المصلّي ميلة المتمهل
 أجل النواظر في العتاق الحفل
 لعب بذاك الملعب المتسهل
 وكلاهما في جريه لا يأتي
 عطفاً على الثاني عنان الأول
 قيد النواظر فتنة المتأمل
 أو أشهب كشهاب رجم مرسل
 سام معم في السوابق مخول
 أو أشقر يزهو بعرف أشعل
 كالصبح ، بورك من أغر محجل
 مهما ترق العين فيه تسهل
 كالأسد تنقض أنفضاض الأجدل
 حامو الذمار أولو القحار الأطول

أو حام حول فنائها وظبائها
 فاذا كر لها كلفي بسقط لوائها
 كم جاد لي فيها الزمان بمطلب
 واعمد إلى الصفصيف يوماً ثانياً
 واد تراه من الأزاهر خالياً
 ينساب كالأيام انسياً دائماً
 فزاله في كل قلب قد حلا
 واقصد بيوم ثالث فوارة
 تجري على درّ لجيناً سائلاً
 واشرف على الشرف الذي يازائها
 تاج عليه من المحاسن بهجة
 وإذا العشي شمسها مالت فمل
 وبلعب الخيل الفسيح مجاله
 فلحلبة الأشراف كل عشي
 فترى المجلي والمصلي خلفه
 هذا يكرّ وذا يفرّ فيثني
 من كل طرف كل طرف يستبي
 ورّد كأن أديمه شقق الدجى
 أو من كميّت لا نظير لحسنه
 أو أحمر قاني الأديم كعسجد
 أو أدهم كالليل إلا غرة
 جمع المحاسن في بديع شياته
 عقبان خيل فوقها فرسانها
 فرسان عبد الواد آساد الوغى

فإذا دنت شمسُ الأصيلِ لغربها
 من بابٍ ملعبها لبابِ حديدِها
 وتأنَّ من بعدِ الدخولِ هنيهةً
 فهو المؤمِّلُ والديارُ كنايةً
 فإذا أميرُ المؤمنين رأته
 فالمجدُ لفظٌ في الحقيقةِ مجملٌ
 بشرى لعبدِ الوادِ بالملكِ الذي
 بأعزهم جاراً ، وأمنهم حمىً
 بالعادلِ المستنصرِ المنصورِ وال
 وكفاهمُ سعداً أبو حمو الذي
 وبحسنِ نيته لهم ويجده
 ذو الهمةِ العليا التي آثارها
 بحرِ الندى الأحلِّي وفخرِ المنتدى
 ينهلُ منه لنا الجدا وبه الدجى
 هنيء به زمنَ الربيعِ وقل له
 وعلى علاه من صنعةِ فضله

وكأنه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرِها وروياها في مدح مدينة فاس
 لبعض العلماء ، وأظنه القاضي المزدغي ، وهي :

يا فاسُ حيا الله أرضك من ثرى
 يا جنة الدنيا التي أريت على
 غرفاً على غرفٍ ويجري تحتها
 وبساتنٌ من سندسٍ قد زُحرفتُ
 وبجامعِ القروينِ شرفَ ذكره
 وسقائك من صوبِ الغمامِ المسبيلِ
 حمصٍ بمنظرها البهي الأجلِ
 ماء ألدُّ من الرحيقِ السلسلِ
 يجداولِ كالأيامِ أو كالقيصلِ
 أنسٍ بذكره يهبج تمللي

وبصَّحْتُهُ زَمَنَ المَصِيفِ عَجَائِبُ^١ فَمَعَ العَشِيِّ الغُربُ فِيهِ اسْتَقْبَلُ
وَاشْرَبَ بِتِلْكَ البَيْلَةِ الحَسَنَا بِهِ وَاکرَعُ بِهَا عَنِّي فِدَيْتِكَ وَأَنهَلُ

وقد تمثل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل^٢ :

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَكَسَاهُ رِيشُ جَنَاحِهِ الطَاوُوسُ^٣
فَكَأَنَّمَا الأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَةٌ وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِيَارِ كُؤُوسُ^٤

وما أحسن قوله - أعني لسان الدين - في مدح تلمسان^٥ :

حَيًّا تَلِمَسَانَ الحَيَا فَرَبَّوعُهَا صَدْفٌ يَجُودُ بِدَرِّهِ المَكْنُونِ
مَا شَتَّتَ مِنْ فَضْلِ عَمِيمٍ إِنْ سَقَى أَرَوَى وَمَنْ لَيْسَ بِالمَمْنُونِ
أَوْ شَتَّتَ مِنْ دِينَ إِذَا قَدَحَ الهُدَى أَوْرَى وَدُنْيَا لَمْ تَكُنْ بِالدُّونِ
وَرَدَّ النَسِيمُ لَهَا بِنَشْرِ حَدِيقَةٍ قَدَّ أَزْهَرَتْ أَفْئَانَهَا بِفَنُونِ
وَإِذَا حَيِيَّةٌ أُمٌّ يَجِيئُ أَنْجَبَتْ^٦ فَلَهَا الشُّفُوفُ عَلَى عَيُونِ العَيْنِ

يعني بحبيبة أم يحيى عيّن ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها ، وكانت
جارية بالقصور السلطانية ، ولم تنزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم ، والبقاء
لله تعالى وحده .

وممن مدح تلمسان الحاجُّ الطيبُ أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة الشهرير
بالتلّاسي رحمه الله تعالى ، إذ قال^٧ :

سَقَى اللهُ مِنْ صُوبِ الحَيَا هَاطِلًا وَبَلَا رِبُوعَ تَلِمَسَانَ الَّتِي قَدَّرُهَا اسْتَعْلَى

١ قد شرحنا البيعة ، هامش : ١ مجلد : ١ ص : ٢٠٦ .

٢ مر البيتان والقول في نسبتها ، المجلد : ١ ص : ١٦٩ وانظر مشاهدات لسان الدين : ١١١ .

٣ أزهار الرياض ١ : ٧ .

٤ أورد له صاحب بنية الرواد عددًا من القصائد والموشحات في الجزء الثاني ؛ وهذه القصيدة في الجزء

الأول ص : ١٧ .

ربوعٌ بها كانَ الشبابُ مُصاحبي
فكم نلتُ فيها من أمانِ قصيةِ
وكم غازلتي الغيدَ فيها تلاعياً
وكم لَيْلَةَ بَيْتِنَا على رِغْمِ حاسدِ
وكم لَيْلَةَ بَيْتِنَا بصفصيفها الذي
وكديةُ عشاقِ لها الحسنُ يَنْتَهِي
نَعَمٌ ، وغديرُ الجوزةِ السالبُ الحجى
ومنه ومنَ عينِ أمِ يحيى شرابنا
وعبادها ما القلبُ ناسِ ذمامه
به شيخنا المذكور في الأرضِ ذكره
لها بَهْجَةٌ تُزري على كلِّ بلدةِ
فيا جَنَّةَ الدنيا التي راق حُسْنُها
ولا عجبٌ أن كنتِ في الحسنِ هكذا
ولاحتْ لدينا فيكِ منه محاسنٌ
مطاعٌ شجاعٌ في الوغى ذو مهابةِ
كريمٌ حكيمٌ حاتميٌّ نواله
له راحةٌ كالغيثِ ينهلُ ودَقُّها
هو الملكُ الأرقى هو الملكُ الرضى
ومنَ هذه الأوصافِ فيه تجمعتْ
إمامٌ حبَّاهُ اللهُ ملكاً مؤزراً
مِنَ الزابِ وإفاناً عزيزاً مظفراً

جررتُ إلى اللذاتِ في دارها الذيلا
وكم مَسَّحَ الدهرُ الضنينُ بها النيلا
وكم من عدولٍ لا أُطِيعُ له قولاً
نديراً كؤوسِ الوصلِ إذ بالصفاءُ تُملا
تسامى على الأنهارِ إذ عدم المثلثا
يعود المسنُّ الشيخُ من حسنِها طفلا
نعمتُ بها طفلاً وهمتُ بها كهلا
لأنهما في الطيبِ كالليلِ بل أحلتى
به روضةٌ للخيرِ قد جعلتْ حِلاً
أبو مدينِ أهلاً به دائماً أهلاً
بِتاجِ عليها كالعروسِ إذا تُجلى
فحازت على كلِّ البلادِ به الفضلا
وموسى الإمامِ المرتضى فيكِ قد حلَّ
كانَ سناها حاجبُ الشمسِ إذ جلَّى
حسامٌ على الباغينِ في الأرضِ قد سلَّ
سعيدٌ حميدٌ يصدقُ القولَ والفعلا
وصارمٌ نصرٌ مرهفٌ الحد لا فلأ
هو الملكُ الأسنى هو الملكُ الأعلى
حقيقاً على كلِّ المعالي قد استولى
فلا ملكٌ إلا لعزتهِ ذلاً
يجرُّ من النصرِ المتوطِّ به ذيلاً

بدت ليلك الغرب شدة بأسه
 فبادره بالصلح خوف فواته
 فكان بحمد الله صلحاً مهتماً
 له في المعالي رتبة لا ينالها
 لطاعته كل الأنام تبادرت
 أحساده موتوا فإن قلوبكم
 لقد جبر الله البلاد بملكه
 فلا زال هذا الملك فيه مخلداً
 وإنعامه للمعتفين وما أولى
 وسأله إذ كان ذلك به أولى
 به طابت الدنيا وجزنا به السبلا
 سواه وكُتِبَ في فضائله تُتلى
 فيا سعد من وافى ويا ويح من ولى
 ببحر الغضا ممأ بها أبداً تصلى
 به مُلِكتُ أمناً ، به مُلِكتُ عدلاً
 وصارمه الأَمْضى وخادمه الأعلى

ومما مدحت به تلمسان قول الإمام الصوفي أبي عبد الله محمد بن خميس
 الذي قلنا ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلق به ، وذكرنا أيضاً فيما مر
 بعض أمداحه لها ١ :

تلمسان جادتك السحاب الروائح ٢
 وسح على ساحات باب جياها
 يطير فؤادي كلما لاح لامع
 ففي كل شفر من جفوني مائع
 فما الماء إلا ما تسح مدامعي
 خليلي لا طيف لعلوة طارق
 نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر
 بحكما كفا الملام وسامحا
 ولا تعذلاني واعذراني فقلما
 وأرست بيواديك الرياح اللوايح
 ملئت يصابي تربها ويصافح
 وينهل دمعي كلما ناح صادح
 وفي كل شطر من فؤادي قادح
 ولا النار إلا ما تجين الجوانح
 بليل ولا وجه لصبحي لائح
 لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح
 فما الخلل كل الخلل إلا المسامح
 يرد عنائي عن عليّة ناصح

١ وردت القصيدة في بنية الرواد ١ : ١١ .

٢ البنية : الدوالح .

كتمتُ هواها ثم برّحَ بي الأسي
لساقيةِ الروميّ عندي مزبّةٌ
فيكمّ لي عليها من غدوٍ وروحةٍ
فطرفٌ على تلك البساتين سارحٌ
تَحَارُّ بها الأذهانُ وهي ثواقبُ
ظباءٍ مغانيها عَوَاطِ عَوَاطِفُ
تقتلُهُم فيها عيونٌ نواظرٌ
على قريةِ العبادِ منّي تحيةٌ
وجادٍ ثرَى تاجِ المعارفِ ديمةٌ
إليك شعيب بن الحسينِ قلوبُنَا
سعبتَ فما قصّرتَ عن نيلِ غايةِ
نسيتُ وما أنسى الوريطةَ ووقفهُ
مطلاً على ذاكِ الغديرِ وقد بدت
أماؤك أم دَمعي عشيةَ صدّقت
لئن كنتَ ملاناً بدمعي طافحاً
وإن كان مُهْرِي في تلاعك سائحاً
قراح أتى ينصبُّ من رأسِ شاهقِ
أرقّ من الشوقِ الذي أنا كاتمٌ
أما وهوى من لا أسميه إنني
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي
لبعتُ رشادي فيه بالغني ضلّةً
وأَيُّ مقامٍ ليس لي فيه حاسدٌ

وكيفَ أطيقُ الكتمَ والدمعُ فاضحُ
وإن رغمتُ تلك الرواسي الرواشحُ
تُساعدي فيها المنى والمنايحُ
وطرفٌ إلى تلك الميادينِ جامحُ
وتهفو بها الأحلامُ وهي بوارحُ
وطيرٌ مجانيها شوادٍ صوادحُ
وتبكيهم منهم عيونٌ نواضحُ
كما فاحَ من مسك اللطيمةِ فائحُ
تغصُّ بها تلك الرُبيّ والأباطحُ
نوازعُ لكنّ الجسومِ نوازحُ
فسعيك مشكورٌ وتجرك رابحُ
أنافحُ فيها روضهُ وأفواحُ
لإنسانِ عيني من صفاهُ صفائحُ
عليهُ فينا ما يقولُ المُكاشحُ
فإني سكرانٌ بحبك طافعُ
فذاك غزالي في عبابك سابحُ
بمثلِ حلاه تستحثُّ القرائحُ
وأصفي من الدمعِ الذي أنا سافحُ
لعرضي كما قال النصيحُ لناصحُ
يقال فلانٌ ضيقُ الصدرِ بائحُ
وكم صالحٍ مثلي غدا وهو طالحُ
وأَيُّ مقالٍ ليس لي فيه مادحُ

ألا قُلْ لفرسانِ البلاغةِ أمرجوا
أبجملِ ذكري عندهم وهو نابه
بدورٌ إذا جنَّ الظلامُ كواملٌ
تركتك سوقَ البزِّ لا عن تهاون
ولاني وقلبي في ولائك طامعٌ
أيا أهلَ ودِّي والعشيرُ مؤمنٌ
وهل ذلك الظبيُّ النصاحيُّ للذي
كنتُ بها عنه حياءُ وحشمةً

فقد جاءكم مني المكافي المكافحُ
ويُغمطُ شجوي عندهم وهو شائعُ
وأسدٌ إذا لاحَ الصباحُ كوالحُ
وكيف وظبيُّ سانحٌ فيك بارحُ؟
وناظرٌ وهمي في سماطك طامعُ
أتقضى ديوني أم غريمي فالحُ
يقطع من قلبي بعينيه ناصحُ
ووجهُ اعتذاري في القضيةِ واضحُ

[تعريف بلمسان]

وتلمسان هذه هي مدينتنا التي علقت بها التمام ، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقرئ بن علي صاحب الشيخ أبي مدين ، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين ، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم ، وهي من أحسن مدائن المغرب ماء وهواء ، حسبما قال ابن مرزوق :

بكفيك منها ماؤها وهوؤها

وقال الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون في كتابه « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشاخنة الأطواد » بعد كلام في شأن البربر ، ما صورته^١ : ودار ملكهم وسط بين الصحراء والتل تسمى بلغة البربر تلمسن ، كلمة مركبة من « تلم » ومعناه تجمع ، و « سن » ومعناه اثنان : أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي ، رحمه الله تعالى ، وكان

١ بغية الرواد ١ : ١٩ / ٩ .

حافظاً بلسان القوم ، ويقال « تلمشان » ، وهو أيضاً مركَّب من « تلم »^١ ومعناه لها ، و « شان » أي لها شأن ، وهي مدينة عريقة في التمدن ، لذيدة الهواء ، عذبة الماء ، كريمة المنبت ، اقتعدت بسفح جبل ، ودُوَيْنَ^٢ رأسه بسيط أطول من شرق إلى غرب ، عروساً فوق منصّة ، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها^٣ على فحص أفبَحَ معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى ، وتقر في بطونه عند تلميث الغمام بطون العذارى^٤ ، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة ، والبساتين الرائقة ، ممّا زخرفت عروشه ، ونمقت غروسه ، ونوسبت أطواله وعروضه ، فأزرى بالخورنق ، وأحجل الرصافة ، وعبث بالسدير . وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن ، تتجاذبه أيدي المذانب والأصراب المكفورة^٥ ، خلالها ، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية النور والحمامات ، فيفعم الصهاريج ، ويفهق الحياض ، ويسقي ريعه^٦ خارجها مغارس الشجر ومنابت الحَب ، فهي التي سحرت الألباب رواء ، وأصبت النّهى جمالاً^٧ ، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا ، إلى أن قال : فأنا أنشد ساكنها قول ابن خفاجة لاستحقاقها إيّاه عندي^٨ :

ما جنةُ الخلدِ إلا في منازلكم وهذه كنتُ لو خيَّرتُ أختارُ

-
- ١ البغية : تل .
 - ٢ البغية : ودون .
 - ٣ البغية : تطل منه .
 - ٤ البغية : العذارى . والعدارى : الأراضي التي لم توطأ .
 - ٥ المكفورة : المستورة .
 - ٦ البغية : بساتينها .
 - ٧ جمالا : سقطت من البغية .
 - ٨ ديوان ابن خفاجة : ٣٦٤ .

لا تَتَقَوُّوا بعدها أن تدخلوا سقرآ فليس تُدْخَلُ بعد الجنة النارُ

وتوسطت قطراً ذا كَوْرٍ عديدةٍ تعمرها أمشاج البربر والعرب ، مَرِيعة الجنبات ، منجبة للحيوان والنبات ، كريمة الفلاحة ، زاكية الإضابة ، فربما انتهت في الزَّوْجِ الواحد منها إلى أربعمائة مد كبير ، ثم أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور .

ومما يُنسب للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته :
تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت في موضع شريف ، كأنها ملك على رأسه تاجه ، وحواليه من اللوحات حشمه وأعلاجه ، عبّادها يدها وكهفها كفها ، وزيتها زيانها ، وعينها أعيانها ، هواها المقصور بها فريد ، وهواؤها المملود صحيح عتيد ، وماؤها برود صريد ، حجبتها أيدي القلعة عن الجنوب ، فلا نُحُولَ فيها ولا شحوب ؛ خزائنُ زرع ، ومسرح ضرع ، فواكهها عديدة الأنواع ، ومتاجرها فريدة الانتفاع ، وبرانسها رفاق رفاع ، إلا أنها بسبب حب الملوك ، مطمعة للملوك ، ومن أجل جمعها الصيّد في جوف الفرا ، مغلوبة للأمرأ ، أهلها ليست عندهم الراحة ، إلا فيما قبضت عليه الراحة ، ولا فلاحة ، إلا لمن أقام رسم الفلاحة ، ليس بها لسع العقارب ، إلا فيما بين الأقارب ، ولا شطارة ، إلا فيمن ارتكب الخطارة ؛ انتهى .

وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها كتاباً ممتعاً أسميته بـ «أنواء نيسان في أبناء تلمسان» وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدّ الرّواق ، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها ، ثم ارتحلت بنية الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة المجاز ، وها أنا ذا إلى الآن في البلاد المصرية ، وفي علم الله تعالى ما لا نعلم ، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم ، والله تعالى يحتم لنا بالحسنى بجاه نبيّه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم .

وبها ولدت أنا وأبي وجددي وجد جدي ، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلْتُ عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف ، ثم رجعت إليها آخر عام عشرة وألف ، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف ، إلى أن ارتحلْتُ عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف ، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف ، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف ، وأبنتُ منها إلى مصر أواخر شوال من العام ، وشرعت في هذا المؤلف بالقعدة من العام .

[ترجمة أبي مدين]

وقد تخرَّج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضب ، ويكفيها افتخاراً دَفَنُ وليِّ الله سيدي أبي مدين بها ، وهو شعيب بن الحسين الأندلسي ، شيخ المشايخ ، وسيد العارفين ، وقدوة السالكين ، قال الشيخ أبو عبد الله محمد ابن التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان الشيخ سيدي أبو مدين فرداً من أفراد الرجال ، وصدراً من صدور الأولياء الأبدال ، جمَع الله له علم الشريعة والحقيقة ، وأقامه ركن الوجود هادياً وداعياً للحق ، فقصده بالزيارة من جميع الأقطار ، واشتهر بشيخ المشايخ ، وذكر التادلي وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات ، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته : كان أبو مدين زاهداً فاضلاً عارفاً بالله تعالى ، خاض بحار الأحوال ، ونال أسرار المعارف ، خصوصاً مقام التوكل ، لا يُشَقُّ غباره ، ولا تُجهل آثاره ، قال التادلي : كان مبسوطاً بالعلم ، مقبوضاً بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى حتى ختم له بذلك ، أخبرني مَنْ شهد وفاته أنه رآه

١ انظر نيل الابتهاج : ١٠٧ فأكثر هذه الترجمة منقول عنه .

في آخر الرمتق يقول : الله الحق . وكان من أعلام العلماء ، وحفاظ الحديث ، خصوصاً جامع الترمذي ، وكان يقوم عليه ، ورواه عن شيوخه عن أبي ذر ، وكان يلزم كتاب « الإحياء » ويعكف عليه ، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت ، ولهُ مجلس وعظ يتكلم فيه ، فاجتمع عليه الناس من كل جهة ، وتمر به الطيور وهو يتكلم فتقف تسمع ، وربما مات بعضها ، وكثيراً ما يموت بمجلسه أصحابُ الحب ، تخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال ، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جميلاً ، ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل ، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبي الحسن ابن حرزهم ، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن ابن غالب . وذكر عنه أنه قال : كنت في أول أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أنخذه مأوى للعمل بما فُتح به عليّ ، فإذا خلوت به تأتيني غزاة تأوي إليّ وتؤنسني ، وكنت أمرٌ في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس ، فيدورون حولي ، ويصبصون لي ، فيبينا أنا يوماً بفاس إذا برجل من معارفي بالأندلس سلّم علي ، فقلت : وجبت ضيافته ، فبعت ثوباً بعشرة دراهم ، فطلبت الرجل لأدفعها له ، فلم أجده هناك ، فخليتها معي ، وخرجت لخلوتي على عادي ، فمررت بقريتي ، فتعرض لي الكلاب ، ومنعوني الجواز ، حتى خرج من القرية من حال بيني وبينهم ، ولما وصلت لخلوتي جاءتني الغزاة على عادي ، فلما شممتني نفرت عني ، وأنكرت علي ، فقلت : ما أوتي علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي ، فرميتها ، فسكنت الغزاة ، وعادت لحالها معي ، ولما رجعت لفاس جعلت الدراهم معي ، ولقيت الأندلسي ، فدفعتها إليه ، ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة ، فدار بي كلابها وبصبصوا على عادي ، وجاءني الغزاة فشممتني من

مفرقي لقدمي ، وأنست بي كمعادتها ، وبقيت كذلك مدة ، وأخبار سيدي أبي يعزى ترد عليّ ، وكراماته يتداولها الناس وتُنقل إليّ ، فملاً قلبي حبه ، فقصده مع جماعة الفقراء ، فلماً وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني ، وإذا حضر الطعامُ معني من الأكل معهم ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام ، فأجهدتني الجوع ، وتحوّرت من خواطر ترد عليّ ، ثم قلت في نفسي : إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان ، فقام ، ومرغت وجهي فقامت وأنا لا أبصر شيئاً ، وبقيت طول ليلتي باكياً ، فلماً أصبح دعاني وقربني ، فقلت له : يا سيدي ، قد عميت ولا أبصر شيئاً ، فمسح بيده على عيني ، فعاد بصري ، ثم مسح على صدري ، فزالت عني تلك الخواطر ، وفقدت ألم الجوع ، وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته ، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء الفريضة ، فأذن لي وقال : ستلقى في طريقك الأسد فلا يرعك فإن غلب خوفه عليك فقل له : بجرمة يدنور! إلا انصرفت عني ، فكان الأمر كما قال . فتوجه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوارُ الولاية عليه ظاهرة ، فأخذ عن العلماء واستفاد من الزهاد والأولياء ، وتعرّف في عرّفة بالشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني ، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيراً من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيراً من أسراره ، وحلاه بملابس أنواره ، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ، ويعده أفضل مشايخه الأكابر .

وعن بعض الأولياء قال : رأيت في النوم قائلاً يقول : قل لأبي مدين : بثّ العلم ولا تُبالِ ، ترتع غداً مع العوالي ، فإنك في مقام آدم أبي الذراري ، فقصصتها عليه فقال لي : عزمت على الخروج للجبال والفيافي حتى أبعث عن العمران ، ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم ، وتأمرني بالجلوس ، فقولك « ترتع غداً مع العوالي » إشارة لحديث « حلق الذكر مراتع أهل الجنة » ، والعوالي : أصحاب عليين ، ومعنى قوله « أبي الذراري » أن آدم أعطي قوة على النكاح

١ التشوف : يلنور .

وأمر به ، ولم يجعل له قوّة على كون ذريته مطيعين مؤمنين ، وكذا نحن أعطانا الله العلم وأمرنا ببيته وتعليمه ، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفقين .
وكان يقول : كراماتُ الأولياء نتائج معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ، وطريقتنا هاهنا أخذناها عن أبي يعزى بسنده عن الجنيد عن سري السقطي عن حبيب العجمي بالسند إلى رب العزة جل جلاله .

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال : سمعت سيدي أبا مدين يقول : أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي : يا شعيب ماذا عن يمينك ؟ قلت : يا رب عطاؤك ، قال : وعن شمالك ؟ قلت : يا رب قضاؤك ، فقال : يا شعيب قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا ، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك .
وعن سيدي أبي العباس المرسي : جلّنتُ في ملكوت الله تعالى ، فرأيت سيدي أبا مدين متعلقاً بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق ، فقلت له : وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال : علومي أحد وسبعون علماً ، وأما مقامي فراجع الخلفاء ، ورأس السبعة الأبدال .

وسئل رضي الله عنه عما خصّه الله تعالى به ، فقال : مقامي العبودية ، وعلومي الألوهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، ملأت علومه سري وجهري ، وأضاء بنوره بّري وبحري ، فالمقرب من كان به عليمًا ، ولا يسمو إلاّ من أوتي قلباً سليماً ، الذي يسلم ممّا سواه ، ولا يكون في الوعاء إلاّ ما جعل فيه مولاه ، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك ﴿ وتترى الجبال تحسبها جامدةً وهي تمرّ مرّ السحاب ﴾ (النمل : ٨٨) .
وسئل عن الحياء ، فقال : أوّله دوام الذكر ، وأوسطه الأتس بالمذكور ، وأعلاه أن لا ترى شيئاً سواه .

واختلف أهل مجلسه : هل الخضر ولي أم نبي ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبيّ صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فقال صلى الله عليه وسلم : الخضر نبي ، وأبو مدين ولي .

وذكر التادلي^١ وغيره أن رجلاً جاءه ليعترض عليه ، فجلس في الحلقة ، فأخذ صاحبُ الدولة في القراءة ، فقال له أبو مدين : أمهل قليلاً ، ثم التفت للرجل ، وقال له : لِمَ جئت ؟ فقال : لأقتبس من نورك ، فقال له : ما الذي في كحك ؟ قال له : مصحف ، فقال له : افتحه واقراء في أول سطر يخرج لك ، ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف : ٩٢) فقال له أبو مدين : أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله .

وذكر صاحب «الروض» عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال : مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب ، فرأى أسداً افترس حماراً وهو يأكله ، وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة ، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد ، وقال لصاحب الحمار : أمسك الأسد واستعمله في الخدمة موضع حمارك ، فقال له : يا سيدي أخاف منه ، فقال : لا تخف ، لا يستطيع أن يؤذيك ، فمرّ الرجل يقوده والناس يُنظرون إليه ، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له : يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبتُ ، وأنا شديد الخوف منه ، لا طاقة لي بعشرته ، فقال الشيخ للأسد : اذهب ولا تعد ، ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم .

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشياً يوماً على ساحل ، فأسره العدو ، وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسرى المسلمين ، فلما استقرت في السفينة توقفت عن السير ، ولم تتحرك من مكانها ، مع قوة الريح ومساعدتها ، وأيقن الروم أنهم لا يقدرّون على السير ، فقال بعضهم : أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس ، ولعله من أصحاب السرائر عند الله تعالى ، وأشاروا له بالتزول ، فقال : لا أفعل إلاّ إن أطلّقتم جميع منّ في السفينة من الأسارى ، فعلموا أن لا بد لهم من ذلك ،

١ الشوف : ٣٢٣ .

فأنزلوهم كلهم ، وسارت السفينة في الحال .
ومن كراماته أنه لما اختلف طلبة بجاية في حديث « إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة » وأشكل عليهم ظاهره : إذ بموت مؤمنين يستحقان كل الجنة ، فجاءوا إليه وهو يتكلم على رسالة القشيري ، فكاشفهم في الحال بلا سؤال ، وقال لهم : المراد أنه يعطى نصف جنته هو ، فيكشف له عن مقعده ليتنعم به وتقر عينه ، ثم النصف الآخر يوم القيامة .

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل .
وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنه قال : سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء ، وكان رجل يأتيني عند صدع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع ليلة في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به ، وطال عليّ الليل في انتظاره ، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل ، فإذا هو الذي يسألني ، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال : نعم ، ثم سألني وانصرف ، ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي : صلينا الصبح ببغداد ، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح^١ ، فأعدنا معهم ، وجلسنا^٢ حتى صلينا الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر ، فقال لي صاحبي هذا : نعيد معهم ، فقلت : لا ، فقال لي : ولم أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت له : كذلك كان شيخي يفعل ، وبه أمرنا ، فاختلفنا وأتينك للجواب ، فقال أبو مدين : فقلت لهم : أما إعادة الصبح بمكة فلائنها بها عين اليقين ، وببغداد علم اليقين . وعين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة - وهي أم القرى - فلذلك لا تعاد في غيرها ، قال : فقننا به وانصرفا .

وكان استوطن بجاية ويقول : إنها معينة على طلب الحلال ، ولم يزل بها

١ ق : فوجدناهم في الظهر في صلاة الصبح .

٢ نيل الابتهاج : فبقينا .

يزداد حاله على مر الليالي رفعة ، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق ،
ويخبر بالوقائع والغيوب ، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب
المنصور ، وقال له : إننا نخاف منه على دولتكم ، فإن له شَبَهًا بالإمام المهدي ،
وأتباعه كثيرون بكل بلد ، فوقع في قلبه وأهمته شأنه ، فبعث إليه في القدوم
عليه ليختبره ، وكتب لصاحب بجاية بالوصية به والاعتناء ، وأن يُحْمَلَ خير
محمل ، فلما أخذ في السفر شق على أصحابه وتغيروا وتكلموا^١ ، فسكتهم
وقال لهم : إن منيتي قربت ، وبغير هذا المكان قدرت ، ولا بد لي منه ، وأنا
شيخ كبير ضعيف^٢ ، لا قدرة لي على الحركة ، فبعث الله تعالى مَنْ يَحْمِلني إليه
برفق ، ويسوقني إليه أحسن سوق ، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني ، فطابت
نفوسهم ، وذهب بوسهم ، وعلموا أنه من كراماته ، فارتحلوا به على أحسن
حال ، حتى وطئوا به حَوْزَ تلمسان ، فبَدَت له رابطة العباد ، فقال لأصحابه :
ما أصلحه للرقاد ، فمرض مرض موته ، فلما وصل وادي يسر اشتد به المرض ،
ونزلوا به هناك ، فكان آخر كلامه : الله الحق .

وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فحُمِل إلى العباد ،
مدفن الأولياء الأوتاد ، وسمع أهل تلمسان بجنازته ، فكانت من المشاهد العظيمة ،
والمحافل الكريمة ، وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو علي عمر الحباك ، وعاقب الله
تعالى السلطان ، فمات بعده بسنة أو أقل .

ونقل المعتنون بأخباره أن الدعاء عند قبره مستجاب ، وجربه جماعة ، وقد
زرته مئين من المرات ، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله .
وقد أطلال في ترجمته التادلي في كتابه «التشوق لرجال التصوف»^٣ وقد

١ وتكلموا : سقطت من نيل الابتهاج .

٢ نيل الابتهاج : وقد كبرت وضعت .

٣ انظر هذا الكتاب ص : ٣١٦ - ٣٢٥ .

أفردها ابن الخطيب القسطنطيني بتأليف سماه «أنس الفقير» .
 ومن كلامه : من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم ، ومن اشتغل بطلب
 الدنيا ابتلي فيها بالذل ، ومن لم يجد من قلبه زاجراً فهو خراب .
 وقوله : بفساد العامة تظهر ولاية الجور ، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة
 الدين الفتانون .

وقوله : من عَرَفَ نفسه لم يَغْتَرَّ بثناء الناس عليه ، ومن خدم الصالحين
 ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمقت من خلقه ، وانكسار
 العاصي خير من صولة المُطِيع .

وقوله : من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق .
 وسئل عن المحو والشيخ ، فقال : المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم ، وسرك
 بالاحترام والتعظيم ، والشيخ مَنْ هداك بأخلاقه ، وأيدك بإطرافه ، وأنار
 باطنك بإشراقه ، إلى غير ذلك من كلامه النير ، وهو بحر لا ساحل له .

وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس ، ومما يُنسب له قوله :

بكت السحابُ فأضحكت لبكائها	زهرَ الرياضِ وفاضتِ الأنهارُ
وقد آقبلتُ شمسَ النهارِ بحلَّةِ	خَضْرَا ، وفي أسرارها أسرار
وأنى الربيعُ بنحيله وجنوده	فتمتعتُ في حسنه الأَبْصار
والوردُ نادى بالورودِ إلى الجنى	فتسابقَ الأَطيارُ والأشجار
والكأسُ ترقصُ والعقارُ تشعثتُ	والجوُّ يضحكُ والحبيبُ يُزار
والعودُ للغيدِ الحسانِ مجابٌ	والطارُ أخفى صوتَهُ المزمار
لا تحسبوا الزمرَ الحرامَ مرادنا	مزمارنا التَّسْبِيحُ والأذكار
وشرابنا من لطفه ، وغناؤنا	نعم الحبيبُ الواحدُ القهار
والعودُ عاداتُ الجميل ، وكأسنا	كأسُ الكياسة ، والعقارُ وقار

فتألفوا وتطيبوا واستغنموا قبل الماتِ فدهركم غدّار
واللهُ أرحمُ بالفقيرِ إذا أتى من والديهِ فإنّه غفّار
ثمّ الصلاةُ على الشفيعِ المُصطفى ما رتّمتْ بلغاتها الأطيّار

وإنّما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرك به ، ولكونه شيخ
جدي ، فأنا في بركته لقول جدّي : إنّه دعا له ولذريته بما ظهر قبوله ، ولأنّنا
ذكرنا في هذا التّأليف كثيراً من أنباء أبناء الدنيا ، فأردنا كفارة ذلك بذكر
الصالحين ، والله الموفّق بمنّه وكرمه ، آمين .

الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستهدين به على المنهاج ، المتلقين أنواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراج الوهاج

اعلم أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون ، إلا أنه لم يُرزق السعادة في كثير منهم ، بل بارزوه بالعداوة واجتهدوا في إيصال المكروه إليه .

١ - فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك^١ ، وارث مرتبته من بعده ، ومقتعد أريكة سعده ، وقد ألمع به في « الإحاطة » وكان إذ ذاك من جملة أتباعه ، إذ قال ما محصله : محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن زمرك .

أصله من شرقي الأندلس ، وسكن سلفه ربح^٢ البيازين من غرناطة ، وبه ولد ونشأ ، وهو من مفاخره .

حاله - هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبتها ، مختصر مقبول هش خلوب ، عذب الفكاهة حلو المجالسة ، حسن التوقيع خفيف الروح

١ ترجمة ابن زمرك في الإحاطة ٢ : ٢٢١ - ٢٤٠ والكتيبة : ٢٨٢ ونيل الابتهاج : ٢٨٢ ونثير فرائد الجمال : ٣٢٧ والتعريف : ٢٧٤ وجزوة الاقتباس : ١٨٤ والدرر الكامنة ٤ : ٤١٢ وأزهار الرياض ٢ : ٧ - ٢٠٦ ، وقد نقل بعض ما أورده ابن الخطيب في الإحاطة ، وما جاء عنه في كتاب مستقل لابن الأحمر ، وسيكرر هذا في ترجمته هنا ، ولهذا أجريت المقارنة بين ما ورد في النسخ والأزهار دون أن أشير إلى كل موضع على حدة .

٢ ق : روض .

عظيم الانطباع شره المذاكرة ، فطن بالمعاريض حاضر الجواب ، شعلة من شعل الذكاء تكاد تستخدم جوانبه ، كثير الرقة فكه غزل مع حياء وحشمة ، جواد بما في يده مشارك لإخوانه ، نشأ عفاً طاهراً ، كلفاً بالقراءة عظيم الدؤوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ظاهر النبيل ، بعيد مدى الإدراك جيد الفهم ، فاشتهر فضله وذاع أرجه وفشا خبره ، واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون ، وأصبح متلقف كرة البحث وصارخ الحلقة [وسابق الحلبة] ومظنة الكمال ، ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع وخاض لجة الحفظ ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق ، ونصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب ، وفوق المحفل المجموع ، مستظهراً بالفنون التي بعدد فيها شأوه من العربية والبيان [واللغة] وما يقذف به في لجج النقل من الأخبار والتفسير ، متشوقاً مع ذلك إلى السلوك مصاحباً للصوفية آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة ، ثم عانى الأدب فكان أملك به ، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد ، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعُرف في بابهِ بالإجادة . ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس ، واستقر بالمغرب ، أنس له وانقطع إليه ، وكر في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه ، فلفظ منه محله وخصه بكتابة سره ، وثابت الحال ودالت الدولة وكانت له الطائلة ، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية كثير الدالة ، مضطلعاً بالخطة خطأ وإنشاء ولسناً ونقداً ، فحسن منابه واشتهر فضله وظهرت مشاركته وحسنت وساطته ، ووسع الناس تخلفه ، وأرضى للسلطان حملة ، وامتد في ميدان النظم والنثر باعه ، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة ، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد ، أعانه الله تعالى وسدده .

شيوخه - قرأ العربية على الأستاذ رحلة المغرب في فنها أبي عبد الله ابن الفخار ،
ثم على القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسيني ،
والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد ابن لب ، واختص بالفقيه الخطيب
الصدر المحدث أبي عبد الله ابن مرزوق فأخذ عنه كثيراً من الرواية ، ولقي
القاضي الحافظ^١ أبا عبد الله المقرئ عندما قدم على الأندلس وذاكره ، وقرأ
الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي ، ويروي عن جملة منهم القاضي
أبو البركات ابن الحاج ، والمحدث أبو الحسين ابن التلمساني ، والخطيب أبو
عبد الله ابن اللوشي ، والمقرئ أبو عبد الله ابن بيش ، وقرأ بعض الفنون العقلية
بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلوني^٢ التلمساني ، واختص
به اختصاصاً لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة .

شعره - وشعره مترام إلى هدف الإجادة ، خفاجي النزعة ، كلف بالمعاني
البديعة والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به ، وهو من أول
ما نظمه قصيدة مطلعها :

أما وانصداع النور من مطلع الفجر

وهي طويلة .

ومن بدائعه التي عقم عن مثلها قياس قيس ، واشتهرت بالإحسان اشتها
الزهد بأويس^٣ ، ولم يخل مجاربه ومباريه إلا بويح وييس ، قوله في إعدار
الأمير ولد سلطانه المنوه بمكانه ، وهي من الكلام الذي عنيت الإجادة بتذهيبه
وتذهيبه ، وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه :

١ ق : الحافظ القاضي .

٢ سقطت هذه اللفظة من الإحاطة .

٣ هو أويس القرني من أوائل الزهاد في العصر الأموي .

مَعَاذِ الْهَوَىٰ أَنْ أَصْحَبَ الْقَلْبَ سَالِيَا
دَعَانِي أَعْطِ الْحَبَّ فَضْلَ مَقَادِنِي
وَدُونَ الَّذِي رَامَ الْعَوَاذِلُ صَبُوءًا
وَقَلْبًا إِذَا مَا الْبَرْقُ أَوْمَضَ مَوْهِنًا
خَلِيلِي لَنِي يَوْمَ طَارِقَةِ النَّوَى
وَبِالْخَيْفِ يَوْمَ الْفَرِّ يَا أُمَّ مَالِكِ
وَذِي أَشْرٍ عَذِبِ الثَّنَائِيَا مَخْضِرِ
أَحُومٍ عَلَيْهِ مَا دَجَا اللَّيْلُ سَاهِرًا
يَضِيءُ ظِلَامَ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ أَضْلَعِي
أَجِيرَتَنَا بِالرَّمْلِ وَالرَّمْلُ مَتْرَلُ
وَلَمْ أَرَ رَبْعًا مِنْهُ أَقْضَى لُبَانَةً
سَقَتْ طَلَّهُ الْغُرَّ الْغَوَادِي وَتَنَظَّمَتْ
أَبْشَكُمُ أَنِّي عَلَى النَّسَائِي حَافِظُ
أَنَاشِدِكُمْ وَالْحَرُّ أَوْفَى بَعْدِهِ
هَلِ الْوَدُّ إِلَّا مَا تَحَامَاهُ كَاشِحُ
تَأْوِينِي وَاللَّيْلُ يُذَكِّي عَيْونَهُ
وَقَدْ مَثَلَتْ زُهْرُ النُّجُومِ بِأَفْقِهِ
خَيْالٌ عَلَى بُعْدِ الْمَزَارِ أَلْمُ بِي
عَجِبْتُ لَهُ كَيْفَ اهْتَدَى نَحْوَ مَضْجَعِي
رَفَعْتُ لَهُ نَارَ الصَّبَابَةِ فَاهْتَدَى
وَمِمَّا أَجَدَّ الْوَجْدَ سَرَبٌ عَلَى النَّقَا

وَأَنْ يَشْغَلَ الْوَوَامُ بِالْعَدْلِ بَالِيَا
وَيَقْضِي عَلَيَّ الْوَجْدُ مَا كَانَ قَاضِيَا
رَمَتْ بِي فِي شِعْبِ الْغَرَامِ الْمَرَامِيَا
قَدَحْتُ بِهِ زَنْدًا مِنَ الشُّوقِ وَارِيَا
شَقِيتُ بَيْنَ لَوْ شَاءَ أَنْعَمَ بَالِيَا
تَخَلَّفَتْ قَلْبِي فِي حَبَالِكَ عَانِيَا
يَسْقِي بِهٖ مَاءَ النَّعِيمِ الْأَقَاحِيَا
وَأَصْبَحَ دُونَ الْوَرْدِ ظَمَانٌ صَادِيَا
إِذَا الْبَارِقُ النَّجْدِي وَهِنًا بَدَا لِيَا
مَضَى الْعَيْشُ فِيهِ بِالشَّيْبَةِ حَالِيَا
وَأَشْجَى حَمَامَاتٍ ، وَأَحْلَى مَجَانِيَا
مِنَ الْقَطْرِ فِي جِيدِ الْغُصُونِ لَأَلِيَا
ذَمَامَ الْهَوَىٰ لَوْ تَحْفَظُونَ ذَمَامِيَا
وَلَنْ يَعْدَمَ الْأَحْسَانُ وَالْخَيْرُ جَازِيَا
وَأَخْفَقَ فِي مَسَاعَاهُ مَنْ جَاءَ وَاشِيَا
وَيَسْحَبُ مِنْ ذَيْلِ الدُّجْنَةِ ضَافِيَا
حَبَابًا عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ طَافِيَا
فَأَذْكَرَنِي مَنْ لَمْ أَكُنْ عَنْهُ سَالِيَا
وَلَمْ يُبْقِ مِنِّي السَّقْمُ وَالشُّوقُ بَاقِيَا
وَخَاضَ لَهَا عَرْضَ الدُّجْنَةِ سَارِيَا
سَوَانِحُ يَصْقَلْنَ الطَّلِيَّ وَالتَّرَاقِيَا

نزعن عن الألحاظ كلَّ مسدِّدٍ
ولما تراءى السَّرْبُ قلتُ لصاحبي
حذاركَ من سقمِ الجفونِ فإنهُ
وإنَّ أميرَ المسلمينَ محمداً
تضيءُ النجومَ الزاهراتِ خِلالَهُ
مَعَالٍ إذا ما النجمُ صَوَّبَ طالباً
يسابقُ علويَّ الرياحِ إلى التدى
ويغضي عن العوراءِ إغضاءَ قادرٍ
همامٍ يروعُ الأسدَّ في حومةِ الوغى
مناقبُ تسمو للفقارِ كأنما
إذا استبقتِ الأملاكُ يوماً لغايةٍ
بهرتَ فأخضيتِ الملوكَ وذكرها
جلوتَ ظلامَ الظلمِ من كلِّ معتدٍ
هديتَ سبيلَ اللهِ من ضلِّ رشدهُ
أفدتَ وحيَّ الملكِ ممَّا أفدتهُ
وقد عرقتَ منها مرينٌ سوايقاً
وكان أبو زيانَ جيداً معطلاً
لكَ الخيرُ لم تقصدُ بما قد أفدتهُ
فما تكبيرُ الأملاكِ غيرَكَ أمراً
ولا تشتكي الأيامُ من داءِ فتنه
وأندلساً أوليتَ ما أنتَ أهلهُ
تلاقيتَ هذا الثغرَ وهو على شفا
ومن بعد ما ساءتَ ظنونُ بأهلها

فغادرنَ أفلاذَ القلوبِ دواميسا
وأيقنتُ أنَّ الحبَّ ما عشتَ دانيسا
سيعدي بما يعيني الطيبَ المداويا
ليعدي نداءهُ السازياتِ الهواميسا
وينفثُ في روعِ الزمانِ المعاليا
مبالغها في العزِّ حائقَ وانيسا
ويفضحُ جدوى راحتيه الغواديا
ويرجعُ في الحلمِ الجبالِ الرواسيا
كما راعتِ الأسدُّ الظباءَ الجوازيا
تجاري إلى المجدِ النجومَ الجواريا
أبيتَ وذلكَ المجدَ إلا التناھيا
ولا عجبٌ فالشمسُ تخفي الدراريا
ولا غرواً أن تجلو البدورُ الدياتيا
فلا زلتَ مهدياً إليه وهاديا
وطوقتَ أشرافَ الملوكِ الأياديا
تقرُّ لها بالفضلِ أخرى اللياليا
فزيتهُ حتى اغتدى بكَ حاليا
جزاءً ولكن همتة هي ما هيا
ولا ترهبُ الأشرافُ غيرَكَ ناهيا
فقد عرفتُ منكَ الطيبَ المداويا
وأوردتها ورداً من الأمنِ صافيا
وأصبحتَ من داءِ الحوادثِ شافيا
وحاموا على وردِ الأمانِ صواديا

فما يأمون العيش إلا تعلقاً
 عطف على الأيام عطفه راحم
 فأنس من تلقائك الملك رُشده
 وقفت على الإسلام نفساً كريمة
 فرأي كما انشق الصباح ، وعزمة
 وكانت رماح الخط خصماً ذوابلاً
 وأوردت صفح السيف أبيض ناصعاً
 لك العزم تستجلي الخطوب بهديه
 إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله
 وبينك دون العيد عيد شرعته
 أقمت به من فطرة الدين سنة
 صنع تولى الله تشييد فخره
 تود النجوم الزهر لو مثلت به
 وما زال وجه اليوم بالشمس مشرقاً
 على مثله فليعقد الفخر تاجه
 به تغمر الأنواء كل مضموه
 ويوسف فيه بالجمال مقنع
 وأقبل ما شاب الحياة مهابة
 وأقدم لا هيباة الخفل واجماً
 شمائل فيه من أبيه وجدده
 فيا علماً أشجى القلوب لو أننا
 جريت فأجريت الدموع تعطفاً
 وكم من ولي دون بابك مخلص

ولا يعرفون الأمن إلا أمانيا
 وأبستها ثوب امتنانك ضافيا
 ونال بك الإسلام ما كان راجيا
 تصد عدواً عن حماه وعاديا
 كما صقل القين الحسام اليمانيا
 فأهلت منها في الدماء صواديا
 فأصدرته في الروح أحمر قانيا
 ويلقى إذا تنبو الصوارم ماضيا
 فما الصبح وضاح المشارق عاليا
 نبأ به في الخافقين التهانيا
 وجددت من رسم الهداية عافيا
 وكان لما أوليت فيه مجازيا
 وقضت من الزلفى إليك الأمانيا
 سروراً به والليل بالشهب حاليا
 ويسمو به فوق النجوم مراقيا
 ويحدو به من كان بالفقر ساريا
 كأن له من كل قلب مناجيا
 يقلب وجه البدر أزهراً باهيا
 ولا قاصراً فيه الخطا متوانيا
 ترى العز فيها مستكناً وباديا
 فدينك بالأعلاق ما كنت غاليا
 وأطلعت فيها للسرور نواشيا
 يفديه بالنفس النفيسة واقيا

وصيد من الحيين أبناء قبيلة
 بهليل غر إن أعدوا لفارة
 فوالله لولا أن توخيت سنة
 لكان بها للأعوجيات جولة
 وترك أوصال الوشيج مقصداً
 ولما قضى من سنة الله ما قضى
 أفضنا نهني منك أكرم منعم
 فيهنى صفاح الهند والبأس والندی
 ويهي البنود الخافقات فإنها
 كآني به يشقي الصوارم والظبي
 كآني به قد توج الملك يافعا
 وقضى حقوق الفخر في ميعة الصبا
 وما هو إلا السعد إن رمت مطلعاً
 فلا زلت يا فخر الخلافة كافلاً
 ودمت قريبر العين منه بغبطة
 نظمت له حرر الكلام تائماً
 لآل بها تبأى الملوك نفاسة
 أرى المال يرميه الحديدان بالبل

تكف الأعداي أو تُبیدُ الأعدايا
 أعادوا صباح الحي أظلم داجيا
 رضيت بها أن كان ربك راضيا
 تُشيب من الغلب الشباب النواصيا
 وبيض الظبي حمر المتون دواميا
 وقد حسدت منه النجوم المساعيا
 أبي لعيم الجود إلا تواليا
 وسمر العوالي والعناق المذاكيا
 سيعقدها في ذمة النصر غازيا
 ويحطم في اللأم الصلاب العواليا
 وجمع أشات المسكارم ناشيا
 وأحسن من دين الكمال التقاضيا
 وسددت سهماً كان ربك راميا
 ولا زلت يا خير الأئمة كافيا
 وكان له رب البرية واقيا
 جعلت مكان الدر فيها القوافيا
 وجلت لعمرى أن تكون لآيا
 وما إن أرى إلا المحامد باقيا

وورد على السلطان أبي سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وقد الأحابيش
 بهدية من ملك السودان ، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى بـ « الزرافة » ، فأمر
 من يُعاني الشعر من الكتاب بالنظم في ذلك الغرض ، فقال وهي من بدائعه :

لولا تألُّقُ بارقِ التذكاري
لكنه مهما تعرَّضَ خافقاً
وعلى المشوقِ إذا تذكَّرَ معهداً
أمدكري غرناطةَ حَلَّتْ بها
كيف التخلُّصُ للحديثِ وبيننا
هذا على أنَّ التغرُّبَ مركبي
فلكم أقمْتُ غداةَ زُمْتِ عيسهم
وظفقتُ أستقري المنازلَ بعدهم
إننا بني الآمالِ تحدعنا المني
نتجشمُ الأهوالَ في طلبِ العلا
لا يحرزُ المجدَ الخطيرَ سوى امرئ
إمّا يُفاحِزَ بالعتادِ ففخره
مستبصرٌ مرمي العواقبِ واصلٌ
فأشدُّ ما قادَ الجهولَ إلى الردي
ولربَّ مربدٍ الجوانحِ مزبدٍ
فُتقتُ كمامتُ جناحه عن أنجمٍ
مَثَلتُ على شاطي المجرَّةِ نرجساً
وكانتْما بدرُ التمامِ يحنجه
وكانتْما خمسُ الثريا راحةً
أسرجتُ من عزمي مصابيحاً بها

١ ق : ودوننا .

٢ ق : انفساح .

٣ ق : والإحاطة : يعطي ، والصواب ما في الأزهار .

٤ ق : جملة .

وارتاعَ من بازي الصباحِ غرابُهُ
ومنها :

وغريبةٍ قطعتُ إليك على الوني
تُنسبه طيبتهُ الي قد أمَّها
يقتادها من كلِّ مشتملِ الدجى
تشدو بحمدِ المستعينِ حُداتها
إن مسَّهمْ لفتحِ الهجيرِ أبلَّهمْ
خاضوا بها لبحجِ الفلا فتخلَّصتْ
سلمتْ بسعدك من غوائلِ مثلها
وأنتك يا ملكَ الزمانِ غريبةُ
موشيةُ الأعطافِ رائقةُ الحلَى
راقَ العيونَ أديمها فكانهُ
ما بين مبيضٍ وأصفرٍ فاقعِ
يحكي حدائقَ نرجسٍ في شاهقِ
تجدوا قوائمَ كالجذوعِ وفوقها
وسمتْ بجيدٍ مثل جذعِ مائلِ
تستشرفُ الجدران منه تراثباً
تاهتْ بكلكلها وأتلعَ جيدُها
خرجوا لها الجمَّ الغفيرَ ، وكلهمْ
كلُّ يقولُ لصحبه قوموا انظروا
ألقتْ بيباك رحلها ولطالما
علمت ملوكَ الأرضِ أنك فخرها

١ كذا في جميع الأصول ، ولعلها « تجذو » يريد : تنصب .

يتبؤون به وإن بعد المدى
فأرفع لواء الفخر غير مدافع
واهناً بأعياد الفتوح نحولاً
وإليكما من روض فكري نفحة
في فصل منطقتها ورائق رسمها
وتميل من أصغى لها فكأنني

وأنشد السلطان في ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ما فرغ
من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى :

تأمل أطلال الهوى فتألما
أخو زفرة هاجت له نار ذكرة
وسيما الجوى والسقم منها تعلمنا
فأنجد في شعب الغرام وأتمها

وسرد لسان الدين هذه القصيدة بطولها ، وهي تقارب التسعين بيتاً ، ثم قال
ما نصه : وأنشد السلطان في وجهة للصيد أعملها ، وأطلق أعنة الجياد في ميادين
ذلك الطراد وأرسلها ، قوله :

حيّاك يا دار الهوى من دار
وأعاد وجه رباك طلقاً مشرقاً
أمدكري دار الصباية والهوى
عاطيتني عنها الحديث كأنما
إيه وإن أذكيت نار صبابتي
يا زاجر الأظعان وهي مشوقة
حنت إلى نجد وليست دارها
شافت به برق الحمى واعتادها

١ الأزهار : حسن .

٢ كذا في الإحاطة ؛ وفي الأزهار :

لكنها شامت به برق الحمى واعتادها طيف الكرى بمزار

هل تُبلِّغُ الحاجاتِ إن حملتها
عرض بذكري في الخيامِ وقلْ إذا
عارٌ بقومك يا ابنةَ الحين أن
أمتعتِ ميسورَ الكلامِ أبا الهوى
وأبان جاري الدمعِ عذراً هيامه
هذا وقومك ما علمتُ خلاصهم
الله في نفسٍ شعاعٍ كلما
بالله يا لمياء ما منع الصبا
يا بنتَ مَنْ تشدو الحداةُ بذكره
ما ضرَّ نسمةً حاجرٍ لو أنها
هلْ بأنه من بعدنا متأودُّ^١
وهل الظباءُ الآنساتُ كههدنا^٢
يفتكن من قاماتها ولحاظها
أشعرتُ قلبي حُبهنَّ صبايةً
وعلى الكتيبِ سوانحَ حمرٍ الحلى
أدنى الحجيجِ مزارهنَّ ثلاثةً
لكنَّ يومَ النَّصرِ جُدنَّ لنا بما
يا ابن الألى قد أحرزوا خصلُ العلاء
وتنوبُ عن صوبِ الغمامِ أكفهم
من آلِ سعدٍ رافعي علمِ الهدى

إنَّ الوفاءَ سجيَّةُ الأحرارِ
جئتَ العقيقَ مُبلِّغَ الأوطارِ
تلوي الديونَ وأنتِ ذاتُ يسارِ
وبخلتِ حتى بالخيالِ الساري؟
لكن أضعتِ له حقوقَ الجارِ
أوفى الكرامِ بذمةٍ وجوارِ
هبَّ النسيمُ تطيرُ كلَّ مطارِ
أن لا تهبَّ بعرفك المعطارِ
متعلِّين به على الأكوارِ
أهدتُ لنا خبراً من الأخبارِ؟
متجاوبٌ مترنمُ الأطيارِ؟
يصرعن أسدَ الغابِ وهي ضوارِ؟
بالمشرفيةِ والقنا الخطارِ
فرميتني من لوعي بجمارِ
بيضُ الوجوهِ يصدن بالأفكارِ
بني لو أن منى ديارِ^٣ قرارِ
عودتنا من جفوةٍ ونفارِ
وسموا بطيبِ أرومةٍ ونجارِ
وتنوبُ أوجهم عن الأعمارِ
والمصطفين لنصرةِ المختارِ

١ الأزهار : أضعت حقوق ذلك .

٢ الأزهار : كههدنا .

٣ الإحاطة : بدار .

٤ الأزهار : فضل .

أصبحت وارث مجدهم وفخارهم
وجهٌ كما حَسَرَ الصباحُ نقابهُ
جددت دونَ الدينِ عزيمةَ أروعِ
حُطَّت البلادُ ومن حوتهُ ثغورها
للهِ رحلتكَ التي نلنا بها
أوردتنا فيها لجودكَ مورداً
وأفصتَ فينا من نذاكَ مواهباً
أضحكتَ ثغراً الثغري لما جتتهُ
حتى الفلاةُ تقيمُ يومَ وردتها
وسرتَ عقابُ الجوّ تهديكَ الذي
والأرضُ تعلمُ أنك الغوثُ الذي
ولربّ ممتدّ الأباطحِ موحشٍ
همَلِ المسارحِ لا يُراعُ قنيصهُ
سرحتُ عنانُ الريحِ فيهِ وربما
باكرتهِ والأفقُ قد خلعَ اللججى
وجرى بهِ نهرُ النهارِ كمثلِ ما
عرَضتُ بهِ المستنفراتُ^٢ كأنها
أتبعنها غررَ الجيادِ كواكباً
والهادياتُ يؤمها عبلُ الشوى^٣

- ١ في الإحاطة والأزهار : بتألق الأنوار ؛ وأرى الأصل فيه ما أثبتته لأنه يتحدث عن خروج السلطان للصيد ، ورميه ثلاثة ثيران ، فكان فلاة الصيد راعت سنة القرى بتقديمها الثيران له .
- ٢ المستنفرات : الحيوانات التي استنفرت لكي تعدو الجياد وراها ، ويمرّز السلطان لذة مطاردتها وصيدها .
- ٣ عبل الشوى : كناية عن الثور ، والهاديات : المتقدّمات سبقاً .

أزجيتها شقراء راتقة الحلى
أثبت فيه الرمح ثم تركته
حامت عليه الذابلات كأنها
طفقت أرانبه غداة أترتها
هل ينفع الباع الطويل وقد غدت
من كل منحفر بلمحة بارق
وجوارح سبقت إليه طلابها
سود وبيض في الطراد تتابع
ترمي بها وهي الحنايا ضمراً
ظنت بأن ينجو لها، كلاً ولو
وبكل فتشاء الجناح إذا ارتمت
زجل الجناح مصفق كمن الردى
أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى
وأرئنا الكسب الذي أعداده
بيض وصفر خلت مطرح سرحها
من كل موشي الأديم مفوف
خبط البياض بصفرة في لونه
أو أشعل راق العيون كأنه
سرحت بمخضر الجوانب يانع
قد أرضعته الساريات لبانها
أخذت سعودك حذرنا فلحكمة
لما أرتك الشمس صفرة حاسد
نفث عليك السحب نقت معوذ
فارفع لواء الفخر غير مدافع

فرمته منها بشعلة نار
خضب الجوانح بالدم الموار
طير أوت منه إلى أوكار
تبغي الفرار ولات حين فرار
يوم الطراد قصيرة الأعمار
فاتت خطاه مدارك الأبصار
فكأنما طالبته بالثار
كالليل طارده بياض نهار
مثل السهام نزع عن أوتار
أغرته بأرانب الأقمار
فكأنها نجم السماء الساري
في مقلب منه وفي منقار
طيراً أتاك به على مقدار
ملأت جمالاً عين النظار
روضاً تفتح عن شقيق بهار
رقت بدائعه يد الأقدار
فقرى اللجين يشوب ذوب نضار
غلس يخالط سدفه بنهار
تنساب فيه أرقام الأنهار
وحلن فيه أزرة النوار
أغرث جفون المزن باستعبار
لحينك المتألق الأنوار
من عينها المتوقع الإضرار
واسحب ذبول العسكر الجوار

واهناً بمقدمك السعيد مخلّلاً
 قد جئتُ داركَ محسناً ومؤملاً
 وإليكما من روضِ فكري نفحةً
 ما شئتَ من عزٍّ ومن أنصارٍ
 مُتعتَ بالحسنى وعقبى الدارِ
 شَفَّ الثناءُ بها على الأزهارِ
 ومن شعره في غير المطولات قوله^١ :

لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى
 تشيرُ وراء الليلِ منهُ بَنانَةٌ
 تلوحُ سناناً حين لا تنفحُ الصبأُ
 قطعتُ به ليلاً بطارحني الجوى
 إذا قلتُ لا يبدو أشالَ لسانهُ
 إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى
 لك اللهُ يا مصباحٍ أشبهتَ مهجتي
 ومما ثبت له صدر رسالة :

أزورُ بقلبي معهدَ الأنسِ والهوى
 ومهما سألتُ البرقَ يهفو من الحمى
 فيا ليتَ شعري والأمانى تَعَلُّلُ
 وهل جبرني الأولى كما قد عهدتهمُ
 وأنهبُ من أيدي النسيمِ رسائلها
 يبادرهُ دمعي مجيباً وسائلاً
 أيرعى لي الحى الكرامُ الوسائلها
 يُوالونَ بالإحسانِ مَرَّ جاء سائلاً
 ومن أبياته الغراميات :

قيادي قد تملكهُ الغرامُ
 ودمعي دونهُ صوبُ الغوادي
 ووجدني لا يُطاقُ ولا يُرامُ
 وشجوي فوق ما يشكو الحمامُ

١ يصف مصباحاً .

٢ الأزهار : وتبدو .

إذا ما الوجدُ لم يبرح فؤادي على الدنيا وساكنها السلامُ

وفي غرض يظهر من الأبيات :

ومشتمل بالحسنِ أحوى مُهَقِّفٍ
فأبصرتُ أشباهَ الرياضِ محاسناً
فقلتُ لجلّاسي خذوا الحذرَ إنما
ويا وجنةً قد جاورتُ سيفَ لحظةٍ
تخيّلَ للعينينِ جرحاً وإنما
قضى رجعُ طرفي من محاسنه الوطرُ
وفي خدّه جرحٌ بدا منه لي أثرُ
به وصَبُّ من أسهم الغنَجِ والحورِ
ومن شأنها تدمي من اللحمِ بالبصرِ
بدا كلفٌ منه على صفحة القمرِ

ومما يرجع إلى باب الفخر ، ولعمري لقد صدق :

الأئمة في الجود والجودُ شيمةٌ
ذريني فلو أتني أخلدُ بالغي
جُبِلْتُ على إثارها يوم مولدي
لكنْتُ ضنيناً بالذي ملكتُ بيدي

وقال :

لقد علمَ الله أني امرؤ
فكم غمّضَ الدهرُ أجفانهُ
وقيلَ رقيبك في غفلةٍ
أجرُّ ذيلَ العفافِ القشيبِ
وفازتُ قِداحي بوصلِ الحبيبِ
فقلتُ أخافُ الإلهَ الرقيبِ

وفي مدح كتاب «الشفاء» [وقد] طلبه الفقيه أبو عبد الله ابن مرزوق عندما

شرع في شرحه :

ومسرى ركابٍ للصبا قد وَّنتَ به
تسلُّ سيوفَ البرقِ أيدي حُداتها
تعرّضنَ غرباً بيتغينَ معرّساً
لتسقيَ أجداناً بها وضرائحاً
نجائبُ سحْبِ الترابِ نزعها
فتنهلُّ خوفاً من سَطَاها دموعها
فقلتُ لها : مراكشُ وربوعها
عياضُ إلى يومِ المعادِ ضجيعها

وأجدرُ مَنْ تَبَكَّى عَلَيْهِ يِرَاعَةٌ
فَكَمْ مِنْ يَدٍ فِي الدِّينِ قَدْ سَلَفَتْ لَهُ
وَلَا مِثْلَ تَعْرِيفِ الشِّفَاءِ حَقَّقَهُ
بِمِرَاةِ حَسَنِ قَدْ جَلَّتْهَا يَدُ النَّهْيِ
نَجُومٌ اهْتَدَاءً ، وَالْمَدَادُ يَجْتَهَا
لَقَدْ حَزَّتْ فَضْلًا يَا أَبَا الْفَضْلِ شَامِلًا
وَاللَّهُ مَمْتَنٌ قَدْ تَصَدَّقَى لِشَرْحِهِ
فَكَمْ مَجْمَلٍ فَصَّلَتْ مِنْهُ وَحِكْمَةٍ
مَحَاسِنُ وَالْإِحْسَانُ يَبْدُو خِلَافَهَا
إِذَا مَا أَجَلَّتْ الْعَيْنُ فِيهَا تَخَالُهَا
مَعَانِيهِ كَالْمَاءِ الزَّلَالِ لَدَيْ صَدِّي
رِيَاضٌ سَقَاها الْفِكْرُ صَوَّبَ ذِكَايَهُ
تَفَجَّرَ عَنِ عَيْنِ الْيَقِينِ زِلَالُهَا
أَلَا يَا ابْنَ جَارِ اللَّهِ يَا ابْنَ وَلِيِّهِ
إِذَا مَا أُصُولُ الْمَرْءِ طَابَتْ أُرُومُهُ
بَقِيَتْ لِأَعْلَامِ الزَّمَانِ تُنِيلُهَا

بصَفْحَةِ طَرْسٍ ، وَالْمَدَادُ نَجْمِهَا
يُرْضَى رَسُولَ اللَّهِ عَنْهُ صَنِيعُهَا
فَقَدْ بَانَ فِيهِ لِلْعُقُولِ جَمِيعُهَا
فَأَوْصَافُهُ يُلْتَاخُ فِيهِ بِدِيعُهَا
وَأَسْرَارُ غَيْبٍ ، وَالْيِرَاعُ تَذِيعُهَا
فِي جَزِيكِ عَنِ نَصِيحِ الْبَرَايَا شَفِيعُهَا
فَلْبَاءَهُ مِنْ غُرِّ الْمَعَانِي مُطِيعُهَا
إِذَا كَتَمَ الْإِدْمَاجُ مِنْهُ تُشِيعُهَا
كَمَا أَفْتَرُ عَنْ زَهْرِ الْبَطَاحِ رِبِيعُهَا
نَجُومًا بِأَفَاقِ الطَّرُوسِ طَلُوعُهَا
وَأَلْفَاظُهُ دَرٌّ يَرُوي نَصِيعُهَا
فَأَخْصَبَ لِلوَرَادِ مِنْهَا مَرِيعُهَا
فَلذَّ لِأَرْبَابِ الْخُلُوصِ شُرُوعُهَا
لَأَنْتَ إِذَا عُدَّ الْكِرَامِ رَفِيعُهَا
فَلَا عَجَبٌ أَنْ أَشْبَهْتَهَا فِرْعَوْنُهَا
هُدًى ، وَلِأَحْدَاثِ الْخَطُوبِ تَرُوعُهَا

مولده رابع عشر شوال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين في « الإحاطة » في ترجمة تلميذه أبي عبد الله ابن زمرك .

قلت : ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين - رحمهما الله تعالى - على هامش هذه الترجمة من « الإحاطة » كلاماً في حق ابن زمرك رأيت أن أذكره بجملة الآن ، وإن تقدم بعضه في هذا الكتاب :

فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته : أتبعه الله تعالى خزيماً ، وعامله بما يستحقه ، فهذا ترجمه والذي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم

يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شر من أحسننا إليه ؛ انتهى .
 وكتب على قوله « نشأ عفاً طاهراً - إلى آخره » ما نصه : هذا الوغد ابن زمرك
 من شياطين الكتاب ، ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات
 من ذلك ، وهو أحسن عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة وأخلمهم شكلاً ،
 استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ،
 وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي رياه وأدبه واستخدمه ،
 حسبما هو معروف ، وكفانا الله تعالى شر من أحسننا إليه وأساء إلينا ؛ انتهى .
 وكتب على قول والده « فترقى إلى الكتابة - إلى آخره » ما صورته : على يد
 سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ انتهى .

وكتب على قول « معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا - إلى آخره » ما نصه :
 هذه التصيدة نظم له مولاي الوالد تغمده الله تعالى برحمته منها النسيب كله ،
 وهكذا جرت عادته معه في الأمداح السلطانية حضرة الملك^١ ، والله المطلع على
 ذلك ، قاله ابن المصنف علي بن الخطيب ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لولا تألقت بارق التذكار - إلى آخره » ما صورته : هذا
 الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم في هذا الوزن ، ويتبع حمارة هذه الراء ، حتى
 لا يتركها جملة ، إذ الرجل ابن حمّار مكارى حداد ، فالنفس تميل بالطبع ؛
 انتهى .

وكتب على قوله « حيّاك يا دار الهوى من دار - إلى آخره » ما صورته :
 انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الراء ، علقت له بها ما حولها ؛ انتهى .
 وكتب على قوله « وجوارح سبقت إليه طلابها - إلى آخره » ما صورته :
 سرق طردية إبراهيم بن خفاجة ، فانظرها تجده سرق المعاني والألفاظ ، مع أن

١ ق : حضرت لذلك ، ولعلها : « حضرت ذلك » .

والذي نظم له أكثرها على حسب عادته معه ، قاله علي بن الخطيب ؛ انتهى .
وكتب على قوله « يا مصباح » ما نصه : كان يجب صبيّاً اسمه مصباح ، وهو
الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة ؛ انتهى .

وكتب على قوله « الأثمي في الجود - إلى آخره » ما صورته : كذبت يا
نجس ، من أين الفخر لك أو لبيتك ؟ لست والله من الجود في شيء ، نعم سُخنةُ
عين الجود ؛ انتهى .

وكتب على قوله « لقد علم الله أني امرؤ - إلى آخره » ما معناه : لا والله ،
فأنت مشهور بكذا ، يا قرد ، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا ؟ إلى
أن قال : وأنحسهم بيتاً ؛ قاله مولاك الذي ربيت في نعمته ونعمة الله علي بن
الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

وقد نسبته إلى ما لا يليق ، فالله أعلم بحقيقة الأمر .
وكتب غيره على قول ابن زمرك « أزور بقلبي - الأبيات المتقدمة » عند
قوله « سائلاً » في موضعين : هما من السؤال ، فحصل على الإبطاء المذموم ؛
انتهى .

قلت : أما ما ذكره ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك
والله أعلم كان في ابتداء أمره ، وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين
وبعد موته بالبدائع التي لا تُنكر ، كما سنذكره ، وأما كونه سعى في قتل لسان
الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله ، وقُتل بمرأى من أهله ومسمع ،
وأزهقت معه روح ابنه ، حسبما نذكره ، وهذا قصاص الدنيا ، وعفو الله تعالى
في الآخرة منتظر للجميع .

ولنذكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلد ضخيم
رأبته بالمغرب جمع فيه شعر ابن زمرك وموشحاته ، وعرف به في أوله ، إذ
قال ما نصه : أما بعد ما يجب من حمد الله تعالى في كل حال ، وشكره على ما

أولى ويسر من صلاح الأحوال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال^١ ، والرضى عمن له من صحبٍ وأنصار وآل ، فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان ، وتؤثر من اشتهر به بالملاحظة يلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان ، ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس الغني بالله — تولاة الله تعالى برضوانه — كانت غرراً في وجوه الأيام ، ومواسم تجمع الطمّ والرّم من الرؤساء الأعلام ، الآخذين بأعنة الكلام ، السابقين في حلبة النار والنظام ، وأن الفقيه الرئيس المدرك ، الناظم النائر أبا عبد الله محمد بن يوسف ابن زمرك ، عفا الله تعالى عنه ، وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجد رحمه الله تعالى لكتابته ، وصرفه في الوجوه المتعددة من رسالته وحجابه ، وكان بذلك خليقاً ، لما جمع من أدوات الكمال علماً وتحقيقاً ، وإدراكاً ونبلاً وفقهاً وأصولاً وفروعاً وأدباً وتحصيلاً ، وبياناً وتفسيراً ونظماً وترسيلاً — لما كان قد أخفت الأيام سنناً صبحه ، وخابت وسائل نصحه ، وعادت بعدوانها بعد فوز قدحه ، وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أيّ ذخر فقدوا ، ولا أيّ مطلق من تصرفاته الجميلة قيدوا ، مستبصرين بالجهل في دياجي غيهم ، معجيين بما ارتكبه من جياذ بغيهم جميعهم يلحظه بمقل دامية ، وألفاظ حامية ، يصاحبونه بأوجهٍ خلّت عن الوجاهة سيماها الحسد ، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد :

فخرّ على الألاء لم يوسد^٢ كأنّ جبينه سيفٌ صقيل^٣

فيا لله من أشلاء هنالك ضائعة ، وأعلاق غير مصونة ، ووسائل مخفورة ، وأذمة قطعت أرحامها ، ولم يُرعَ ذمامها ، وعانت الأيدي الفاتكة حيثنذ على بنه ، وارتكبوها شعاء في أهله وذويه :

١ الأرسال : جمع رسول ، وهو غير مألوف .
٢ البيت لابن عنمة الضبي في رثاء بسطام بن قيس (الحماسة رقم : ٣٥٥ من شرح المرزوقي) ؛
والألاء : الواحدة من شجر الألاء .

هل كان إلا حياً نحيباً العبادُ به
 إن قال قولاً ترى الأبصارَ خاشعةً
 يالهفَ قلبي لو قد كنتُ حاضرةً
 لما تركتُ له شلواً بمضجعةً
 هل كان إلا قذئى في عين ذي عورٍ
 لما يخبرُ من وحيٍ ومن أثرٍ
 غداةَ جرّعه أدهى من الصبرِ
 ولا تولّى صريحَ النابِ والظفرِ
 «وكان ما كان ممّا لست أذكره
 فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ»

وإن سأل سائلٌ عن الخبر الذي ألعنا بذكره ، وضممتنا هذا البيت ذرواً ١ من فطيع أمره ، فذلك عندما نسب صاحب الأمر إليه ما راب ، وتكته وابنيه للجبين معفرين بالتراب ، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسل بآياته ، ويتشفع بعظيم بركاته ، فأخذته السيوف ، وتعاورته الختوف ، وأذهبه سلباً قتيلاً ، مُصيراً مصراع منزله كثيراً مهيباً ، وكنا على بعد من هذه الآفة التي أورثت القلوب شجناً طويلاً ، وذكّرتنا بعناية مولانا الجدد الغني بالله لجانبه أعظم ذكرى ، فأغرينا برثائه خلجداً وفكراً ، وارتجلنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارةً مقنعة ، وكناية في السلوان مطمعة ، وأرضينا بالشفقة أوداهه ، وأرغمنا بتأبينه أعداءه ، ولما تبلى الصبح لذي عينين ، وتلقينا راية الفرج بالراحتين ، عطفتنا على أبنائه عواطف الشفقة ، وأطلقنا لهم ما عانت الأيدي عليه صلةً لرحم طالما أضعها من جهل الأذمة ، وأخضر عهداً تخدّمه لمن سلف من الأئمة ، وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا ، وجعلنا ضمّ ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيد أعمالنا ، وكان تعلقاً بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه ، مشتملة على ما راق وحسن من نثاره ونظامه ، فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادنا من رقاعه الحائلة المنتهية بأيدي النواصب ، الدائرة المستلبة بتعدي النواصب ، فخلص من الجملة قلائد عقيان ، وعقود در ومرجان ، تراتح

١ ذرواً : طرفاً ؛ وفي ق : درآ .

النفوسُ النفيسةُ لإنشادها ، وتحضرُ الأبصارُ والأسماعُ^١ عند إيرادها ، إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا ، والإشارة بعظيم ملكنا ، فشرعنا في تقييد أوابدها الشاردة ، وإحياء رسومها البائدة ، كلفاً بالأدب لوضوح فضله ، وتأدية لما يجب من رعاية أهله . ولنبداً بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبّه عليه ، ونظهر ما كنا نضمّره من الميل إليه ، في كل ما له أو عليه ، فنقول :

هو الفقيه الكاتب الفذ الأوحّد ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريمي ، ويُعرف بابن زمرك .

أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة ، وبها وُلد ، فنشأ ضيلاً كالشهاب يتوقّد ، مختصر الجرم والأعينُ بإطالة فواضله تشهد ، ومكتب الفتنة القرآنية يؤثّره بالحناب الممهد ، فاشتغل أول نشأته بطلب العلم والنووب على القراءة ، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس ، ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلاّ وهو متحمل الرواية ، وملتمس لفوائد الدراية ، ومُصابيح كلّ يوم أعلام العلوم ، ومستمدّ بمصابيح الحدود العلمية والرسوم ، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبي عبد الله ابن الفخار الآية الكبرى في فنّ العربية ، وتردد الأعوام المدينة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء ، وبذ النحاة البلغاء ، بما أوجب رثاءه^٢ عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التي أولها :

أغرى سرّاة الحيّ بالإطراقِ

واهتدى في طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب العظيم أبي عبد الله ابن مرزوق الوافد على مولانا الجدد أبي الحجّاج ، رضي الله تعالى عنه ، في عام ثلاثة

١ الأزهار : وتحمد الأبصار الأسماع ؛ ق : وتحصر .

٢ ق : أن رثاء .

وخمسين وسبعمائة ، وإليه جنح ، وإياه قصد عند تغربه إلى المغرب في دولة
السلطان أبي سالم ، فتوجه بالعمامة التي ارتجل بين يديه فيها :

تَوَجَّسْتَنِي بِعِمَامَتِهِ تَوَجَّتَ تَاجَ الْكِرَامَةِ
فَرَوْضُ حَمْدِكَ يُزْهِى نِي بِسَجْعِ الْحَمَامَةِ

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبي علي منصور الزواوي ، وبرع في الأدب
أثناء الانتقال وأول الطلب لأبي عبد الله ابن الخطيب ، ولكن لم يحمداً بينهما
المال ، واقتدى في العلوم العقلية بالشريف أبي عبد الله التلمساني قدوة الزمان ،
وحصلت له الإجازة والتحديث بقاضي الجماعة وشيخ الحملة أبي البركات ابن
الحاج ، وبالخطيب البليغ أبي عبد الله اللوشي ، وبالخطيب الورع أبي عبد الله ابن
بيش العبدري ، رضي الله تعالى عنه وعن جميعهم ، وبواجب محافظتنا على
عهدهم ، إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عذبَ ورددهم ، وصل سبينا بهم الكثير
من شيوخنا مثل الإمام المعظم أبي محمد عبد الله بن جزي ، ومعلمنا الثقة المجتهد
أبي عبد الله الشريشي ، والقاضي الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن علاق ،
وغيرهم ، رحمة الله تعالى عليهم ، لذلك صار صدرأ في نوادي طلبة الأندلس
وأفراد نجبائها ، فما شاءه المحاضر يجده في خضله^٢ ، ويتلقاه من باهر فضله ،
فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة ، وجواباً مطبقاً للمفصل^٣ ،
وذهناً سابقاً لإيضاح المشكل ، مع انقياد الطبع ، وإرسال الدمعة في سبيل الخشوع
والرقة ، ورشح الجبين عند تلقي الموعظة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة
الناظر إليه بالاحتشام والمبادرة للاستدعاء ، على طهارة وبذل وسع وكرم نفس ،
لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ، ولا أمتع منه بجاهه ، إلى مبالغة في الهشّة

١ - ق : بيش .

٢ الخصل : اللؤلؤ ؛ وفي ق : خضله .

٣ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : شافياً للمفصل .

والمبرة والإيثار بما منح ، وجنوح إلى حبّ الصالحين ، وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولي أبي جعفر ابن الزيات ، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبي مهدي ، قدس الله تعالى مغناه ، وسواهما من أهل الاندلس والعدوة ، وحمله أشد الحمل على كل ملبس^١ كأبي زكريا البرغواطي وسواه . ومن تنديراته - زعموا - على أبي الحسن المحروق لميله عنه :

ولدُ الفقير والرباط ولكنْ نفسُهُ للسلوك ذاتُ افتقار

وخطب الأدب يافعاً وكهلاً ، وحاز علمه إدراكاً ونهلاً ، ولما كانت الحادثة على مولانا الجدد - رحمه الله تعالى - واجتاز إلى المغرب كما تقرر في غير هذا ، كلف به وأنس إليه ، لحلاوة منطلق ورفع استيحاش ومرأضة خلقت ، ثمّ كرّ في صحبة ركابه فعلّت منزلته ولطّف محله .

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبديء فيها ويعيد ، ويقول : خدمته سبعاً وثلاثين سنة : ثلاثاً بالمغرب ، وباقيها بالاندلس ، أنشدته فيها ستاً وستين قصيدة في ستة وستين عيداً ، وكلُّ ما في منازل السعيدة من القصر والرياض والشار^٢ والسيكة من نظم رائق ، ومدح فائق ، في القباب والطاقت والطرز وغير ذلك فهو لي ، وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاي أبا الحجاج ، وهما كبيراً ملوك أهل الأرض ، وهنأته بكذا وكذا قصيدة ، وفوض لي في عقد الصلح بين الملوك بالعدوتين ، وصلح النصارى عقده تسع مرات ، ألحسة فوض إليّ ذلك ؟ قلنا : صدق في جميع ما ذكره ، والعقود بذلك شاهدة له . وخصّه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره ، واستعمله بعد أعوام في السفارة بينه وبين ملوك عصره ، فحميد متأبه ، ونمت أحواله ورغيد جنابه ، وكان هنالك بعض تقولات تشين

١ ملبس : مخلط ؛ وفي الأزهار وق : متلبس .

٢ الدشار : القرية أو الكفر ، والجمع دشر ودشائر .

وجه اجتهاده ، وتومىء بما احتشبه من سوء مقاصده وما صرفه من قبيح أغراضه ،
وهاجت الفتنة ، فكانت سفارته أعظم أسنابها .

وعند الأشدّ من عمّره عرضت لأفكاره تقلبات ، وأقعدته عن قِداد
السياسة آفاتٌ مختلفات ، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط^١ في أشراك وقعات ،
فقعد بجامع مالقة ثمّ بمسجد الحمراء ملقياً على الكرسي فنوناً جمّة ، وعلوماً لم
يزل يطلقها عن أولياء التعظيم والتجلة ، فانحاز إلى مادة^٢ أمم بمالقة طما منهم
البحر ، وتراعى لأبصارهم وبصائرهم الفخر ، وكان التفسير أغلب عليه لفرط
ذكائه ، وما كان قيده وحصله أيام قراءته وإقرائه ، فما شئت من بيان ، وإعجاز
قرآن ، وآيات توحيد وإخلاص ، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص ، يوم الأخذ
بالنواص ، ومراراً عدة سمع ما يليقه وليّ الأمر ، وبأشدة البلوى التي أذاقه
مرّها ، وأمطاه إلى طيبة الهلاك ظهرها ، وبأقرب ما كان القوت ، والحسام
الصّلت ، من متباعد هذه القُرب التي ألغيت^٣ .

قلنا : لقد جمع جواد القلم فأطلقنا ، ونحن نشير إلى هذا الرئيس ° وتبدل
طباعه ، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاع ، وإحراز شيم أدت إلى علو مقداره ،
واستقامة مداره ، قال عمر مولانا جدنا إلى النقاد ، ورمت رئيس كتابه هذا
أسهم الحساد ، فظهر الخفي ، وسقط به الليل على سرحان ، وقد طالما جرب
الوفي والصفي . وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر بن حجاب الدولة ،
والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجبيلة ، مع الاستغراق في غمار الفتن أندلساً
وغرباً ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصباً ، أما الجراءة فانقضت سيوفها ،

١ الأزهار : أنه متخبط .

٢ ق : مائة .

٣ الأزهار : من تباعد . . . ألغيت .

٤ يعني أطلقنا له العنان .

٥ ق : الراس ؛ سيثما وقت .

وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوع صنوفها ، وأما المجاهرة فوقف
بميدان الاعراض صفوفها ، وأما المجاملة فنكّر معروفها ، أداه هذا النبأ العظيم
إلى سكنى المعتقل بقصبة المرية ، وعلى الأثر كان الفرج قريباً ، وسطور المؤاخنة
قد أوسعها العفو تضريراً ، ونالته هذه المحنة عند وفاة مولانا الجدد الغني بالله ،
وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة ، لأسباب يطول شرحها
أظهرها شراسة في لسانه ، واغترار بمكانه ، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه ،
فكبا للبدن والضم ، إلى أن من الله تعالى بسراجه ، وأعادته إلى الحضرة في أول
شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة ، فكان ما كان من وفاة
مولانا الوالد رحمه الله تعالى ، وقيام أختينا محمد مقامه بالأمر ، فاستمر الحال أياماً
قليل ، وقدم للكتابة الفقيه ابن عاصم لمدة من عام ، ثم أعاد المذكور إلى خطته
وقد دَمِثَتْ بعض أخلاقه ، وخمدت شراسته وحلا بعض مذاقه ، فما كان إلا
كلا وليت وإذا به قد ساء مشهداً وغيّباً ، وأوسع الضمائر شكاً وريباً ، وغلبت
الإحن عليه ، وغلت مراجلها لديه ، فصار يتقلب على جمر الغضا ، ويتبرم
بالقضا ، ويظهر النصح وفي طيه التشتي ، ويسم نفسه بالصلاح ، ويعلم
بالخشوع ، ويشير بأنه الناصح الأمين ، ويتلو قوله تعالى ﴿ ولكن لا تحبون
الناصحين ﴾ (الأعراف : ٧٩) ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوباً لم
يقترفوها ، ونسب إليهم نسباً من التضييع لم يعرفوها ، وأنهم احتجوا الأموال ،
وأساءوا الأعمال والأقوال ، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حصل على
تفاوت أعداده على حاصل ، هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ،
وعدم اضطلاع بالأمور الجبائية ، فمن نفس يروع سربها ، ويكدر بالامتحان
والامتهان شربها ، ومن ضارعة خاشعة لله تعالى سلّبت ، وطولبت بغير
ما اكتسبت ، وتعدت الأيدي إلى أقوام جلت سعدوا بشقائه ، وامتنحوا
وهم المبرأون من تزويره واعتدائه ، وسيسألون يوم لا يغي مال ولا بنون .

وصار يصرف أغراضه ، ويُظهر أحقادَه ، بين إفصاح بما كان الإعجامُ خيراً من إلقائه ، وإن عمر المسكين المستضعف لا حاجة في طول بقائه ، إلى مجاهرةٍ عهد منه أيام شببته نقيضها ، وانعكس في شاخته تصریحها المنعص وتعريضها ، لا يريح نفسه من جهْد ، ولا يقف من اللجلجة عند حد ، وقد كان ثقل سمعه فساعت إجابته ، وطغت أخلاقه فسئم الناس وساطته ، وربما استحلف فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلاّ الخنث عن قصد وغير قصد ، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وعَد ، وأن يقبض الله له ولهم قاتل عمد ، فسبحان القاهر فوق عباده ، الرحيم بهذا الشخص وبالأموات من شيعته وأولاده ، فاستمرّ على ذلك إلى إحدى الليالي ، فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه ، تلقّاه - زعموا - عند الدخول عليه ، وهو بالمصحف رافع يديه ^١ ، فجدلته السيوف ، وتناولته الختوف ، فقضي عليه ، وعلى من وجد من خدامه وأبيه ، كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته ، ولم يتقوا الله فيه حتّى تقّاه ، فكانت أنكى الفجائع ، وأفظع الوقائع ، وساءت القالة ، وعظم المصاب ، وكل شيء إلى أجل نافذ وكتاب . انتهى كلام ابن الأحمر في مقدمة كتابه ^٢ .

وقد اطلعت منه على تصاريّف أحوال ابن زمرك ، وقتله على الوجه الذي يُعلم منه أن ثار لسان الدين ابن الخطيب لديه لا يترك ، بل قتلته أفضع من قتلة لسان الدين ، لأن هذا قُتل بين عياله وأهله ، وقتل معه ابناه ومن وجد من خدمه ، ولسانُ الدين رحمه الله تعالى خُتق بمفرده ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وهو العفوُّ الغفور .

وقد فهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعد عام خمسة وتسعين وسبعمائة ، ولم أقف من أمره على غير ما تقدم .

١ ق : رافعاً به .

٢ سمي هذا الكتاب « البقية والمدرك من شعر ابن زمرك » .

ولا بأس أن نلم بشيء من نظمه البارِع مما كنت انتقيتَه بالمغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور ، وأوردت كثيراً منه في « أزهار الرياض » .
فمن ذلك قوله في ذكر غرناطة العلية ، وتهنئة سلطانه الغني بالله ببعض المواسم العيدية ، ووصف كرائم جياده ، وآثار ملكه وجهاده :

يا مَنْ يَحْنُ إلى نجدٍ ونادِئِها	غرناطةٌ قد ثَوَّتْ نَجْدٌ بوادِئِها
قفْ بالسَّبِيكةِ وانظُرْ ما بساحتِها	عَقِيلَةٌ والكثيبُ الفِردُ جالِئِها
تقلَّدتْ بوشاحِ النهرِ وابتسَمَتْ	أزهارُها وهي حَلْيٌ في تراقِئِها
وأعِينُ الزرجسِ المَطْلُولِ يانعةٌ	ترقرقُ الطلُّ دمعاً في مآقِئِها
وافترَّ نغمرُ أقاحٍ من أزهارِها	مقبلاً خَدَّ وردٍ من نواحيها
كأتما الزهرُ في حافاتِها سَحَرًا	دراهمٌ والنَّسيمُ اللَّدنُ يجيئِها
وانظُرْ إلى الدَّوْحِ والأَنهارِ تكفِئِها	مثل الندامى سواقِئِها سواقِئِها
كم حولها من بدورٍ تجتني زهراً	فتحسبُ الزهرَ قد قبَّلنَ أيديها
حسباؤها لؤلؤٌ قد شَفَّ جوهرها	والنهرُ قد سالَ ذوباً من لآئِها
نهرُ المجرَّةِ والزَّهرُ المَطيْفُ به	زهرُ النجومِ إذا ما شئتَ تشيئِها
يزيدُ حسناً على نهرِ المجرَّةِ قد	أغناهُ درَّ حَبابٍ عن دراريها
يدعى المنجمُ رائِئِهِ وناظرُهُ	مسمياتُ أبانتِها أسامِئِها
إنَّ الحجازَ مغانِئِهِ بأندلسِ	ألفاظُها طابقتُ منها معانيها
فتلكَ نجدٌ سقاها كلُّ منسجمِ	من الغمامِ يجيئِها فيحيئِها
وبارقٌ وعُدَيْبٌ كلُّ مَبْتَسِمِ	من الثغورِ يجليئِها مجليئِها
وإن أردتَ ترى وادي العقيقِ فِرْدِ	دموعَ عشاقِها حمراً جوارِئِها
وللسَّبِيكةِ تاجٌ فوقَ مفرقِها	تودُّ درُّ الدَّراري لو تحليئِها

١ حين عدد لسان الدين البساتين والمتنزهات في غرناطة قال : « ومدرج نجد ومدرج السبيكة وجنة العريف » وتقع السبيكة إلى الجنوب الشرقي من الحمراء .

يا قوتة فوق ذاك التاج عليها
 جواهر الشهب في أبي مجالها
 رأيت أزهاره زهراً يجليها
 فشهبها في جمال لا تضاهيها
 تهوي النجوم قصوراً عن معاليها
 تلك المنارة قد رقت حواشيها
 والشهب تستن سبقت في مجاريها
 وغمض الفجر من أجفانها
 ما استوقفت ساجعات الطير يفرها
 يصبي العقول بها حسناً وسبها
 لآثماً وهي نور في تلايها
 ترمي القلوب بها عمداً فتصمها
 يثني النفوس لها شوقاً تشنبا
 حتى شدا من قيان الطير شادها
 ورق الحمام وغناها مغنيها
 باحت بسر معانيها أغانيها
 فرقة الطبع طبع منه يعديها
 صُفراً عشيّاتها بيضاً لياليها
 إذا اشتكت بغليل الجذب يرويها
 بالجوهر فوق موات الأرض يحياها
 عن السؤال وبالإحسان يُغنيها

فإن حمراءها والله يكلؤها
 إن الدور لتيجان مكللة
 لكنها حسدت تاج السبيكة إذ
 بروجها لبروج الأفق محجلة
 تلك القصور التي رقت مظاهرها
 لله لله عينا من رأى سحرها
 والصبح في الشرق قد لاحت بشائره
 تهوي إلى الغرب لما غالها سحرها
 وساجع العود في كف النديم إذا
 يبدي أفانين سحر في ترنمه
 يحسه ناعم الأطراف تحسبها
 مقاتل بلحاظ قوس حاجبها
 فباكر الروض والأغصان ماثلة
 لم يرقص الدوح بالأكام من طرب
 وأسمعتها فنون السحر مبدعة
 غرناطة آس الرحمن ساكنها
 أعدى نسيمهم لطفاً نفوسهم
 فخلد الله أيام السرور بها
 وروض المحل منها كل منبجس
 يحكي الخليفة كفاً كلما وكفت
 نفي العفاة وقد أمت مكارمه

١ هذه رواية ق والأزهار ؛ وفي التجارية : ما استوقفت الطير يديها ويقرها .

جوداً ولا سحبه يوماً تدانها
 بعسجدٍ ولجينٍ صابٍ هامها
 ملوكه تلفت لولا تلافها
 ملكت شرقاً وغرباً من يراعها
 سوائهم أنت في التحقيق راعها
 وكلُّ صالحه في الدين تنويها
 فرحمة الله بالسقيا تحييها
 لولاك زلزلت الدنيا بمن فيها
 في ظل أمنك قد نامت ذرارها
 بنصر ملكك يدعو الله داعيها
 لتبلغ الخلق ما شاءت أمانها
 واضرب بها فربة التلث تفرها
 فيها السعود بما ترضى ويرضيها
 لكافلاً من إله العرش يكفيها
 في جريها وجنود الله تحميها
 والمشركون سيوف الله تفتنيها
 حُسن عواقبها حتى أعاديها
 إلا وهديتك للأبصار يديها
 تدعو الملوك إلى طوع تلبئها
 وأوسعوا الخلق تنويها وترفيها
 تضيء للدين والدنيا مشاكها
 فوزاً لمهديها عزاً لهاديها

لها بنانٌ فلا غيثٌ يساجلها
 فإن تصب سحبه بالماء حين همت
 يا أيها الغيث أنت الغوث في زمن
 إن الرعايا جزاك الله صالحه
 إن الخلائق في الأقطار أجمعها
 فكلُّ مصلحة للخلق تحكمها
 إذا تيممت أرضاً وهي مجدبة
 يا رحمة بثت الرحى بأندلس
 في فضل جودك قد عاشت مشيختها
 في طول عمرك يرجو الله أملها
 عوائد الله قد عودت أفضلها
 سل السعود ووجل البيض مغمدة
 لله أيامك الغر التي اطردت
 لله دولتك الغراء إن لها
 هيئات أن تبلغ الأعداء مأربة
 هذي سيوفك في الأجفان نائمة
 سريرة لك في الإخلاص قد عرفت
 لم يحجب الصبح شهب الأفق عن بصري
 يا ابن الملوك وأبناء الملوك إذا
 أبناء نصر ملوك عز نصرهم
 هم المصاييح نور الله موقدها
 هم النجوم وأفق المهدي مطلعها

١ الأزهاري : لم تحتجب شهب الآفاق عن بصر .

همُ البدورُ ، كمالٌ ما يفارقها
 قضت قواضبها أن لا انقضاء لها
 وخلدت في صفاح الهند سيرتها
 وأورثتك جهاداً أنت ناصره
 كم موقف ترهب الأعداء موقعه
 ثارت عجاجته واليوم محتجب
 وللأسنة شهب كلما غربت
 وللسيوف بزوق كلما لمعت
 أطلعت وجهاً تريك الشمس غرته
 من أين للشمس نطق كله حكم
 لك الجياد إذا تجري سوابقها
 إذا انبرت يوم سبق في أعنتها
 من أشهب قد بدا صباحاً ترع له
 إلا التي في لحام منه قيدها
 أو أشقر مر عن شقر البروق وقد
 أو أحمر جمره في الحرب متقد
 لون العقيق وقد سال العقيق دماً
 أو أدهم ملء صدر الليل تنعيله
 إن حارت الشهب ليلاً في مقلده
 أو أصفر بالعشيات ارتدى مرحاً

همُ الشمسُ ، ظلامٌ لا يواربها
 وأمضت الحكم في الأعدا مواضبها
 وأسندت عن عواليها معاليها
 والأجرُ منك يرصّيهما ويحظيها
 والخيل تردي ووقع السمر يردبها
 والنقع يؤثر غيماً من دياجيبها
 في الدارين تجلت من عواليها
 تزجي الدماء وريح النصر يُزجيهما
 تبارك الله ما شمس تُساميها
 يفيدها كل حين منك مبيدبها
 فللرياح جياد ما تجاربهما
 ترى البروق طلاحاً لا تباربها
 شهب السماء فإن الصبح يخفيها
 فإنه سامها عزاً وتنويها
 أبقى لها شفقاً في الجو تنبيها
 يعلو لها شرر من بأس مذكيها
 يعطفه من كمامة كرم يدميها
 أهلة فوق وجه الأرض يديها
 فصبح غرته بالنور يهديها
 وعرفه بتمادي الليل ينبيها^٣

١ هكذا في ق ؛ وفي التجارية : مرعب ، ولا معنى له ؛ ق : تنبيها .
 ٢ الأزهار : مثل .
 ٣ ق : ينبيها .

فليسَ يَعدُمُ تنويهاً ولا تيهياً
 متى تردهُ نفوسُ الكفرِ يردِها
 وما جرى غيرَ أنَ البأسَ يجرِها
 يُجني الفتوحَ وكفَّ النصرَ تَجنيها
 ترى النجومَ رجوماً في مراميها
 إلا وقد زلزلتُ قسراً صياصيها
 مَضينَ أنتَ تَحِيها وتنسيها
 والله بالخلدِ في الفردوسِ يَجزيها
 أبقتُ لنا شرفاً والله يَقيها
 مفاخرُ ولسانُ الدهرِ يَليها
 جيرانُ روضته ، أكرمُ بأهلِها
 أنصارها ، وبهم عزتُ أواليها
 تُلقي مفاخرهم مشهورةً فيها
 فعن مواقفهم تُروى مغازيها
 ينصها من كتابِ الله قاريها
 من الكلامِ ووحى اللهُ تاليها
 ممالكِ الأرضِ من شتى أفاصيها
 فمكةٌ عمرتُ منه نواديها
 إذا دعا باسمك الأعلى مناديها
 أنَ الإلهَ يوالي مَنْ يواليها
 أنَ السُّعودَ تعادي مَنْ يعاديها
 فما رميتَ ، بل التوفيقُ رامِها
 وإن تُعدتُ فليسَ العُدُ يَحصيها

مموهٌ بنصارٍ تاه من عجب
 وربَّ نهرِ حسامٍ رقَّ رائقهُ
 تجري الرؤوسُ حباباً فوق صفحته
 وذابل من دمِ الكفارِ مشربهُ
 وكم هلالِ لقوسٍ كلما نبضتُ
 أئمةُ الكفرِ ما يمتَّ ساحتها
 يا دولةَ النصرِ هل من مبلغٍ دولاً
 أو مبلغٍ سالفَ الأنصارِ مألُكةُ
 أنَ الخلافةَ أعلى الله مظهرها
 يا ابنَ الذين لهم في كلِّ مكرمةٍ
 أنصارُ خيرِ الورى ، مختارُ هجرته
 سمتهُمُ الملةُ السَّمحاءُ تكرمةُ
 ففي حنينٍ وفي بدرٍ وفي أحدٍ
 ولتسألِ السَّيرَ المرفوعَ مُسندها
 ماثرُ خلدِ الرحمنُ أثرها
 ماذا يَجدُ بليغٌ أو يُنمِّقهُ
 له الجهادُ به تسري الرياحُ إلى
 تُحدى الرُكابِ إلى البيتِ العتيقِ به
 بشارتُ تسمعُ الدنيا وساكنها
 كفى خلافتك الغراء منقبةُ
 وقد أفادَ بنيه الدهرُ تجرِبةُ
 إذا رميتَ سهامَ العزمِ صائبةُ
 شكراً لمن عظمتُ منّا مواهبهُ

عما قريب ترى الأعياد مقلبة
 وتبلغ الغاية القصوى بشائرها
 فاهناً بما شئت من صنع تُسرُّ به
 مولاي خذها كما شئت بلاغتها
 أرسلتها حينما الأرواحُ مرسله
 جاءت تهنئك عيدَ الفطرِ معجبة
 البشرُ في وجهها، واليُمنُ في يدها
 لو رصَّعَ البدرُ منها تاجَ مفرقه
 فإن تكن بنت فكري وهو أوجدها
 في روض جودك قد طوّقتني ميتاً
 ولو أعرتُ لسانَ الدهرِ يشكرها
 بقيت للدينِ والدنيا إمامَ هدى
 والسعدُ يجري لغاياتِ تؤملها

وقال رحمه الله تعالى شاكرًا لنعم : وصلته من المذكور في عاشوراء :

مولاي يا ابن السابقين إلى العلا
 إن لوحظوا في المعلوات فإنهم
 أو فوخروا في المكرمات فإنهم
 أبناء أنصار النبي وصحبه
 والمؤثرين ، وربنسا أثنى بها
 فاضت علينا من نذاك غمام
 من كف شفاف الضياء تخاله
 والرافعين لواءها المنشورا
 طلوعا بأفاق السلاء بدورا
 نظموا بأسلاك الفخارِ شلورا
 في الذكر أصبح فخرهم مذكورا
 في الحشر خلد وصفهم مسطورا
 وتفجرت من راحتك بحورا
 لصفاء جوهره تجسد نورا

١ يشير إلى الآية الكريمة في الأنصار «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

نِعَمٌ مَنْوَعَةٌ تَعَدَّدَ وَفَرُّهَا
 فِي مَوْسِمٍ لِلدِّينِ قَدْ جَدَّدَتْهُ
 أُضْعَافٌ مَا أَهْدَيْتَنَا مِنْ مِنتَةٍ
 وَعَلَى الطَّرِيقِ بِشَائِرٍ مَحْمُودَةٍ
 أُعْجِزَتْ عَنْهَا شُكْرِي المَوْفُورَا
 وَأَقَمْتَ فِينَا عَيْدَهُ المَشْهُورَا
 تُهْدِي إِلَيْكَ ثَوَابَهَا عَاشُورَا
 أَلْفَاكَ جَذْلَانَا بِهَا مَسْرُورَا

وقال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتاء بجبل الفتح ، وقد وقع له
 السلطان الغني بالله المذكور بذلك ، فارتجل قطعاً منها :

أتوني بنوارٍ يروقُ نضارةً
 وجاءوا به من شاهقٍ متمنِّعٍ
 رعى الله مني عاشقاً متقنعاً
 وإن هبَّ خفاقُ النسيمِ بنفحةٍ
 كخدِّ الذي أهوى وطيبٌ تنفُّسهُ
 تمنُّعَ ذاكِ الظبيِّ في ظلِّ مكْنِسهُ
 بزهرِ حكيِّ في الحسنِ خدِّ مؤنسهُ
 حكَّتْ عَرَفَهُ طيباً قضي بتأنسهُ

ومنها :

رعى الله زهراً يتنمي لقرنفلٍ
 ومنبتهُ في شاهقٍ متمنِّعٍ
 أميل إذا الأعصانُ مالت بروضةٍ
 وأهفو لخفاقِ النسيمِ إذا سرى
 حكي عَرَفَ مَنْ أهوى وإشراقِ خدِّه
 كما امتنع المحبوبُ في تيهِ صدِّه
 أعانقُ منها القُضْبَ شوقاً لقدِّه
 وأهوى أريجِ الطيبِ من عَرَفِ ندِّه

ومنها :

يقرُّ بعيني أن أرى الزهرَ يانعاً
 وما أبصرتُ عيني كزهرِ قرنفلٍ
 تمنُّعُ في أعلى الهضابِ لمجتنٍ
 وفي جبلِ الفتحِ اجتنوهُ تفاؤلاً
 وقد نازع المحبوبَ في الحسنِ وصفهُ
 حكي خدِّ من يسبي الفؤادَ وعرفهُ
 تمنُّعهُ منِّي إذا رمتُ إلفهُ
 بفتحِ لبابِ الوصلِ بمنحِ عطفهُ
 إذا ما ثنى نحو المتيِّمِ عطفهُ
 وما ضرَّ ذلكَ الغصنَ وهو مرتنحٌ

قال ابن الأحمر في الكتاب المذكور فيما مر : ومن القصائد التي يود الصبح سناها ،
والنسيم اللدن رقة معناها ، يهنيء مولانا الجلد رضي الله تعالى عنه عند وصول
خالصة مقامه ، وكبير خدامه ، القائد خالد رحمه الله تعالى من تلمسان بالهدية ،
وتجديد المقاصد الودية ، ووافق استئناف راحة من الذات العلية ، ومن بعض
فروع دوحتها^١ الزكية :

أدريها ثلاثاً من لحاظك واحبب
إذا ما نهاني الشيب عن أكوسِ الطلاب
عذيري من لحظ ضعيف وقد غدا
وروض شباب ماس غصن قوامه
وما زال ورد الخلد وهو مضعف
وكم جال طرف الطرف في روض حسنه
أما وليالي الوصل في روضة الصبا
لئن نسيت تلك العهود أحبي
وحاشا لنفسي بعدما افترت فودها
والبسها ثوب الوقار خليفة
وجدد للفتح المين مواسماً
وأورثه العلباء كل خليفة
فيا زاجر الأظعان وهي ضوامر
إذا جنت من دار الغني بربه
فإن شئت من بحر الساحة فاغترف

فقد غال منها السكر أبناء مجلس
تدير علي الحمر منها بأكوس
بحكم منّا في جوم وأنفس
وفتح فيه اللحظ أزهار فرجس
يعبر أفاح الثغر طيب تنفس
يقيد فيه العذار بسنن
ومألف أحبابي وعهد تأنسي
فقلبي عهد العامرية ما نسي
من الشيب عن صبح به متفس
به لبس الإسلام أشرف ملبس
أقام بها الإيمان أفرح معرس
نماه إلى الأنصار كل مقدس
بغير الفلا والوحش لم تأنس
مناخ العلاء والعز فاعقل وعرس
وإن شئت من نور الهداية فاقبس

١ ق : استباق .

٢ ق : دوحتنا .

أمولايَ إنَّ السعدَ منكَ لآيةٌ ١
 إذا شئتَ أن ترمي القصيَّ من المني
 فترمي بسهمٍ من سعودك صائبٍ
 أهنيك بالإبلالِ ممن شفاؤه
 ودعي أردُ يمناكَ فهي غمامةٌ
 أقبلُ منها راحةٌ إثر راحةٍ
 ومن نَسَبَ الفتحَ المينَ ولادةً
 فيا أيها المولى الذي بكماله
 لآمنتَ موسى من عوادي سميه
 بعثتَ بيمونَ الثقيبةِ في اسمه
 فجماعكَ بالمالِ العريضِ هديةً
 وشفعتها بالصافناتِ كأنها
 تنصُّ من الإشرافِ جيدَ غزاةٍ
 لك الخيرُ موسى مثلُ موسى، كلاهما
 فلا زلتَ في ظلِّ النعيمِ وكلُّ مَنْ
 عليكَ سلامٌ مثلُ حمدكَ عاطرٌ

وقال في مولد عام سبعة وستين وسبعمائة والتم في أخرياتها بوصف المشورِ الأسنى ،
 الرفيع المني :

زار الخيالُ بأيمنِ الزوراءِ
 وسرى مع النسماتِ بسحبِ ذبله
 هذا وما شيءٌ ألدُّ من المني
 فجلا سناهُ غياهبَ الظلماءِ
 فأتتْ تمُّ بعنبرِ وكبباءِ
 إلا زيارتهُ مع الإغصاءِ

١ الأزهار : أمولاي والى السعد منك ولاية .

والسقم ما نُحشى من الرقباء
 وتجاذبت أيدي التسييم ردائي
 السرُّ عندي ميتُ الأحياء
 لسوى الأحيبةِ أو أموتَ بدائي
 أرضى بسقمي في الهوى وعنائي
 أذكي ، ولا ضرْمٌ سوى أحشائي
 لسرى التواسم من رُبى تيماء
 أغربته بتنقَس الصَّعداء
 أذكي بقلبي جمرةَ البرحاء
 لي عندكم يا ساكني البطحاء
 ويفوزُ قدحي منكم بلقاء
 تفديه نفسي من قريب نائي
 والركبُ قد أوفى على الزوراء
 فعلقْتُ بينَ تيسمٍ وبكاء
 حتى استهلَّتْ أدمعي بدماء
 «قدك اتتدُ أسرفت في الغلواء»^٢
 أجلو دجاءهُ بأوجهِ الندماء
 وحشتُ فيه أكوسَ السراء
 لا أنثي لمقاداةِ النصحاء
 برواحِلِ الإصباحِ والإساء

بئسنا خيالين التحفنا بالضنى
 حتى أفاقَ الصبحُ من غمَّراته
 يا سائلي عن سرِّ من أحببتهُ
 تالله لا أشكو الصبابةَ والهوى
 يا دينَ قلبي لستُ أبرحُ عانياً
 أبكي وما غيرُ النجيعِ مدامعُ
 أهفو إذا تهفو البروقُ ، وأنثي
 بالله يا نفسَ الحمى رفقا بمن
 عجباً له يندى على كبدي وقد
 يا ساكني البطحاء أي إبانة
 أترى النوى يوماً تحبُّ قداحها
 في حيكَمٍ قمرٌ فؤادي أفتهُ
 لم تُنسي الأيامُ يومَ وداعه
 أبكي ويسمُ والمحاسنُ تجتلي
 يا نظرةً جاذبتُها أيدي النوى
 من لي بثانيةِ تنادي بالأسى
 ولربَّ ليلٍ بالوصالِ قطعتهُ
 أنسيْتُ فيه القلبَ عادةَ حلمه
 وجريتُ في طلقِ التصابي جامحاً
 أطوي شبابي للمشيبيِّ مراحلاً

١ الأزهار : جادت بها .
 ٢ صدر بيت لأبي تمام ؛ وتامه : « كم تملون وأنتم سجراني » ورواية الديوان : أربيت في الغلواء .

قَبْرِ الرَّسُولِ صَحَائِفَ الْبَيْدَاءِ
 وَيَطُولَ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ ثَوَائِي
 كَالشَّمْسِ تَزْهَى فِي سَنَاءٍ وَسَنَاءٍ
 رَفَعَتْ لَهْدِي الْخَلْقَ خَيْرَ لَوَاءٍ
 فَخِرَ الْوُجُودِ وَشَافِعَ الشُّفَعَاءِ
 وَالْمُنْتَقَى مِنْ عِنَصِرِ الْعَلِيَاءِ
 ظِلُّ الْإِلَهِ الْوَارِفِ الْأَفْيَاءِ
 وَعِمَادِهَا السَّامِي عَلَى النَّظْرَاءِ
 شُهْبٌ تَتَبَّرُ دِيَابِجِي الظَّلْمَاءِ
 أَكْبَرَنَ عَنْ عَدَى وَعَنْ إِحْصَاءِ
 وَكِفَاكَ مَا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْرَاءِ
 كَأَنَّمَلِ جِئَاتٍ بَنِيْعِ الْمَاءِ
 نَشْرَ الْإِلَهِ بِهَا وَمِنْ نَعْمَاءِ
 وَتَقَدَّمَ الْكَهْتَانُ بِالْأَنْبَاءِ
 فِي الْكُونِ كَالْأَرْوَاحِ فِي الْأَعْضَاءِ
 وَالْكَفْرُ أَصْبَحَ فَاحِصَ الْأَرْجَاءِ
 تَجْلُو ظِلَامَ الشَّكِّ أَيَّ جَلَاءِ
 إِلَّا عَلَى ذِي الْمَقْلَةِ الْعَمِيَاءِ
 مِنْ بَعْدِ أَيْدِي الْخَلْقِ وَالْإِنْشَاءِ
 نُورِ السَّنِيِّ السَّاطِعِ الْأَضْوَاءِ
 يَا رَحْمَةَ الْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ
 وَمَوَاسِي الْأَيْتَامِ وَالضُّعْفَاءِ

يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أُرَى أَطْوِي إِلَى
 فَتْطِيبَ فِي تِلْكَ الرَّبُوعِ مَدَائِحِي
 حَيْثُ النَّبُوءَةُ نُورَهَا مَتَأَلَّقُ
 حَيْثُ الرَّسَالَةُ فِي ثَنِيَّةٍ قُدْسُهَا
 حَيْثُ الضَّرِيحُ ضَرِيحُ أَكْرَمِ مَرْسَلِ
 الْمِصْطَفَى وَالْمَرْتَضَى وَالْمَجْتَبَى
 خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَجْتَبَاهَا ذَخْرُهَا
 تَاجَ الرَّسَالَةِ خْتَمُهَا وَقَوْمَاهَا
 لَوْلَاهُ لِلْأَفْلَاكِ مَا لَاحَتْ بِهَا
 ذُو الْعَجْزَاتِ الْغَرِّ وَالْآيِ الْأَلَى
 وَكِفَاكَ رَدُّ الشَّمْسِ بَعْدَ مَغِيْبِهَا
 وَالْبَدْرِ شَقٌّ لَهُ وَكَمْ مِنْ آيَةٍ
 وَبَلِيَّةِ الْمِيلَادِ كَمْ مِنْ رَحْمَةٍ
 قَدْ بَشَّرَ الرَّسُلُ الْكِرَامُ بِيَعْتِهِ
 أَكْرَمَ بِهَا بَشْرَى عَلَى قَدَمِ سَرْتِ
 أَمْسَى بِهَا الْإِسْلَامُ يُشْرِقُ نُورُهُ
 هُوَ آيَةُ اللَّهِ الَّتِي أَنْوَارُهَا
 وَالشَّمْسُ لَا تَخْفَى مَزِيَّةُ فَضْلِهَا
 يَا مِصْطَفَى وَالْكَوْنُ لَمْ تَعْلَقْ بِهِ
 يَا مُظْهِرَ الْحَقِّ الْجَلِيِّ وَمَطْلَعِ الْإِلَهِ
 يَا مَلْجَأَ الْخَلْقِ الْمَشْفَعِ فِيهِمْ
 يَا آسِيَّ الْمَرْضَى وَمُنْتَجِعَ الرِّضَى

داء الذنوب وفي يدك دوائي
 حاشا وكلاً أن يجيب رجائي
 خلصت إليك محبتي وندائي
 تعد الأمان أن يتاح لقسائي
 فخرُ الملوك السادة الخلفاء
 يوم الطعان وفارجُ الغماء
 تجري صباهُ بزَعزَعِ ورُخاء
 كالتَهَرِ وسطِ الروضة الغناء
 إشرافه ، والزُهَرِ في لآلاء
 فلقُ الصبّاحِ وواكفُ الأتواء
 والسّابقونَ بحلبنةِ العلياء
 حاطوا ذمارَ الملةِ السّمحاء
 يستمطرونَ صحائبَ النعماء
 فالرعبُ رائدُهم إلى الأعداء
 والنصرُ معقودٌ بكلّ لواء
 تسمو مراقبها على الجوزاء
 يجزيك عنها الله خيرَ جزاء
 لا تهدي فيه القطا للماء
 تهدي نجومَ الأفقِ فضلَ ضياء
 واسحبَ ذيولَ العزةِ القعساء
 كهفٌ ليومِ مشورةٍ وعطاء

أشكو إليك وأنت خير مؤتمل
 لاني مددتُ يدي إليك تضرعاً
 إن كنتُ لم أخلص إليك فإنما
 وبسعدِ مولاي الإمامِ محمدِ
 ظلُّ الإلهِ على البلادِ وأهلها
 غوثُ العبادِ وليُّ مُشْتَجِرِ القنا
 كالدّهْرِ في سَطَواته وسماحه
 رقتُ سجاياهُ وراقتُ مجتلي
 كالزُهْرِ في إيراقةِ ، والبدرِ في
 يا ابنِ الألى إجمالمِ وجمالمِ
 أنصارُ دينِ الله حزبُ رسوله
 يا ابنَ الخلائفِ من بني نصرٍ ومن
 من كلِّ مَنْ تَقَفُ الملوكُ ببابه
 قومٌ إذا قادوا الجيوشَ إلى الوغى
 والعزُّ مجلوبٌ بكلِّ كتيبةٍ
 يا وارثاً عنها مناقبها التي
 يا فخرَ أندلسٍ وعصمةِ أهلها
 كم خُضتْ طوعَ صلاحها من مهمه
 تهدي بها حادي السرى بعزائمِ
 فارتفعَ لواءُ الفخرِ غيرَ مدافعِ
 واهناً بمبتاك السعيدِ فإنه

لله منه هالة قد أصبحت
 تتأبها طيرُ الرجاء فتجنني
 لله منه قبة مرفوعة
 راقت بدائع وشيها فكانها
 عظمت ميلاد النبي محمد
 أحييت ليلك ساهراً فأفدتنا
 يا أيها الملكُ الهمامُ المجتبي
 من لي بأن أحصي مناقبك التي
 واليك مني روضة مطولة
 فافصح لها أكتاف صفحك إنها
 حرم العفاة ومصرع الأعداء
 تمرّ المني من دوحة الآلاء
 دون السماء نفوت لحظّ الرائي
 وشي الربيع بمسقط الأنداء
 وشفعتته بالليلّة الغراء
 قوت القلوب بذلك الإحياء
 فانت علاك مدارك العقلاء
 ضاقت بين مذاهب الفصحاء
 أرجت أزهرها بطيب ثناء
 بكر أنت تمشي على استحياء

قال ابن الأحمر : ومن إغذاريات ابن زمرك المحكيمة نسفاً ورضفاً ،
 المتناهية في كل فن حسن تحلية غريبة ووصفاً - حسبما اقتضته ملاحظة النسبة
 الرفيعة مولانا رحمة الله تعالى عليه واحتفاله المناسب لعز ملكه من تعميم الخلق
 بالحق في دعواهم ، واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسواهم ، تفنناً
 في مكارم متعددة أيامها عن أصالة المجد معربة ، وإغراء لهمم الملك بما لتتميم
 الأنس من أوضاع مغرية ، ومباهاة بعرض الجيوش والكتائب للعدو الكافر ،
 وتكاثراً من محالليك دولته بالعدد الوافر ، ممّا ألبم اللسن الذكي عياً ، وغادر
 الإغثار الذنوبي منسياً ، كلفاً الله سبحانه أيّوته للولوية عنّا وعن آبائنا ، وتلقى
 بالقبول للكفيل بتجديد الرضوان ما يصل له من خالص دعائنا ، إنه منعم جواد -
 قوله في الصنيع المخصص من ذلك بمولانا الوالد قدس الله تعالى روحه ، وذلك
 سنة أربع وستين وسبعمائة :

١ وري هنا بكائي « قوت القلوب » و « إحياء علوم الدين » .

٢ ق : منها ؛ يعني القصيدة .

معاذ الهوى أن أصحاب القلب ساليا

القصيدة ، وقد تقدمت بتمامها فراجعها .

ثم قال : ومن ذلك ما أنشد في الصنيع الثاني المخصوص بعيننا السيدين الأميرين سعد ونصر ، رحمة الله تعالى عليهما ، وأجاد في وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع :

ألمحة من بارق متيسم
وللمحة تهنو بيانات اللوى
هي عادة عنصرية من يوم أن
قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن
كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت
إن كان واشي الدمع قد كم الهوى
ولقد أجد هواي رسم دارس
وذكرت عهداً في حماه قد انقضى
ولربما أشجى فؤادي عنده
لا أجذب الله الطلول فظالما
يا زاجر الأظعان يحفزها السرى
لترى دموع العاشقين برسمها
دمن عهدت بها الشبية والهوى
وكتيبة للشوق قد جهزتها
ورفعت فيها القلب بنداً خافقاً
فأنا الذي شاب الحماسة بالهوى
فطعننت من قد القوام بأسمر

أرسلته دمعا تضرج بالدم
يهفو فؤادك عن جوانح مغرم
خلق الهوى تعتاد كل متيسم
أدري الهوى ، واليوم أعذل لومي
حذر الرقيب ومدمع لم يسجم
هيهات واشي السقم لما يكتم
قد كاد يخفى عن خفي توهم
فأطلت فيه ترددي وتلومي
ورقاء تنفت شجوها برنم
أشجى الفصيح بها بكاء الأعجم
قف بي عليها وقفة المتلوم
حمرأ كحاشية الرداء المعلم
سقياً لها ولعهدا المتقدم
أغزو بها السلوان غزو مصم
وأريت للعشاق فضل تهمني
لكن من أهواه ضايق مقمني
ورميت من غنج الحاظ بأسهم

يا قاتلَ الله الجفون فإنها
ظلمت قتيلَ الحبِّ ثمَّ تبيّنتُ
يا ظييةً ستّحتْ بأكنافِ الحمي
ما ضرّاً إذ أرسلتِ نظرةَ فاتكِ
فرايتِ جسماً قد أصيبَ فؤاده
ولقد خشيتُ بأنْ يقاد بجرّحه
كم خضتُ دونك من غمارِ مفازةٍ
والنجمُ يسري من دجاءِ بأدهمِ
والبدْرُ في صفحِ السماء كأنّه
والزهرُ زهرٌ والسماءُ حديقةٌ
والليلُ مُربدٌ الجوانحِ قد بسّدا
فكأنما فلق الصبحِ وقد بدا
ملكٌ أفاضَ على البسيطةِ عدله
هو منتهى آمالِ كلِّ موفقٍ
لاحتْ مناقبه كواكبَ أسعدٍ
ولقد تراءى بأسهُ وسماحهُ
مثل الغمامِ وقد تضاحك برفقه
أنسى سماحةَ حاتمٍ ، وكذلك في
سيرٍ تسيرُ النيراتُ بهديها
فالبدرُ دونك في علاً وإنارةٍ
ولك القبابُ الحمر تُرفعُ للندى
يدكى الكباءُ بها كأنّ دخانهُ
ولك العوالي السمرُ تُشرعُ للعدى

مهما رمتُ لم تخطِ شاكلةَ الرمي
للسقمِ فيها فترةُ المنظّمِ
سُقي الحمي صوبَ الغمامِ المسجمِ
أن لو عطفتِ بنظرةِ المترحمِ
من مقلتيكِ وأنتِ لم تتأثمي
فوهبتِ لحظك ما أحلكِ من دمي
لا تهتدي فيها الليوثُ ليجمِ
رحبِ المقلدِ بالثريّا ملجمِ
مرأةُ هندِ وسط لُجّ ترتمي
فتفتُ كمامَ جناحها عن أنجمِ
فيه الصباحُ كغرةً في أدهمِ
مرأى ابن نصرٍ لاح للمتوسمِ
فالشاةُ لا تخشى اعتداء الضيغمِ
هو موردُ الصادي وكنزُ المعدمِ
فراّت ملامحَ نوره عينُ العمي
فأنى الجلالُ من الجمالِ بتوأمِ
فأفادَ بينَ تجهمِ وتبسمِ
يوم اللقاء ربيعةَ بنِ مكدمِ
وتعيرُ عرفَ الروض طيبَ تنسمِ
والبحرُ دونك في ندى وتكرّمِ
فترى العمائم تحتها كالأنجمِ
قطعُ السحابِ بجوها المتغيّمِ
فتخرُّ صرعى للبيدينِ وللقمِ

صيد الملوك ذوي التلاد الأقدم
والصبح ليس ضيلؤه بمكتم
فالأكرم ابن الأكرم ابن الأكرم
كالرمح مطرد الكعوب مقوم
ما بين جد في الخلافة وابنم
في كل خطب قد تجهم مظلم
والفارجون لكل خطب ميهم
والمقلمون على السواد الأعظم
وذوي السوايق والجرار الأعصم
أهل الغناء بها وأهل المغم
بلواه خير الخلق من متقدم
والركن والبيت العتيق وزمزم
ما كان يعزى الفضل للمقدم
عليانهم أي الكتاب المحكم
قد شيدت للفخر أشرف معلم
عليك كف اللائد المستعصم
بسلامة الإسلام فاخلد واسلم
فشفيت محضيل دائه المستحكم
مخطة دور السوار بمعصم
تهلي الأمان لى العيون النوم
ومهب ربح النصر للمتشم
سير الركاب لنجد أو متهم
أتبت عيد الفطر أكرم موسم

ولك الأيادي البيض قد طوقتها
شيم بقر الحاسدون بفضلها
ورث السماحة عن أبيه وجده
نقلوا المعالي كابراً عن كابر
وتستجوا رتب العلاء بحقها
يا آل نصر أنتم سرج الهلى
الفاخون لكل صعب مضلل
والباسمون إذا الكماسة عوابس
أبناء أنصار النبي وحزبه
سل عنهم أحداً وبدراً تلقهم
وبفتح مكة كم لم في يومه
أقسمت بالحرم الأمين ومكة
لولا مآثرهم وفضل علام
ماذا عسى أنبي وقد أثنت على
يا وارثاً عنها مآثرها التي
يا فخر أندلس لقد مدت إلى
أما سعودك في الوغى فتكفلت
وافيت هذا الثغر وهو على شفا
ورعبته بسيامة دارت على
كم ليلة قد بت فيها ساهراً
يا مظهر الألفاف وهي خيبة
لله دولتك التي آثارها
ما بعد يومك في المواسم بعلمها

وافتك أشراف البلاد ليومه
 صرفوا إليك ركا بهم وتيمموا
 وتبوأوا منه بدار كرامة
 ودت نجوم الأفق لو مثلت به
 والروض مختال بحلقة سندس
 ورياحه نسمت بنشر لطيمة
 وأريتنا فيه عجائب جمّة
 أرسلت سرعان الجياد^٢ كأنها
 من كل منحفر بحتفة بارق
 طرف يشك الطرف في استنابته
 ومسافر في الجو تحسب أنه
 رام استراق السمع وهو منع
 رجمته من شهب النصال حواصب^٤
 ومدارة الأفلاك أعجز عنها
 يمشي الرجال بجوفها وجميعهم
 ومنوع الحركات قد ركب الموا
 فإذا هوى من جوه ثم استوى

من كل ندب للعلا متسم
 من بابك المتاب خير ميمم
 فالكل بين مقرب ومنعم
 لتفوز فيه برتبة المستخدم
 من كل موثي الرقوم منم
 وأقاحه بسمت بنغر ملثم^١
 لم تجر في خلد ولم تتوهم
 أسراب طير في التنوفة^٣ حوم
 قد كاد يسبق لمحة التوهم
 فكأنه ظن بصدر مرجم
 يرقى إلى أوج السماء بسلم
 فأصيب من قضب العصي^٥ بأسهم
 لولا تعرضه لها لم يرجم
 إبداع كل مهندس ومهندم
 عن مستوى قدميه لم يتقدم
 يمشي على خط به متوهم
 أبصرت طيراً حول صورة آدم

١ في أصول أزهار الرياض وفي التجارية : مسلم ؛ وصححه محققو الأزهار : « ملثم » وأثبتنا ما في ق ، لكونه أقرب إلى الصواب .

٢ سرعان الخيل : أوائلها .

٣ التنوفة : المفازة .

٤ ق : قواضب ، ولها وجه ، لأنه يتحدث عن الجواد ، فالقواضب السيوف ، وهي ترجمه أي تتعرض له .

٥ الأزهار : حل .

يمشي على فنِ الرشاء كأنه
 وإليك من صونِ العقولِ عقيلةٌ
 ترجو قبولك وهو أكبر منحةٍ
 طاردتُ فيها وصفَ كلِّ غريبةٍ
 ودعوتُ أربابَ البيانِ أريهمُ
 ما ذاكَ إلاّ بعضُ أنعمك التي
 فيه مُساورُ ذابسلٍ أو أرقم
 وقفتُ ببابك وقفةَ المسترحم
 فاستمَحَ به خُلدَت من متكرّم
 فنظمتُ شارده الذي لم يُنظّم
 « كم غادر الشعراءُ من متردم »^١
 قد علمتُنا كيفَ شكر المنعم

ثمّ قال : وأنشد من ذلك في الصنيع المخصوص بعننا الأمير أبي عبد الله
 — رحمة الله تعالى عليه — وأطنب في وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة
 آثار مولانا رضي الله تعالى عنه :

سلِ الأفقَ بالزُّهر الكواكبِ حاليا
 وحملتُ معتلّ النسيمِ أمانةً
 فيا من رأى الأرواح وهي ضعيفةٌ
 وسواسُ كم جدت وجد بي الهوى
 ومن يطع الألاحظ في شرعة الهوى
 عدلتُ بقلبي عن ولاية حكمه
 وما الحبُّ إلاّ نظرةٌ تبعثُ الهوى
 فيا عجباً للعينِ تمشي طليقة
 ألا في سبيلِ الله نفسٌ نفيسةٌ
 ويا ربَّ عهدٍ للشبابِ قضيتُهُ
 خلوتُ بمن أهواه من غير رِقبةٍ
 فإني قد أودعتهُ شرحَ حاليا
 قطعتُ بها عمرَ الزمانِ أمانيا
 أحملها ما يستخفُّ الرواسيا
 فعُدَّ به القلبُ المقلَّبُ هازيا
 فلا بدَّ أن يعصي نصيحاً ولاحيّاً
 غداة ارتضى من جائرِ اللحظِ واليا
 وتُعقبُ ما يعيي الطبيبَ المداويا
 ويصبحُ من جرّائها القلبُ عانيا
 يرخِّصُ منها الحبُّ ما كان غاليا
 وأحسنتُ من دينِ الوصالِ التفاضيا
 ولكن عفافي لم أكن عنه خاليا

١ غير قول عنتره المفتتح بـ « هل » ؛ وعجز البيت : « أم هل عرفت الدار بعد توهم » وهو مطلع
 مملقته .

ويومٍ بمستنٍ الظباء شهدتهُ
 ولم أصح من خميرِ اللحاظِ وقد غدا
 وجرداً من غمدِ الغمامةِ صارماً
 تبسمَ فاستبكي جفوني غمرةً^١
 وأذكري ثغراً ظمئتُ لورده
 وراح خفوقَ القلبِ مثلي كأنما
 وليلةً بات البدرُ فيها مضاجعي
 كرعْتُ بها بين العذيبِ وبارق
 رشفتُ به شهدَ الرضابِ سلاقةً
 فيا بردَ ذاكِ الثغرِ رويتُ غلتي
 وروضةً حسن للشبابِ نصيرة
 وبتُ أسقي^٢ وردةَ الخدِ أدمعي
 ومالتُ بقلبي مائلاتُ قدودِها
 جزى الله ذلك العهدَ عوداً فظالما
 وقل لليالِ في الشبابِ نعمتها
 ويا وادياً رقتُ عليّ ظلاله
 رمثني عيونُ السربِ فيه وإنما
 فلولا اعتصامي بالأميرِ محمد
 فقل للذي يبني على الحسنِ شعرةً
 فكم من شكاة في الهوى قد رفأتها

أجدُ وصلاًً بالياً فيه بالياً
 به الجوّ وضاحَ الأسرةِ صاحياً
 من البرقِ مصقولِ الصفيحِ يمانياً
 ملأتُ بدرَ الدمعِ منها ردائياً
 ولا والهوى العذري ما كنت ناسياً
 يبرق الحمى من لوعة الحب ما بيا
 وباتت عيونُ الشهبِ نحوي روانياً
 بموردِ ثغرِ بات بالدرِّ حالياً
 وقبّلتُ في ماء النعيمِ الأفاحياً
 ويا حرّاً أنفاسي أذبت فؤادياً
 هصرتُ بغصنِ البانِ فيها المجانياً
 فأصبحَ فيها نرجسُ اللحظِ ذاوياً
 فما للقدودِ المائلاتِ وما ليا
 أعاد على ربي الظباء الجوازياً
 وقضيتُها أنساً : سقيت لياليا
 ونحن نديرُ الوصلَ قدسنت^٣ وادياً
 رمين بقلبي في الغرام المرامياً
 لما كنتُ من فتك اللواحظِ ناجياً
 عليه معَ الإحسانِ لا زلت بانياً
 ورفعتُها بالمدحِ إذ جاء تاليا

١ الأزهار : عبرة .

٢ الأزهار : وقد بت أسقي .

٣ الأزهار : فدبت .

وكم ليلة في مدحه قد سهرتها
ولاح عمودُ الصبحِ مثلَ انتسابه
إمامٌ أفاد المكرماتِ زمانه
وجاوزَ قَدَرَ البَدْرِ نوراً ورفعةً
هو الشمسُ بثت في البسيطة نفعها
هو البحرُ بالإحسانِ يزخرُ موجهُ
هو الغيثُ مهما^١ يمسك الغيثُ سحبه
شمائلُ لو أنَّ الرياضَ بحسنا
فيا ابنَ الملوكِ الصَّيدِ من آلِ خزرِجِ
ألسنُ الذي ترجو العفاةُ نواله
ألسنُ الذي تخشى البغاةُ صياله
وهديكُ مهما ضلت الشهبُ قصدها
وعزمتُ أمضى من حسامك في الوغى
فكم قادحٍ في الدينِ يكفرُ ربهُ
وما راعه إلاَّ حسامٌ وعزمةُ
فلولاك يا شمسَ الخلافةِ لم بينُ
ولولاك لم ترفعُ سماءَ عجاجةِ
ولولاك لم تنهلُ غصونُ من القنا
فأتمم فيها النصلُ نصراً مؤزراً
ومهما غدا سقَّاحُ سيفك عارياً

أباهي بدرُ النظمِ فيه الدراريا
رفعتُ عليه للمديحِ المبانيا
وشادَ له فوق النجومِ المعاليا
ولم يرضَ إلاَّ بالكمالِ مواليا
وأنوارها أهدت^١ قريباً وقاصيا
ولكنه عذبٌ لمن جاء عافيا
يُرَوِّ بسُحُبِ الجودِ من كان صاديا
لما صار فيها زهرها الغضُّ ذاويا
وذا نسبٌ كالصبحِ عزٌّ مُساميا
فتُخجلُ جلدواه السحابُ الغواديا
فتوجل^٢ عليه الصعابُ العواديا
تولتهُ في جنحِ الدجنةِ هاديا
وإن كان مصقولُ الغرارين ماضيا
قدحت له زندَ الحفيظةِ واريا
بضيئانِ في ليلِ الخطوبِ اللواجيا
سبيلُ جهادِ كان من قبلُ خافيا
تلوحُ بها بيضُ النصولِ دراريا
وكانت إلى وِردِ الدماءِ صواديا
وأجنى قطافِ الفتحِ غضاً ودانيا
يغادرُ وجهَ الأرضِ بالدمِ كاسيا

١ الأزهار : أبدت .

٢ ق : يهي ، والتصحيح عن الأزهار .

٣ الأزهار : فنزل ، وكلتا الفظتين غير موضحتين المعنى المقصود ، وسقط البيت من ق .

قضى الله من فوق السموات أنه
فكم معقل للكفر صبحت أهله
رقيت إليه والسيوف مشيخة
فتفتحت مرقاه المنع عنوة
وناقوسه بالقصر أسمى معطلا
عجائب لم تخطر ببال وإتما
فمنك استفاد الدهر كل عجيبة
وعنك يروي الناس كل غريبة
ولله ميناك الجميل فإتسه
فكم فيه للأبصار من متنزّه
وتهوى النجوم الزهر لو ثبت به
ولو مثلت في سابقه لسابقت
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا
وكم حلة جلته بجليها
وكم من قسي في ذراه ترفعت
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها
سوارى قد جاءت بكل غريبة
به المرمر المجلو قد شف نوره
إذا ما أضاءت بالشعاع تحالها
به البحر دقاع العباب تخالها
إذا ما جلت أيدي الصبا من صفحه

على من أبى الإسلام في الأرض قاضيا
بجيش أعاد الصبح أظلم داجيا
وقد بلغت فيه النفوس التراقيا
وبات به التوحيد يعلو مناديا
ومنبره بالذكر أصبح حاليها
ظفرنا بها عن همة هي ما هيا
يباهي بها الأملاك أخرى لياليا
نخط على صفح الزمان الأماليا
يفوق على حكم السعود المبانيا
تجد به نفس الحليم الأمانيا
ولم تك في أفق السماء جواريا
إلى خدعة ترضيك منها الجواريا
به القصر آفاق السماء مباحيا
من الوشي تسمى السابري اليمانيا
على عمد بالنور باتت حواليا
تظل عمود الصبح إذ بات^٢ باديا
فطارت بها الأمثال تجري سواريا
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
على عظم الأجرام منها لآليا
إذا ما انبرى وقد التسيم مباريا
أرتنا دروعا أكسبتنا الأياديا

١ الأزهار : ساحه .

٢ الأزهار : لاح .

تراجع الحان القيان الأغانيا
 تحلّي بمرفض الحمان النواحيا
 غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
 فلم أدر أياً منهما كان جاريا
 تصيبُ بها المرمى وبوركت راميا
 كما يُرقص المولود من كان لاهيا
 ولم ترض في الإحسان إلا تغاليا
 وقامت لكي تهدي إلى الدهر ساقيا
 فرامت بأن تجري إليه السواقيا
 فرادى ويتلو بعضهم مثنائيا
 وشبت فشبت حبها في فواديا
 تجيلُ به أيدي النسيم مداريا
 فقلدت النوار منه التراقيا
 بيت لها النمام بالطيب واشيا
 أجاز بها التقدين منها كما هيا
 دراهم نور ظل عنها مكافيا
 دنانير شمس تترك الروض حاليا
 تجسُّ به أيدي القيان الملاهيا
 بأصواتها تحلّي عليها الأغانيا

وراقصة في البحر طوع عنانها
 إذا ما علت في الجوّ ثم تحدرت
 بذوّب بلجين سال بين جواهر
 تشابه جار للعيون بجامد
 فإن شئت تشبيهاً له عن حقيقة
 فقل أرقصت منها البحيرة متنها
 أرتنا طباع الجود وهي وليدة
 سقت نغزهر الروض عذب برودها
 كأن قد رأت نهر المجرة ناضباً
 وقامت بنات الدوح فيه موثلاً
 روضح في حجر الغرام ترعرعت
 بها كل ملتف الغدائر مسبل
 وأشرف جيد الغصن فيها معطلاً
 إذا ما تحلت درّ زهر غروسه
 مصارفة التقدين فيها بمثلها
 فإن ملأت كف النسيم بمثلها
 فيملاً حجر الروض حول غصونها
 تغرد في أفنانها الطير كلما
 تراجعها سجعاً فتحسب أنها

١ الأزهار : الفوانيا ؛ ق : المانيا .

٢ الأزهار : نيتها .

٣ الأزهار : الزهر .

٤ الأزهار : أجاز بها قاضي الجمال التقاضيا .

٥ الأزهار : مع الفصحى .

فلم ندرِ روضاً منه أنعمَ نضرةً
 ولم نرَ قصرأً منه أعلى مظاهراً
 معاني من نفس الكمال انتقيتها
 وفتحت مبناه بعيد شرعته
 ولما دعوت الناس نحو ضيعة
 وأموه من أقصى البلاد تقريباً
 وأذكرت يوم العرضِ جوداً ومنعةً
 جزيت به كلاً على حالِ سعيه
 وأطلعت من جزل الوعودِ هودجاً
 وحين غدا يذكي ببابك للقري
 وطاحة في الجو غير مطالة
 تمدُّ لها الجوزاء كف مسارعاً
 ولا عجب أن فاتت الشهب بالعلا
 فبين يدي مثواك قامت لخدمة
 وشاهدُ ذا أني ببابك واقفٌ
 وقد أرضعت ندي الغمام قبلها
 فلما أبيت عن قرارة أصلها
 وعدت لقاء السحب عيداً وموسماً
 فأضحكت البرق الطروبَ خلاها
 رأت نفسها طالت فظنت بأنها

وأعطر أرجاء ، وأحلى جانبا
 وأرفع آفاقاً ، وأفسح ناديا
 وزينت منها بالجمال المغانيا
 تبثُّ به في الخافقين التهانيا
 أجابوا لهم من جانب الغورداعيا
 وما زال منك السعد يدني الأقصيا
 بموقفٍ عرض كنت فيه المجازيا
 فما غرست يمانه أصبح جانبا
 تذكروا يوم النفر من كان ساهبا
 فلا غرو أن أجريت فيه المذاكيا
 يردُّ مداها الطرف أحسر عانيا
 ويدنو لها بدر السماء مناجيا
 وأن جاوزت منها المدى المتناهما
 ومن خدَم الأعلى استفاد المعاليا
 وقد حسدت زهر النجوم مكانيا
 بحجر رياض كن فيه نواشيا
 أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا
 لذلك اغتدت بالزمر تلهي الغواديا
 وباتت لأكواس الدراري معاطيا
 تفوت على رغم اللحاق المراميا

فخفت إليها الذابلات^١ كأنها
حكّت شبة^٢ للنحل والنحل حوله
فمن مثبت منها الرميّة مدرك
وحصن منيع في ذراها قد ارتقى
كأن بروق الجوّ غارت وقد أرت
فأنشأت برجاً صاعداً متنزلاً
تطورّ حالات أتي في ضروبها
فحجل^٣ برجليها وشاح^٤ بخصرها
وما هو إلاّ طيرٌ سعد بذرورة
أمولاي يا فخر الملوك ومن به
بتوك على حكم السعادة خمسة
تبيت لهم كف الثريا معيدة
أسام عليها للسعادة ميسم
جعلت أبا الحجاج فاتح طرسهم
وحسبك سعد ثم نصر يلبهم
أقمت به من فطرة الدين سنة
وجاموا به ملء العيون وسامة
فيا عاذراً ما كان أجراً مثله
وجاءتك من مصر التحايا كرائمًا

طيور^١ إلى وكر^٢ أطلن^٣ نهاويا
عصي^٤ إلى مئواه^٥ تهوي عواليا
ومن طائش^٦ في الجوّ حكّت وانيا
فأبعد في الجوّ الفضاء المراقيا
بروج قصور شدت^٧هن سواميا
يكون^٨ رسولا^٩ بينهن مداريا
بأنواع^{١٠} حكلي^{١١} تستفز^{١٢} الغوانيا
وتاج^{١٣} إلى ما حل^{١٤} منها الأعاليا
غدا زاجراً من أشهب^{١٥} الصبح بازيا
سيلغ^{١٦} دين^{١٧} الله ما كان راجيا
وذا عدد^{١٨} للعين ما زال واقيا
ويصبح^{١٩} معتل^{٢٠} النواسم راقيا
تري^{٢١} العز^{٢٢} فيها مستكنًا وباديا
وقد عرفت^{٢٣} منك^{٢٤} الفتوح^{٢٥} التواليا
محمد^{٢٦} الأرضي ، فلا زلت راضيا
وجددت^{٢٧} من رسم^{٢٨} الهداية عافيا
يقبل^{٢٩} وجه^{٣٠} الأرض^{٣١} أزهر باهيا
فمثلك^{٣٢} لا يدمي^{٣٣} الأسود الضواريا
فما فتقت^{٣٤} أيدي^{٣٥} التجار^{٣٦} الغواليا

١ ق : الزائلات .

٢ ق : شبة .

٣ سقط البيت من ق .

٤ يريد الذي يقوم بالختان .

ووافتك من أرضِ الحجازِ تيممةً
 وناداك بالتمويلِ^١ سلطانُ طيبةٍ
 وقام وقد وافى ضريحَ محمدٍ
 سريرتكَ الرحى جزاك بسعيها
 فوالله لولا سنةُ نبوتِةً
 وعذرتُ من الإعدارِ قرر حكمه
 لراعتُ بها للحربِ^٢ أهوالُ موقفٍ
 لك الحمدُ فيه من صنعٍ تعدّه
 تشدّ له الجوزاءُ عقدَ نطاقها
 وهنيتُ بالأمداحِ فيه وقد غدا
 ودونك من بحرِ البيانِ جواهرأ
 وطاردتُ فيها وصفَ كلِّ غريبةٍ
 فيا وارثَ الأنصارِ لا عن كلاله
 بأمداحه جاء الكتابُ مفصلاً
 لقد عرف الإسلامُ مما أفدته
 عليك سلامُ اللهِ فاسلمُ مخلداً

ثم قال : ومن ذلك في الصنيع المختص بالأمرء الجيلة : أحنينا المعز لدولتنا أبي
 الحسن ، وأحنينا أبي العباس ، وابن عمنا أبي عبد الله ، وصلّى الله تعالى سعودهم .
 ولقد أبدع في تشييده وتأسيسه ، وبسط يد الحسن من براعته وتحميسه^٤ ، وذلك

١ ق والأزهار : بالتهويل ؛ والتمويل : قوله « يا مولاي » .

٢ الأزهار : في الجزاء .

٣ ق : للجزو .

٤ الأزهار : من براعة تحميسه .

١ عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبته لما عادت إلى ملكه :

أرقتُ لبرقٍ مثلِ جفني ساهرا ينظّمُ من قطرِ الغمامِ جواهرها
فيسمُ ثغرُ الروضِ عنه أزهرا وصبحِ حكي وجه الخليفة باهرا
تجسّمَ من نورِ الهدى وتجدنا

شفتاني معتلٌ التسميم إذا انبري وأسند عن دمي الحديث الذي جرى
وقد فتق الأرجاء مسكاً وعبراً كأنّ الفني بالله في الروض قد سرى
فهبت به الأرواحُ عاطرة الردا

عذيري من قلب إلى الحسنِ قد صبا تهبّجه الذكرى ويصبو إلى الصبا
ويُجري جوادَ الهوى في ملعبِ الصبا ولولا ابنُ نصرٍ ما أفاق وأعتبا
رأى وجهه صبحَ الهداية فاهتدى

إليك أميرَ المسلمينِ شكايّةٌ جنى الحسنُ فيها للقلوبِ جنايّةٌ
وأعظم فيها بالعمونِ نكايّةٌ وأطلع في ليلٍ من الشعرِ آيةٌ
عجياً جميلاً بالصباح قد ارتدى

بهديك تُهتدي النيراتُ وتهتدي وأنواؤها جدوى يمينك تجتدي
وعندك للأملكِ أوضحُ مرشدٍ بأثاره في مشكلِ الأمرِ تقتسدي
فما بالُ سلطانِ الجمالِ قد اغتدى

نحكّمَ منا في نفوسٍ ضعيفةٍ وسلّ سيفاً من جفونِ نحيفةٍ
ألم يدّرِ أنا في ظلالِ خليفةٍ ودولةِ أمنٍ لا تُراعُ مُنيفةٍ
بها قدّ رسا دينُ الهوى وتمهدنا

١ الأزهار : وذلك عام .

٢ الأزهار : فأضحك .

خَلُّوا بَدْمَ الْمُشْتَاكِ لِحَظِّ أَرَاقِهِ وَبِرْقًا بِأَعْلَامِ الثَّنِيَةِ شَاقَهُ
وَإِنْ كَلَفُوهُ فَوْقَ مَا قَدِ أَطَاقَهُ يَبِثُّ حَدِيثًا مَا أَلَدَّ مَسَاقَهُ
خَلِيفَتَنَا الْمَوْلَى الْإِمَامَ مُحَمَّدًا

تَقَلَّدَ حَكْمَ الْعَدْلِ دِينًا وَمَذْهَبًا وَجَوَّزَ اللَّيَالِي قَدَ أَزَاحَ وَأَذْهَبَا
فِيَا عَجَبًا لِلشُّوقِ أَذْكَى وَأَلْهَبَا وَسَلَّ صَبَاحًا صَارَمَ الْبَرْقِ مَذْهَبَا
وَقَدِ بَاتَ فِي جَفْنِ الْقَمَامَةِ مَقْدَمَا

يَذَكِّرُنِي ثَغْرًا لِأَسْمَاءِ أَشْنَبَا إِذَا ابْتَسَمَتْ تَجَلُّو مِنْ اللَّيْلِ غَيْهَبَا
كَعْزَمِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا احْتَبَى وَأَجْرَى بِهِ طِرْفًا مِنَ الصَّبْحِ أَشْهَبَا
وَأَصْدَرَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأُورِدَا

فَسَبْحَانَ مَنْ أَجْرَى الرِّيَّاحَ بِنَصْرِهِ وَعَطَّرَ أَنْفَاسَ الرِّيَاضِ بِشُكْرِهِ
فَبَرَدِ الصَّبَا يَطْوِي عَلَى طَيْبِ نَشْرِهِ وَمَهْمَا تَجَلَّى وَجْهَهُ وَسَطَّ قَصْرِهِ
تَرَى هَالَةً بَلَدْرُ السَّمَاءِ بِهَا بَدَا

إِمَامٌ أَفَادَ الْمَعْلُوتِ زَمَانَهُ فَمَا لَحَقَتْ زُهْرُ النُّجُومِ مَكَانَهُ
وَمَدَّ عَلَى شَرْقٍ وَعَرَبٍ أَمَانَهُ وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ بَنَانَهُ
تُغْرَقُ مُسْتَجِدِيهِ فِي أَبْحَرِ الْبُلْدَى

هُوَ الْبَحْرُ مَدَّ الْعَارِضَ الْمُتَهَلِّلَا هُوَ الْبَدْرُ لَكِنْ لَا يَزَالُ مَكْمَلَا
هُوَ الدَّهْرُ لَا يَنْخَشِي الْخَطُوبَ وَلَا وَلَا هُوَ الْعَلَمُ الْخَفَاقُ فِي هَضْبَةِ الْعَلَا
هُوَ الصَّارِمُ الْمَشْهُورُ فِي نَصْرَةِ الْهُدَى

أَمَّا وَالَّذِي أَعْطَى الْوُجُودَ وَجُودَهُ وَأَوْسَعَ مِنْ فَوْقِ الْبَسِيطَةِ جُودَهُ
لَقَدْ أَصْحَبَ النَّصْرَ الْعَزِيزَ بِنُودَهُ وَمَدَّ بِأَمْلَاكِ السَّمَاءِ جُنُودَهُ
وَأَنْجَزَ لِلْإِسْلَامِ بِالنَّصْرِ مَوْعِدَا

أمولاي قد أنجحت رأياً ورايةً ولم تُبقِ في سبقِ المكارمِ غايةً
فتهدى سجايا كابنِ رشدٍ نهايةً وإن كان هذا السعدُ منك بدايةً
سبقتي على مرِّ الزمانِ مخلداً

سعودك تُغني عن قراعِ الكتابِ وجودك يُزري بالغمامِ السواكبِ
وإن زاحمتها شُهبها بالمناكبِ ووجهك بدرُ المتدى والمواكبِ
وقد فسحت في الفخرِ أبناؤك المدى

بنوكَ كأمثالِ الأناملِ عِدَّةٌ أَعِدَّتْ لِمَا يُخْشَى مِنَ الدَّهْرِ عِدَّةٌ
وزيدَ بهم بُرْدُ الخِلافةِ جِدَّةٌ أَطَالَ لَهِمْ فِي ظِلِّ مُلْكِكَ مِدَّةٌ
إلهُ يطيلُ العِمرَ مِنْكَ مَوْبِداً

بدورٌ بأوصافِ الكمالِ استقلتِ غمامٌ بفياضِ النوالِ استهلَّتِ
سيوفٌ على الأعداءِ بالنصرِ سلَّتِ نجومٌ بأفاقِ العلاءِ تجلَّتِ
ولاحتُ كما شاءتُ سعودك أسعداً

وإنَّ أبا الحجاجِ سيفكَ متضى وبدرٌ بأفاقِ الجمالِ تعرَّضاً
بنوركِ يا شمسَ الخِلافةِ قد أضأ وراقتُ على أعطافهِ حُللِ الرضى
فحلَّ محلاً من علاكِ ممهداً

ملكٌ له تعنو الملوكُ جلالهً يجررُ أذيالَ الفخارِ مطالهً
وتفرقُ أسدُ الغابِ منهُ بسالهً وترضاهُ أنصارُ الرسولِ سلالةً
فأبناؤه طابوا فروعاً ومحتداً

أزاهرُ في روضِ الخِلافةِ أينعتُ زواهرُ في أفقِ العلاءِ تطلعتُ

جواهرُ أغيتُ في الجمالِ وأبدعتُ وعن قيمةِ الأعلامِ قدراً ترفعتُ
يسرُّ بها الإسلامُ غيباً ومشهداً

بعهدِ وليِّ العهدِ كرمِ عهدِهِ وأنجزَ في تخليدِ ملككِ وعدهُ
تنظّمَ منهم تحتَ شملكِ عقدَهُ وأورثهم فخراً أبوهُ وجدَهُ
فأعلى علياً حينَ أحمدَ أحمداً

تحوطُ بهم ملكاً عزيزاً وملةً وتلحظُ عينُ السعدِ منهم أهلةً
ستبدو على أفقِ العلا مستقلةً وسحباً بفياضِ العلا مستهلةً
تفجرُ بحراً للساحةِ مزيداً

ونجلكِ نصرٌ يقتضي نجلِ رسمِهِ أميرٌ يزينُ العقلَ راجحُ حلمِهِ
أتاكِ بنجلِ يستضاءُ بنجمِهِ لحبِّ رسولِ اللهِ سمّاهُ باسمِهِ
وباسمكِ في هذي الموافقةِ اقتدى

أقمتَ بإعذارِ الإمارةِ سنةً وطوقتَ من حليِّ بفخركِ منةً
وأسكتها في ظلِّ بركِ جنةً وألحقتها برُدِّ امتنانكِ جنةً
وعمرتَ منها بالتلاوةِ مسجداً

قله عينا من رآهم تطلّعوا غصوناً بروضِ الجودِ منك ترعرعوا
وفي دوحَةِ العلياءِ منك تفرّعوا ملوكٌ يجلبابِ الحياءِ تقنّعوا
أضياءً بهم من أفقِ قصرِكِ متدى

وقد أشعروا الصبرَ الجميلَ نفوسهمُ وأضفوا بهِ فوق الحليِّ لبوسهمُ
وقد زينوا بالبشرِ فيه شمسهمُ وعاطوا كؤوس الأُنسِ فيه جليسهمُ
وأبدوا على هَوْلِ المقامِ تجلداً

١ الأزار : وقد أفرغوا .

شمائلُ فيهم من أيهم وجدَّهم تفصلُ آيُ الفخرِ فيها بحمدهم
وتنسبها الأنصارُ قديماً لسعلمهم تضيءُ بها نوراً مصابيحُ سعدهم
ولم لا ومن صحبِ الرسولِ توقداً

فوالله لولا سنةٌ قد أقمتهَا وسيرةٌ هديني للنبي علمتهَا
وأحكامُ عدلٍ للجنودِ رسمتهَا بلحلتُ بها الأبطالُ تقصدُ سمتها
وتتركُ أوصالَ الوشيجِ مقصداً

ويا عاذراً أبدى لنا الشرعُ عذرهُ طرقتُ حمى قد عظمَ الله قدرهُ
وأجريتُ طيباً يحسدُ الطيبُ نشرهُ لقد جئتُ ما تستعظمُ الصيدُ أمرهُ
وتفديه إن يقبل خليفتهَا فدا

رعى الله منها دعوةً مستجابةً أفادتُ نفوسَ المخلصينَ إنابةً
ولم تُلَف من دونِ القبولِ حجابةً وعاذرها لم يبدِ عذراً مهابةً
فأوجبَ عن نقصٍ كمالاً تزيداً

فنقصُ كمالِ المالِ وفرُّ نصابه وما السيفُ إلا بعدَ مَشقِ ذبابه
وما الزهرُ إلا بعدَ شقِّ إهابه بقطعِ يراعِ الخطِّ حسنُ كتابه
وبالنقصِ يزدادُ الذبالُ توقداً

ولما قضوا من سنةِ الشرعِ واجبا ولم نلتقَ من دونِ الخلافةِ حاجبا
أفحصنا نهني منك جدلانَ ولها أفاضَ علينا أنعماً ومواها
تعوّدَ بذلَ الجودِ فيما تعوّدَا

هنيئاً هنيئاً قد بلغت مؤملاً وأطلعتُ نوراً يبهُرُ المتأملَا

وأحرزت أجرَ المنعمين مكملًا تبارك من أعطى جزيلًا وأجملا
وبلَّغَ فيكَ الدينَ والملكَ مقصداً ،

ألا في سبيلِ العزِّ والفخرِ موسمٌ يظلُّ بهِ فغرُّ المسرةِ ييسمُ
وعرَّفُ الرضى من جوهٍ يتنسمُ وأرزاقُ أربابِ السعادةِ تقسمُ
ففي وصفه ذهنُ الذكيِّ تبلداً

وجلَّلتَ في هذا الصنيعِ مصانعا تمي بدورُ التمِّ منها مطالعا
وأبديتَ فيها للجمالِ بدائعا وأجريتَ للإحسانِ فيها مشارعا
يودُّ بها نهرُ المجرَّةِ مورداً

وأجريتَ فيها الخليلَ وهي سوابقُ وإن طلَّبتَ في الروغِ فهي لواحقُ
نجومٌ وآفاقُ الطرادِ مشارقُ يفوتُ التماحَ الطَّرفَ منها بوارقُ
إذا ما تجاري الشهبَ تستبقُ المدى

وتطلُّ في ليلِ القتامِ كواكبا وقد وردتْ نهرَ النهارِ مشاربا
تقودُ إلى الأعداءِ منها كواكبا فترسمُ من فوقِ الترابِ محاربا
تحوِّرُ رؤوسُ الرومِ فيهنَّ سجدًا

سوابحُ بالنصرِ العزيزِ سوانحُ وهنَّ لأبوابِ الفتوحِ فواتحُ
تقودُ إليكَ النصرَ والله مانحُ فما زلتَ بابَ الخيرِ والله فاتحُ
وما تمَّ شيءٌ قد عدا بعد ما بدا

رياحُ لها مثنى البروقِ أعتةٌ ظباءُ فإن جنَّ الظلامُ فجِنَّةٌ
تقيها من البدرِ المتسمِّ جِنَّةٌ وتشرعُ من زهرِ النجومِ أسنةٌ
فتتدفُّ شهبَ الرِّجمِ في أنغرِ العدا

فأشهبُ من نسلِ الوجيهِ إذا انتمى جرى فشأى شهب الكواكب في السما
وخلّفَ منها في المقلّدِ أنجما تردّى جمالاً بالصباحِ وربما
يقول له الإصباح : نفسي لك الفدا

وأحمرُ قد أذكى به البأسُ جمرةً وقد سلّبَ الياقوتَ والوردَ حمرةً
أدار به ساقٍ من الحربِ حمرةً وأبدى جباباً فوقها الحسنُ غرةً
يزينُ بها خدّاً أسيلاً مورداً

وأشقرُ مهما شعشع الركنُ برقهُ أعار جوادَ البرقِ في الأفقِ سبقةُ
بدا شفقا قد جلتل الحسنُ أفقهُ ألم ترَ أن الله أبدعَ خلقه
فسال على أعطافه الحسنُ عسجداً

وأصفرُ قد ودَّ الأصيلُ جمالهُ وقد قدَّ من بُردِ العشيّ جلالهُ
إذا أسرجوا جِنحَ الظلامِ ذبالهُ فغرتُه شمسٌ تضيءُ مجالهُ
وفي ذيله ذيلُ الظلامِ قد ارتدى

وأدهمُ في مسحِ الدجى متجردُ يجيشُ بها بحرٌ من اللئيلِ مزبدُ
وغرتهُ نجمٌ به تتوقدُ له البدرُ سرجٌ والنجومُ مقلدُ
وفي فلتقِ الصبحِ المينِ تقيداً

وأبيضُ كالقرطاسِ لاحَ صباحهُ على الحسنِ مغداهُ وفيه مراحهُ
وللظبياتِ الآنساتِ مراحهُ تراهُ كنشوانِ أمالتهُ راحهُ
وتحسهُ وسطَ الجمالِ معربداً

١ ق : نجم .
٢ ق : وأشهب .

وزاهبةٌ في الجوّ ملءَ عيائها وقد لفتها السحبُ بُرْدَ عيائها
يفوتُ ارتدادَ الطّرفِ لمحُ عيائها وختمتِ الجوزاءِ سبّطَ بنائها
وصاغتُ لها حلّيَ النجومِ مقبداً

أراها عمودُ الصبحِ علوّ المصاعدِ وأوهمها قربَ المدى المتباعدِ
ففاتتهُ سبّقاُ في مجالِ الرواعدِ وأنحفتِ الكفّ الخضيبَ بساعدِ
فطوقتِ الزُّهرَ النجومَ بها يدا

وقد قدفتها للعصيّ حواصبُ قد انتشرتْ في الجوّ منها ذوائبُ
تزاور منها في الفضاءِ حبابُ فيبينها من قبل ذلكَ متناسبُ
لأنهما في الروضِ قبلُ تولدا

بناتٌ لأمٍّ قد حُبِينَ لروحها دعاها الهوى من بعد كتمٍ لبوحها
فأقلامُها تهوي لخطِّ بلوحها فبالأمس كانت بعضُ أغصانِ دوحها
فعدتْ إليها اليومَ من بعدُ عوداً

ويا ربّ حصنٍ في ذراها قد اعتلّى أنارتْ بروجُ الأفقِ في مظهرِ العلا
بروجَ قصورٍ شدتْها متطولا فأنشأتْ برجاً صاعداً متنزلاً
يكونُ رسولاً بينها متردداً

وهل هي إلا هالةٌ حولَ بدرها يصوغُ لها حلياً يليقُ بنحرها
تطورُ أنواعاً تشيدُ بفخرها فحجلُ برجليها وشاحُ بنصرها
وتاجُ بأعلى رأسها قد تنضداً

١ شبيه بقوله في القصيدة السابقة :

فحجلُ برجليها وشاحُ بنصرها وتاجُ إلى ما حل منها الأعاليا

أرادَ اسْتِراقَ السَّمْعِ وهو مَمْنَعٌ فقسامَ بأذيالِ الدجى يَتَلَفَعُ
وأصغى لأخبارِ السَّما يَتَسَمَّعُ فَاتَّبَعَهُ منها ذوابِلُ شُرْعُ
لَتَقْدِفَهُ بِالرُّعْبِ مَنَى وَمَوْحِداً

وما هو إلا قائمٌ مدٌّ كَفَهُ لِيَسْأَلَ من رَبِّ السَّمواتِ لَظْفَهُ
لمولَى تولاَهُ وَأَحْكَمَ رَضْفَهُ وَكَلَّفَ أربابَ البِلاغَةِ وَصَفَهُ
وأكرمَ مِنْهُ القاتِ المتهجداً

ملاقيَ ركبٍ من وفودِ النواصِمِ مَقْبِلَ نَفْرِ السَّبْرُقِ البواصِمِ
مَحْتَمَّ كَفٍ بالنجومِ العواصِمِ مَبْلَغَ قَصْدٍ من حُضُورِ المَواصِمِ
نَجْدَهُ مَهْمَا صَنِعٌ تَجَدَّداً

ومضطربٌ في الجوّ أثبتَ قامَةً تَقْدَمَ يَمْشِي في الهِواءِ كِرامَةً
تَطْلَعُ في غصنِ الرِشاءِ كِمامَةً وَتَحْسِبُهُ تَحْتَ الغمامِ غِمامَةً
يَسِيلُ على أعطافِها عَرَقُ الندى

هوى واستوى في حالَةٍ وَتَقَلَّبَا كخاطفِ بَرِقٍ قَدَّ تَأَلَّقَ خَلْبَا
وتحسبهُ قد دارَ في الأفقِ كوكبا ومهما مشى واستوقفَ العَقلَ مَعجِبا
تَقَلَّبَ فِيهِ العَينُ لِحْظاً مردداً

لقد رامَ يرقى للسماءِ بِسَلَمٍ فيمَشِي على خَطِّ بِهِ مَتوهِمِ
أَجِلٌ في الذي يبيديه فَكَّرَ تَوَسُّمِ تَرى طائراً قد حلَّ صُورَةَ آدمي
وَجِنّاً بِمِهْوَاةِ الفِضاءِ تَمَرِّداً

ومتسببٍ للخالِ سَمَّوَهُ ملجماً لَهُ حِكَماتٌ حَكَمها فَاهُ أَلجماً
تَخالَفَ جِنساً والداهُ إذا انمى كما جِنسُهُ أيضاً تَخالَفَ عَنهما
عَجِبْتُ لَهُ إِذاً لَمْ يلدُ وتولِّداً

ثلاثتها في الذكرِ جاءت مينةً من الاله سماها لنا الله زينةً
وأُنزلَ فيها آيةً مستينةً وأودعَ فيها للجَهولِ سَكينةً
والآءُ فيها على الخلقِ بدداً

كسوه من الوشي اليماني هودجا بمدّ على ما فوقه الظلّ سَجَسجا
وكم صورةً تجلّى به تبهرُ الحجى وجزل وقودِ ناره تُصدع الدجى
وقلب حُودِ غاظ مذكيه موقداً

وما هي إلا مظهرٌ لجهاده أرّتنا بها الأفراحُ فضلَ اجتهاده
ملاعِبُها هزّتْ قلدودَ صعاده وأذكرت الأبطالَ يومَ طراده
فما ارتبّت فيه اليومَ صدقتهُ غداً

الأجددَ الرحمنُ صنماً حضرته ودوّحَ الأمانى في ذراه هَصْرته
بقصرٍ طويلٍ الوصفِ فيه اختصرته يقيد طرفَ الطرفِ مهما نظرته
«ومن وجد الإحسانَ قيداً تقيداً»^١

دعوتَ لهُ الأشرافَ من كلِّ بلدةٍ فجاعوا بأمالٍ لهم مستجدةٍ
وخصّوا بالطفافِ لديه معدّةٍ أبادِ بفياضِ الندى مستمّدةٍ
فكلّهمُ من فضلهٍ قد تزودا

وجاءتك من آل النبي عصابةً لها في مرامي المكرماتِ إصابةً
أحبتك حياً ليس فيه استرابةٌ ولبتّ دواعي الفوزِ منها إجابةً
وناداهمُ التخصيصُ فابتدروا النداء

أجازوا إليك البحرَ والبحرُ يزخرُ لبحرِ سماحٍ مدّةُ ليس يمزورُ

١ حيز بيت للمتنبي ، صدره «وقيدت نفسي في ذراك عجة» .

فرواهم من عذبِ جودك كوثرُ
وواليت من نعماك ما ليس يحصرُ
وعظمتهم ترجو النبي محمدا

عليه صلاةُ الله ثم سلامه به طاب من هذا النظام اختتامه
وجاء بحمدِ الله حلوأ كلامه يعزُّ على أهلِ البيانِ مرامه
وتسمي له زهر الكواكب حسدا

أبث به حادي الركاب مشرقا حديث جهاد للنفوس مشوقا
رमित به من بالعراق مرفوقا وأرسلت منه بالبديع مطوقا
حماما على دوح الثناء مفردا

ركضت به خيل البيان إلى مدى فأحرزتُ خصل السبق في حلبة الهدى
ونظمت من نظم الدراري مقلدا وطوقتُ جيد الفخر عقدا منضدا
وقمت به بين السماطين منشدا

نسقت من الإحسان فيه فرائدا وأرسلت في روض المحاسن رائدا
وقلدت عطف الملك منه قلائدا تعودت فيه للقبول عواندا
فلا زلت للفعل الجميل^٢ معودا

ولا زلت للصنع الجميل مجددا ولا زلت للفخر العظيم مخلدا
وعمرت عمرا لا يزال مجددا وعمرت بالأبناء أوحدا أوحدا
وقرت بهم عينك ما سائق حدا

وقال في عيد :

بشرى كما وضع الزمان وأجملُ
يغشى سناها كل من يتهللُ

١ ق : المدى .

٢ الأزهار : للفضل الجزيل .

أبدى لها وجهُ النهارِ طَلاقَةً
ومنابرُ الإسلامِ يا ملكَ الوري^١
تجلو لنا الأكوانُ منكَ محاسناً
فالشمسُ تأخذُ من جبينك نورها
والروضُ ينفخُ من ثنائك طيبه
والبرقُ سيفٌ من سيوفك منتضى
يا أيها الملكُ الذي أوصافه
«اللهُ أعطاك التي لا فوقها»^٢
وجهٌ كما حسرَ الصباحُ نقابه
تلقاهُ في يومِ السماحةِ والوغي
كفٌ أبتُ أن لا تكفَ عن الندى
وشمائلٌ كالروضِ باكره الحيا
خلقُ ابنِ نصرٍ في الجمالِ كخلقه
نورٌ على نورٍ بأبهى منظرٍ
فاقَ الملوكَ بسيفه وبسبيبه^٣
وإذا تطاولَ للعميدِ عميدهم
يا آيةَ الله التي أنوارها
قلٌ للذي التبتتْ معالمُ رشده
قد ناصحَ الإسلامَ خيرُ خليفة
فلقد ظهرتْ من الكمالِ بمستوى

وافترٌ من ثغري الأفاحِ مقبلٌ
بجلاكِ أو بجليتها تتكثل
تروى على مرِّ الزمانِ وتُنقل
والبيشُرُ منكَ بوجهها يتَهمل
والورقُ فيه بالممادحِ تهدل
والسُحْبُ تهمي من يديك وتهمل
درٌ على جيدِ الزمانِ يُفصل
وحباكَ بالفضلِ الذي لا يُجهل
لضياته تشو البدورُ الكُمَّل
والبيشُرُ في جنباتِه يتَهمل
أبدأً فإن ضنَّ الحيا تترسل
وسرتَ برياته الصبا والشمائل
ما بعدها من غايةٍ تُستكمل
في حسنه لمؤملٍ ما يأمل
فبعده وبفضله يتمثل
فله عليه تطاولٌ وتطول
يُهدى بها قصدَ الرشادِ الضلل
هيئات قد وضعَ الطريقَ الأمثل
وحمي عزيزَ الملكِ أغلبُ مُشبل^٤
ما بعده لذوي الخلافةِ مامل

١ هذه رواية الأزهاري ؛ وفي ق : بالملك العلي .

٢ من رجز وتماه :

وقد أراد المشركون عوقها عنك ويأبى الله إلا سوقها

٣ ق : بسيفه وبسبيبه . ؛ ق : مشمل .

وعناية الله اشتملت رداءها
فالجود إلا من يديك مقتر
والعمر إلا تحت ظلك ضائع
حيث الجهاد قد اعتلت راياته
حيث القباب الحمر ترفع للقري
يا حجة الله التي برهانها
قل للذي ناواك يرقب يومه
والله جل جلاله إن أمهلت
يا ناصر الإسلام وهو فريسة
يا فخر أندلس وعصمة أهلها
لا يهمل الله الذين رعيتهم
لا يبعد النصر العزيز فإنه
لولا نذاك لها لما نفع الندي
لولاك كان الدين يغمط حقه
لكن جنيت الفتح من شجر القنا
ولقبل ما استفتحت كل ممنع
ومنى نزلت بمقل متأشب
وإذا غزوت فإن سعدك ضامن
فمن السعود أمام جيشك موكب

١ الأزهار : قام .

٢ ق : يرفع .

٣ الأزهار : العدا . ق : الل .

٤ الأزهار : ممل .

وكتيبة أردفتها بكيبة
 من كل منحصر كلمة بارق
 أوفى بهاد كالظلم وخلفه
 حي إذا ملك الكمي عنانه
 حملت أسود كريمة يوم الوغى
 لبسوا الدروع غدائراً مصقولة
 من كل معتدل القوام مثقف
 أذكيت فيه شعلة من نصله
 ولرب لماع الصقال مشهر
 رقت مضاربه وراق فرنده
 فإذا الحروب تسعت أجزالها
 وإذا دجا ليل القتام رأته
 فاعجب لها من جنوة لا تنظفي
 هي سنة أحييتها وفريضة
 فإذا الملوك تفاخرت بحدودها
 يا ابن الذين جملهم ونواهم
 يا ابن الإمام ابن الإمام ابن الإما
 أبائك الأنصار تلك شعارهم
 فهم الألى نصروا الهدى بعزائم
 ماذا يجتر شاعر في مدحهم
 مولاي لا أحصي مآثرك التي

والحيل تمرح في الحديد وترفل
 بالبدر يسرج والأهلة يُنعل
 كفل كما ماج الكتيب الأهيل
 يهوي كما يهوي بجو أجدل
 ما غابها إلا الوشيج الذبيل
 والسمر قضب فوقها تهدل
 لكنه دون الضريبة يعسل
 يهدى بها إن ضل عنه المقتل
 ماض ، ولكن فعله مستقبل
 فالحسن فيه مجمل ومفصل
 ينساب في يمينك منها جدول
 وكأنه فيه ذبال مشعل
 في أبحر زخرت وهن الأمل
 أديتها قرباتها تتقبل
 فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل
 شمس الضحى والعارض المتهلل
 م ابن الإمام ، وقدرها لا يُجهل
 فلحيثهم آوى النبي المرسل
 مصقولة وبصائر لا تمخذل
 وبفضلهم أنى الكتاب المنزل
 بحديتها تنضي المطي الدليل

١ الأزهار : محدودها .

٢ الأزهار : تمضي .

وإذا الحقائقُ ليس يدركُ كنهها
 فأليكَ من سؤالِ غرّةِ وجهه
 عذراءِ راقِ العيدِ رونقُ حسنها
 رضعتُ لبانَ العلمِ في حِجرِ النهي
 سلكَ البيانُ بها سبيلَ إجادةٍ
 جاءتِ تهنِي العيدِ أيمنَ قادمٍ
 وطوى الشهورَ مراحلاً معدودةً
 وأتى وقد شَفَّ النحولُ هلاله
 عقدتُ بمرقبهِ العيونُ مسرّةً
 فاسلمُ لألفِ مثله في غبطةٍ
 فإذا بقيتُ لنا فكلُّ سعادةٍ
 سيانٍ فيها مكرٌ ومقتلٌ
 أهداكها يومٌ أغرُّ مُحجَلٌ
 فغدا بنظمِ حليتها يتجمَلُ
 فوفتُ لها منه ضروعٌ حُفَلُ
 لولا صفاتكُ كان عنها يعدلُ
 وافى بشهرِ صيامهِ يتوسلُ
 كيما يُرى بفيناءِ جودك ينزلُ
 ولشوقهِ للقاءِ وجهك ينخلُ
 فمكبرٌ لطلوعهِ ومُهَلَّلُ
 ظلّ المنى من فوقهِ يتهدلُ
 في الدينِ والدنيا بها تتكفلُ

وقال ابن الأحمر : ومن جياذ أناشيده المتميزة بالسبقية ، وبارقات تهانيه في
 المواسم العقيقية ، قولهُ يهنئه - رضوان الله تعالى عليه - بطلوع مولانا الوالد
 قدس الله تعالى روحه^١ :

طلعَ الهلالُ وأفقهُ متهللُ
 أوفى على وجهِ الصباحِ بغرّةِ
 شمسُ الخلافةِ قد أمدّتْ نوره
 لله منه هلالُ سعدٍ طالعُ
 وألحتْ يا شمسَ الهدايةِ كوكباً
 والتاجُ تاجُ البدرِ في أفقِ العلا
 فمكبرٌ لطلوعهِ ومُهَلَّلُ
 فغدا الصباحُ بنوره^٢ يتجمَلُ
 وبسعدِها يرجو التمامَ ويكملُ
 لضيائهِ تعشو البدورُ الكُمَّلُ
 يُعشي سناهُ كلَّ مَنْ يتأملُ
 ما زالَ بالزُّهرِ النجومِ بكللُ

١ لتشابه التصديتين تشابه كثير من الأبيات .

٢ الأزهار : بنورها .

ولئن حوى كلَّ الجمالِ فإنه
أطلعتْ يا بدرَ السّماحِ هلاله
يبدو بهالاتِ السّروجِ وإنه
قلدتْ عطفَ الملكِ منه صارماً
حليّتهُ بجلى الكمالِ وجوهرِ الـ
يفزو أمامك والسعودُ أمامه
منْ مبلغُ الأنصارِ منه بشاره
أحيا جهادهمُ وجدّدَ فخرهم
فيه إلى الأجرِ الحزبِ توصلوا
منْ مبلغُ الأذواءِ من يمنٍ وهم
أنَّ الخلافةَ في بنهمْ أطلعتْ
منْ مبلغُ قحطانِ آسادِ الشرى
أنَّ الخلافةَ وهو شبلُ ليوثهمْ
يبي بني الأنصارِ أنْ إمامهم
يبي البنودِ فإنها ستظله
يبي الجيادِ الصافناتِ فإنها
يبي المداكي والعوالي والطبي
يبي المعالي والمفاخرِ أنه
سبقتْ مقدّمهُ الفتحِ قدومه
وبدتْ نجومُ السعدِ قبلَ طلوعه

بالشهبِ أبهى ما يكونُ وأجمل
والملكُ أفقٌ والخلافةُ منزل
من نورِ وجهك في العلا يستكمل
بغنائهِ ومضائهِ يتمثّل
خلُقِ النّفيسِ وكلّ خلقٍ يجمل
وملائكُ السبعِ العلا تنزل
غرُّ البشائرِ بعدها تسترسل
بعد المثينِ فملكهم يتأثّل
وبهم إلى ربّ السما يتوسّل
قد توجوا وتملكوا وتقبلوا
قمرأ به سعدُ الخليفةِ يكمل
ما غابها إلاّ الوشيحِ الذّبّل
قد حاط منها الدينَ ليثٌ مُشبل
قد بلغتْهُ سعودُه ما يأمل
وجناحِ جبريلِ الأمينِ يظلل
بفتوحه تحتِ القوارسِ تهدل
فيها إلى نيلِ المني يتوصّل^٢
في مرتقى أوجِ العلا يتوقل
وأناك وهو الوادعُ المتمهل
تجلو المطامعِ قبله وتوثّل^٣

١ الأزهار : ملكهم .

٢ ق : يتوسل .

٣ الأزهار : لا تأفل .

والنصرُ يملِي والبشائرُ تنقل
 فالسعدُ يُمضي ما تقولُ ويفعل
 يُنسِكُ ماضيه الذي يستقبل
 أنَّ المقاصدَ من طلابك تكمل
 ودعاهمُ داعي المنون فجدُّوا
 فيهمُ سيوفك بعدها فاستمثلوا
 نسفتهمُ ريحُ الجِلادِ فزلزلوا
 أذكتهمُ نارُ الوغى فتسبلوا^١
 يتحرَّكونَ إلى قيامِ تصهل
 واليومَ لم تلبسهُ إلاَّ الأرجل
 فتُحاً بهِ دينُ الهدى يتأثَّل
 فالدينُ والدنيا بهِ تتجمَّل
 والوفدُ وفدُ اللهِ فيه يتزل
 من كلِّ ما حدَّب إليه تنسل
 ظمأ شديدٌ والمطافُ المنهل
 والقلبُ يخفقُ والمدامعُ تهمل
 يبضُ الصوارمِ والرماحُ العُسل
 بشبَّاته أهلُ الوغى تتمثل
 واستبشروا بحديثها وتهلوا
 بسماعه واهترَّ ذاكُ المحفل
 إنَّ الحجيجَ بنصرِ ملكك يحفل

وروتُ أحاديثَ الفتوحِ غرائباً
 ألقَتْ إليك بهِ السعودُ زمامها
 فالفتحُ بينَ معجَلٍ ومؤجَلٍ
 أو ليسَ في شأنِ المشيرِ دلالةٌ
 ناداهمُ داعي الضلالِ فأقبلوا
 عصوا الرسولَ إيايَّةً وتحكمتُ
 كانوا جبالاتٍ قد علَّتْ هضباتها
 كانوا بحاراً من حديدٍ زاخري
 ركبَتْ أرجلها الأدهمَ كلما
 كان الحديدُ لباسهم وشعارهم
 «الله أعطاك التي لا فوقها»
 جدتْ للأنصارِ حليَّ جهادها
 من يتحفُ البيتَ العتيقَ وزمزمأ
 متسابقينَ إلى مشابةِ رحمةِ
 هيماً كأفواجِ القطا قد ساقها
 من كلِّ مرفوعِ الأكفِ ضراعةً
 حتى إذا روتِ الحديثَ مسلسلاً
 من فتحك الأسنى عن الجيشِ الذي
 أهدتهمُ السراءُ نصرةً دينهم
 وتناقلوا عنك الحديثَ مسرةً
 ودعوا بنصرك وهو أعظمُ مفخرأ

١ ق : ثاني .

٢ ق : فنفتح ... الضلال .

٣ ق : فتسبلوا .

فاهنا بملكك واعتمد شكراً به
 شرفت منه باسم والدك الرضى
 أبديت من حسن الصنيع عجائباً
 خفقت به أعلامك الحمر التي
 هدرت طبول العز تحت ظلالها
 ودعوت أشراف البلاد وكلتهم
 وردوا وروود الهيم أجهدا الظما
 وأثرت فيه للطراد فوارساً
 من كل وضاح الجبين كأنه
 يرد الطراد على أغر محجل
 قد عودوا قنص الكماة كأنما
 يستبعون هودجاً موشية
 قد صورت منها غرائب جمّة
 وتضمنت جزل الوقود حمولها
 والعاديات إذا تلت فرسانها
 لله خيلك ؛ إنها لسوايح
 من كل برق بالثريا منجم
 أوفى بهاد كالظلم وخلفه
 هنّ البوارق غير أن جياها
 من أشهب كالصبح يعلو سرجه
 أو أدهم كالليل قلّد شبهه

لطف الإله وصنعه تتحوّل
 يجيا به منه الكريم المفضل
 تروى على مر الزمان وتُنقل
 بخفوقها النصر العزيز موكل
 عنوان فتح إثرها يستعجل
 يثني الجميل وصنع جودك أجمل
 فصفا لهم من ورد كفضك متهل
 مثل الشمس وجوههم تتهلل
 نجم وجنح النقع ليل مسبل
 في سرجه بطل أغر محجل
 عقبانها ينقض منها أجدل
 من كل بدع فوق ما يتخيّل
 تنسي عقول الناظرين وتذهل
 والنصر في التحقيق ما هي تحمل
 آي القتال صفوفها ترتل
 بحر القتام وموجه متهيل
 بالبدر يسرج والأهلة ينعل
 كفل كما ماج الكئيب الأهيل
 عن سبق خيلك يا مؤيد تنكل
 صبح به نجم الضلالية يأفل
 خاض الصباح فأنبتته الأرجل

أو أشقرٍ سالَ النَّضارُ بعطفه
 أو أحمرٍ كالخمرِ أضمر بأسه
 كالخمرِ أترع كأسها لندامها
 أو أصفرٍ لبسَ العشيَّ ملاءةً
 أجملتَ في هذا الصنيعِ عوائداً
 أنشأتَ فيها من نذاك غمائمًا
 فجرتَ من كفيك عشرةَ أبحرٍ
 من قاس كفك بالغمام فإنه
 تسخو الغمامُ ووجهها متجهمٌ
 والسَّحْبُ تسمعُ بالمياهِ وجوده
 من قاس بالشمسِ المنيرةِ وجهه
 من أين للشمسِ المنيرةِ منطقٌ
 من أين للشمسِ المنيرةِ راحةٌ
 من قاس بالبدرِ المنيرِ كماله
 من أينَ للبدرِ المنيرِ شمائلٌ
 من أينَ للبدرِ المنيرِ مناقبٌ
 يا منَ إذا نفحتَ نواسمَ حمدهِ
 يا من إذا لمحتَ محاسنَ وجههِ
 يا منَ إذا تليتَ مفاخرَ قومهِ
 كفل الخلافةَ منك يا ملكَ العلا
 مأمونها وأمينها ورشيدها
 وكساهُ صيغَةَ بهجةٍ لا تنصل
 بالركضِ في يوم الحفيظةِ يشعل
 وبها حبايةُ غرةٍ تتسبَّل
 وبذيله لليل ذيلٌ مُسبَّل
 الجودُ فيها مجملٌ ومفصلٌ
 بالفضلِ تنشأ والسماحةُ تهمل
 تزجي سحابِ الجودِ وهي الأمل
 جهلَ القياسِ ومثلها لا يجهل
 والوجهُ منه مع الندى يتهلل
 ذهبٌ به أهلُ الغنى تتمول
 ألفتُهُ في حكمه لا يعدل
 بيانهِ درُّ الكلامِ يُفصل
 تسخو إذا بخلَ الزمانُ المحل
 فالبدرُ يتقصُّ والخليفةُ يكمل
 تسري برياتها الصبا والشمائل
 بجهادها تُنضي المطيُّ الدائل
 فالمسكُ يعقبُ طيبهُ والمندل
 تعشو العيونُ ويبهرُ المتأمل
 أيُّ الكتابِ بذكرها تنتزل
 واللهُ جلَّ جلالهُ لك أكفل
 منصورها مهديتها المتوكل

حَسْبُ الخِلافة أن تكون وليَّها
حَسْبُ الزمان بأن تكون إمامه
حَسْبُ الملوك بأن تكون عميدها
حَسْبُ المعالي أن تكون إمامها
يا حجةَ الله التي برهانها
أنتَ الإمامُ ابن الإمام ابن الإمام
علِّمتَ حتى لم تدع من جاهلٍ
وعنايةُ الله اشتملت رداءها
ومنها^١ :

أخذت قلوب الكافرين مهابة
حسبوا البروق صوارماً مسلولة
وترى النجوم مناصلاً مرهوبة
يا ابن الألى لإجمالم وجمالم
مولاي لا أحصي مآثرِكَ التي
أصبحت في ظل امتداحك ساجماً
طوقته طوق الحمام أنعماً
فإليك من صون العقول عقيلة
عذراء راق الصنع رونق حسنها
خيرتها بين المنى فوجدتها

ففقولهم من خوفها لا تعقل
أرواحهم من بأسها تتسلل
فيفرُّ منها الخائف المتصل
شمس الضحى والعارض المتهلل
بجهادها يتوصل المتوسل
ظل^٢ التي من فوقه يتهدل
فغدا بشرك في المحافل يهدل
أهداها صنَّع أغرَّ محجل
فغدا بنظم حليها يتكلل
أقصى مناهها أنها تُقبَّل

١ قال في أزهار الرياض (٢ : ١٢١) بعد هذا البيت : اتصل بهذا البيت جملة من القصيدة المترجمة في العيديات التي أولها « بشرى كما وضع الصباح وأجمل » وحذفناها من هذه اقتصاراً للتكرار .
٢ الأزهار : ظل .

لا زلت شمساً في سماء خلافةٍ وهلاكِ الأسمى يتمُّ ويكمل
 قال : ومن رقيق منازعه في بعض نُزّه مولانا رضوان الله عليه بالقصر
 السلطاني من شنييل قوله :

نفسى الفداء لشادن مهما خَطَرُ
 فضح الغزاة والأقاحة والقنا
 عجباً ليلِ ذوائبٍ من شعره
 عجباً لعقدِ الثغرِ منه منظماً
 ما رمتُ أن أجني الأفاحِ بثغره
 لم أنسه ليلَ ارتقابِ هلاله
 بتنا نراقبه بأولِ ليلةٍ
 طالعتُهُ في روضةٍ كخلاله
 وكلاهما يبدي محاسنَ جمّةٍ
 والكأس تطلع شمسها في خده
 نوريةٌ كجبينه ، وكلاهما
 هي نسخةٌ^٣ للشيخ فيها نسبةٌ
 أفرغت في جسم الزجاجة روحها
 لا تسقى غير الروضِ فضلةَ كأسها
 ما هبَّ خفاقُ النسيمِ مع السحرِ
 ناجي القلوبِ الخافقاتِ كمثلهُ^٤

فالقلبُ من سهمِ الجفونِ على خَطَرُ
 مهما تشئى أو تبسمَ أو نظرُ
 والوجهُ يسفرُ عن صباحِ قد سفرُ
 والعقدُ من دمعي عليه قد انتثرُ
 إلا وقد سلَّ السيوفَ من الحورِ
 والقلبُ من شكِ الظهورِ على غررُ
 فإذا به قد لاح في نصفِ الشهرِ
 والطيبُ من هذي وتلك قد اشتهرُ
 ملء التسمِ^٢ والمسامعِ والبصرِ
 فتكادُ تُعشي بالأشعة والنظرُ
 يجلو ظلامَ الليلِ بالوجهِ الأغرِ
 ما إن يزالا يرعشان من الكبيرِ
 فرأيتُ روحَ الأنسِ منها قد بهرُ
 فالغصنُ في ذيلِ الأزهارِ قد عثرُ
 إلا وقد شاق النفوسَ وقد سحرُ
 ووشى بما تخفي الكمام من الزهرِ

١ الأزهار : والوجه منه عن .

٢ الأزهار : المشام .

٣ كذا في ق ؛ وفي الأزهار : شيمة ، وكلتا اللفظتين قاصرة الدلالة .

٤ ق : لئله ، والمعنى : أن القلوب خافقات كمثل خفق النسيم المذكور في البيت السابق .

وروى عن الضحاك عن زهر الرُّبِّي
وتحمّلتُ عنهُ حديثَ صحیحهِ
یا قصر شنیل وربُّعكَ أهلُ
للّه بحركَ والصَّبَا قد سرّدت
والآس حفَّ عِذاره من حوله
قبْلُ بشغْرِ الزهرِ كَفَّ خليفه
وافرشُ خلودِ الوردِ تحتَ نعاله
وانظّمُ غناء الطيرِ فيهِ مدائحاً
المنتقى من جوهرِ الشرفِ الذي
والمجتبى من عنصرِ النورِ الذي
ذو سطوةٍ مهما كفى، ذو رحمةٍ
كمُ سائلٍ للدهرِ أقسمَ قائلاً :
مولايَ سعدكُ كالمهندِ في الوغى
مولايَ وجهكُ والصباحُ تشابها
إنَّ الملوكَ كواكبُ أخفيتهما
في كلِّ يومٍ من زمانكَ موسمٌ
فاستقبلِ الأيامَ يندى روضها
قد ذهبَت منها العشايا ضعفَ ما
یا ابنَ الذينَ إذا تُعدَّ خلاهم
إنَّ أوردوا هيمَ السيفِ غدائراً
سائلٌ يبدرُ عنهمُ بدرَ الهدى

ما أسند الزهريُّ عنه عن مطرٍ
رُسلُ النسيمِ وصدّق الخبِرُ الخبِرُ
والروضُ منك على الجمالِ قد اقتصرُ
منهُ دروعاً تحتَ أعلامِ الشجرِ
عن كلِّ من يهوى العذار قد اعتذرُ^١
يفنيك صوبُ الجودِ منه عن المطرِ
واجعل بها لون المضعف عن خضرِ
وانثرُ من الزهرِ الدراهمَ والدررُ
في مدحه قد أنزلتُ آيُ السورِ
في مطلعِ الهدى المقدّسِ قد ظهرُ
مهما عفا ، ذو عفةٍ مهما قدرُ
والله ما أيامُهُ إلا غررُ
لم يُبقِ من رسم الضلالِ ولم يذرُ
وكلاهما في الخافقينِ قد اشتهرُ
وظلعتَ وحدكُ^٢ في مظاهرها قمرُ
في طيبهِ للخلقِ أعيادٌ كبرُ
ويرفُ والنصرُ العزيزُ له ثمرُ
قد فضضتَ منها المحاسنُ في السحرِ
نقدَ الحسابِ وأعجزتَ منها القدرُ
مصقولةٌ فلطالما حمدوا الصدرُ
فيهمُ على حزب الضلالِ قد انتصرُ

١ ق : اقتدر .

٢ الأزهار : وجهك .

واسأل موافقهم بكل مشهر
 تجد الثناء بياسهم ويجودهم
 فبمثل هديك فلتنر شمس الضحى
 ماذا أقول وكل وصف معجز
 تلك المناقب كالثواب في العلا
 إن غاب عبدك عن حماك فإنه
 فاذكره إن الذكر منك سعادة
 ورضاك عنه غاية ما بعدها
 فاشكر صنيع الله فيك فإنه
 وعليك من روح الإله تحية

ثم قال : ومن أغراضه الوقتية - استرسالاً مع الطبع البديهي في الشكر عن
 ضروب من التحف التي يقتضيها التحقّي السلطاني بأولياء خدمته - نبذ متعددة
 فيما يظهر فيها ، فمنها قوله :

يا خير مَنْ ملك الملوك بجوده
 والله ما عرف الزمان وأهله
 وافيت أهلي بالرياض عشية
 فوجدته قد طله صوب الندى
 وسفائن مشحونة ألقى بها
 رطب من الطلع النضيد كأنها
 من كل ما كان النبي يحبها
 وبدائع التحف التي قد أطلعت
 وبفضله قد أشبه الأملاك
 أمناً ويمناً دائماً لولاكا
 في روض جاهك تحت ظل ذراكا
 بسحاب تنهل من يمناكا
 بحر السماح يجيش من نعماكا
 قد نظمت من حسنها أسلاكا
 وأحبها الأنصار من أولاكا
 مثل البدر أنارت الأحلاكا

١ الأزهار : رضاكا .

نُطِفَ من النورِ المينِ تجسّمتْ
 يحلو على الأفواهِ طيبُ مذاقها
 طافتْ بها النشأُ الصغارُ كأنها
 نجواهُمُ مهما سمعتْ كلامهمُ
 بلّغتْ في الأبناءِ عبدكَ سُؤلَهُ
 يتدارسونَ من الدعاءِ صحائفاً
 فبقيتْ شمساً في سماءِ خلافةِ
 حتى حسبنا أنهنَّ هُداكا
 لولا التجسدُ خلتهنَّ ثناكا
 سربُ القطا لما وردنَ نداكا
 ونداؤهمُ : مولاي ، أو مولاكا
 لا زلتَ تبلغُ في بنيكَ مُناكا
 كيما يطيلَ الله في بقياكا
 وهمُ البدورُ أمدهُنَّ سناكا

ومنها وقد أهداه نعمة الله أطباقاً من حبِّ الملوك^٢ :

كتبَ الإلهُ على العبادِ محبةً
 وأنا الذي شرفتهُ من بينهمُ
 ما زلتَ تُتحفهُ بكلِّ ذخيرةٍ
 وإلى الملوكِ قد اعتزى من عزهِ
 لك كان فرضُ كتابها موقوتا
 حتى جعلتَ له المحبةَ قوتا
 حتى لقد أتحفتهُ الياقوتا
 فغدا لهُ ياقوتها ممقوتا

ومنها في مثل ذلك :

يا خيرَ مَنْ ملكَ الملوكِ
 فكأنما ياقوتها
 إنَّ الملوكَ إذا لجوا
 وكذا العفاةُ إذا شكوا
 فاللهُ يقبلُ مَنْ دعا
 لا زلتَ تطلعُ غرَّةً
 أهديتني حبَّ الملوكِ
 نظمتُ لنا نظمَ السلوكِ
 فغيائهمُ أنْ أمْلوكِ
 فغناهمُ أنْ يسألوكِ
 لعلاكَ من أهلِ السلوكِ
 كالشمسِ في وقتِ الدلوكِ

١ الأزهار : سناكا .

٢ ما يعرف في مصر باسم « حب العزيز » .

ومنها ، وقد أهداه صيداً مما صاده أولاده :

يا خيرَ مَنْ ورثَ السماحَ عن الألى
في كلِّ يومٍ منكَ تحفةٌ منعمٍ
قد أذكرتُ دارَ النعيمِ عبيدهُ
تهدي موالى^١ الذين تفرعوا
لجلالك الأعلى قنيصاً أتعبوا
فتخصني منه بأوفرِ قسمةٍ
لله من مولى كريمٍ بالذي
تدعو نبيَّ إلى الغيِّ بربه
وعليك من قدسِ الإلهِ تحيةٌ
نصروا الألى وتبوا أو إيماناً
والى الجميلِ وأجزَلَ الإحساناً
وتضمنتُ من فضله رضواناً
عن دَوْحِ فخركِ في العلا أغصاناً
في صيدهِ الأرواحَ والأبداناً
فَسَحَتْ لِعبدكِ في الرضى ميداناً
تهدي المولى يُتحفُ العبداناً
يا ربنا أغنِ الذي أغنانا
تهديكِ منه الرُّوحَ والريحاناً

ومنها ، وقد أهداه أصنافاً من الفواكه :

يا مَنْ له الوجهُ الجميلُ إذا بدا
والمنتقى من جوهري الفخرِ الذي
ما أبصرتُ عيناى مثلَ هديّةٍ
فيها من التفاحِ كلُّ عجيبةٍ
تهدي لنا نهدَ الحبيبِ وخدّةً
وبها من الأترجِ شمسٌ أطلعتُ
ويحفها ورقٌ يروقُ كأنه
لون^٢ العشبة ذهبت صفحاتها
فاقتُ محاسنهُ البذورَ كمالاتاً
فاقَ الخلائفَ عزّةً وجمالاً^٣
أبدتُ لنا صنعَ الإلهِ تعالى
تذكي برياًها صباً وشمالاً
وتري من الوردِ الجنيّ مثلاً
من كلِّ شطريّ للعيونِ هلالاً
ورِقُّ النَّضارِ وقد أجاد نبالاً
رقتُ وراقتُ بهنجةً وجمالاً

١ الأزهار : مواليك .

٢ الأزهار : وجلالا .

٣ ق : لولا .

وبها من النّقلِ الشهيّ مذكّرٌ
للهِ منها خُضرةٌ من خُضرةِ
أذكرني العهدَ القديمَ ومعهداً
فأردتُ تجديدَ العهودِ وإنّما
فأردتُ من ذكراك كأسَ مدامةٍ
فبقيتَ شمساً في سماءِ خلافةٍ

ومنها يوم عاشوراء :

يا أيها المولى الذي بركاته
لك راحةٌ تزجي الغمامَ بأعملٍ
واليومَ موسمُ قربةٍ وعبادةٍ
راعى فيه سنّةَ نبويّةٍ
لا زلتَ عامكُ كله في غبطةٍ

ومنها في بعض قطعة :

واليت ما أوليت يا بحر الندى
فإذا يهز لها اللسانُ حسامه
علّمت فرسانَ الكلام نظامها
والبحرُ تمتازُ السحابُ ماءه

ومنها ، وقد أهداه باكوراً :

يا وارث الأنصارِ وهيّ مزيّة
أهديتني الباكورَ وهيّ بشارة
بفخارها أثنى الكتابُ المتزلُّ
ببواكيرِ الفتحِ الذي يُستقبلُ

وولادة لهلال تيم طالع
هو أول الأنوار في أفق الهدى^١
مولاي صدقُ الفالِ قد جربتهُ
وجهُ الزمانِ بوجهه يتهللُ
وترى الأهلةَ بعدهُ تسترسلُ
من لفظِ عبدك، والعواقبُ أجملُ

ومنها في جفنة :

طعامك من دارِ النعيمِ بعثتهُ
بهضبة نعى قد سمونا لأوجيها^٢
وقوراء قد درنا بهالة بدرها
وقد حُملت فوق الرؤوس لأنها
فما شئت من طعم زكي مهنتلي
فلو أنها قد قدمت لخليفة
وكم لك من نعى علي عميمة
فلا زلت يا مولى الملوك مبلغاً
فشرفته من حيث أدري ولا أدري
فصدنا بأعلاها الشهي من الطير
كما دارت الزهر النجوم على البدر
هدية مولى حل في مفرق الفخر
وما شئت من عرف ذكي ومن نشر
لأعظمها قدراً وبالغ في الشكر
يقل لأدناها الجميل من الذكر
أمانى ترجوها إلى سالف الدهر

ومنها شكراً عن كتاب :

مولاي يوم الجمعة
فانعم صباحاً واغتم
وابشر بصنع عاجل
وانتظر الفتح الذي
وبيضه وسمره
واللطف مرجو فرد
سعوده مجتمعته
أوقاته المجتمعته
أعلامه مرتفعته
يأتيك بالنصر معه
إلى العداة مشرعه
بفضل ربي مشرعه

١ ق : الندى .

٢ ق : لأجلها .

برقعة مرفعة	فأثحتني شرفتي
أزهارها منوعة	بل روضة مطورة
بصوب جود مترعة	حديقة قد جدتها
وآية مستدعة ^١	وراية منشورة
في طيها مستودعة	كم حكيم لطيفة
من الجمال مبدعة	عقيلة صورتها
بفضل كاس مترعة	سقتني من فضلها
على علاك مجمعة	قدم وأملك الوري

ومنها شكراً على خلة :

حفّت نجوم السعد هالة قصره	يا بدر تيم في سماء خلافة
قد قصرت عنه مدارك شكره	ألبست عبدك من ثيابك ملبساً
فلقد أشاد بجاهه وبيره	ورضاك عنه خير ما ألبسته
أهديني ما لا أقوم بحصره	ألبستني ، أركبني ، شرفني
يزري على شمس الزمان وبدره	نظري لوجهك وهو أجمل نير
وأنا المنعم في الحضور ببشره	أعلى وأعظم منة لا سيما
وحلاك ^٢ للإسلام مفخر دهره	لا زلت مولى للملوك مؤملاً

ومنها ، وقد خلعت - رضوان الله تعالى عليه - على رسول من أرساله :

تفيض غمام الجود وهي الأنامل	أبحر سماح مدّة عشرة أبحر
بروض محل الأرض، والعام ماحل	بكفك غيث البلاد وأهلها

١ سقط البيت والذي يليه من ق .

٢ الأزهار : وعلاك .

لكَ الخَيْرُ إنْ أَصْبَحْتَ بِحَرِّ سَمَاحَةٍ يعمُ نَدَاهُ فَالمَوَاهِبُ سَاحِلُ
خَلَعْتَ عَلَى هَذَا الرِّسُولِ مَلَابِسًا بِهَا تَتَسَنَّى فِي عِلَاكَ المَآمِلُ
وَبَلَغْتَهُ آمَالَهُ كَيْفَ شَاءَهَا فَبُلِّغْتِ يَا مَوْلَايَ مَا أَنْتِ آمِلُ

ومنها وقد مرض بعضُ أبنائه رحمة الله تعالى على الجميع ، قوله سائلاً عن حاله :

أَسْأَلُ بِدَرِّ التَّمِّ كَيْفَ هَلَالُهُ وَأَدْعُو لَهُ الرَّحْمَنَ جَلَّ جَلَالُهُ
وَأَسْأَلُهُ تَعْجِيلَ رَاحَتِهِ الَّتِي وَسَيَلْتُنَا فِيهَا النَّبِيَّ وَآلَهُ
سَتَبْلُغُ فِيهِ مَا تُؤْمَلُ مِنْ مَنِي وَيَرْضِيكَ يَا بَدْرَ الكَمَالِ كَمَالُهُ

وفي مثله :

أَقُولُ لِبَدْرِ التَّمِّ كَيْفَ هَلَالِكَ نَعَمْتَ صَبَاحًا بِالسُّعُودِ ١ وَآلِكَ
وَبُلِّغْتِ فِي النُّجْلِ الكَرِيمِ ٢ سَعَادَةً تَقَرُّ بِهَا عَيْنًا وَيَنعَمُ بِآلِكَ
وَخُصِّصْتَ بِالبُشْرَى مِنْ اللَّهِ رَبَّنَا كَمَا عَمَّ أَقْطَارَ البِلَادِ نَوَالِكَ

ومن التورية باسم قائد ولاة على جماعة من الجند :

يَا أَيُّهَا المَوْلَى الَّذِي أَيَّامُهُ تَهْمِي بِسُحْبِ الجُودِ مِنْ آيَاتِهِ
أَبْشُرُ بِجَيْشِكَ بِالسَّعَادَةِ كَلِمًا يَفْزَوُ وَنَصْرُ اللَّهِ تَحْتَ لَوَائِهِ

وأنشده في مجلس اتخذته :

أَمَوْلَايَ يَا ابْنَ السَّابِقِينَ إِلَى العِلا وَمَنْ نَصَرُوا الدِّينَ الحَنِيفِيَّ أَوْلَا
عَنَيْتَ بِنُورِ اللَّهِ عَنِ كُلِّ زِينَةٍ وَأَلْبَسْتَ مِنْ رِضْوَانِهِ أَشْرَفَ الحَلِي
وَقَارَكَ زَادَ المَلِكِ عِزًّا وَهَيْبَةً وَسَوَّغَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مِنْهَلَا

١ الأزهار : بالسرور .

٢ الأزهار : السعيد .

ويا شمس هدي في سماء خلافة
تبارك من أبدك في كل مظهر
فيخجل منك الشمس شمس هداية
إذا أنت ألبست الزمان وآله
وطوقت أجياد الملوك أيادياً
فما شئت فالبس فالمشاهد قائل :
ألا كل من صلي وضحي ومن دعا
وجودك شرط في حصول قبوله

وقال برسم ما يرسم على ثوب في بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبي العباس :

أهدي أبا العباس
ثوب السماء لأنه
فلق الصباح بوجهه
يكسو إماماً لم يزل
فيأله من مرتد
أذباله من حمده
وبطرزه مدح زري
إن كنت في لون السما
فلأنت يا بدر العلا
أنا منشد « ما في وقو

ملك الندى والباس
بدر بدا للناس
عوذته بالناس
بحلى المحامد كاسي
ثوب التقى لباس
مسكية الأنفاس
بالمدح في القرطاس
بنسبة وقياس
شرفتي بلباس
فك ساعة من باس^٢

١ الأزهار : متنفلا .
٢ صدر بيت لأبي تمام ، وعجزه « تقضي ذمام الأربع الأدراس » .

لترى رياضاً^١ أطلعت
أوراقها توريقها
ومن المديح مُدامتي
فالله يمتنع لابسِي
زَهراً على أجناسِ
بقضيبها الميَّاسِ
ومن المحابرِ كاسِي
بالبِشْرِ والإيناسِ

وقال في مثل ذلك :

إنَّ الإمامَ محمداً
لباسه ثوباً ، وقد
وعمامةَ الشفقِ^٢ التي
يا حسنها إذ أرسلتُ
وكانَ وشيَ رقومها
وبطرزه لونُ السما
لله منه نيرٌ
مستنصرٌ ، أعلى له
أهدى الخليفةَ أحمداً
لبس المحامد وارتندي
من فوقها شمس الهدى
من كفه غيثَ الندى
بالبرقِ طُرُرٌ عسجدا
ء ووجهه قمرٌ يدا
حلَّ المنازلَ أسعداً
فوقَ المنازلِ أسعداً

ثمَّ قال وأنشده وهو على جواد أدهم :

تجلَّتْ لَنَا المولى الإمامُ محمدٌ
فأبصرتُ صباحاً فوق ليلٍ وقد حكى
على أدهمٍ قد راقَ حسنُ أدبِهِ
مقلِّدُ ذاكِ الطَّرْفِ بعضَ نجومِهِ

وكتب له مع هدية زهر :

أمولايَ تقيي ليمناكِ شاقبي
ولما رأيتُ الدهرَ ماطلتني بها
ولا ينكرُ الظمآنُ شوقاً إلى البحرِ
وشوقني من حيث أدري ولا أدري

١ ق : رياضاً .

٢ الأزمار : التقوى .

بعثتُ لكَ الزَّهْرَ الجَنِيَّ لعلَّهُ
يقبلُها عني ثغورٌ من الزهرِ
وكتب إليه أيضاً متشوقاً :

كُتِبْتُ ودَمَعِي بِلَلِّ الرِّكْبِ قَطْرُهُ
حَنِيناً لِمَوْلَى أَتْلَفَ المَالَ جودُهُ
وما عشتُ بعدَ البينِ إلاَّ لِأَنِّي
وأَنشدَه أيضاً وهو بحال تألم :

كأني بلطفِ الله قد عمَّ خَلْقَهُ
وقاضي القضاء الحتم سَجَّلَ ختمه^١
وعافى إمامَ المسلمين وقد شفى
وخطَّ على رسم الشفاء له « اكنفى »

وله في مثل ذلك :

لكَ الحيرُ يا مولايَ أشرُّ بعصمة
وعافية في صحَّة مستجدَّة
ووجهُ التهاني مُشرقٌ متهلِّلٌ
وقد ظهرتُ للبرء منكَ علامة^٢
عقدت مع الأيام في حفظها صلحا
تجدد للدين السعادة والنُّجحا
وجوَّ الأمانى بعدما غام قد أضحي
علامتك العلياً^٢ تقول لنا « صححا »
وفي مثل ذلك :

يا إماماً قد تحذنا
خطُّ يَمناكَ ينادي
ه من الدهرِ مَلادًا
صحَّ هذا صحَّ هذا

وقال مهتناً بالشفاء :

١ الأزهار : حكمه .

٢ الأزهار : العظمى .

الحمدُ لله بَلَّغْنَا الْمُتَى
 وفزرت بالأجرِ وكبئتِ العدا
 لما رأيناك ، وزالَ العنا
 وفزت بالعزِّ وطيبَ الثنا
 منَ علينا من ظهورِ السنا
 فالحمدُ لله على ما به

وقال أيضاً في نحوه :

نعم قرَّتِ العينانِ وانشرحَ الصدرُ
 سرينا بليلِ التيه يكذبُ فجره
 وقد لاح من وجه الإمامِ لنا البدرُ
 فلما تجلَّى فجره صدقَ الفجرُ
 أغرَّ المُحيّا بالحياءِ مُقنَّعُ
 زهاه الكلامُ الحرُّ والنسبُ الحرُّ
 إمامُ الهدى قد خصّه بخلافةِ
 إلهٍ له في خلقه النهيُّ والأمرُ

وقال في مثله ، وقد ركب رحمه الله تعالى لمعاهد حضرته :

هنيئاً هنيئاً لا نقادَ لعَدِّهِ
 فقد لاح بدرُ التَّم في أفقِ العُلا
 وبشرى لدينِ الله إنجازُ وعدِهِ
 وحلٌّ كما يرضى منازلَ سعدِهِ
 وطاف أميرُ المسلمينِ محمدُ
 بحضرته العَلْيَا مبلغَ قصدهِ
 ولاحَتْ بها الأنوارُ من بشرِ وجههِ
 وأبصرتِ الأبصارُ شمسَ هدايةِ
 ولوحتِ الأعلامُ فيها بنصرهِ
 ستهدى له الأيامُ كلُّ مسرَّةِ
 فسُلَّ حِسامُ السعدِ واضرب به العدا^١
 ويسبي به الرحمنُ آثارَ جدِّهِ
 وخَلَّ حِسامُ الهندِ في كثرِ غمدهِ
 فسيفكُ سيفُ الله مهما سلَّتهُ
 ويقمُّ حدودَ الله قائمُ حدِّهِ

١ الأزهار : إمام .

٢ الأزهار : المنير .

٣ الأزهار : واضرب بحده .

٤ الأزهار : في كَنِّ .

وقال ، وقد عاد رحمه الله تعالى من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشوار :

على الطائر الميمون والطالع السعد
وقد عدت من جبل الشوار لتجتلي
قدمت مع الصنع الجميل على وعد
عقائل للفتح المئين بلا عد

وقال مما رسم في طيقان^١ الأبواب بالمباني السعيدة التي ابتناها رحمه الله تعالى :

أنا تاج كهلال أنا كرسي جمال
ينجلي الإبريق فيه كعروس ذي اختيال
جود مولانا ابن نصر قد جاني بالكمال

وفي مثله :

من رأى التاج الرفيعا قد حوى الشكر البديعا
تحسد الأفلاك منه قوسه السهل المنيعا
دمت ربعا للتهاني أنظم الشمل الجميعا

وفيه :

للغني بالله قصر للتهاني يصطفيه
فيه محراب صلاة يقف الإبريق فيه
تاليا سورة حسن^٢ والمعالي تفتفيه

وفيه :

أي قوس ذي جمال^٣ سهمه سهم السعادة

١ ق : طبقات .

٢ الأزهار : حبي .

٣ الأزهار : كمال .

مَلِكُ الْإِبْرِيْقِ فِيهِ عَوْدَ الْإِحْسَانِ عَادَةً
ذُو صَلَاةٍ مِنْ صِلَاتٍ كُلَّهَا دَابًّا مُعَادَةً

وقال في المعنى مما كتب به لعننا الأمير « سعد » رحمة الله تعالى عليه :

انظر لأفقِ جمالٍ به الأباريقُ تَصَعَّدُ
حُسْنٌ بَدِيعٌ حَبَاهُ به الأميرُ المَجْدُ
فخرُ الإمارةِ سعدٌ به الخليفةُ يَسْعَدُ
وكيفَ لا وأبوه فخرُ الملوكِ محمدُ
عليه حَلِّيُّ رضاهُ في كلِّ يومٍ يُجَدِّدُ

وقال فيه أيضاً :

رفعتُ قوسَ سَمَائِي يُزْهِى بِتَاجِ الْهَلَالِ
قَدُّ قَلْدَتِهِ نَقُوشِي دُرَّ الدَّرَارِي الْعَوَالِي
تَرَى الْإِبْرِيْقَ فِيهِ تَهْدِيكَ عَذْبَ الزَّلَالِ
قَدْ زَانَ قَصْرِي سَعْدٌ بِسَعْدِهِ الْمُتَوَالِي
قَدَامَ يَعْمُرُ رَبَّعِي فِي كُلِّ مَوْلَى الْمَوَالِي

وفي الغرض :

مَا تَرَى فِي الرِّيَاضِ أَشْبَاهِي يَسْحَرُ الْعَقْلَ حَسَنِي الزَّاهِي
زَانَ رَوْضِي أَمِيرِهِ سَعْدٌ وَهُوَ نَجْلُ الْغَنِيِّ بِاللَّهِ
دَامَ مِنْهُ بِمَرْتَقَى عَزِّي أَمْرٌ بِالسَّعُودِ أَوْ نَاهِي

وقال في غرض الشكر عن مغطى^٢ صنهاجي أهداه إياه :

١ ق : الأمين .

٢ يستدل من القطعة أن المغطى نوع من الصناديق .

تَطَابَقَ مِنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاؤُهَا
 وَمَا قَدْ سَمَا مِنْ فَوْقِ ذَلِكَ غَطَاؤُهَا
 وَحَسْبُكَ فِخْرًا بَانَ مِنْهُ اعْتِلَاؤُهَا
 صِنُوفٌ مِنَ النِّعْمَاءِ مِنْهَا وَطَاؤُهَا
 عَلَى نِعَمٍ عِنْدَ الْإِلَهِ كِفَاؤُهَا
 تَقْصَّرُ عَمَّا قَدْ حَوَى خَلْقَاؤُهَا
 عَلَى اللَّهِ فِي يَوْمِ الْجَزَاءِ جَزَاؤُهَا

لَمَنْ قَبَّةٌ حَمْرَاءُ مُدَّةً نُضَارُهَا
 وَمَا أَرْضُهَا إِلَّا خَزَائِنُ رَحْمَةٍ
 وَقَدْ شَبَّهَ الرَّحْمَنُ خَلْقَنَا بِهِ
 وَمَعْرُوشَةَ الْأَرْجَاءِ مَفْرُوشَةً بِهَا
 تَرَى الطَّيْرَ فِي أَجْوَافِهَا قَدْ تَصَفَّتْ
 وَنَسَبَتْهَا صِنْهَاجَةً غَيْرَ أَنَّهَا
 حَبَّتِي بِهَا دُونَ الْعَبِيدِ خِلَافَةً
 وَفِي مِثْلِهِ :

قَدْ شَادَهَا كَرَمُ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ
 وَيَجُودُ مَوْلَايَ الْإِمَامِ مَهْدٍ
 عَنْ ثَوْبِ مَوْشِي الرِّيشِ مَجْرَدٍ
 فَلشَكَرَ هَذَا الْعَبْدُ سَجْعُ مَغْرَدٍ
 قَدْ عَاهَدْتَهُ بِدَوْحِهَا الْمُتَعَوِّدِ
 دَانَتْ لَهُ أَمْلَاكُهَا بِتَعْبُدِ
 لَا زَلَّتْ خَيْرَ مَعْوَدٍ وَمَعْوَدِ
 فِيهَا لِقَارٍ بِالنِّوَالِ مُجَوِّدِ

مَا لِلْعَوَالِمِ جَمَعَتْ فِي قَبَّةٍ
 فِي صَفْحٍ صَرَحَ بِالزُّجَاجِ مَمُوءَةٍ
 مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا سَمِعْتَ كَطَائِرًا
 إِنْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الطَّيُورُ تَغَرَّدَتْ
 صُفَّتْ عَلَيْهَا لِلْفَوَاكِهِ كُلِّ مَا
 لَوْ أَبْصَرْتَ صِنْهَاجَةً أَوْضَاعَهُ
 عَوْدَتِي الصَّنْعَ الْجَمِيلَ تَفْضُلًا
 وَبِسُورَةِ الْأَنْعَامِ كَمْ مِنْ آيَةٍ
 وَقَالَ تَذِييلًا لِبَيْتِي ابْنَ الْمُعْتَرِّ ٢ :

شِبْهَةَ خَدِيحَا بِغَيْرِ رَقِيبِ
 وَشَمْسِينَ مِنْ خَمْرِ وَخَدٍّ حَيْبِ

سَقْتَنِي فِي لَيْلٍ شَبَّهَ بِشَعْرِهَا
 « فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلِينَ لِلشَّعْرِ ٣ وَالِدَجِي ٤ »

١ الأزهار : بطائر .

٢ انظر أثمار أولاد الخلفاء : ١٧٩ .

٣ الصولي : فبت لذا الليلين بالشعر .

٤ الصولي : وفجرين من راح ووجه .

إلى أن بدا الصبحُ المينُ كأنهُ
شمالهُ مهما أدبرتُ كؤوسها
مُحيًا ابن نصرٍ لم يُشَنِّ بغروب
قلائدُ أسمعٍ وأنسُ قلوب

وقال مذيلاً على بيت ابن وكيع^١ :

« هي في أوجه الندامى عقيقُ
« كان نصر تراهُ في الحرب ليثاً
وهي مثلُ النضارِ في الأقداحِ »
وهو بدرُ الندى وغيثُ السماح
وأعادَ الحياةَ في الأرواحِ^٢
ذكره قد ننى قُدُودَ الندامى

وقال ممّا يرسم للغني بالله :

لغني بالله مُلكُ
دام في رفعةٍ شانٍ
بُرْده بالعزُّ مذهبُ
ما جلا الإصباحُ غيْهبُ

وقال أيضاً :

يا ابنَ نصرٍ لك مُلكُ
دمت رُوحاً للمعالي
ليسَ تعدوه الفتوحُ
ما سرى في الجسمِ روحُ

ومن مقطوعاته :

وابنُ نصرٍ له عينا كصبحِ
ذو حسامٍ كأنهُ لمعُ برقِ
إن تجلّى جلالنا^٣ كلَّ كَرَبِ
في بنانٍ كأنها غيْثُ سَحْبِ

ومن أخرى :

وكانَ النجومَ في غَسَقِ اللّهِ
لِ جُمانٍ يلوحُ في آبنوسِ

١ لم يرد في ديوانه المجموع .

٢ الأزهار : الأشباح ؛ وهي بمعنى الأجسام .

٣ الأزهار : جلا دجى .

وكان الصبح في الأفق يجلي
وكان الرياض تهدي ثناءً
بجلي النجوم مثل العروس
للغي بالله فوق الطروس

وقال من قصيدة أولها :

أضياء هدي أم ضياء نهار
شمس تمد الشهب بالأنوار
قسماً بهديك في الضياء ، ولأنه

ومنها :

كم من لطائف الهدي أوضحتها
مستترلاً من رحمة الفقار
علمت ملوك الأرض أنك فخرها
فتسايقت لرضاك في مضمار

ومنها يصف الجيش :

سالت به تحت العجاج سفينة
لقت بريح العز من أنصار
أرست بجودي الجود في يوم الندى
وجرت بيوم الحرب في تيار

ومنها :

ألقي بأيدي الريح فضل عناه
فيكاد يسبق لمحة الأبصار

ومنها :

فهي العراب متى أنبرت يوم الوغى^٤ قد أعربت عن لطف صنع الباري

١ بين هذا البيت وسابقه في أزهار الرياض : ومنها بعد كثير .

٢ الأزهار : مداركها .

٣ الأزهار : العزم .

٤ الأزهار : متى أنبرت في الوغى ؛ ق : أنبرت يوم .

ومنها :

إن خاض في ليل العجاج رأيتَهُ
يجلُو دُجْنَتَهُ بوجهِ نهارِ

ومنها :

كم فيهمُ من قارِ ضيفِ طارقِ
وضحتُ شواهدُ فضلهِ للقارِ

ومنها :

يا أيها الملكُ الذي أيامُهُ
قد زاركَ العيدُ السعيدُ مبشراً
لما ازدَهتَهُ عواطفُ ألطفنها
فأتى يؤمُّم منك هدياً صالحاً
وأناكَ يسحبُ ذيلَ سحْبِ أغدقتُ
جادتُ بجاري الدمعِ من قطرِ الندى
فأعاد وجهَ الأرضِ طلقاً مشرقاً
لما دعاكَ إلى القيامِ بسنةِ
فأفضتَ فينا من ندادك مواهباً
فاهناً بعيدِ عاد يشتملُ الرضى

ومنها :

لا عُدْرَ لي إن كنتُ فيه مقصراً
فإذا نظمتُ من المناقبِ درّها
فذلكَ أنظمتها قلائدَ لؤلؤ
سدّتْ صفاتك أوجهَ الأعدارِ
شرفني منها بنظمِ دراري
لألاؤها قد شَفَّ بالأنوارِ

١ الأزهار : بحر العجاج .

وَأُنشِدُ عَلَى لِحْدِهِ الْمَقْدَسِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ١ :

ضريح أمير المسلمين محمد
وحيتك^٢ من روح الإله تحية
وشقت جيوب الزهر فيك كرائم
وصابت من الرحمي عليك غمام
وزارتك من حور الجنان أوانس
وجاءتك بالبشرى ملائكة الرضى
وصافح منك الروض أطيّب تربة
رضى الله والصفح الجميل وشفوه
ويا صدفاً قد فاز من جوهر العلا
أعندك أن العلم والحلم والحجى
وهل أنت إلا هالة القمر الذي
ويا عجباً من ذلك الترب كيف لا
لقد ضاقت الأكوان وهى رحية
قدمت على الرحمن أكرم مقدم
أقام بك المولى الإمام محمد
فجاء كما ترضى وترضى به العلا
ومد ظلال العدل في كل وجهة
وقام بمفروض الجهاد عن الورى
قضى بعدما قضى الخلافة حقها

يخصك ربي بالسلام المردد
مع الملا الأعلى تروح وتغندي
يرف بها الريحان عن خصل ندي
تروي ثرى هذا الضريح المنجد
نواعم في كل النعيم المخلد
كما جاء في الذكر الحكيم الممجّد
وعاهد منك المزن أكرم معهد
يؤالى على ذلك الصفيح المنضد
بكل^٣ نفيس بالنفاسة مفرد
وزهر الحلى قد أدرجت طي ملحد
بنور هدها الشهب تهدي وتهدي
يفيض ببحر السماحة مزبد
بما حزت من فخر عظيم وسودد
وزودت من رحماه خير مزود
مؤمل فوز بالشفيح محمد
وأنجز للأمال أكرم موعد
وكف أكف البغي من كل معتد
وعود دين الله خير معود
وعامل وجه الله في كل مقصد

١ انظر أزهار الرياض ٢ : ١٥٢ .

٢ الأزهار : وحيك .

٣ الأزهار : حاز ... لكل .

وفتح بالسيف الممالك عنوة
 وكسر تمثال الصليب وأخرست
 وطهر محرّاباً وجدّد منبراً
 ودانت له الأملاك شرقاً ومغرباً
 وطبق معمور البسيطة ذكره
 وسافر عن دار الفناء ليجتلي
 وقام بأمر الله حقّ قيامه
 لئن سار للرحمن خير مودع
 فقد خلف المولى الخليفة يوسف
 سبيلك في سبل المكارم يقتضي
 محمد جلي الخطب من بعد يوسف
 ولو وجد الناس الفداء مسوغاً
 سبكيك أرض كنت غيث بلادها
 وتبكي عليك السحب ملء جفونها
 وتلبس فيك النيرات ظلامها
 وما هي إلا أعين قد تسهدت
 فلا زلت في ظلّ النعيم مخلداً
 وأوردك الرحمن حوض نبيه
 عليك سلام مثل حمدك عاطر
 وصلى على المختار من آل هاشم

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج ١ :

بما قد حزت من كرمِ الخلالِ بما أدركتَ من رُتبِ الخلالِ
 بما حوَّلتَ من دينِ ودنيا بما قد حزتَ من شرفِ الجمالِ
 بما أوليتَ من صنعِ جميلِ يطابقُ لفظه معنى الكمالِ
 تغمدني^٢ بفضلك ، واغضرها ذنوباً في الفعّالِ وفي المقالِ
 وقال أيضاً^٣ :

أَتَعَطَّشُ أَوْلَادِي وَأَنْتَ غَمَامَةٌ تَعْمُ^١ جَمِيعَ الْخَلْقِ بِالنَّفْعِ وَالسَّقِيَا
 وَتَظْلِمُ أَوْقَاتِي وَوَجْهَكَ نِيرٌ تَفِيضُ بِهِ الْأَنْوَارَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا
 وَجَدُّكَ قَدْ سَمَّاكَ رَبُّكَ بِاسْمِهِ وَأُورَثَكَ الرَّحْمَنُ رُتْبَتَهُ الْعَلِيَا
 وَقَدْ كَانَ أُعْطَانِي الَّذِي أَنَا سَائِلٌ وَسَوَّغَنِي مِنْ غَيْرِ شَرْطٍ وَلَا ثُنْيَا
 وَشِعْرِي فِي غُرِّ الْمَصَانِعِ خَالِدٌ يَجِيئُهُ عَنِّي فِي الْمَمَاتِ وَفِي الْمَحْيَا
 وَمَا زِلْتُ أَهْدِي الْمَدْحَ مَنْكَا مُفْتَقَاً فَتَحْمِلُهُ الْأَرْوَاحُ عَاطِرَةَ الرَّيَا
 وَقَدْ أَكْرَهْتُ الْعَبْدُ الشُّكْيَ وَإِنِّهُ وَحَقُّكَ يَا فَخْرَ الْمُلُوكِ قَدْ اسْتَحْيَا
 وَمَا الْجُودُ إِلَّا مَيْتٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا نَفَخْتُ يَمْنَاكَ فِي رُوحِهِ يَحْيَا
 فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَدْعُوَ لِلدِّينِ مُحَمَّدٍ فَيَدْعُوَ لِمَوْلَانَا الْخَلِيفَةَ بِالْبُقْيَا

وقال أيضاً فيه وقد نزل بالولجة من مرج الحضرة :

مَنْزِلُ الْيُمْنِ وَالرِّضَى وَالسُّعُودِ أَنْجَزَتْ فِيهِ صَادِقَاتُ الْوَعُودِ
 كُلُّ يَوْمٍ نِزَاهَةٌ إِنْ تَقَضَّتْ أَنْشَدَتْهَا السُّعُودُ : بِاللَّهِ عُودِي
 جَمْعُ الْمُسْتَعِينِ وَصَفَ كَمَالِ بَيْنَ بَأْسِ عَمِّ الْمُلُوكِ وَجُودِ

١ الأزهار : المعالي .

٢ ق : تغمدتها .

٣ الأزهار : ومن ذلك أيضاً يخاطب أخانا السلطان أبا عبد الله رحمة الله تعالى عليه متوسلاً بقدم
 ذمائه ، والخدم الممتدة من نظامه .

فاهن في غبطة وعزة ملك
وقال أيضاً مشيراً لتوليته العلامة :

لك غرّة ودّ الصباحُ جماها
وشمائلٌ تحكي الرياضُ خلاها
للمستعين خِلافةٌ نصريّةٌ
وأنا الذي قد نالَ منك معالياً
تهديه ما قد نلته من بعضها
في كلِّ يومٍ منك منّةٌ منعمٍ
بلَغْتَ آمالَ العبيدِ فبلَّغْتَ
ومحاسن تهوى البدورُ كماها
وأناملُ ترجوا الأنامُ خلاها
عرفتُ ملوكَ العالمين جلالها^٢
تهدي النجوم الزاهرات منالها
فالفخرُ كلُّ الفخرِ فيمن نالها
لو طاولتُ سمكَ السماءِ ما طالها
فيك العبيدُ من البقا آمالها

وقال أيضاً وكتبها إليه مع خمسة أقلام :

أيا مالكا لم يبندُ للعين حُسْنُهُ
لك الخير خذها كالأناملِ خمسةٌ
فمن أبصرت عيناك مرآه فليقل
سوى ملك قد حلَّ من عالم القدسِ
تعودُ مرآك المكمّلِ بالحمسِ
أعوذ بربِّ الناس أو آيةِ الكرسي

ثم قال ابن الأحمر : وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة الله تعالى عليه وقد مرَّ
معه بفتح رية ، والثلج قد عمَّ أنديته ، وبسط أرديته ، في وجهة توجهها
مولانا الجدد تغمده الله تعالى إلى مالقة :

يا مَنْ به رتبُ الإمارةُ تعليّ ومعالِمُ الفخرِ المشيدة تبتني

١ ق : ترجى .

٢ الأزهار : جماها .

٣ الأزهار : سمك الملا .

٤ الأزهار : المعالي .

ازجرُ بهذا الثلجِ فالألم إنّه
 بسطَ البياضَ كرامةً لقلومه
 فالأرضُ جوهرةٌ تلوحُ لمجتلٍ
 سبحانَ من أعطى الوجودَ وجوده
 وبدائعُ الأكوانِ في إتقانها
 ثلجُ اليقينِ بنصرِ مولانا الغني
 وافتترٌ نغراً عن مسرةٍ معني
 والدوحُ مزهّرةٌ تفوحُ لمجني
 ليدلّ منهُ على الجوادِ المحسنِ
 أثرٌ يشيرُ إلى البديعِ المتقنِ

ثم قال : ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله ابن الخطيب
 مادحاً قوله :

أما وانصداعِ النورِ من مَطْلَعِ الفجرِ

إلى آخره ، وقد تقدمت .

ثم قال : وقال يراجع الكاتب أبا زكريا ابن أبي دلالة^١ :

على الطائرِ الميمونِ والطاقِ السعدِ
 وأحييتَ يا يحيى بها نفسَ مغرمٍ
 نسيتُ وما أنسى وفائي وخطي
 وما الطلُّ في ثغري من الزهرِ باسمٍ
 فأصدقتها من بحرِ فكري جواهرأ
 وكنتُ أطيلُ القولَ إلا ضرورةً
 أتني معَ الصنعِ الجميلِ على وَعْدِ
 يجيلُ جياذَ الدمعِ في ملعبِ السهدِ
 وأقفرَ ربيعَ القلبِ إلا من الوجدِ
 بأزكى وأصفى من ثنائي ومن ودي
 تنظّم من درِّ الدراري في عقدِ
 دعني إلى الإيجازِ في سورةِ الحمدِ

وأنشد السلطان أبا العباس المرسي في غراب^٢ من إنشائه :

إنسانَ عينِ الدهرِ جفّنتُكَ قد غدا
 إذا ما هتفا فوقَ الرؤوسِ شرعهُ
 يحفّكَ منهُ طائرُ اليُمنِ والسعدِ
 أراكَ جناحاً مُدّاً للجزرِ والمدِّ

١ أزهار الرياض ٢ : ١٧٥ .

٢ الغراب : نوع من السفن .

وأنشد فيه أيضاً :

لك الخيرُ شأنُ الجفنِ يحرسُ عينهُ وهذا بعينِ الله يحرسُ دائماً
تبيتُ لهُ خمسُ الثريا معيذةً تقلدهُ زهُرُ النجومِ تئاماً
فيا جفنُ لا تنفكُ في الحفظِ دائماً وإن كنتَ في لُجٍّ من البحرِ عائماً

انتهى ما لخصته من كلام ابن الأحمر في حق ابن زمرك ، وذلك جملة من نظمه .

[موشحات ابن زمرك]

وقد رأيت أن أعزز ذلك ببعض موشحات ابن زمرك المذكور^١ مما انتقته من كلام ابن الأحمر :

فمنها قوله متشوقاً إلى غرناطة ويمدح الغني بالله :

بالله يا قامةَ القضيبيِّ ومججلَ الشمسِ والقمرِ
مَنْ ملكَ الحسنَ في القلوبِ وأيدَ اللحظَ بالحورِ
من لَمْ يكنْ طبعه رقيقاً لَمْ يدْرِ ما لذةُ الصِّبا
فربَّ حرٍّ غداً رقيقاً تملكه نفحةُ الصِّبا
نشوانَ لم يشربِ الرحيقاً لكنْ إلى الحسنِ قد صبا
فعدبَ القلبَ بالوجيبِ وتعمَ العينَ بالنظرِ
وبات والدمعُ في صيبِ يقدحُ من قلبه الشرُّ

١ في الأزهار : وقد عن لي أن أذكر جملة من موشحات لغرابتها ، ولأن جل ما وقفت عليه منها ينخرط في سلك المغرب ، إذ أكثره من مخلع البسيط .

عجبتُ من قلبي المعنى لو كان للصبِّ ما تمنى وبُلبلُ الدَّوحِ إن تغنى	يهفو إذا هبَّتِ الرياحُ لطارَ شوقاً إلى البطاحِ أسهرَ ليلى إلى الصباحِ
عساكَ إن زرتَ يا طيبي أن تجعلَ النومَ من نصيبي	بالطيفِ في رقدة السَّحرِ والعينَ تحمي من السهرِ
كَمْ شادنٍ قاد لي الختوفا يسلُّ من لحظة سيوفا خلقتُ من عادتي ألُّوفا	بمريعِ القلبِ قد سكنَ فالقلبُ بالروع ما سكنَ أحنُّ لسلافِ والسكنِ
غرناطةٌ منزلُ الحبيبِ تبهرُ بالمنظرِ العجيبِ	وقرُبها السؤلُ والوطرُ فلا عدا ربَّعها المطرُ
عروسةٌ تاجها السبيكةُ لم ترضَ من عزها شريكهُ أيدها الله من مليكهُ	وزهرها الحليُّ والحلُّ بحسنها يضربُ المثلُ تملكها أشرفُ الدولِ
بدولةِ المرتجى المهيبِ تختالُ من بُردها القشيبِ	الملكِ الطاهرِ الأغرِ في حلةِ النورِ والزهرِ
كرسيها جنةُ العريفِ وجوهرُ الطلِّ عن شنوفِ والأنسُ فيها على صنوفِ	مرآتها صفحةُ الغديرِ تحكمها صنعةُ القديرِ فمن هديلِ ومن هديرِ

كم خرق الزهر من جيوبِ وكلل القُضْبَ بالدررِ
 فالقُصْنُ كالكَاعِبِ اللُّعوبِ والطيْرُ تشدو بلا وترِ
 ولائمُ النصرِ في احتفالِ وفرحُ دينِ الهوى اُ جديدِ
 سلطانها مُعْمِلُ العوالي محمد الظافرُ السعيدِ
 ومجملُ البدرِ في الكمالِ سلطانها المجتبي الفريدِ
 أصفحُ مَوَلَى عن الذنوبِ أكرمُ عافِ إذا قدرِ
 وشمسُ هَدْيٍ بلا منيبِ وبحرُ جودِ بلا حَسَرِ
 مولاي يا عاقدَ البنودِ تظلل الأوجهُ الصباخِ
 أوحشتَ يا نخبَةَ الوجودِ غرناطَةٌ هالَةٌ السماخِ
 سافرتَ باليُمْنِ والسعودِ وعدتَ بالفتحِ والنجاحِ
 يا ملهمَ القلبِ للغيوبِ ومُطعمَ النصرِ والظفرِ
 أسمعك الله عن قريبِ : « على السلامة من السفرِ »

وقال أيضاً^٢ من الموشحات الرائقة^٣ ، في مثل أغراض هذه السابقة ، وأشار
 إلى محاسن من وصف النشار :

نَسِيمُ غرناطَةِ عليلُ لكنَّهُ يبرىء العليلِ
 وروضها زهرهٌ بليلُ ورشفه ينقعُ الغليلِ
 سقى بنجدِ رَبِّي المصلتى مبكراً روضهُ الغمامِ
 فجعفنهُ كلِّما استهلاً تبسّمَ الزهرُ في الكِمامِ
 والروضُ بالحسنِ قد تحلّى وجردَ النهرُ عن حِمامِ

٢ ق : ثم ذكر .
 ٤ الأزهار : تجل .

١ الأزهار : الهدى .
 ٣ الأزهار : الفائقة .

ودوحها ظلتهُ ظليلُ
 والبرقُ والجوُّ مستطيلُ
 عقيلةُ تاجها السبيكةُ
 كأنها فوقهُ مليكةُ
 تطعُ من عسجدِ سبيكةُ
 أبعدك الخالقُ الجميلُ
 قلبي إلى حُسنه يميلُ
 وزاد للحسنِ فيك حسنا
 جدد للفخر فيك معنى
 تدعى دشاراً وفيك معنى
 فالنصرُ والسعد لا يزولُ
 سعدٌ وأنصاره قبيلُ
 أبدى به حكمةَ القديرِ
 ودرعَ الزهرِ بالقدِيرِ
 فمن هديلٍ ومن هديرِ
 كبت على روضها القبولُ
 فلم يزلَ بيئتها يجولُ
 للزهرِ في عطفها رُقومُ
 وللندی بيئها رسومُ
 وكلُّ وادٍ بها بهيمُ
 يحسنُ في ربيعهِ المقيِلُ
 يلبُّ بالصارمِ الصقيِلُ
 تطلُّ بالمرقبِ المنيفِ
 كرسيُّها جنَّةُ العريفِ
 شمسُها كلما تطيفُ
 يا منظرأً كلته جميلُ
 وقبلنا قد صبا جميلُ
 محمدُ الحمدِ والسَّماحُ
 في طالعِ اليَمْنِ والنجاحُ
 يخصك الفألُ بافتتاحُ
 لأنه ثابتُ أصيلُ
 آباؤه عترةُ الرسولُ
 وتوجِ الروضِ بالقبابِ
 وزينَ النهرِ بالحبابِ
 ما أولعَ الحسنُ بالشبابِ
 وطرفها بالسرى كليلُ
 حتى تبدت له حُجولُ
 تلوحُ للعينِ كالتجومِ
 عقدُ الندى فوقهُ نظيمُ
 ولم يزلَ حولها يحومُ

شيلها مدّ منه نيلٌ وعين وادٍ به تسيلٌ
 والشينُ ألفٌ لمستنيلٌ من فوقٍ خدٍ له أسيلٌ
 كم من ظلالٍ به ترفٌ ومن زجاجٍ به يشفٌ
 تَضْفُو له فوقها سُورٌ ما بينَ نورٍ وبينَ نورٌ
 ومن شمسٍ بها تُصَفٌ تديرها بينَها البدورٌ
 مزاجها العذبُ سلسيلٌ وكيف والشيبُ لي عدولٌ
 يا هلّ إلى رشفها سبيلٌ وصبغهُ صفرةُ الأصيلٌ
 يا سرحةً في الحمى ظليلهُ كم نلتُ في ظلك المني
 رَوْضِكَ اللهُ من خميلهُ يُجنى بها أطيبُ الجنى
 وبرقها صادقُ المخيلهُ ما زال بالغيثِ محسنا
 أنجز لي وعدك القبولُ فلم أقلّ مثلَ من يقولُ :
 « يا سرحة الحمى يا مطولُ شرحُ الذي بيننا يطولُ »

ومن ذلك ما كتب به إلى الغني بالله :

أبلغ لغرناطة سلامي وصف لها عهدي السليم
 فلو رعى طيفها ذمامي ما بتُّ في ليلة السليم
 كم بتُّ فيها على اقتراحٍ أعلُّ من خمرة الرضاب
 أديرُ فيها كؤوسَ راحٍ قد زانها الثغرُ بالحباب
 اختالُ كالمهر في الجماحِ نشوانٌ في روضة الشباب

أضاحكُ الزهرَ في الكِمامِ - مباحياً روضهُ الوسيمِ
وأفضحُ الغصنَ في القوامِ - إن هبَّ من جوها نسيمِ

بيننا أنا والشبابُ ضافٍ - وظلَّهُ فوقنا مديدُ
وموردُ الأُنسِ فيه ضافٍ - وبرده رائقُ جديدُ
إذ لاح في الفؤادِ غير خافٍ - صبحٌ به نبه الوليدُ

أيقظَ مَنْ كان ذا منامٍ - لما انجلي ليلهُ البهيمِ
وأرسل الدمعَ كالغمامِ - في كلِّ وادٍ به أهيمِ

يا جيرةً عهدهمُ كريمُ - وفعلهمُ كلُّه جميلُ
لا تعدلوا الصبَّ إذ يهيمُ - فقبله قد صبا جميلُ
القربُ من ربِّكم نعيمُ - وبُعدكم خطبهُ جليلُ

كم من رياضٍ به وسامٍ - يُزهي بها الرائضُ المسيمِ
غديرها أزرق الحمامِ - ونبتها كلُّه جسيمِ^٢

أعندكم أنتي بفاسٍ - أكابدُ الشوقَ والحنينِ
أذكرُ أهلي بها وناسي - واليومُ في الطولِ كالسنينِ
اللهُ حسبي فكم أقاسي - من وحشةِ الصحبِ والبنينِ

مطارحاً ساجعَ الحمامِ - شوقاً إلى الإلفِ والحميمِ
والدمعُ قد لجَّ في انسجامِ - وقد وهى عقدهُ التنظيمِ

١ الأزهار : الرائد .

٢ ق : جسيم .

يا ساكني جنة العريف	أُسكنتمُ جنةَ الخلودِ
كم تمّ من منظرٍ شريفٍ	قد حُفّ باليمن والسعودِ
ورُبّ طودٍ به منيفٍ	أدواحهُ الخضرُ كالبنودِ
والنهرُ قد سلّ كالخسامِ	لراحةِ الشربِ مستديمِ
والزهرُ قد راق بابتسامِ	مُقبلاً راحةَ التديمِ
بلغ عييد المقامِ صحي	لا زلتمُ الدهرَ في هنا
لِقائكمُ بغيةَ المحبِّ	وقربكمُ غايةَ المني
فَعندكمُ قد تركتُ قلبي	فجددَ اللهُ عهدنا
وداركَ الشملَ بانتظامِ	مِن مُرتجى فضلِهِ العَمِيمِ
في ظلِّ سلطاننا الإمامِ	الظاهرِ الظاهرِ الحَلِيمِ ^٢
مؤمنُ العلوتينِ مما	يخافُ من سطوةِ العدا
وفارجُ الكربِ إن الما	ومذهبُ الخطبِ والردي
قد راقَ حسناً وفاقَ حلما	وما عدا غيرَ ما بدا
مولايَ يا نَجْبةَ الأنامِ	وحائزَ الفخرِ في القديمِ
كم أرقبُ البدرَ في التمامِ	شوقاً إلى وجهكَ الكريمِ

منها موشحة عارض بها موشحة ابن سهيل التي أولها « ليل الهوى يقظان »

وهي :

نوممُ البُستانِ	تنثرُ سلكَ الزهرِ
والطلُّ في الأغصانِ	ينظمهُ بالجوهرِ

١ ق : من يرتجى .

٢ ق : الحميم .

أضاء منها المشرقُ	وراحةُ ^١ الإصباحِ
فلا تزال تخفقُ	تنشرُها الأرواحُ
لها عيونٌ ترمقُ	والزهرُ زهرٌ فاحٌ
يبصرن ما لم يبصرِ	فأيقظ الندمانُ
قد عرضت للمُشتري	جواهرُ الشهبانِ ^٢
يا أيُّ هذا البارِقُ	قدحتَ لي زندا
إذ الشبابُ راتقُ	أذكرتني عهدا
ولا الفؤادُ الخافِقُ	فالشوقُ لا يهدا
والقلبُ رهنُ الفِكْرِ	وكيف بالسُّلوانِ
تُحجبُ وجهَ القمرِ	وسُحبُ الهجرانِ
نديرها بينَ البلورِ	لولا شمسُ الكاسِ
منا على رُبْعِ الصلورِ	وعرجُ الإيناسِ
يفري بربّاتِ الخلورِ	لكن لها وسواسُ
بصبحِ وجهِ مفرِ	كَمْ واله هيمانُ
من تحتِ ليلِ مفرِ	ضياؤه قد بانُ
كم فيك من مرأى جميلِ	يا مطلعَ الأنوارِ
ما ضرَّ لو تشفى العليلِ	ونزهةَ الأبصارِ
وعرفُها يُبري العليلِ	يا روضةَ الأزهارِ

١ الأزهار : ورابة .

٢ ق : الشبان .

قُضِيكَ القَيْنَانُ	يُسْقَى بدمعِ هَمِيرٍ
فلا عَجُّ الأشْجَانُ	فيضَ الدموعِ يَمْتَرِي ١
هل في الهوى ناصرٌ	أو هل يُجَارُ الهائمُ
لو كانَ لي زائرٌ	طيفُ الخيالِ الحائمُ
ما بتُّ بالساهرُ	ودمعُ عيني ساجمُ
والحبُّ ذو عدوانٍ	يجهدُ في ظلمِ البري
وصارمُ الأُجفانِ	مؤتدٌ بالحوَرِ
رحمك في صبِّ	أذكرته عهدَ الصبِّ
بواعثُ الحبِّ	قادت إليه الوصبا
لَمْ تهفُّ بالقلبِ	ريحُ الصبِّ إلاَّ صباً ٢
بليَّةَ الأردنِ	قد ضُمَّختُ بالعنبرِ
يشيرُ غصنُ البانِ	منها بفضلِ المترِ
طيبها حمدُ	فخرِ الملوكِ المجتبي
من يرجحُ الطودُ	من حلمه إذا احتبي
قد جردَ السعدُ	منه حساماً مذهباً
فالبأسُ والإحسانُ	والغوثُ للمستنصرِ
تحمُّلهُ الركبَانُ	تحميةُ المنبرِ
عصابةُ الكتابِ	حقُّ لها الفوزِ العظيمِ
تختالُ في أثوابِ	ألسها الطولِ الجسيمِ
فحسبها الإطنابُ	في الحمدِ والشكرِ العميمِ

٢. ق : هيا .

١. ق والأزهار : يجرى ؛ وامترى افتعل من مرى بمعنى استدر .

خليفةَ الرحمنُ
يا موردَ الظمآنِ
لا زلت ساميَ المظهرِ
ورأسَ مالِ المعسرِ

خذها على دعوى
جاءت كما هوى
تزري على الروض الوسيمِ
أرقاً من لَدُنِ النسيمِ
قد طارحتُ شكوى
من قال في الليلِ البهيمِ

« ليلُ الهوى يقظانُ »
« والصبرُ لي خوآنُ »
والحبُّ تَرِبُ السهرِ
والنومُ من عيني بري

وله في الصبوحيات :

ريحانةُ الفجرِ قد أطلتْ
ورايةُ الصبحِ قد أطلتْ
خضراءُ بالزهرِ ترهَرُ
في مرقبِ الشرقِ تُنشرُ
فالشَّهْبُ من غارةِ الصباحِ
وأدهمُ الليلِ في جماحِ
تُرعدُ خوفاً وتخفقُ
أعنةُ البرقِ يُطلقُ
بأدمعِ الغيثِ يشرقُ
فالبرقُ سيفُ مجوهرُ
في راحةِ الجوّ تُشهرُ
كمُ للصبا ثمَّ من مقبلِ
والنهرُ كالصارمِ الصَّقيلِ
وربَّ قالِ بهِ وقيلِ
فألسنُ الورقِ قد أملتْ
ونسمةُ الصبحِ قد تجلتْ
بطيبهِ الزهرُ يشهدُ
في حليةِ النورِ يغمدُ
للطيرِ في حينِ تشدُّ
مدائحاً عنهُ تشكرُ
في سندسِ الروضِ تعثرُ

١ الأزهار : زاهي .

والكاسُ في راحة النديمِ	يحلُّو بها غيبِهم المومِ
أقيستِ النار في القديمِ	من قبل أن تخلقَ الكرومِ
والنهرُ في ملعبِ النسيمِ	للزهر في عطفه رقومِ
فلبتُ الحلي ^١ قد تحلَّتْ	والطلُّ في الحلي ^٢ جوهر
وبهجة الكون قد تجلَّتْ	والروض بالحسنِ يبهر ^٣
يذُكرني وجنة الحبيبِ	والآسَ في صفحة العذار
وشاربَ الشاربِ العجيبِ	بينَ أقاحِ وجلتار
يديرُ من ثغره الشنيبِ	سُلاقةً دونها العقار
حلَّتْ لأهل الهوى وجلَّتْ	بالذكرِ والوهمِ تُسكرُ
كَمَ من نفوسٍ بها تسلَّتْ	فما لها الدهرَ منكِرُ
يا غُصنَ بانٍ يميلُ زهوا	ريانَ في روضةِ الشبابِ
لو كنتَ تصغي لرفع شكوى	أطلتَ من قصةِ العقابِ
ومن لمثلي بيتُ نجوى	للبدر في رفرِفِ السحابِ
عزائمُ الصبرِ فيك حلَّتْ	وعقدةُ الصبرِ تذخر
قد أكثرتَ منك ما استقلتُ	وليتَ لو كنتَ تشمر
كَمَ ليلةً بثها وبتا	ضدين في السهدِ والرقادِ
أسامرُ النجمِ فيك حتى	علَّمتُ أجفانها السهادِ
أرقبُ بدرَ الدجى ، وأنتا	قد لحتَ في هالةِ الفوادِ

١ ق : الشمس .

٢ الأزهار : القضب .

٣ ق : يزهر .

٤ الأزهار : أجفانه .

نفسِي وَلَيْتَ مَا تَوَلَّتْ
لَوْ سُمَّتْهَا الْهَجْرَ مَا تَوَلَّتْ
دَعَاهَا عَلَى الشُّوقِ تَصْبِرُ
وَلَمْ تَكُنْ عَنْكَ تَنْفِرُ

عَلِمَهَا الصَّبْرَ فِي الْحُرُوبِ
مَعْفَرَ الصَّيْدِ لِلْجَنُوبِ
سَلْطَانُنَا عَاقِدُ الْبِنُودِ
أَعَزُّ مِنْ حُفٍّ بِالْجَنُودِ
نُصِرْتَ بِالرَّعْبِ فِي الْقُلُوبِ
وَالْبَيْضِ لَمْ تَبْرَحِ الْعُمُودِ

عِنَايَةُ اللَّهِ فِيهِ حَلَّتْ
وَالْخَلْقُ فِي عَصْرِهِ تَمَلَّتْ
بِسَعْدِهِ الدِّينُ يُنْصَرُ
غَنَائِمًا لَيْسَ تُحْصَرُ

مَوْلَايَ يَا نَكْتَةَ الزَّمَانِ
جَلَلْتَ بِالْيَمْنِ وَالْأَمَانِ
دَارَ بِمَا تَرْتَضِي الْفَلَكَ
كُلَّ مَلِكٍ وَمَا مَلِكُ
لَمْ يَدِرْ وَصْفِي وَلَا عِيَانِي
أَمَلِكُ أَنْتَ أُمَ مَلِكُ

جُنُودِكَ الْغُلْبُ حَيْثُ حَلَّتْ
وَعَادَةُ اللَّهِ فِيكَ دَلَّتْ
بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ تُخْفَرُ
أَنْتَ بِالْكَفْرِ تَظْفَرُ

يَا آيَةَ اللَّهِ فِي الْكَمَالِ
قَدِمْتَ بِالْعَزِّ وَالْجَلَالِ
وَمُخْجَلِ الْبَدْرِ فِي التَّمَامِ
وَالدَّهْرِ فِي ثَغْرِهِ ابْتِسَامِ
يَخْتَالُ فِي حُلَّةِ الْجَمَالِ
وَالبَدْرِ قَدْ عَادَ فِي اخْتِمَامِ

رِيحَانَةُ الْفَجْرِ قَدْ أَطَلَّتْ
وَرَايَةُ الصَّبْحِ قَدْ أَظَلَّتْ
خَضْرَاءَ بِالزَّهْرِ تَزْهَرُ
فِي مَرْقَبِ الشَّرْقِ تَنْشَرُ

وقال ساعده الله تعالى .:

قَدْ طَلَعَتْ رَايَةُ الصَّبْحِ
فَبَاكِرِ الرُّوْضِ بِاصْطَبَاحِ
وَأَذْنَ اللَّيْلِ بِالرَّحِيلِ
وَاشْرَبْ عَلَى زَهْرِهِ الْبَلِيلِ

فالورقُ هبت من السُّباتِ
تسجعُ مفتنةَ اللغاتِ
والغصن بعد الذهب يأتي

وأدمع السُّحب في انسياحِ
والجو مستبشرُ النواحي

قم فاغتم بهجةَ النفوسِ
وشفع الصبح بالشموسِ
ونبه الشرب للكووسِ

ما أجمل الراح فوق راحِ
تغادر الصدرَ ذا انشراحِ

ولا تذرُ خمرةَ الجفونِ
ولتخش من أسهم العيونِ
عرضت منها إلى الفتونِ

أهيم بالغادة الرِّداحِ
لو بتُّ منها على اقتراحِ

أواعدُ الطيِّفَ للمتأمِ
أسهرُ في ليلة التمامِ
وألُمُ الزهر في الكمامِ

سفرت عن مبسم الأقاحِ
قل لي يا ربّة الوشاحِ
وريقك العذب سلسيلِ
هل لي إلى الوصل من سبيلِ

يا كعبة الحسن زدت حسنا
وغصن بان إذا تثني
ألا انعطاف على المعنى
أصبحت تزهو على الملاح
ووجهك الشمس في اتضاح
ما الزهر إلا بنظم در
للملك الظاهر الأغر
محمد الحمد وابن نصر
مُساجل السحب في السماح
ومخجل البدر في اللباح
يا مشرب الحب في القلوب
نصرت بالرعب في الحروب
قد لحت من عالم الغيوب
مراكش نهبه افتتاح
بشراك بالفتح والنجاح
واللهوى حولك المطاف
لو حان من زهرك القطاف
فالفصن يزهي بالانعطاف
بذلك المتظر الجميل
لو أنها لم تكن تميل
تحسد في حسنه العقود
أكرم من حُف بالسعود
وباسط العدل في الوجود
بالغيث من رِفده الجليل
بغرّة ما لها مثل
وواهب الصفح للصفاح
والرعب أجدى من السلاح
لم تعدم الفوز والفلاح
والصنع في فتحها جليل
والشكر من ذلك القليل

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

في كؤوس الثغر من ذاك اللعس
وتغشى الروض مسكي النفس
وراحة الأرواح
عاطر الأرواح
وكسا الأدواح وشياً مذهباً
يبهر الشمساً

عسجدٌ قد حلَّ من فوق الربِّي	يبهجُ النفسا
فاتخذ للهوِ فيه مركبا	تلحق الأنسا
منبرُ الغُصنِ عليه قد جلسَ	ساجعُ الأدواخِ
حللَ السندسِ خضراً قد لبسَ	عطفهُ المرتاخِ
قُم تَرى هذا الأصيلَ شاجبا	حُسْنُهُ قد راق
ولأذبالِ الغُصونِ ساحبا	في حلى الأوراقِ
ونديمٍ قالَ لي مخاطبياً	قولَ ذي إشفاقِ
عادةُ الشمسِ بغربِ تُختلسُ	هاكِ شمسِ الراحِ
إنَّ أَرانا الجوىَ وجهاً قد عبَسَ	أوقيدِ المِصباحِ
ووجوهُ الشَّرْبِ تغي عن شموسِ	كلما تُجلى
بلحاظِ أسكرتنا عن كؤوسِ	خمرها أحلى
مظهِراتٌ من خفايا في النفوسِ	سُوراً تُتلى
ما زمانُ الأُنسِ إلا مختلسِ	فاغتمِ يا صاحِ
وعيونُ الشَّهبِ تذكي عن حرمِ	تخضمُ النَّصاحِ
ما تَرى ثغرَ الوميضِ باسمِ	يُظهِرُ البِشرا
وثناءُ الروضِ هبَّ ناسمِ	عاطراً نشرا
بثَّ من أزهاره دراهمِ	قائلاً : بشرى
ركب المولى مع الظهرِ القرمِ	وشفي وارتاخِ
يجنودِ الله دأباً يحترسِ	إن غدا أو راحِ

١ ق : وسقي .

وجب الشكرُ عَلَيْنَا والهنأ
 فزمانُ السعدِ وضأحُ السنأ
 أثمرتُ فِيهِ العوالي بالمئى
 ثمراً غَضَّأ
 يجتني الإسلامُ منها ما اغترسُ
 فِي ضميرِ النفعِ منها قد هَجَسُ
 يا إماماً بالحمامِ المنتضى
 نفركَ الوضأحُ مهما أومضا
 وديونُ السعدِ منهُ تقتضى
 نصَرَ الحقأ
 لكَ وجهٌ من صباحِ مقتبَسُ
 وجميلُ الصفعِ منهُ ملتَمَسُ
 بشرُهُ وضأحُ
 منعمُ صفأحُ
 هاكها تمزج لطفأ بالنسِيمُ
 قد أنتَ بالبرِّ والصنعِ الجسيمُ
 تشكر الربأ
 مفرماً صبأ
 «غرد الطيرُ فنبه من نفس»^١
 «وتعزى الفجرُ عن ثوب الغلس»
 يا مديرَ الرأحِ
 وانجلى الإصبأحُ

وقال أيضاً ساعه الله تعالى :

قد أنعمَ اللهُ بالشفأءِ واستكملت راحةُ الإمامِ
 فلتنطقِ الطيرُ بالهنأءِ وليضحكِ الزهرُ فِي الكِمامِ
 وجُوده بهجةُ الوجودِ وبرؤه راحةُ النفوسِ

١ تقسين من شعر ابن ركيح .

قد لاح في مرقب السعود
 فالدوح يومي إلى البنود
 والزهر في هروضة السماء
 والصبح مستشرف اللواء
 محاسن الكون قد تجلت
 عرائس باليها تحلت
 وألسن الورق قد أملت
 تستوقف الخلق بالغناء
 تظن بالله في الثناء
 كم من ثغور لها ثغور
 ومن خدور بها بدور
 تقول إذ حفها السرور
 قد أنعم الله بالبقاء
 قد صادف النجح في الدواء
 يهنيك مولاي بل يهني
 فالغرب والشرق منك يعنى
 والله لولاك ما تنسنا
 يا مورد الأنفس الظماء
 وقرّة العين بالبهاء
 واستبشرت أوجه الشمس
 أكمامه غطت الرؤوس
 كالزهر قد راق بابتسام
 والبدر مستقبل التمام
 جمالها العقل يبهر
 والطل في الحلي جوهر
 مدائحاً عنه تشكر
 كأنها تحسن الكلام
 تقول سلمت يا سلام
 تسم إذ جاءها البشير
 يشير منها له المشير
 تبارك المنعم القدير
 في ظل مولى به اعتصام
 فالداء عنا له انفصام
 ببرئك الدين والهوى
 بمذهب الخطب والردى
 ما فيه من سطوة الردى
 قد كان يشتفها الأوام
 رددت للأعين التمام

١ الأزهار : إلى السجود ... حطت .

لو أبذلُ الروحَ في البشارهٗ
فأنتِ يا نفسُ مستعارهٗ
لم أدري إذ سطرَّ العِبَارَهٗ
لا زلتَ مولايَ في هناءِ
ودمتَ للملكِ في اعتلاءِ
يذلتُ بعضَ الذي ملكُ
مولايَ بالفضلِ جَمَلُكَ
أملكُ هوَ أم ملكُ
مُبَلِّغُ القصدِ والمِرامِ
تسحبُ أذيالَهُ الغمامِ

وقال في مالفقة :

عليك يا ربةُ السلامِ
مدحَلٌّ في قصرِكِ الإمامِ
والنوحُ في روضِكِ الأنيقِ
والغصنُ في نهره غريقِ
والجو من وجهك الشريقِ
وأعينُ الزهر لا تنامُ
تنفثُ من تحتها الغمامُ
عروسةٌ أنتِ يا عقيلهٗ
مدت لك الكفَّ مستقبيلهٗ
والبحرُ مرآتكِ الصقبيلهٗ
والخليُّ زهرٌ له انتظامُ
قد راق من ثغره ابتسامُ
ولا عدا ربَّعكِ المطرُ
قربكِ السؤلُ والوطرُ
للشكرِ قد حطتِ الرؤوسُ
وفي حُلاه كما عروس
تحمده أوجهُ الشמושِ
تستعذبُ السهدَ والسهر
ترقيقَ من أعينِ الزهرِ
تُجلى على مظهرِ الكمالِ
تمسحُ أعطافكِ الشمالِ
تشفُّ عن ذلكِ الجمالِ
يكللُ القُضبَ بالدرِّ
والوردُ في خدَّها خفَرُ

١ ورد بده في الأزهار :

كم فيك للمفرم المشوق
والنوح
والجو من وجهك
من منظر يبهج النفوس
(البيت)
.....

إن قيل مَنْ بَعَلُّهَا الْمَقْدَى	ومن لَهْ وصلُّها مباحٌ
أقول أسنى الملوكِ رفدا	مخلدُ الفخرِ بالصفاحِ
محمدُ الحمدِ حينَ يهدى	تساؤه عاطرِ الرياحِ
تخبرُ عن طيبه الكمامُ	والخبرُ يعني عن الخبرِ
فالسعدُ والرعبُ والحسامُ	والنصرُ آياتهُ الكُبرى
ذو غُرَّةٍ تسحرُ البلورا	وطلعةُ تُخجلُ الصُّباحِ
كم رايةٌ سامها ظهورا	تُظللُ الأوجهَ الصُّباحِ
وكمُ جهادٍ جلاه نورا	أظفرُ بالفوزِ والتجاحِ
الظاهرُ الظاهرُ الممامُ	أعزُّ مَنْ صالَ وافتخرُ
لسيفه في العدا احتكامُ	جرى بهِ سابقُ القدرِ
يا مرسلَ الخيرِ في الفوارِ	لو تطلبُ البحرَ تلحقُ
لك الجوارِي إذا تجاري	سوابقَ الشهبِ تسبقُ
تستنُّ في لجةِ البحارِ	فالكفرُ منهنِ يتفرَّقُ
فالدينُ وليقصرِ الكلامُ	بسيفك اعترَّ وانتصرُ
كذاك أسلافك الكرامُ	همُ نصرُوا سيّدَ البشرِ

وقال من غير هذا البحر في المحدث^١ بمالقة :

قد نُظِمَ الشملُ أتمَّ انتظامُ	واختمنِ الأحبابُ قربَ الحبيبِ
واستضحك الروضُ نُفُورَ الغمامِ ^٢	عن ميسمِ الزهرِ البرودِ الشنيبِ

١ المحدث : اسم بناء بمالقة .

٢ الأزهار : الكمام .

وعمم النور رؤوس الربى
 وصافح القضب نسيم الصبا
 وعاود النهر زمان الصبا
 وأطلع القصر برود التمام
 خدودها قامت مقام الغمام
 أصبحت ياريتة بجلى النفوس
 والبشر يسري في جميع الشموس
 والدوح للشكر تحط رؤوس
 وراجع النهر غناء الحمام
 بمنبر الغصن الرشيق القوام
 يا حبذا ميناك فخر القصور
 ما مثله في سالفات العصور
 كم فيه من مرأى بهيج ونور
 خليفة الله ونعم الإمام
 يهنيك شمل قد غدا في التمام
 ونفحة الند به تعبق
 وجوه من نورهم يشرق
 بلابل عن وجدته تنطق
 نواسم الوادي بمسك تفوح
 وبهجة السكان فيه تلوح
 وروضه بالسرة منه يبوخ

١ الأزهار : النهر .
 ٢ الأزهار : لا أشتكى .

لو أن من يفهم عنها الكلام
ونهره قد سل منه الحسام

فأجمل الأيام عصر الشباب
يا درة القصر وشمس القباب
بشرك الرب بحسن المآب

ولا يزال القصر قصر السلام
يتلو عليك الدهر في كل عام :

يختال في برد الشباب القشيب
﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾

وقال من المخلع في الشفاء :

في طالع اليمن والسعود
فأشرق النور في الوجود
قد كملت راحة الإمام
وابتسم الزهر في الكمام

قد طلعت راية النجاح
وقال حي على الفلاح
فالدهر يأتي بالافتراح
مؤذن القوم بالمنى
وانهزم البؤس والعنا
مستقبلاً أوجه هنا

تحقق منشورة البرود
والأنس مستجمع الوفود
والسعد يقدم من أمام
واللطف مستعذب الحمام

وأكؤس الطل مترعات
والطير مفتتة اللغات
بأتمل السوسن النسدي
بالسندس الغض مرتدي
تشلو بأصوات معبدي
والفصن يذهب ثم يأتي

الأزهار : الفوز .

والدُّوحُ يَوْمِي إِلَى السُّجُودِ شَكَرًا لِدِي الْأَنْعُمِ الْجِسْمِ
وَالرِّيحُ خَفَاقَةُ الْبُنُودِ تَبَاكُرُ الرُّوضِ بِالغَمَامِ

مَظَاهِرُ لِلْجَمَالِ تُجَلِّي قَدْ هَزَّ أَعْطَافَهَا السُّرُورُ
وَبَاهِرُ الْحَسَنِ قَدْ تَجَلَّى مَا بَيْنَ نَوْرِ وَبَيْنَ نُورُ
قَدْ هَنَأَتْ بِالشِّفَاءِ مَوْلَى بَعْضَرَهُ تَفَخَّرُ الْعَصُورُ

مَا بَيْنَ بَاسٍ وَبَيْنَ جُودِ قَدْ مَهَّدَ الْأَمْنَ لِلْأَنَامِ
فَالدِّينُ ذُو أَعْيُنِ رُقُودِ وَكَانَ لَا يَطْعَمُ الْمَنَامِ

وَالكَاسُ فِي رَاحَةِ السَّقَاةِ تَرُوحُ طَوْرًا وَتَغْتَسِدِي
يَهْدِيكُمَا رَاقِقُ السَّمَاتِ مَا بَيْنَ بَرَقِ وَفَرَقَدِ
وَالشَّمْسُ تَذْهَبُ لِلْبِيَاتِ قَدْ لَبَسْتُ ثُوبَ عَسْجَدِ

وَالزَّهْرُ فِي الْيَانِعِ الْمَجُودِ يَقَابِلُ الشَّرْبَ بَابْتِسَامِ
وَالرُّوضُ مِنْ حَلِيَةِ الْغَمُودِ قَدْ جَرَّدَ النَّهْرَ عَنِ حَسَامِ

مَوْلَايَ يَا أَشْرَفَ الْمُلُوكِ وَعَصْمَةَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ
أَهْدِيكَ مِنْ جَوْهَرِ السُّلُوكِ يَقْذِفُهُ بِجُرْكَ الْمُعِينِ
جَعَلْتُ تَنْظِيمَهُ سُلُوكِي وَأَنْتَ لِي الْمُنْجِدُ الْمُعِينِ

تَحِيَّةَ الْوَاحِدِ الْمَجِيدِ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَالسَّلَامِ
عَلَيْكَ مِنْ رَاحِمٍ وَدُودِ يَا مَخْجَلِ الْبَدْرِ فِي التَّمَامِ

وقال من الرمل المجزوء :

وجهُ هذا اليومِ بِاسْمِ وشذا الأزهاري ناسمِ

هاتما صاحِ كؤوسا	جالباتِ للسرورِ
وارتقبُ منها شموسا	طالعاتِ في حُبُورِ
ما ترى الروضِ عروسا	في حُلَى نَوْرٍ ونُورِ
وأنتِ رسلُ النواسمِ	تجتلي هذي النواسمِ
قد أهلتِ بالبشائرِ	أضحكتِ ثغرَ الأزاهرِ
سنحتِ في يَمْنِ طائرِ	ونُظْمِنَ كالجواهرِ
فانشروها في العشائرِ	إنَّ هذا الصنعَ باهرِ
وأشيعوا في العوالمِ	الغني باللهِ سلمِ
أي نورِ يتوقدُ	أي بدرِ يتللا
أي فخرِ يتخلدُ	أي غيثِ يتسوالى
إنما المولى محمدُ	رحمةُ الله تعالى
كفدُ بجرُ المقاسمِ	وبها حجُ المباسمِ
خيرُ أملاكِ الزمانِ	من بني سَعْدِ ونصرِ
ما ترى أنَّ الشواني	في صعيدِ البرِّ تجري
قد أطارها التهاني	دونَ بحريِّ وبحرِ
مذُ رأتِ بحرَ النعائمِ	كلها جارٍ وعائمِ
فهيناً بالشفاءِ	يا أميرَ المسلمينا
ولنا حقُُّ المناءِ	وجميعُ العالمينا
إنَّ جهرنا بالدعاءِ	ينطقُ الدهرُ أمينا
دمتِ محروسَ المكارمِ	بظبي البيضِ الصوارمِ

وقال يهني السلطان موسى ابن السلطان أبي عنان ، وقد وجه إليه الغني بالله أمه
وعياله عند تملكه المغرب من قبيله :

قد نُظِمَ الشَّمْلُ أتمَّ انتظامُ	ولاحتِ الأَقْمَارُ بعدَ المغيبِ
وأضحك الروضُ ثغورَ الغمامِ	عن مبسم الزهر البرودِ الشنيبِ
وعاودَ الغصنُ زمانَ الصبا	وأشربَ الأنسَ جميعُ النفوسِ
وعتمَ النورُ رؤوسَ الرُّبى	وجلَّلَ النورَ وجوهَ الشُّموسِ
وأطربَ الغصنَ نسيمُ الصبا	فالدوحُ للشكرِ نخطُّ الرؤوسِ
واستقبلَ البدرُ لياليَ التمامِ	وصافحَ الصبحَ بكفِّ خضيبِ
وراجعَ الأطيارَ سجعُ الحمامِ	بكلِّ ذي لحنٍ بديعِ غريبِ
نواسمُ الوادي بمسكٍ تفوحُ	ونفحةُ الندِّ به تعبقُ
وبهجةُ السكانِ فيه تلوحُ	وجوهُ من نوره يشرقُ
وعرفهُ بالطيبِ منه يفوحُ	كأنه من عنبرٍ يفتقُ
والنهرُ قد سُلَّ كثلِ الحسامِ	حبابُهُ تطفو وطوراً تغيبُ
وثغرها قد راق منه ابتسامُ	يُهتَىء الحِبُّ بقربِ الحبيبِ
كواكبُ أبراجهن الحدورُ	يلوحُ عنها كلُّ بدرٍ لياحُ
جواهرُ أصدافهن القصورُ	نظمها السعدُ كنظمِ الوشاحِ
يا حبذا والله ركبُ السرورُ	يشترُ المولى بنيلِ اقتراحِ
ابتهجَ الكونُ بموسى الإمامِ	واختالَ في بُردِ الشبابِ القشيبِ
وعاده يُخدمُ مثلَ العُلامِ	شبابهُ قد عاد بعدَ المشيبِ

أكرم به والله وفده الكريم
مرضاتها تحظي بدار النعيم
بشر بالنصر وفتح جسيم
مولى سفا « الحرة » في مقدمه
وتوجب التوفيق من منعمه
وخيره أجمع في مقدمه

لقاؤها البرور مسك الختام
وقصرك الميمون قصر السلام
بشرك الله بصنع عجيب
خطاً يحفظ من سميع مجيب

مولاي يهنيك وحق الهنا
قد غزت بالقخر ونيل المنى
وقرت العين وزال العنا
قد نظم الشمل كنظم السعود
وأنجز السعد جميع الوعود
وكلما مر صنيع يعود

فلا يزل ملكك حليف الدوام
بتلو عليك الدهر بعد السلام
يحوز في التخليد أوفى نصيب
﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾

وقال رحمه الله تعالى في وصف غرناطة والطرند وغيرهما :

الله ما أجمل روض الشباب
في عهده أدت كأس الرضاب
من قبل أن يفتح زهر المشيب
حبابها الدر بثغر الحبيب

من كل من ينجل بدر التمام
ويفضح الغصن بلين القوام
وإذ تبدي وجهه للعيون
ويذهل العقل بسحر الجفون

أبصرت منه إذ يحط النقاب
إذا تجلت بعد طول ارتقاب
شمساً ولكن ما لها من مغيب
صرقت عنها اللحظ خوف الرقيب

١ ق : ثناء ؛ وفي الأزهار : مولاتنا .

مَنْ عَازِرِي مِنْهُ فَوَادًا صَبَا
يَطِيرُ إِنْ هَبَّ نَسِيمُ الصَّبَا
لَلأَمِيعِ الْبَرْقِ وَخَفَقِ الرِّيحِ
وَهَلْ عَلَى مَنْ قَدْ صَبَا مِنْ جُنَاحِ

فَقَلْبِهِ مِنْ شَوْقِهِ فِي التَّهَابِ
وَالجَفْنُ مِنْهُ سَحْبُهُ فِي انْسِكَابِ
قَدْ أَحْرَقَ الْأَكْبَادَ مِنْهُ الْوَجِيبُ
قَدْ رَوَّضَ الْخَدَّ بِدَمْعِ سَكِيبِ

وَقُرْبُهَا السُّؤْلُ وَنَيْلُ الْوَطْرِ
لَمْ أَقْطَعْ اللَّيْلَ بِطُولِ السَّهْرِ
غَرْنَاطَةُ رَيْحِ الْهَوَى وَالْمُنَى
عَمَّا قَرِيبٍ حَقَّ فِيهَا الْمُنَا

وَيُحْمَدُ النَّاسُ نَجَاحَ الْإِيَابِ
وَيَكْتُبُ الْقَالُ عَلَى كُلِّ بَابِ :
بِكُلِّ صَنَعٍ مُسْتَجِدَّةٍ غَرِيبِ
﴿ نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾

لَأَنَّهُ الْقَالُ بِصَيْدِ الْعَدَا
وَأُورِدَ الْمَحْرُوبُ وَرَدَّ الرَّدَى
مَا لَذَّةَ الْأَمْلاكَ إِلَّا الْقَنْصُ
وَكَمْ بَذَا الْقَحْصِ لَنَا مِنْ حَصْصِ
كَمْ شَارِدٍ جَرَعَ فِيهِ الْغُصْصُ
قَدْ جُمِعَ الْبَأْسُ بِهَا وَالتَّدَى

ومنها بعد أبيات من الوزن والروي :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ ، وَأَنْتَ الَّذِي
وَالشَّمْسُ وَالْبَدْرُ مِنَ الْعُوْدِ
جَدَّدْتَ لِلْأَمْلاكَ عَهْدَ الْجَلَالِ
لَمَّا رَأَتْ مِنْكَ بَدِيعَ الْجَمَالِ
بَطِيبٌ مَا قَدْ حَزُنْتَهُ مِنْ خِلَالِ
بِغْتَلْدِي فِي نَعْمَتِهِ يَغْتَلْدِي

بِشْرَاكَ بِشْرَاكَ بِحَسَنِ الْمَأْبِ
وَدَمَتَ مَحْرُوسَ الْعُلَا وَالْجَنَابِ
تَسْتَضْحِكُ الرُّوْضَ بِشَغْرِ شَنْبِيْبِ
بِعَصْمَةِ اللَّهِ السَّمِيعِ الْمَجِيبِ

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زمر من كتاب ابن الأحمر ، رحمه الله

تعالى . وقد عرفت منه ما تسنى للغني بالله ابن الأحمر من الفتوحات والسعود
ونفاذ الأمر على ملوك المغرب ، فهو الأحق بقول لسان الدين ابن الخطيب رحمه
الله تعالى :

ملكٌ إذا عاينتُ منه جبينه فارقتهُ والنورُ فوق جبيني
وإذا لثمتُ يمينه وخرجتُ من أبوابه لثمتَ الملوكُ يميني

وكان الغني بالله المذكور معتقداً في الصالحين ، حتى إنه كتب وهو بفاس
مخلوعاً إلى ضريح ولي الله سيدي أبي العباس السبتي بمراكش ، ومن إنشاء وزيره
لسان الدين علي لسانه :

يا وليَّ الإله أنت مطاعٌ

الآيات والنثر بعدها ، وقد ذكرتهما في الباب الخامس فراجعهُ^١ ، وكان
ذلك بفضل الله تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه ، وتنظم تلك الأماكن في سلكه ،
حتى حصل له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يُعلم ذلك من كلام لسان الدين
وابن زمرك وغيرهما .

[ترجمة الولي السبتي]

والسبتي المذكور : هو سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر السبتي
الخرجي^٢ ، الولي الصالح العالم العارف بالله القطب ذو الكرامات الشهيرة ،
والمناقب الكثيرة ، والأحوال الباهرة ، والفضائل الظاهرة ، والأخلاق الطاهرة ،

١ انظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٢٧٣ .
٢ راجع ترجمة الولي السبتي في أنس الفقير : ٧ - ٩ وتمطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس
لابن الموقت (ط . فاس ١٩١٨) ونيل الابتهاج ٣١ - ٣٧ وعن هذا الأخير ينقل المقرئ ؛
وراجع الاعلام للعباس بن إبراهيم ١ : ٢٣٩ - ٢٣٨ .

نزىل مراكش ، وبها توفي سنة إحدى وستمائة ، وولادته بسبته عام أربعة وعشرين وخمسائة ، ودفن خارج مراكش ، وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء ، وقد زرته مراراً كثيرة ، فرأيت عليه من ازدحام الناس ما لا يوصف ، وهو تريقا مجرب .

قال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى : كان سيدي أبو العباس السبتي - رضي الله تعالى عنه - مقصوداً في حياته ، مستغاثاً به في الأزمات ، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ، ومبني أمره على انفعال العالم عن الجود^١ ، وكونه حكمة في تأثير الوجود ، له في ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ؛ ولما توفي ظهر هذا الأثر على تربته ، وتشبث بلحده ، وانسحب على مكانه عادة حياته ، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى ، وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى ، وانقطع الأماكن القصوى^٢ ، تحملهم أجنحة نياتهم فتهدوي إليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة .

وقال ابن الزيات^٣ : كان أبو العباس قد أعطي بسطةً في اللسان ، وقدرةً على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، ولا يسأله إلا أجابه ، كأن القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر العامة والخاصة ببيانه ، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلا مسلمين منقادين ، وشأنه كله عجيب ، وهو من عجائب الزمان . وحدثني مشايخنا أنهم سمعوه يقول : أنا

١ في الأصل : الوجود ، والتصويب عن التنيكي ؛ وأورد العباس بن إبراهيم أن ابن رشد أرسل أبا القاسم الخزرجي ليعرف مغيب أبي العباس بمراكش ، فلما نقل الخزرجي خبره إلى ابن رشد قال له : « هذا رجل مذهبه أن الوجود يتفعل بالجود » وهو مذهب فلان من قدماء الفلاسفة .

٢ نيل الابتهاج : المكان الأقصى .

٣ تنقل المصادر ترجمة السبتي عن التشوف ، ولكن ابن الزيات صرح بأنه يفرد ترجمة السبتي إذ لا يكفي في ذكره الاختصار ، وجعل ترجمته في آخر كتابه ، إلا أنها لم تطبع مع سائر الكتاب ، وقد نقل العباس بن إبراهيم ما ذكره ابن الزيات في تلك الترجمة .

القطب . وحدثني أبو الحسن الصنهاجي من خواص خدامه قال : خرجت معه مرة^١ لصهريج غابة الرمان يوم عرفة ، فجلسنا هناك وصلينا ، فقال لي : إننا سمي هذا اليوم يوم عرفة لانتشار الرحمة فيه لمن تعرّف إليه بالطاعات ، وقد فاتنا عرفة ، فتعال نمثل بهذا المكان ونعمل كما يعملون ، لعلّ الله تعالى يتغمدنا برحمته معهم ، فعمل^١ مكاناً دائراً بالعين الكعبة ، ومحل عنصر الماء الحِجْر ، وموضعاً آخر مقام إبراهيم ، فطاف بالعين أسبوعاً وأنا أطوف بطوافه ، وكبر على العنصر في كل طواف ، وصلى في مثل^٢ المقام ركعتين تامتين ، وأطال في سجود الثانية ، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لي : يا علي ، اذكر كل حاجة لك من حوائج دنياك تُقضى ، فإن الله تعالى وعد في هذا اليوم من تعرّف له أن يقضي حوائجه ، فقلت له : ما أريد إلاّ التوفيق ، فقال لي : ما خرجت معك من باب المدينة حتى وفقت ، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته ، وبم تفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء ؟ ولم يصار يأمر بالصدقة والإيثار من شكا إليه حالاً أو تعذر عليه مطلب في هذه الدار ؟ فقال لي : ما أمر الناس إلا بما يتفجعون به ، وإني لما قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد الله الفخار تلميذ القاضي عياض ونظرت في كتب الأحكام وبلغت من السن عشرين سنة وجدت قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فتدبرته وقلت : أنا مطلوب به ، فلم أزل أبحث عنها^٣ إلى أن وقفت على أنها نزلت حين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وأنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم حكم المؤاخاة ، فأمرهم بالمُشاطرة ، ففهمت أن العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة ، ثم نظرت إلى حديث « تفرّق أمتي على ثلاثين فرقة - الحديث » وأنه صلى الله عليه وسلم

١ ق : فعد ؛ نيل الابتهاج : فجعل .

٢ في الأصل : قبل .

٣ نيل الابتهاج : فبحث عن الآية .

قاله صبيحة اليوم الذي آخى فيه بين المهاجرين والأنصار ، وذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين ، فقال لهم ذلك بأثره^١ ، فعلمت أن الذي هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار ، فعقدت مع الله تعالى نية أن لا يأتيني شيء إلا شاطرت فيه الفقراء ، فعلمت^٢ عليه عشرين سنة ، فأتمر لي الحكم بالخالط^٣ ، فلا أحكم على خاطري بشيء إلا صدق ، فلما أكملت أربعين سنة راجعت تدبر الآية فوجدت الشطر هو العدل ، والإحسان ما زاد عليه ، فعقدت مع الله تعالى نية لا يأتيني قليل ولا كثير إلا أمسكت ثلثه وصرفت الثلثين لله تعالى ، فعلمت عليه عشرين سنة ، فأتمر لي الحكم في الخلق بالولاية والعزل فأولي من شئت ، وأعزل من شئت ، ثم نظرت بعد ذلك في أول ما فرضه الله تعالى على عباده في مقام الإحسان ، فوجدت شكر النعمة ، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ، ووجدت أصناف من تصرف إليهم الصدقات^٤ الواجبة [سبعة] وسبعة أصناف آخر صرّفها فيها للإحسان والزيادة ، وذلك أن لنفسك عليك حقاً ، وللزوجة حقاً ، وللرحم حقاً ، ولليتيم حقاً ، وللضعيف حقاً ، وذكر صنفين آخرين ، فانتقلت لهذه الدرجة ، وعقدت مع الله تعالى عقداً أن كل ما يأتيني أمسك سبعة حق النفس وحق الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقيها ، فأقمت عليه أربعة عشر عاماً ، فأتمر لي الحكم في السماء ، فمتى قلت « يا رب » قال لي : لبيك ، ثم قال لي : إنها نهايتي بتمام عمري ، وهو أن تنقضي لي ستة أعوام تكلمة العشرين عاماً .

قال الصنهاجي : فأرخت ذلك اليوم ، فلما مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ المكتوب ، وحققت العدد ، فنقصت من ستة أعوام ثلاثة أيام خاصة ،

١ نيل الابتهاج : ذكر ذلك الحديث أثره .

٢ نيل الابتهاج : فبقيت .

٣ نيل الابتهاج : حكم الخاطر .

٤ نيل الابتهاج : أضاف من يمطى الصدقة .

فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .
وقال أبو بكر ابن مساعد : جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب ،
وقال له : إلى متى تحيرنا ولا تصرح لنا عن الطريق ؟ فقال له : هو الإحسان ،
فقال له : بين لي ، فقال له : كل ما أردت أن يفعله الله تعالى معك فافعله
مع عبده .

وقال له أبو الحسن الخباز^١ : أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء ؟
فقال : إنما حُبس المطر لبخلهم ، فلو تصدقوا لمطرًا ، فقل لأصحابك
الفلاحين : تصدقوا بمثل ما أنفقتم تمطرًا ، فقال له : لا يصدقني أحد ، ولكن
مررتي في خاصة نفسي ، فقال له : تصدق بمثل ما أنفقت ، فقال له : إن الله
تعالى لا يُعَامَلُ بالدين ، ولكن أستسلف ، فاحتال وتصدق بها كما أمره ،
قال : فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحر ، فأيست من المطر ،
ورأيت جميع ما غرست مشرفاً على الهلاك ، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت
البحيرة حتى رويت ، وظننت أن الدنيا كلها مطرت ، فخرجت فإذا المطر لم
يتجاوزها ، انتهى .

والحكايات عنه في مثل هذا كثيرة .

وقال ابن الخطيب القسطيني في رحلته^٢ : حضرت عند الحاج الصالح
الورع الزاهد أبي العباس أحمد بن عاشر بمدينة سلا ، وقد سأله أحد الفقراء
عن كرامة الأولياء ، فقال له : لا تنقطع بالموت الكرامة ، انظر إلى السبتي ،
يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبي العباس السبتي المدفون بمراكش ، وما ظهر
عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات ، سمعت يهودياً بمراكش
يلهج ببركته وينادي باسمه في أمر أصابه لا مع المسلمين ، فسألته عن سببه ،

١ نيل الابتهاج : الجنان .

٢ يعني أنس الفقير ، كما تقدم ، انظره ص : ٨ .

فأخبر أنه وجد بركته في غير موطن ، فسألته عما بدا له في وقت ١ ، فقال لي :
 وحتى ما أنزل على موسى بن عمران ما أذكر لك إلا ما اتفق لي ، سررت ليلة
 مع قافلة في مفازة ، فمرجت دابتي ، فما شككت في قتلي وسلب مالي ، فجلست
 وبكيت ، وبينني وبين الناس بعد ، وقلت : يا سيدي أبا العباس ، خاطرك ،
 قال لي : والله ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به ، وضربت
 دابتي ، وخف عرجها ، ثم زال ، واتصلت بالناس ، فقلت له : لم لم تسلم ؟
 فقال : حتى يريد الله تعالى ، وعجبت من كون ذلك من يهودي ، وهذه شهادة من
 عدو في الدين . ولقد وقفت على قبره مرات ، وسألت الله تعالى في أشياء يستر
 لي فيها سؤلي : منها أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصف به ، وأن ييسر عليّ
 فهم كتب عينتها ، فيسر الله تعالى عليّ ذلك في أقرب مدة . وكان السبتي آية
 في أحواله ، ما أدرك صحبته إلا الخواص من الناس ، وكان أصل مذهبه الخوض
 على الصدقة ، وكان أمره عجبا في إجابة الدعاء بتزول المطر ، واختصاصه بمكان
 دون آخر ، وقال لأصحابه : أنا القطب ، وكان تفرقه على أبي عبد الله الفخار ،
 ووقفت على قبره ، وله بركات وأنوار . وكان السبتي آية في المناظرة ، وأوذني
 باللسان كثيرا جدا فصيح وتجاوز .

ورأى ٢ عبد الرحمن بن يوسف الحسيني النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ،
 فقال له : يا رسول الله ، ما تقول في السبتي ؟ قال : وكنت سييء الاعتقاد فيه ،
 فقال لي بعد أن تبسم : هو من السبّاق ، قال : فقلت بين لي يا رسول الله ،
 فقال : هو ممن يمر على الصراط كالبرق ، قال : فخرجت بعد الصبح ،
 فلقيني أبو العباس ، فقال لي : ما رأيت وما سمعت ؟ والله لا تركتك ٣ حتى

١ أنس الفقير : عما رأى له في أقرب وقت .

٢ ما يزال النقل مستمرا عن أنس الفقير .

٣ ق : لا أتركك .

تعرفني ، فعرفته ، فصاح : كلمة الصفا من المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ انتهى ببعض اختصار .

وقال ابن الزيات : وحدثني أبو العباس الصنهاجي وغيره أن رجلاً يُعرف بابن الشكاز^١ ، وكان غنياً فدار عليه الزمان وافتقر ، حدث أنه وصل لأبي العباس السبتي وعليه ثوب خلق^٢ تظهر منه عورته ، فشكا إليه حالته ، فأخذ ييده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت ، فجاء إلى مطهرة هناك ، قال : فدخل أبو العباس المطهرة وتجرّد من أثوابه وناداني ، وقال لي : خذ هذه الثياب ، فأخذتها ، وكان بعد العصر ، فأردت أن أرى ما يكون من أمره ، فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب ، فإذا بفتى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب ، فلما رأيته نزلت إليه ، فقال لي : أين الفقيه أبو العباس ؟ قلت : ها هو في الساقية عريان ، فقال لي : أمسك الدابة ، فسمعت الفقيه يقول له : أين تلك الثياب ؟ فأخذها منه وخرج ، فلما رأني قال لي : وما لك هنا ؟ قلت : يا سيدي خفت عليك ، فلم أقدر على الانصراف وأتركك ، فقال لي : أفترى الذي فعلت ما فعلت له يتركني ؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه ، فذكر له أن إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب ، وقالت له : لا تدفعها إلا للفقيه ، ولا يلبسها إلا هو ، وهذه قصة صحيحة مشهورة .

وقال ابن الخطيب : وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراکش غير حافلة البناء ، ربما يتبرع متبرع باحتفالها فلا تساعده الأقدار ، وزرتها ، وربما شاهدت في داخلها أشياء من أهل التعفف والتصوّف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمت الله تعالى عليها لكثرة زائريها ، فيقتحم^٢ ذو الحاجة بابها خالماً نعله مستحضراً نيته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته ، ويعين بين يدي النجوى صدقة

١ نيل الابتهاج : السكان ؛ ق : السكاك ، والتصويب عن الأعلام .

٢ ق : فيقحم ؛ نيل الابتهاج : فيلج .

على قبره ، ويدسها في أواني في القبر معدة لذلك ، ومن عجز عن التقدين تصدق بالطعام ونحوه ، فإذا خف الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرقه على المحاويج الحاقين بالروضة ، ويحصون كل عشية ، ويعمهم الرزق المودع فيها ، وإن قصر عنهم كملوه في غده .

قال ابن الخطيب لسان الدين : وترافع خدام الروضة لقاضي البلد ، وتخاصموا في أمر ذلك الرزق المودع هناك ، فسألهم القاضي عن خَرَجِه اليوم ، فقالوا : يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهباً عيناً ، وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها ، فروضة هذا الولي ديوان الله تعالى في المغرب لا يحصى دَخَلُه ولا تحصر جبايته ، فالتبر يسيل ، واللجين يفيض ، وذو الحاجة كالطير تغدو خِماصاً وترجع بطاناً ؛ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قال : وأنا ممن جرب المنقول عن القبر ، فاطرَدَ القياس ، وتزيفت الشبهة ، وتعرفت من بدء زيارته ما تحققت من بركته ، وشهد على برهان دعوته ؛ انتهى . وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلي في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»^١ : كان أبو العباس جميل الصورة ، أبيض اللون ، حسن الثياب ، فصيح اللسان ، مقتدراً على الكلام ، حليماً صبوراً ، يُحَسِّن إلى من يؤذيه ، ويحلم على من يسفه عليه ، رحيماً عطوفاً محسناً إلى اليتامى والأرامل ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق ، ويحض على الصدقة ، ويذكر في فضلها آيات وأحاديث ، ويأخذها ويفرقها على المساكين ، ويرد أصول الشرع إلى الصدقة ، ويفسرها بها ، ويقول : معنى قول المصلي «الله أكبر» أي : من أن نفضن عليه بشيء ، فمن رأى شيئاً من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يُحَرِّم ولا كَبَّر ، ومعنى رفع اليدين للتكبير : تخلّيت من كل شيء لا قليلاً ولا كثيراً ،

١ انظر الأعلام ١ : ٢٤١ .

وهكذا يتكلم بنحو هذا في جميع العبادات ، ويقول : سِرُّ الصوم أن تجوع ،
فإذا جعت تذكرت الجائع ، وما يقاسيه من نار الجوع ، فتصدق عليه ، فمن صام
ولم يعطف على الجائع فكأنه لم يصم ، إلى غير ذلك من كلامه في مثل هذا .
وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة ، ويقول له : تصدق ، ويتفق لك ما
تريده ، وأخباره في ذلك كثيرة عجيبة .

قال التادلي : وحدثني ولدهُ الفقيهُ أبو عبد الله عن أبيه أنه قال : كان
ابتداءً أمرى وأنا صغير أنني سمعت كلام الناس في التوكل ، ففكرت في حقيقته^١
فرايت أنه لا يصح إلا بترك شيء ، ولم يكن عندي منه [بد] ، فتركت الأسباب ،
واطرحت العلائق ، ولم تتعلق نفسي بمخلوق ، فخرجت سائحاً متوكلاً ،
وسرت نهاري كله ، فأجهدتني الجوع والتعب ، وقد نشأت في رفاهية [من
العيش]^٢ ، وما مشيت قط على قدمي ، فبلغت قرية فيها مسجد ، فتوضأت
ودخلت المسجد فصليت المغرب ثم العشاء ، وخرج الناس ، فقممت لأصلي ، فلم
أقدر من شدة الجوع والتألم بالمشي ، فصليت ركعتين ، وجلست أقرأ القرآن
إلى أن مضى جزء من الليل ، فإذا قارع يقرع الباب بعنف ، فاستجاب له صاحب
الدار ، فقال له : هل رأيت بقرتي ؟ فقال : لا ، فقال : إنها ضلت وقد أكثر
عجلها من الحنين فطلبتها فلم نجدها في القرية ، فقال أحدهم : لعلها [دخلت]
في المسجد وقت العتمة ، ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدوني ، فقال صاحب
البقرة : ما أظنك أكلت الليلة شيئاً ، فذهب وجاءني بكسرة خبز وقده لبن ،
ثم ذهب ليأتيني بالماء فوجد بقرته في داخل الدار ، فخرج لجيرانه وقال لهم :
ما زالت البقرة من الدار ، وما كان خروجي إلا لهذا الفتى الجائع في المسجد ،
ثم رغبتني أن أمشي معه لمتزله ، فأبيت .

١ ق : دقيقه ، والتصويب عن الاعلام .

٢ سقطت من ق .

وكان في أول أمره يسكن في الفندق^١ ويعلم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك ، وينفقها على طلبة العلم الغرباء ، ويمشي في الأسواق ، ويذكر الناس ، ويضربهم على ترك الصلاة ، ويأتي بالطعام على رأسه .

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة ، فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق فقام إليهم القيسم بخدمته ، فقالوا له : ما تعلمون أن من رفع صوته بالليل يُقتل ؟ ثم قعد اثنان من الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للوالي^٢ ، فجاء القيسم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم ، وأيقننا بالهلاك ، فأخذ أبو العباس في الضحك ولا يبالي ، ثم خلا بنفسه عند السحر ساعة ثم قال لنا : لا خوف عليكم ، قد استوهبتكم من الله تعالى ، وهذان الحرسيان الواقفان غداً يُقتلان إن شاء الله تعالى ، فقيل له : الجزاء عندك على الأفعال من الخير والشر ، وهما لم يفعلوا ما يوجب قتلها ، بل جزاؤهما يُروّعان كما روّعانا ، فقال : العلماء ورثة الأنبياء ، وترويعكم عظيم لا يقابله منهم إلا القتل ، فما زلنا نعارضه في ذلك حتى قال : عقوبتهما أن يُضرب كل واحد منهما مائة سوط ، ثم اجتاز عبد الله الحرّاز صاحب الوقت بالجامع الأعظم ، فوجد حانوته^٣ مفتوحاً ، ورأى الحرسيين على قرب ، فلم يشكّ أنّهما حلاّه^٤ ، فحملاً إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر ، فقال لنا أبو العباس : احضروا على ضربهما كما أرادا قتلكم ، فتبعناهما ، وحضرنا حتى ضرب كل واحد مائة سوط .

وكراماته ومناقبه كثيرة لا تحصى .

وكان يقول^٥ : أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان ، وأصل الشرّ فيهما البخل ، قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ﴾ (الليل : هـ) وقال عن إبليس ﴿ ثُمَّ

١ زاد التادلي في الأصل : الفندق الذي بأجدير ، المعروف بفندق مقبل .

٢ الاعلام : لتقتل .

٣ ق : تابوته .

٤ حلاه : فتحاه ؛ وفي الاعلام : فتحاها .

٥ انظر الاعلام : ٢٥٨ .

لَا تَسِينَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴿ (الأعراف: ١٧) وقال ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴿ (التوبة: ٧٥) وقال ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿ (الحشر: ٩) وقال ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿ (القلم: ١٧) وقال ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿ (آل عمران: ١٣٣) وقال ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴿ (البقرة: ١٧٧) وقال ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - الْآيَةَ ﴿ (الأحزاب: ٧٢) فهذه الأمانة هي الرزق ، فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر ، والأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال ، والجبال ما فيها كذلك ، وأنبتت الأرض وأبت إمساكها ، فحزن الإنسان جميعها عنده ومنع المساكين إنه كان ظلوماً جهولاً ، وفي الحديث « هم الأقلون ورب الكعبة ، إلا من قال هكذا وهكذا - الحديث » ولما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه دعا عليهم موسى بالبخل ، فقال ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ - إِلَى قَوْلِهِ : دَعْوَتَكُمَا ﴿ (يونس: ٨٨، ٨٩) وكان رضي الله عنه في آخر عمره كثيراً ما يقرأ هذه الآية ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى - إِلَى قَوْلِهِ : سَوْفَ يَرَى ﴿ (النجم: ٢٣) وكان يقول : من قال إن الله تعالى لا يجازي على الصدقات فقد وافق اليهود في الفرية على الله تعالى لأنهم قالوا ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ ، غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴿ (المائدة: ٦٤) أي لا يجازي على الصدقات ، قال الله تعالى ﴿ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ - إِلَى آخِرِهِ ﴿ أي يجازي على العطاء كيف شاء . وكان يقول في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ - الْآيَةَ ﴿ (التوبة: ٣٤) إنما كُوِّبَتْ هذه المواضع لأن الغني يُعرض عن المسكين بوجهه ، ثمَّ يَجْنِبُهُ ، ثمَّ يَظْهَرُهُ ، فعوقبت هذه المواضع بالكبي بالنار لإعراضه عن الفقير ، ومنازعه رحمه الله تعالى في أمثال هذا كثيرة ؛ انتهى ملخصاً .

وحدث أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يعمر^١ أنه دخل صحبة الشيخ سيدي أبي العباس السني إلى الأمير السيد أبي سعيد عثمان يعود ، فقال له : ادعُ الله

١ أورده في الأعلام : ٣١٠ نقلا عن النفع .

تعالى لي أيها الشيخ ، فقال له : ارجع إلى الله تعالى حق الرجوع بحيث تتحقق
أنه المُمرض والمعافي ، واخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس ،
لتكون ممن وُقي شح نفسه ، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء ، ثم التفت
إلى الحاضرين وقال : في المرض فوائد لا ينبغي أن تُجهل : الأولى معرفة قدر
العافية ، الثانية تمحيص بعض الذنوب ، الثالثة توقع الثواب ، الرابعة تنقية
الجسم من فضول الأخلاط ، الخامسة كثرة ذكر الله تعالى والتضرع إليه ، السادسة
حلوث الرقة والشفقة ، السابعة - وهي العظمى - الصدقة والخروج عن رذيلة
البخل ؛ انتهى . وحدث الكاتب أبو القاسم ابن رضوان عن أبي بكر ابن منظور
عن بعض أعيان مراکش أنه توفي وأوصى ابناً له كان من أهل البطالة أن يعمد
إلى ألف دينار من متخلفه ، فيدفعها للشيخ سيدي أبي العباس السبتي ، ففعل ،
وقال للشيخ : إن أبي توفي وأوصاني أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيث
شئت ، فقال له الشيخ : قد قبلتها وصرفتها إليك ، فقال له : يا سيدي ، وما
تأمرني أن أفعل بها ؟ قال : خذها ، قال : فانصرفت من عنده وسؤت ظناً
بقوله ، ثم قلت : وأنا أنفق مثل ذلك على عادي في الوجه الذي يلذ لي ، فلأفعلن
بها ما أفعل بغيرها ، فأخذتها في محفظة ، وخرجت ألتمس الزني ، فإذا امرأة
على دابة و غلام يقودها ، فأشرت إلى الغلام ، فقال لي : نعم ، واتبعني إلى
بستان لي ، فترلت المرأة ، فأدخلتها إلى قبة كانت في البستان ، وأخذ الغلام
الدابة وصار ناحية ، وقال : أغلق الباب ، ففعلت ، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة
تبكي بكاء شديداً حتى طال بكاؤها ، وبكيت لبكائها ، فقلت لها : ما شأنك ؟
فقالت : افعل ما دعوتني لأجله ، ودع عنك هذا ، ونحيسها يزيد ، فقلت لها :
إن المعنى الذي دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء ، بل مع الأيس وانسراح الصدر
وزوال الانقباض ورفع الحجل ، فقالت : نترك البكاء ونرجع للأيس على ما
نحب ويوفى غرضك ، فقلت : لا ، حتى أعلم سبب بكائك ، وألححت عليها ،
فقالت : أتعرف حاجب الملك الذي سجنه ؟ قلت : نعم ، قالت : فأنا ابنته ،

ولم يبق له أحد غيري ، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله ، فما زلت أبيع ما ترك أبي وأنفقه عليه ، حتى لم يبق بيدي شيء ، فلما أعيتني الحيلة فيما أنفقه ألبأت نفسي ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لي أحد وجهاً قط ، فرميت لها بالألف دينار وقلت لها : والله لا قربت منك على هذا الوجه أبداً ، فأنفقي الدنانير على والدك إلى أن تنفد ، وابعثي لي غلامك أعلمه بمنزلي ، ولازمي دارك ، واستمري على صيانتك وإلا فضحتك ، وتريني والله لا أزال أبيع أملاكه وأنفقها على والدك حتى أموت أو يفنى كل ما أملكه ، ثم خرجت ألتمس الغلام وإذا بجماعة يطلبون البنت ، وقالوا : إن الملك رضي عن والدها ، ورد عليه ضياعه وأملاكه ، ووصله بعشرة آلاف دينار ، وقعد يلتمس بنته فلم توجد ، فسقط في يد الغلام الذي كان مع الدابة ، وظن أن الأمر على ما جرى بيني وبين البنت ، فبادرته وقلت له : لا عليك ، فتجاهل في خبرها حتى ينصرفوا ، ودخلت إلى البنت وقلت لها : إن الملك قد رضي عن والدك ، ورد عليه ماله ووصله ، فسيري إلى دارك ، فركبت دابتها وانصرفت ، فدخلت على والدها فقال لها : أين كنت ؟ وما الذي أخرجك عن دارك ؟ وهمم بها ، فقالت له : أخرج عني كل من في الدار ، ففعل ، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره ، ورمت إليه بالألف دينار ، وقالت له : هذا الذي أعطاني لأنفق عليك ، فقال أبوها : هذا والله هو الكبريت الأحمر ، والله لو كان أبوه كفافاً ما أنفت أن أزوجه منه ، فوجه العبد الذي كان معها إلى الشاب ، وقال له : إن سيدي يدعوك ، قال : فخضت أن بوضع عنده الأمر على غير وجهه ، ثم أقدمت إقدام من علم براءة نفسه ، فدخلت عليه ، فقام إليّ وعانقني ، وقد عرف لي مقامي ، وقال : أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قررت بك عيني ، وقال : والله لو كان أبوك كفافاً ما أنفت لبنتي أن أزوجه منها ، فما قام من المجلس حتى وجهه إلى

١ ق : وقد عرفني .

العدول وأشهد على نفسه بأنه زوج ابنته فلانة من هذا الشاب ، ونقدها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التي وصله بها الملك وأجل لها عنه الشطر الثاني ، وأهدى لها من الحلى كذا وكذا ، ومن الثياب كذا وكذا ، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك ، فحصل من إشارة الشيخ السبتي - رضي الله عنه - في تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال ، وظفر بينت حاجب الملك ؛ انتهى .

رجع إلى ابن زمرك رحمه الله تعالى :

قال الشاطبي في « الإشارات والإفادات » ما صورته :
 إفادة : أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك إثر إيبابه إلى وطنه من رحلة العُدوة في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثاً : الفقه في اللغة ، وهو النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه « قرم » و « عام » إذا اشتهى ، لكن لا يستعمل « قرم » إلا مع اللحم ، ولا يستعمل « عام » إلا مع اللبن ، فتقول : عمتُ إلى اللبن ، وكذلك قولهم : أصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، ولا يقال بالعكس ، وهذا كثير . والثانية تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتدال ، فلا يُستدل بالحوشي من اللغات ، ولا المتبدل في ألسن العامة . والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه ؛ إذ المقصود الوصول في بيان المعنى إلى أقصاه ، والإتيان بما يحصله سريعاً ويمكنه في الذهن ، وتحري كل صيغة تمكن المعنى وتعرض السامع على الاستماع ، وأخبرني أن كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمّون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وذكر من شَرَحَ بديعية الحلبي من المغاربة وهو الشيخ النحوي عبيد الثعالبي في شواهد حسن الختام أن منه ختام قصيدة للكاتب البارع أبي عبد الله المعروف

بابن زمرك الأندلسي مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولا من صاحب الأندلس ، وهو قوله :

ولو أنشدت بين العذيب وبارق لقال رواةُ الغرب يا حبذا الشرقُ
ولم يظهر لي كل الظهور دلالة لي على حسن الختام ، ولا بد ، فإله سبحانه أعلم .
وقد أطلنا في ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية
تضمنت مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهي هذه ^١ :

لو ترجعُ الأيامُ بعدَ الذهابِ	لم تقدحِ الأيامُ ^٢ ذكرى حبيبٍ ^٣
وكلُّ من نام بليل الشبابِ	يوقظه الدهرُ بصبح المشيبِ
يا راكبَ العجزِ ألا نهضةٌ	قد ضيقتُ الدهرُ عليك المجالُ
لا تحسبن أن الصبا روضةٌ	تنامُ فيها تحت فيء الظلالُ
فالعيشُ نومٌ والردي يقظةٌ	والمرء ما بينهما كالخيالُ ^٤
والعمرُ قد مرَّ كمرِّ السحابِ	والمُلتقى بالله عمّا قريبُ
وأنت مخدوعٌ بلمعِ السرابِ	تحسبه ماءً ولا تستريبُ
والله ما الكونُ بما قد حوى	إلا ظلالُ توهمُ الغافلا
وعادةُ الظلِّ إذا ما استوى	تبصره مُتتلا زائلا
إنّا إلى الله عبيدُ الهوى	لم نعرفِ الحقَّ ولا الباطلا
فكلُّ من يرجو سوى الله خابُ	وإتما الفوزُ لعبدٍ منيبِ
يستقبل الرجعى بصدقِ المتابِ	ويرقبُ اللهَ الشهيدَ القريبِ

١ أوردنا في أزهار الرياض ٢ : ٢٠٥ .

٢ الأزهار : الأشواق .

٣ ق : ذكر الحبيب .

٤ من قول أبي الحسن التهامي :

فالعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري

يا حسرتا مرَّ الصَّبَا وانقضى
واخجلتنا والرحلُ قد قوَّضَا
وليتني لو كنتُ فيما مضى
قد حان من ركب التصابي إيابُ
يا أكمه القلبِ بغينِ الحجابِ
كمَ ذا أناديك فلا تستجيبُ
ورائدُ الرشِدِ أطالَ المغيبُ
« هل يحملُ الزاد لدار الكريمِ »^١
فجاهه ذخرُ الفقيرِ العديمِ
والله سمّاه الرؤوفَ الرحيمِ
والمصطفى الهادي شفيعُ مطاعُ
وحبه زادي ونعمَ المتاعُ
فجاره المكفولُ ما إن يُضاعُ
عسى شفيعُ الناسِ يومَ الحسابِ
يلحقني منه قَبُولُ مجابِ
يا مصطفى والخلقُ رهنُ العدمِ
مزيةٌ أعطيتها في القِدمِ
مولدك المرقومُ لما نجمِ
ناديتُ لو يُسمع لي بالجوابِ
أطلعتُ للهدى بغير احتجابِ
شهرَ ربيعٍ يا ربيعَ القلوبِ
شمساً ولكن ما لها من غروبِ

٢ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى ، الطبيب العالم ابن المهنا شارح
ألفية ابن سينا^٢ ، وشرحه عليها من أبداع الشروح ، وقد نقل عن لسان الدين

١ من قول الشاعر :

هلا احتقبت الزاد قلت اكفني هل يحمل الزاد لدار الكريم

٢ يعني أرجوزة ابن سينا في الطب ، وأولها بعد التحميدات :

الطب حفظ صحة برء مرض من سبب في بدن منذ عرض

(انظر قنواي : مؤلفات ابن سينا : ١٧٢ وما بعدها) .

كثيراً ، واعتمد عليه في أمور الطب ، وقد طال عهدي به الآن ، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ، ولم أره بهذه الديار الشرقية .

٣ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر ابن جُزَيِّ الكَلْبِي ، وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزِي شيخ لسان الدين ، وبيت بني جزِي بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس ، وقد عرفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناظمين الناثرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور ، فليراجع في الباب الثالث ١ .

ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - جميع تواليفه مع أنه مقاربه في السن ، ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معلوم ، وقد عرف به لسان الدين في « الإحاطة » والذي فهمت من عبارته في الإحاطة أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالباً إلا على تلامذته ، وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه ، رحمه الله تعالى ؛ وأنتم تاريخ أهل المغرب والأندلس ، رحم الله تعالى الجميع .

٤ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله الشريشي ، وهو الذي تولى أولاً نقل « الإحاطة » من مبيضتها ، كما سبقت الإشارة إليه في كلام حفيد السلطان ابن الأحمر ، وأحكم النسخة ، فكانت في مجلدات ستة ، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتماداً منه عليه ، وثقة به ، لاشتغال لسان الدين بأمر المملكة .

٥ - ومن تلامذة لسان الدين : القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي .

١ انظر ترجمته في ما تقدم ٥ : ٥١٧ .

قال في « الإحاطة » : صاحبنا الفقيه الخطيب ، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد ، نسيج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة ، مقصود المنزل ، نبيه الصهر ، معم محول في الأصالة ، بارع الخط ، جيد القريحة ، سيال المداد ، نشيط البنان ، جتكد على العمل ، خطيب ناظم نائر ، قرأ بغرناطة ، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء ستين ببلده في حداثة السن ، ثم انتقل إلى غرناطة فجأت به الكتابة السلطانية داخضة بالحق ، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة يبطل كفاية ، فاستقل رئيساً في غرض إعانتني وانتشالي من هفوة الكلفة على جلال الضعف وإلمام المرض . ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة ، وإزعاجها من الأندلس عن سؤة لا تُورَى ، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى ، فسبحان من علّم النفس فجورها وتقواها ، إذ لصق بالدائل الفاسق^١ فكان آلة انتقامه ، وجارحة صيده ، وأجولة كيده ، فسفك الدماء ، وهتك الأستار ، ومزق الأسباب ، وبدل الأرض غير الأرض ، وهو يزقه في أذنه زقوم النصيحة ، وينحله لقب الهداية ، ويبلغ في شدّ أزره إلى الغاية ، عنوان عقل الفتى اختياره ، يجري في سبيل دعوته طوالاً ، أخرق يسيء السمع فيسيء الإجابة ، بدويّاً قحاً جمهوريّاً ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة ، طرفاً في سوء العهد وقلّة الوفاء ، مردوداً في الحافرة ، منسلخاً من آية السعادة ، تشهد عليه بالجهل يده^٢ ، ويقيم عليه الحجج شره^٢ ، وتبوءه هفوات الندم جهالته ، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه ، وتبرأ منه ، ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطاً ، وهو الآن بحال خزري ، واحتقاب تبعات ، واستدعيت شيئاً من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به ، فكتب إليّ ما نصّه :

يا سيّداً فاق في مجدٍ وفي شرفٍ وفات سبّقاً بفضل الذات والسلفِ

١ يعني السلطان النعزي الذي هرب منه لسان الدين إلى المغرب .

٢ ق : شره .

وفاضلاً عَنْ سَبِيلِ الدَّمِ مَنْحَرَفاً
 وَتُحْفَةَ الزَّمَنِ الْآتِي بِهِ فَلَقَدْ
 وَمَعْدِنَا لِنَقِيسِ الدَّرَّ فَهَوَ لَمَّا
 وَبَحَرَ عِلْمَ جَمِيعِ النَّاسِ مَعْرِفُ
 وَسَابِقاً بَدَأَ أَهْلَ الْعَصْرِ قَاطِبَةً
 مَنْ ذَا يَخَالِفُ فِي نَارِ عَلَى عِلْمِ
 مَا أَنْتَ إِلَّا وَحِيدُ الْعَصْرِ فِي شَيْمِ
 اللَّهُ مِنْ مُنْتَمٍ لِلْمَجْدِ مَتَسِبِ
 اللَّهُ مِنْ حَسْبِ عِدِّ وَمَنْ كَرَمِ
 إِلَيْهِ أَيَا مِنْ بِهِ تَبَاىَ الْوِزَارَةُ إِذْ
 يَا صَاحِبَ الْقَلَمِ الْأَعْلَى الَّذِي جُمِعَتْ
 يَا مَنْ يَقْصُرُ وَصْفِي فِي عِلَاهِ وَمَنْ
 شَرَّفَنِي عِنْدَمَا اسْتَدْعَيْتَ مِنْ نَظْمِي
 وَرَبَّمَا رَاقَ ثَغْرُ فِي تَبَسُّمِهِ
 أَجِلٌ قَدْرَكَ أَنْ تَرْضَى لِمَتَجَعِ
 هَذَا ، وَلَوْ أَنْتِي فِيمَا أَتَيْتُ بِهِ
 لَكُنْتُ أَفْضَى إِلَى التَّقْصِيرِ مِنْ خَجَلِ
 فَحَسْبِي الْعَجْزُ عَمَّا قَدْ أَشْرَتْ بِهِ
 لَكِنْ أَجِبْتُ إِلَى الْمَطْلُوبِ مُمْتَلِئاً
 فَانظُرْ إِلَيْهَا بَعِينِ الصَّفْحِ عَنْ زَلْلِ
 بَقِيَتْ لِلدَّهْرِ تَطْوِيهِ وَتَنْشُرِهِ

ثم ذكر نراً ، وأن مولده بوادي آتش آخر عام تسعة وسبعمائة ، وتولى
 الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ثم ولي القضاء بها وأعمالها عام

ثلاثة وأربعين وسبعمائة ، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستة وخمسين
وسبعمائة ، ومن شعره قوله :

ألا أيها الليلُ البطيءُ الكواكبِ
وحتى متى أرى النجومَ مراقباً
أحدثُ نفسي أن أرى الركبَ سائراً
فلا فُزْتُ من نيل الأمانِ بطائلِ
فكم حدثتني النفسُ أن أبلغ المني
وما قصرتُ بي عن زيارةِ قبره
ولا حُبُّ أوطانِ نبتِ بي ربوعها
ولكنْ ذنوبُ أقتلني فيها أنا
إليك رسولَ الله شوقي مجدداً
فأعملتُ في تلك الأباطحِ والرُبى
وقضيتُ من لثم البقيعِ لُباني
ورويتُ من ماء بززمِ غلتي
حبيبي شفيعي منتهى غايي التي
محمدُ المختارُ والحاشرُ الذي
رؤوفٌ رحيمٌ خصنا الله باسمه
رسولٌ كريمٌ رفَعَ اللهُ قدره
وشرفه أصلاً وفرعاً ومحتداً
سراجُ الهدى ذو الجاهِ والمجدِ والعلا
هو المصطفى المختارُ من آلِ هاشمِ

١ كأنه نسخ فيه قول ابن خفاجة (ديوانه : ٢١٧) :
وحتى متى أرى الكواكبِ سائراً - فمن طالع أخرى الليالي وغارب

هو الأمدُ الأقصى هو الملجأ الذي
إمامُ النبيين الكرام ، وإتتهُ
بشيرٌ نذيرٌ مُفضِّلٌ مُتَطوِّلٌ
شريفٌ منيفٌ باهرُ الفضلِ كاملٌ
عظيمُ المزايا ما له من مُماثلٍ
ملاذٌ منيعٌ ملجأُ عاصمٌ لمن
جليلٌ جميلٌ الخلقِ والخلقِ ما له
وناهيك من فرعِ نمتته أصوله
أولي الحسبِ العدُّ الرفيعِ جنابه
لهُ معجزاتٌ ما لها من معارضٍ
تحدّى بهن الخلقَ شرقاً ومغرباً
فدونكها كالأنجمِ الشهبِ عدةٌ
وإحصاؤها مهما تتبعت معوزٌ
لقد شرفَ الله الوجودَ بمُرسلٍ
وشرفَ شهراً فيه مولده الذي
فشهرُ ربيعٍ في الشهورِ مقدّمٌ
فله منه ليلةٌ قد تَلَأَتْ
ليهن أميرَ المسلمين بها المنى
على حين أحيائها بذكرِ حبيبه
وَأَتَفَ شملاً للمُحِبِّينَ فيهمُ

ينالُ بهِ مرغوبتهُ كلُّ راغبٍ
لكالبدرِ فيهم بين تلك الموابك
سراجٌ منيرٌ بدتْ نور الكواكبِ
نفيسُ المعالي والحلى والمتاقبِ
كريمُ السجايا ما له من مناسبِ
يلوذُ به من بين آتٍ وذهبِ
نظيرٌ ، ووصفُ الله حجةَ غالبِ
إلى خيرِ مجدٍ من لؤي بن غالبِ
بدور الدياجي أو صدور الكتابِ
وآياتُ صدقٍ ما لها من مغالبِ
وما ذاك عمّن حاد عنها بغائبِ
ونور سناً لا يخفني للمراقبِ
وهل بعد نورِ الشمسِ نورٌ لطالبِ
لهُ في مقامِ الرُّسلِ أعلى المراتبِ
جلا نورهُ الأسنى دياجي الغياهِبِ
فلا غرو أن الفخرَ ضربةٌ لازبِ
بنور شهابِ بينِ الأفقِ شهابِ
وأن نال من مولاة أسنى الرغائبِ
وذكرِ الكرامِ الطاهرينِ الأطايِبِ
فسار على نهجٍ من الرشدِ لاحِبِ

١ ق: الكواكب .

فسوف يُجازَى عن كريمِ صنيعهُ
وسوف يُرَبِّيه الله في نصر دينه
فيحمي حمى الإسلامِ عمّن يرؤمه
ويعترّ دينُ الله شرقاً ومغرباً
إلهي ما لي بعد رحماك مطلبٌ
سوى زورةِ القبرِ الشريفِ وإنه
عليه سلام الله ما لاح كوكبٌ
وما رافق الأطفانَ حادي الركائبِ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر
والكتابة وغير هذا الشعر قران ، فقلّ أن ينتهي هذا الشعر في الضعة والاسترذال
إلى ما دون هذا النمط ، فهو بغير ثان شعراً وشكلاً وبلداً ، لطف الله تعالى بنا
وبه ؛ انتهى باختصار .

٦ - ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتبُ أحمد بن
سليمان بن فركون^١ ، ومن نظمه على لسان من^٢ يرمى بالداء العُضال في فرَج^٢
عبد ابن زمّرك الوزير بعد ابن الخطيب :

قالوا كلفت به غلاماً حالكأ فأجبتهم في فيه ما يرضي المهج
مهما جنت بحسنه وبجبه علفت فوقه منه حرزاً من سبج

١ ترجم له في الإحاطة ١ : ٢٢٨ وأثنى عليه بأنه شعلة من شعل الذكاء والإدراك ومجموع خلال حميدة
وأه طالب نبيل مدرّك نجيب بذأقرانه . . . ثم عاد فترجم له في الكتيبة الكامنة : ٣٠٥ وأنحى عليه
بالذم الشديد : « جرو محقور وفي جلدة كلب عقور . . . وسفيه يقال عند ذكره : كفاك الله
شر من أحسنت إليه » وما ذلك إلا لأن ابن فركون كان من الزمرة التي تثيرت على لسان الدين .
٢ قال لسان الدين في الكتيبة الكامنة في ترجمة ابن زمرك : « وبينه وبين معاصره مداعبات في غلام
له غريب (لملها : غريب) جعله مرعى غزل ونسيب . . . وجمجمت الأقوال في هذا الميدان ،
فجمت بين الندس والهدان ، والقاصي والدان . . . إلخ » .

ورأيت بخط الوادي آشي ما صورته : وجدت بخط لسان الدين ، وخاتمة
أعلام البيان المجيد ، ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب رحمه الله تعالى في
طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون ، المختص به ، المتأدب بما انفرد
به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه : يسقط هذا الساقط من الديوان ؛
انتهى .

ولعلّ لسان الدين إنما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يُتّهم به من معنى بيته
السابقين ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك^١ ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

١ قلت هذا الترجيح من المقرري يؤكد أنه لم يطلع على الكتيبة الكامنة ، ولا عرف سبب التغير في نفس
لسان الدين على أحد تلامذته .

الباب الثامن

في ذكر أولاده

الرافلين في حُلل الجلالة ، المقفين أوصافه الجميدة وخِلاله ، الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلاله ، ووصيته لهم الجامعة لأداب الدين والدنيا ، المشتمة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلائسنا ، المتقدة من أنواع الضلالة ، وما يقع في ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التي لها على حسن الختام أظهر دلالة

اعلم - وفقني الله تعالى وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يعتبر بالدهر في معضاته - أن أولاد لسان الدين ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلي ، وكلهم حدّث عن أبيه وعن ابن الجياب .

أما محمد فقد نال حظه من التصوّف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف ، ولم يحضر في الآن نص من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مظان ذلك ، إذ قد تركتها بالمغرب .

وقد سبق فيما مرّ^١ من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من نُدّماء السلطان وأهل خلوته ، وأن عليّاً كان خالصة السلطان ، رحم الله تعالى الجميع .

وأما عبد الله فقد كتب بالعدوتين ، للملوك الحضرتين ، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبر الدولة ، وأكثر الناس بها كالحواص

١ فيما مر : سقطت من ق .

حوله ، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه ، وقد ألمَّ ببعض التعريف بمبدأ أحواله أبوه لسان الدين في كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » فقال في حقه ما ملخصه^١ : عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني ، حسن الشكل ، جيد الفهم ، يُخطي منه رمادُ السكون جمرةَ حركة ، منقبض عن الناس قليل البشاشة ، حسن الخط ، وسَطَ النظم ، كتب عن الأمراء بالمغرب ، وأنشدتهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات^٢ والإحسان ، واختال في خيلهم ، ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة ، قرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني ، والخطيب أبي سعيد فرج بن لب التغلبي ، واستظهر بعض المبادئ في العربية ، واستجيز^٣ له من أدركه ميلادُهُ من أهل المشرق والمغرب . وشعره مترفع عن الوسط إلى الإجابة ، بكلِّه عنذر الحدائث ، فمنه قوله في مولد أربعة وستين وسبعمائة :

بحقِّ الهوى يا حُدَاةَ الحمولِ	قَفُوها قَلِيلًا بتلكَ الطلولِ
معاهدُ مَرَّتْ عليها السحابُ	بيرقِ خَفُوقِ ودمعِ هَمولِ
أحنُّ إليها حينَ العِشارِ	وأبكي عليها بشجوِ طويلِ
فيا سعدُ عَرَّجْ عليها الركابَ	ففيها لِقَتَني شفاءُ الغليلِ
سقاها من المزنِ صوبُ الغمامِ	وحينما بعَرَفِ النسيمِ العليلِ
ولا زالَ فيها يجرُّ الذبولَ	فيحيي النفوسَ بجرِّ الذبولِ
لئن حُلَّتْ يارَبِّعُ عَن عهدنا	فعهدُ الهوى ليسَ بالمستحيلِ
ومما شجاني وميضُ خَفُوقِ	كقَتَني غداةَ النوى والرحيلِ
وميضُ إذا سلَّه المزنُ وهنا	بضيءِ سناه كعَضْبِ صقيلِ

١ انظر الإحاطة ، الورقة : ٢٢٧ .

٢ الإحاطة : بالاقطاع .

٣ الإحاطة : وأجاز .

أطار الفؤادَ فؤادَ المشوقِ
 فبتُّ أطاولُ لَيْلَ التمامِ
 ودمعٍ يساجلُ دمعَ الغمامِ
 فيا ليت شعري وهل من سبيلِ
 وهل 'ا يسمعُ الدهرُ بعدَ العنادِ
 وهل راجعٌ عهدنا بالحمى
 فيا حسنَ مأوى عزاءِ جميلِ
 وفي ذمّةِ الله ركبٌ سرّوا
 نشاوى بكأسين كأسِ الهوى
 يؤمّون بالعميس أمّ القرى
 ديارٌ بها الوحيُ وحيُّ السما
 بها أشرقَ الدينُ كالشمسِ نوراً
 فيا حاديَ العيس يطوي الفلا
 سفائنَ آلِ طواها السرى
 نشدتك بالبانِ بانِ الحمى
 إذا ما حلتَ لدى طيبةِ
 وقبراً ثوى فيه خيرُ الورى
 فأبلغَ نحيبةً صبّ مشوقِ
 وقلْ يا رسولَ الهدى والشفيعِ
 عليك الصلاةُ وطيبُ السلامِ
 نبيِّ كريمٍ رؤوفٍ رحيمٍ
 إمامِ الهدى المجتبي المصطفى

وأغرى السهادَ بطرفِ كليلِ
 بوجودِ جديدٍ وصبرِ مُحيلِ
 وشجوةِ الحمائمِ عندَ الهدبيلِ
 على الوجدِ يوماً بصبرِ جميلِ
 يجبرِ الكسيرِ وعزّ الذليلِ
 على رغمِ دهرٍ ظلومِ جهولِ
 ويا طيبَ مأوى بظلِّ ظليلِ
 يجدون والليلُ مرُخى السدولِ
 وكأسٍ من الأمنِ مثلِ الشمولِ
 وقبرِ النبيِّ الشفيعِ الرسولِ
 تنزلُ ، أكرمُ بهِ من نزولِ
 وأن من الشركِ وقتُ الأقولِ
 بوخذِ القلاصِ ونصِّ الذمّيلِ
 وشقِّ الحزُونِ وقطعِ السهولِ
 وبالموردِ العذبِ والسلسيلِ
 وجثتِ محلّ الرضى والقبولِ
 وبشرى الكليمِ وفخرِ الخليلِ
 عدتّه عوادي الزمانِ الخدولِ
 إذا ضاقَ صدرُ أبٍ عن سليلِ
 يجيئك عندَ الضحى والأصيلِ
 بنصِّ الكتابِ وحكمِ العقولِ
 بأزكى شهيدٍ وأهدى دليلِ

به أظهرَ الله دينَ الهدى
 وقامَ بأعباءِ دينِ الإلهِ
 فأكرمَ بَلَيْلَةَ ميلاده
 لكِ اللهُ مِنْ لَيْلَةٍ فَضَّلَهَا
 وأبَدَ بالنصرِ مولَى أقامَ
 أعادَ بها الليلَ مثلَ النهارِ
 وأبَدَى الرضى نحوها والقَبُولِ
 سميَ النبيَ الكَرِيمِ الرسولِ
 محمدُ المُرْتَجَى المستجارُ
 من النفرِ الغُرِّ أسدِ الكفاحِ
 تراهم لدى السلمِ أطوادَ حِلْمِ
 مِيدِ العداةِ ، ومحبي العفاةِ
 فبأسٌ حكي النارَ عندَ احتدامِ
 فيصلي عداه لدى الحربِ ناراً
 إذا فُلَّتِ البيضُ يومَ الوغى
 ملكٌ كَفِيلٌ لَمَنْ يَرْتَجِيهِ
 وفرعٌ كَرِيمٌ حَمِيدُ الخلالِ
 فدامَ لنا ما سرى في الرياضِ
 وحنَّ مشوقٌ لأرضِ الحجازِ
 وعلمَ كيفِ سواءِ السبيلِ
 أتمَّ القيامَ بفعلِ وقيلِ
 على كلِّ وقتٍ وعصرٍ وجيلِ
 يجرُّ على النجمِ فضلَ الذبولِ
 مواسمها فعلَ بَرٍّ وَصُولِ
 بوجهِ كَرِيمِ وفعلِ جميلِ
 وأكرمَ بهِ مِنْ حَقِّي كَفِيلِ
 وسيفِ الإلهِ العليِّ الجليلِ
 مِيدُ العدا ومِنيلُ الجزيلِ
 وأهلِ السماحِ عَشِيَّ التزولِ
 ويومَ الكريمةِ آسادَ غِيلِ
 ومأوى الغريبِ ومُدني الدخيلِ
 وجودٌ حكي السُحْبِ عندَ الهولِ
 ويروي نداءه زمانَ المَحُولِ
 فَلَسْتُ ترى عزمه ذا فُلُولِ
 بكلِّ مَرَامٍ بَعِيدِ وسولِ
 نماه إلى المجدِ طيبُ الأصولِ
 نسيمُ الصبَا ومهبُ القَبُولِ
 إذا لاحَ لِيَمَاضٍ بَرَقِ كَكِيلِ

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نصر من مدينة فاس¹:

لمن طللٌ بالرقمتين مُحِيلٌ
 عَفَّتْ دمتيه شمالٌ وَقَبُولٌ

¹ أورد بعضها في نسخة الإحاطة المشار إليها .

يلوحُ كباقي الوشمِ غَيْرَهُ البلي
 فيا سعدُ مهلاً بالركابِ لعلنا
 قف العيسَ ننظرَ نظرةً تُذهبُ الأسي
 وعرجُ على الوادي المقدسِ بالحمى
 فيا حبذا تلكَ الديارُ وحبذا
 دعوتُ لها سقي الحمى بعدما سرى
 وأرسلتُ دمعي للغمامِ مساجلاً
 فأصبحَ ذاكَ الرَّبِيعُ من بعدِ محلّه
 لئن حالَ رسمُ الدارِ عما عهدته
 ومما شجاني بعدما سكنَ الهوى
 توسدُنَ فرعَ البانِ ، والنجمُ مائلُ
 فيا صاحبي دعُ عنكَ لومي فإنه
 تقول : اصطباراً عن معاهدك الألى
 فله عَيْنَا من رآني وللأسي
 يطاولُ ليلَ التَمِّ مني مُسَهَّدُ
 فياليتَ شعري هل يعودنَ ما مضى
 وهل راجعُ عهد الحمى سقي الحمى
 وأيامُ أنسٍ كم نعمنا بقربها
 حلفتُ بربِّ الراقصاتِ إلى منى
 لَجُودُ أميرِ المسلمين محمدِ
 مليكُ أتاهُ اللهُ في الملكِ عَزْمَةٌ
 هو الملكُ النصورُ والبطلُ الذي

وجادتُ عليه السَّحْبُ وهي همولُ
 نسائلُ ربَّعاً فالمحبُّ سؤولُ
 ويشفى بها بينَ الضلوعِ غليلُ
 فطابَ لديه مَرَبِيعٌ ومَقِيلُ
 حديثُ بها للعاشقين طویلُ
 وميضُ وعَرَفُ للنسيمِ عليلُ
 فسألَ على الخدين منه مَسِيلُ
 رياضاً بها الفصنُ المروحُ يميلُ
 فعهدُ الهوى في القلبِ ليسَ يحولُ
 بُكاءُ حماماتٍ لهنَّ هديلُ
 وقد آن من جيشِ الظلامِ رحيلُ
 كلامُ على سمعِ المحبِّ ثَقِيلُ
 وهيهاتَ صبري ما إليه سَبِيلُ
 غداةَ استقلتُ بالخليطِ حمولُ
 وقد بانَ عني منزلُ وخليلُ
 وهل يسمحنَ الدهرُ وهو بخيلُ
 وظلَّ بعينِ الدمعِ فيه ظليلُ
 وقد غابَ عنا حاسدُ وعدولُ
 لهنَّ إلى البيتِ العتيقِ ذَمِيلُ
 بكلِّ مرَامٍ في الزمانِ كَفِيلُ
 يروعُ الأعادي بَأْسُهَا ويهولُ
 يهونُ عليه الخطبُ وهو جليلُ

إذا قُلَّتِ البِيضُ الرقاقُ وجدته
 يقصُرُ باعُ المدحِ دون صفاته
 من النفر البِيضِ الوجوه لدى الوغَى
 همُ ما همُ والحربُ قد شبَّ نارها
 إذا سئلوا يومَ الندى فنوالهم
 بهم عزَّ دينُ الله شرقاً ومغرباً
 همُ السادةُ الأنصارُ والعربُ الألى
 لهم يومُ بدرٍ والرسولُ أميرهم
 فأصبح أصحابُ القليبِ كأنهم
 وقد أمن الإسلامُ كيدَ عدوه
 وعدوا رواحاً للمدينة والرضى
 فمن ذا يماري أو يداني عصابة
 لكم يا بني نصرٍ من المجد هضبة
 فيا سيّدَ الأملاكِ والواحدِ الذي
 لقد قرع الأعداءَ منك مؤيد
 فلم يدركوا ما أملوا غيرَ ساعة
 تعاوّن في باب البنود بسحرة
 أبى الله إلا أن يموتوا بغيظهم
 فأضحوا حديثاً في البلاد ويومهم
 بسعدِ إمامٍ ينزلُ العُصمَ سعدُه
 وفرع كمالٍ في الخلافة ثابت
 حكى وجهه شمسَ النهار إذا بدا
 أعاد لنا بالعدلِ أيتامه التي

أخوا عزماتٍ مسا بينَ فلولُ
 ويرجعُ عنها الفكرُ وهو كليلُ
 لهم غررٌ وضّاحةٌ وحُجولُ
 وللخيلِ في جنحِ العجاجِ سهيلُ
 تفيضُ شأيبٌ لهُ وسيولُ
 وأصبح دينُ الكفرِ وهو ذليلُ
 حصى الدينِ حيٌّ منهمُ وقبيلُ
 تصولُ بهِ أرماحهم وتطولُ
 كتيبٌ لوطءُ المرفهات مهيلُ
 وغودر ربيعُ الكفرِ وهو مُحيلُ
 لهم منه فوزٌ عاجلٌ وقبولُ
 جزاؤهم عند الإلهِ جزيلُ
 تزولُ الرواسي وهي ليس تزولُ
 إذا عدتُ فخرٌ ليسَ عنه عدولُ
 له الذعرُ نصرٌ والحسامُ دليلُ
 كذاك متاعُ الأخرين قليلُ
 كلابٌ عليهم بعد ذلك عويلُ
 فويلُ لهم من مكرهم وأليلُ
 وساء صباحٌ عندهم وأصيلُ
 ويروي نداءه والزمانُ محولُ
 نمتهُ إلى المجدِ الزكيّ أصولُ
 وريّاه عَرَفَ الروض وهو بليلُ
 عهدنا ، فدارتُ للسُرورِ شمولُ

فدام لنا ما هبَّ عَرَفَ من الصِّبَا
 وحنَّ مشوقٌ للحجاز إذا بدت
 وأشرقَ نجمٌ مثلَ قلبي خافق
 ولا زالتِ الأقدارُ تجري بأمره
 وأومض برقٌ في الظلامِ كليلُ
 لعيْنِه منه شامةٌ وطفيلُ
 وحنَّ له عندَ الغروبِ أهولُ
 وصنَعُ إلهِ العرشِ فيه جميلُ

وقال في إعدار ابن السلطان رحمه الله تعالى ورضي عنه :

أثيرها عزمةٌ تُنضي الركابا
 لعلَّ الوجدَ تطفأ منه نارُ
 أما بعد الألى ترجو قلوبُ
 فيا أخوتي كُفًّا عن عتابي
 تذكرتُ العقيقَ فال دمي
 أقول لنسمةٍ مرتٌ صباحاً
 ألا يا هذه كوني رسولي
 نشدتك بكتفي صحي سلامي
 يلومني العواذلُ في اشتياقي
 وكم بين الأباطع من مهارةٍ
 رميتني ثم قالت وهي تُزري
 إذا ما الشهبُ للغرب استمالت
 أوجهُ إن رقدتَ إليك طيفي
 فقلتُ : لقد بجلتِ على مشوقِ
 وكيف له بنومٍ بعد وجدِ
 وإن دमितُ لها العينُ انكبابا
 أبتُ إلا زفيراً والتهابا
 تسارعُ نحو أرضهم انقلابا
 فليستُ بسامعٍ أبداً عتابا
 عقيقاً من تذكره مذابا
 يعطرُ عَرَفُها الففرَ اليابا
 وكوني إن رجعتِ لي الجوابا
 إذا جئتِ المعاهدَ والقبابا
 إذا ما القلبُ من وجدي تصابي
 تروعُ بلحظها الأسدَ الغضابا
 ولم تحذرُ بفتكتها العقابا
 وقودُ الليلِ بالإصباحِ شابا
 كلعق البرقِ يحترقُ السحابا
 أبي إلا غراماً واكتابا
 يذيبُ لهيبه الصمَّ الصلابا

سينصره من الأنصارِ مَلِكٌ
كريمٌ الذاتِ من ملائِكِرامِ
تواضعَ رحمةٍ وَعَلا مَحَلًّا
فليسَ يُصَدِّقُ عن جدواه راجِ
لَهُ عَظْفٌ على الراجي جميلٌ
وعدلٌ^١ أَمِنَ الأَرِجاءَ حَتَّى
أُمولايَ الذي أحيا المَعالي
مَدَدَتِ على البلادِ جناحَ عدلِ
وتابَ الدهرُ مِمَّا قد جَنَاهُ
وسكَنَ عِزُّ دولتكِ الدواهي
ويا لله إِعْذارُ سَعِيدِ
عَجِبْتُ لِمُقَدِّمِ والرُوعُ يَهْفُو
ومن شِبْلِ أَطاعَ أَخا سلاحِ
وهل عِذْرٌ لِعاذرِ لَيْثِ غابِ
فلولا سُنَّةُ حِكْمَتِ وَهَدْيِ
لِحامَتِ عَصْبَةِ الأَنْصارِ عَنهُ
من الصَّيْدِ الذينَ لَهُمُ نَفوسُ
تَنيرُ اللَّيْلَ أوجُهُهُمُ إِذا ما
دَعَوَتْ بِهِ الأَنامُ لِيومِ حَشْرِ
رَأوا من زَحْرِفِ الدُّنيا مَقامًا
وأبْتَهَمَ فَمَا عَاطَوْا حَديثًا

إذا ناداه مظلومٌ أجابا
لقد طابت سجاياهم وطابا
وسهلَ منه للناسِ الحجابا
وليس يَسُدُّ عن عاقبه بابا
يَقُلُّ من الردى ظُفْرًا ونابا
ترى الغزلانَ لا تَحْشى الذئبابا
وقد بليتُ وألحفتِ الترابا
وكفُّ الجورِ تستلبُ استلابا
فجدتَ لَهُ بعفوكَ حينَ تابا
فكانتَ رحمةً دَفَعَتْ عذابا
دَعوتِ السعدِ فيه فاستجابا
بأفئدةِ الكُماةِ وما استرابا
وحكَمه اصطباراً واحتسابا
أظنَّ فؤاده والعقلَ غابا
أصبتَ وقد سلكتَ به الصوابا
بأسيافٍ تقدُّ بها الرقابا
لغيرِ الفخرِ لا تصلُ الطَّلابا
أرادوا السيرَ أو حشَّوا الركابا
ولمَ تَذخِرْ لَهُمُ إِلا الثوابا
يذكُرُ بالحنانِ لَمَنَ أَنابا
ولا عرفوا السؤالَ ولا الجوابا

ولو مكثوا به دهرًا طويلًا
 وطاردت الصَّوَارَ بكلِّ ضارٍ
 ضربت به على الآذانِ منها
 ومعصوب الجبين بتاج رَوْقٍ
 تعرف أن تحت الأرض ثوراً
 وكنت به هضيم الكشح أجتى
 تباعد جمع الشدقين منه
 فأثبته كوحى الطرف حتى
 وصاح به الصَّوَارِ وقد رآه
 « ففض الطرف إنك من نمر
 وأرسلت الجياد إلى استباق
 فمن وَّرد أقب ومن كُمت
 وساقية العماد إذا أطلت
 تحوم بها العصي فَرَّاشَ ليلٍ
 تحفُّ بها خيولُ القومِ متاً
 عجائب أبدعت عليك فيها
 محمد لا علمت الدهرَ حمداً
 وزكى نفسك الرحمنُ لما
 تداركت البلادَ ومن عليها
 لقد أوليتنا بيض الأيادي
 روت عنك العوالي في المعالي
 سفتح من بلادِ الشرك أرضاً

لما ذكروا الطعامَ ولا الشرابا
 كما أتبت عفريتاً شهابا
 فلم تسطع حراكاً واضطرابا
 يروعُ خواره الأسد الغضابا
 فرام بأن يشق له الترابا
 حديد الثاب تحسبها حرابا
 وسال الموت بينهما لعابا
 توثق منه جازره غلابا
 حيس الكلب قد منع الإيابا
 فلا كعباً بلغت ولا كلابا^١
 كأن بوارقاً شقت سحابا
 وأشهب يلهب الأرض التهابا
 إلى الأدواح تنساب انسيابا
 ترومُ بسمعه منه اقترابا
 فترسل نحوها الجرْدَ العرابا
 ومثلك يدعُ الأمرَ العجابا
 فقد أحسنت في الملك المتابا
 رآك ملكة للمجد النصابا
 فأمنت النائف والشعابا
 لقد طوقتنا المن الرغابا
 حديث الفخر حقاً لا انتسابا
 قد اعتقلت عقائلها اغتصابا

١ بيت لجرير بن الحنفي .

وتُعْمَلُ فِي الْعِدَا بِيضَ الْمَوَاضِي
فَمَا كَأْسٌ مِنَ الصَّهْبَاءِ صَرَفٌ
وَطَافَ بِهَا مِنَ الرَّهْبَانِ بَدْرٌ
تَجِدَ الْأَنْسَ عَوْدًا بَعْدَ بَدءِ
بِأَعْدَبَ مِنْ ثَنَائِكَ حِينَ يَطْوِي
أَمْوَالِي اسْتَمَعَهَا بِنْتَ فِكْرٍ
وِغَاصَ عَلَى فَرَائِدِهَا الْغَوَالِي
وَهَنَّاكَ الْإِلَهَ بِكُلِّ نَعْمَى
وَدَمَتَ لِعِزَّةِ الْإِسْلَامِ رِكْنًا
وقال ، وقد أنشدها السلطان ليلة الميلاد عام خمسة وستين وسبعمائة :
نَقَسُ الصَّبَا أَهْدَى إِلَيَّ نَسِيمَا
يَا هَلْ يَبْلُغُنِي السُّرَى خَيْرَ الْوَرَى
وَأَسَابِقُ الرِّكْبَانَ فَوْقَ نَجِيمَةٍ
وَأَحْطَ رَحْلِي فِي كَرِيمِ جَوَارِهِ
حَتَّى إِذَا بَلَّغُوا الَّذِي قَدْ أَمَلُوا
وَتَرَا حَمُوا فِي التَّرْبِ يَسْتَلْمُونَهُ
قَبْلْتُ ذَاكَ التَّرْبَ مِنْ شَوْقِي إِلَى
وَبَكَيْتُ مِنْ دَمْعِ الْمَآتِي زَمْزَمًا
صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا هَبَّتْ صَبَا
لِلَّهِ مَوْلَدُهُ الَّذِي أَنْوَارُهُ
شَرَعَتْ مِنَ التَّأْيِيدِ سَيْفَ هِدَايَةِ
كَسَرَ الْأَكَاسِرَ بِالْعِرَاءِ وَلَمْ يَدْعُ

إِلَى أَنْ يُنْكَرَ السَّيْفُ الْقُرَابَا
تَعِيدُ الشَّيْخَ مِنْ طَرْبِ شَبَابَا
يَهْتِكُ مِنْ دَجَى اللَّيْلِ الْحِجَابَا
وَرَبَعُ الْهَمِّ تَرَكَهْ خَرَابَا
بِهِ الرِّكْبُ الْأَبَاطِحَ وَالْمُضَابَا
تَخَيَّرَهَا فَأَبْرَزَهَا لُبَابَا
وَشَقَّ عَلَى نَفَائِسِهَا الْعَبَابَا
تَقَوُّدُ لَكَ الْأَمَانِي الصَّعَابَا
إِلَى أَنْ يَشْمَلَ الشَّيْبَ الْغَرَابَا
قَدْ رَامَ مَمْتَنًا وَرَامَ عَظِيمَا
فَأَرَى مَعَاهِدَ الْهَوَى وَرَسُومَا
تَقْرِي مِنَ الْبِيدِ الْعَرَاضِ أَدِيمَا
أَرْجُو نَعِيمًا فِي الْجَنَانِ مُقِيمَا
وَرَأَوْا مَقَامًا بِالرَّضَى مُوسِمَا
أَرَأَيْتَ فِي الْوَرْدِ الظُّمَاءِ الْهَيْمَا
مَنْ حَلَّهْ وَأَقَمْتُ فِيهِ لَزِيمَا
وَتَرَكْتُ جَسْمِي كَالْحَطِيمِ حَطِيمَا
تَهْدِي مِنَ الطَّيْبِ الزَّكِيِّ شَمِيمَا
صَدَعَتْ ظِلَامًا لِلضَّلَالِ بَيْمَمَا
أُرْدَتِ ظُبَاهُ فَارَسًا وَالرُّومَا
أَنْ رَدَّ قَيْصَرَ قَاصِرًا مَهْزُومَا

لله منها ليسةٌ أضحى بها
 أبدأ أميرُ المسلمين أعدّها
 ملكٌ أقام الله منه خلقة
 يحيى ذمارَ المسلمين من الردى
 بمحمدٍ قد عادَ دينُ محمدٍ
 أحيأ به الله الخلافةَ بعدما
 من آل سعدِ الخزرجِ بنِ عبادة
 تلقاه في يوم الكربةِ والوغى
 وتخالُ كفيه إذا شحَّ الحيا
 تأبى خلالَ العدلِ والشيمِ الملا
 كهفُ العبادِ وفخرها وثناؤه
 لا زالَ يلقي العيشَ طلقاً والملا
 ما اهترَ غصنٌ في الحديقةِ ناعمٌ

شملُ الهدى لأولي الهدى منظوما
 بدعاً من القصرِ الكريمِ جسيما
 مولى رؤوفاً بالعبادِ رحيماً
 ويبیحُ ربعاً للعداِ وحریماً
 غضَّ الرياضِ وكان قبلُ هشيماً
 كانت بأطباقِ الترابِ ريماً
 طابوا فروعاً في العُلاِ وأروما
 والخيلُ عابسةٌ أغرٌ وسيماً
 أفقاً بعاميةِ الغيوثِ غيوماً
 من أن يرى في دهره مظلوما
 ترك المديحَ على الطروسِ رقيماً
 مرقىً وصرفَ الحادثاتِ خديماً
 لما أحسَّ من الشمالِ شميماً

مولده بفرنطة ، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة؛

انتهى

[أشعار لسان الدين]

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور ما في
 « النفاضة » من قوله : أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني
 حيث جرابته ووظيفته ، وانجر حديث ما فقد بفرنطة في شجون الكلام :

يا بُنيَّ عبدَ الإلهِ احتساباً
 عن أنثاءٍ ومترلٍ وعقارٍ

٦ ق : القصد .

كيف يَأْسَى على خسارة جزء مَنْ يرى الكَلَّ في سبيل الحِصار
هدَفٌ لا تَتِي سهامُ الليالي عن سباقِ تَجَاهه وِبدار
واحدٌ طائشٌ وسهمٌ مصيبٌ ليس ينجي منها اشتمال حذار
غير ذي الدارِ صرف المِهم فيها فمناخُ الرحيل ليسَ بدار

انتهى . وقال أيضاً رحمه الله تعالى : ممّا أنشدته ولدي عبدَ الله ، وأمرته
بِحفظه والتأدب به واللهم بحكمته :

إذا ذَهَبَتْ يَمِينُكَ لا تُضَبِّعْ يساركَ في البكاء ولا المصيبةُ
ويُسْرَاك اغنمِ فالقوسُ ترمي وما تدري أرشقتها قربهُ
وما بغريبة نُوبُ الليالي ولكنَّ النجاةَ هي الغريبةُ

قال : ومن المنظوم في قريب من هذا قولي :

أيا أهلَ هذا القطرِ ساعده القَطْرُ دهيتُ فدلوني لمن يَرْفَعُ الأمرُ
تشاغلتُ بالدنيا ونمتُ مفرطاً وفي شُغلي أو نومتي سُرقِ العمرُ

وقال رحمه الله تعالى : وممّا قلته وقد انصرف عني الولدُ عبد الله إلى مدينة
فاس لإقامة رسمه من الخدمة ، وأشجاني انصرافه لوقوع قرحة على قرح ، والله
المستعان :

بان يومَ الخميس قرّةُ عيني حسبيَ الله أيّ موقفٍ بين
لو جئني موقفُ النوى حينَ حياً حان يوم الوداع والله حيتي
ضايقتني صروفُ هذي الليالي وأطالت همّي وألوتُ بديني
وطنٌ نازحٌ وشملٌ شتيتٌ كيفَ يبقى مُعَدَّبٌ يعد ذين
يا إلهي أدركْ بلطفك ضعفي إنَّ ما أشتكبه ليسَ بهين

وقال رحمه الله تعالى : أنشدت يوماً ولدي عبدَ الله وقد رأيت منه نشاطاً

ومرّحاً انتقل مني إليه بعد السن :

سَرَقَ الدهرُ شبابي من يدي وفؤادي مُشعراً بالكَمَدِ
جملةُ الأمرِ إذا أبصرتهُ باعَ ما أفقدني من ولدي

وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه الله تعالى .

[علي وتعليقاته على الإحاطة]

وأما علي بن لسان الدين رحمه الله تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه ،
وكان مُصاحباً للسلطان أحمد المريني المستنصر بالله ابن السلطان أبي سالم ابن
السلطان أبي الحسن المريني ، رحمهم الله تعالى .

وحكى بعضهم أنه حضر معه في بستان ، سَحَّ فيه ماء المذاكرة المتَّان ،
وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزعم النهار لما قدم الليل على الفرار ،
فقال المستنصر لما لان جانبه ، وسالت بين سرحات البستان جداوله ومدانيه :

يا فاسُ إنِّي وأيمُ اللهُ ذو شغفٍ في كلِّ ربيعٍ لهم مغناهُ يسيني
وقد أنستُ بقربٍ منك يا أملي ونظرةٌ فيكمُ بالأنسِ تحييني

فأجابه أبو الحسن علي بن الخطيب ، بقوله المصيب :

لا أوحشَ اللهُ ربيعاً أنتَ زائرُه يا بهجةَ الملكِ والدنيا معَ الدينِ
يا أحمدَ الحمدِ ، أبقاكِ الإلهَ لنا فخرَ الملوكِ وسلطانَ السلاطينِ

وقد رحل رحمه الله تعالى إلى مصر ، ولم يحضرني الآن من أحواله بعد دخوله
مصر ما أعوّل عليه ، وقد كان وقف بالقاهرة على نسخة « الإحاطة » التي وجهها
أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سعيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مرّ ، فكتب
بالخواشي كتابات مفيدة ، وقد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا الكتاب ،

فليراجع : إما تكميل لما أغفله أبوه ، وإما إخبار عما شاهده هو ، أو رواية له عن
المرجم به ، أو جواب عن أبيه فيما انتقد عليه .

[نفاذج في تطبيقه من ترجمة ابن جابر]

ولنذكر شيئاً منها غير ما تقدم بعد إيراد نص « الإحاطة » فنقول :
قال في « الإحاطة » في حرف الميم في ترجمة شمس الدين الهواري الضريير
شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعة الشهيرة بالأعمى والبصير ، ما صورته :
محمد بن أحمد بن علي الهواري ، يكنى أبا عبد الله ، ويُعرف بابن جابر ،
من أهل المرية .

حاله - رجل كفيف البصر ، مدل على الشعر ، عظيم الكفاية والمنة على
زمانته ، رحل إلى المشرق ، وتظاهر بـرجل من أصحابنا يُعرف بأبي جعفر الإلييري ،
صار اروحين في جسد ، ووقع الشعر منهما بين لَحْيَيْ أسد ، وشمر للعلم
وطلبه ، فكان وظيفة الكفيف النظم ، ووظيفة البصير الكتّاب ، وانقطع الآن
خبرهما ؛ انتهى .

فكتب المذكور على أول الترجمة ما صورته : نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر
أحسن الله تعالى إليهما ، فلقد أحسنا الصحبة ، في الغربة ، وانفردا بالتزاهة
والفضل وعلو الهمة ، إلا أن المصنف قصر فيهما بعض قصور ، ومنهما يُطلب
الإغضاء والصفح ، فالرجل مات ، وذكرُ الأموات بالخير مشروع ، وهما
والله الشرف الباهر بقطرهما علماً وعملاً ، أمتع الله تعالى بهما ، قاله ولدُ
المؤلف علي بن الخطيب بالقاهرة ؛ انتهى .

١ قد ترجم المقرئ لابن جابر الضريير ورفيقه أبي جعفر الإلييري (المجلد ٢ : ٦٦٤ - ٦٨٧)
وما هو يعود إلى الإسهاب في ذكر الرجلين في هذا الجزء .

وكتب على قول أبيه « وانقطع الآن خبرهما » ما نصّه : هما الآن بالبيرة من حلب ، تحت إنعام ولطف ، تحت إليهما الرواحل ، وتضرب إليهما آباط النّجب .

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من « الإحاطة » :

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصّه ، وجرى ذكره في الإكليل بما نصّه : محسوب من طلبتها الجليّة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهلة ، رحل إلى المشرق وقد أصيب ببصره ، واستهان في جنب الاستفادة بمشقة سفره ، على بيان عذره ، ووضوح ضره .

شعره - وشعره كثير ، فمنه قوله :

سلوا حُسْنَ ذَاكَ الْخَالِ فِي صَفْحَةِ الْخَدِّ
وقولوا لَذَاكَ الثَّغْرِ فِي ذَلِكَ اللَّمَى
وَمَنْ هَزَّ غَصْنَ الْقَدِّ مِنْهَا لَفْتَنِي
وَمَنْ مَتَعَ الْقُضْبَ اللَّدَانَ بِوَصْفِهَا
فَنَاءُ تَفَتْ الْقَلْبَ مِنِّي بِمَقْلَةٍ
تَمْنِيْتُ أَنْ تَهْدِي إِلَيَّ نَهْدَهَا
فَقُلْتُ أَلرُّمَانَ بُدٌّ مِنْ الْجَنَى
فَقُلْتُ أَلَيْسَ الْقَلْبُ عِنْدَكَ حَاصِلًا
فَقُلْتُ اجْعَلِينِي مِنْ عَيْدِكَ فِي الْهَوَى
إِذَا شِئْتَ أَنْ أَرْضَاكَ عَبْدًا فَمَتَّ جَوَى
أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّحْلَ يُحْمَلُ ضَرْهَا
كَذَلِكَ بَدَّلُ النَّفْسِ سَهْلُ لَذِي النَّهَى
أَلَسْتَ تَرَى كَفَّ ابْنَ جَانَةَ طَالَمَا
مَتَى رَقَمُوا بِالْمَسْكِ فِي نَاعِمِ الْوَرْدِ
مَتَى كَانَ شَأْنُ الدَّرِّ يُوْجَدُ فِي الشَّهْدِ
وَأُودِعَهُ رِمَانَتِي ذَلِكَ النَّهْدِ
إِلَى أَنْ أَعْرَنَ الْحَسَنَ مِنْ ذَلِكَ الْقَدِ
لَهَا رِقَّةُ الْغَزْلَانِ فِي سَطْوَةِ الْأَسَدِ
فَقَالَتْ رَأَيْتَ الْبَدْرَ يَهْدَاهُ أَوْ يَهْدِي
فَنَاهَتْ وَقَالَتْ : بِاللَّوَاظِحِ لَا الْأَيْدِي
فَقَالَتْ قُلُوبُ النَّاسِ كَلْتَهُمْ عِنْدِي
فَقَالَتْ كَفَانِي كَمَ الْحَسَنِيَّ مِنْ عَبْدِ
وَلَا تَشْتَكِي وَاصْبِرْ عَلَى أَلْمِ الصَّدِّ
لَأَجْلِ الَّذِي تَجْنِيهِ مِنْ خَالِصِ الشَّهْدِ
لَمَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مِنْ شَرَفِ الْحَمْدِ
أَضَاعَ كَرِيمَ الْمَالِ فِي طَلْبِ الْمَجْدِ

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته : عارضة قوية ، ونزعة
خفاجية ، وكيف لا والشيخ أبو عبد الله صدر صدور الأندلس علماً ونظماً
ونحواً ، زاده الله تعالى من فضله ؛ انتهى .

رجع إلى الترجمة - قال لسان الدين : وقال ، يعني ابن جابر :

وانشد فديتك أين حلّ فؤادي	عرج على بان العذيب ونادي
فاشرح هنالك لوعي وسهادي	وإذا مررت على المنازل بالحمى
كيف الأجبّة والحمى والوادي	إيه فديتك يا نسيمة خبيري
فانزل فديتك قد بدا إسعادي	يا سعد ، قد بان العذيب وبانه
بان العذيب ونور حسن سعاد	خذ في البشارة مهجتي يوماً إذا
وكذا الهلال علامة الأعياد	قد صح عيدي يوم أبصر حسنها

ومما نقلته من جزء قيده لي صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو علي الزواوي ممّا
ادعاه لنفسه :

ولي بمدارك المجد اهتمام	علي لكل ذي كرم ذمام
وصحبة معشر بالمجد هاموا	وأحسن ما لدي لقاء حرّ
على قمم النجوم لهم مقام	ولاني حين أنسب من أناس
كما مالت بشاربها المدام	يميل بهم إلى المجد ارتياح
ليُسفر عن أديمهم الظلام	هم لبسوا أديم الليل برداً
فمد عزموا الرحيل فقد أقاموا	هم جعلوا متون العيس أرضاً
وفي كل البلاد لنا مقام	فمن كل البلاد لنا ارتحال
لنا مع كل ذي شرف زحام	وحول موارد العلياء منا
إذا ضلت عن الغرض السهام	تصيب سهامنا غرض المعالي
ولو أن النجوم لنا خيام	وليس لنا من المجد اقتناع

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها ، وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتاً ، ولم نثبتها لطولها ، ثم قال بعدها : نجزت وما كادت ، ثم قال بعدها أيضاً : وقد وطأ لإمطاء قروحها ، وأعيا لإكثار سروحها ، ثم قال بعده : والله ولي النجاة بفضلته ؛ انتهى .

وكتب ابنه علي أول القصيدة وهو : « علي لكلّ ذي كرمٍ ذمامٌ » ما نصّه : نزعة معرّية ، قاله ابن المؤلف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله « نجزت إلى آخره » ما صورته : ما أنصف المصنّف هذا الفاضل في ترجمته ، وقدره شهير ، ومكانه من الفضيلة كبير ، وعلمه غزير ، ولعله لم يطلع إلا على ما أودعه .

وكتب إثره ابنُ لسان الدين ما صورته : نعم يا سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق لم ينصف المترجمَ به المؤلفُ ، ولولا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبية ، ولو حصلنا تحت الصفيح لم تُعملوا فيهما قلماً ، هكذا شأن الدنيا بقلّة الوفاء شنشنة معروفة ، والحقد على الأموات شأن المغاربة ، قاله علي ابن المصنّف رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[استطراد بأشعار ابن جابر]

ولا خفاء أن لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهواري المذكور مع أن له محاسن جمة . ومن محاسنه رحمه الله تعالى :

هناؤكم يا أهلَ طيبة قد حقّاً فبالقرب من خير الورى حُزّتمُ السبقا
فلا يتحرك ساكنٌ منكمُ إلى سواها وإن جار الزمانُ وإن شقا
فكمّ ملكٍ رامَ الوصولَ لمثل ما وصلتم فلم يقدر ولو ملك الخلقا
فبشراكمُ تلتم عناية ربكمُ فها أنتمُ في بحر نعمته غرقى

ومن يَرَهُ فهو السعيد بهِ حقاً
 وباب ذوي الإحسان لا يقبل الغلظا
 ولا يمنع الإحسان حرّاً ولا رقاً
 يلاحظكم فالدهر يجري لكم وفنفا
 فشكراً ، وشكر الله بالشكر يُستبقي
 ملائكة يحمون من دونها الطُّرقا
 فوجه الليالي لا يزال بكم طلقاً
 وإن جاءت الدنيا ومرت فلا فترفا
 وحشراً فسترُ الجاه فوقكم ملقى
 أتطلبُ ما يقنى وتترك ما يبقى
 إلى غيره ؟ تسفيهُ مثلكَ قد حقاً
 فأكرمُ من خير البرية ما تلقى
 ولو سرتَ حتى كدتَ تحترق الأبقا
 ومرتحلٍ قد ضاق بين الورى رزقا
 إذا كنتَ في الدارين تطلبُ أن ترقى
 بطيبة فاعرفُ أين منزلك الأرقى
 ومن جارٍ في ترحاله فهو الأشقى

ترون رسولَ الله في كلِّ ساعةٍ
 متى جئتمُ لا يغلُق الباب دونكم
 فيسمعُ شكواكمُ ويكشفُ ضرركم
 بطيبة مثواكم ، وأكرمُ مرسل
 فكم نعمة الله فيها عليكمُ
 أنتم من الدجالِ فيها فحوها
 كذاك من الطاعون أنتم بمأمن
 فلا تنظروا إلا لوجه حبيبكمُ
 حياةً وموتاً تحت رحماه أنتمُ
 فيا راحلاً عنها لدنيا يريدُها
 أنخرجُ عن حِرزِ النبي وحوزه
 لئن سرتَ تبغي من كريم إعانةً
 هو الرزقُ مقسومٌ فليس بزائلٍ
 فكم قاعدٍ قد وسع الله رزقهُ
 فعشُ في حصى خير الأنامِ ومت بهِ
 إذا قمتَ فيما بين قبرٍ ومنبرٍ
 لقد أسعدَ الرحمنُ جار محمد

ومن محاسنه رحمه الله تعالى المقصورة الفريدة ، وهي قوله ١ :

بادِرَ قلبي للهوى وما ارتأى لما رأى من حُسنها ما قد رأى
 فقربَ الوجَدَ لقلبي حبها وكان قلبي قبلَ هذا قد نأى

١ واضح أن هذه المقصورة من « المشرات » على حروف المعجم وقد فصلنا بين أجزائها لتوضح للقارئ صورتها .

يا أيها العاذلُ في حبي لها
لو أبصر العاذلُ منها لمحةً
سرحتُ طرفي طالباً شأو العُلا
إنِّي لأرعاها على تتبعها
من منصفٍ من شادنٍ لم أرجه
وإن قبضتُ النفس عن سلوانه
لأقطعنَّ البيدَ أفري حاذها
حتى أزورَ ربةَ الخدرِ وقد
أقصرُ في سمعٍ عن العذلِ بأى^١
ما فضَّ بابَ عدله ولا فأى^٢
وتابعاً في حبه ما قد شأى^٣
عهدي ، ومثلي من وفي إذا وأى^٤
لحاجة من وصله إلا زأى^٥
مدَّ أديمَ هجره لي وسأى^٦
بضامرٍ يفري الحصى إذا جأى^٧
زاد الكرى عني الوشاة وذأى^٨

* * *

يا ربَّ ليلٍ قد تعاطينا به
في روضةٍ تعانقتُ أغصانها
نادمتُ فيها من بني الحسنِ رشاً
حلوٌ رخيماً الدلُّ في أعظافه
أيامَ كان العيشُ غضاً حسنه
أيَّ زمانٍ ومحلٍّ للمنى
يا مربِّعاً ما بينَ نجدٍ والحمى
حديثَ أنسٍ مثلَ أزهار الرُّبى
إذ واصلتُ ما بينها ريحُ الصبا
يصبو له من لم يكنَ قطُّ صبا
لينٌ وفي الحَظِّه بيضُ الظبي
عذبَ الجنى ريانَ من ماء الصبا
ما ضاق مغناه بنا ولا نبا
ويا زماناً قد حباي ما حبا

- ١ بأى يبأى : فخر ؛ وفي ق : في قلب ... نأى .
- ٢ فأى : شق وخرج .
- ٣ شأى : قد تعني « بعد » أو « أعجب وأطرب » .
- ٤ وأى : وعد ؛ وفي ق : ومثلي من فأى ... إلخ .
- ٥ زأى : تكبر ، عن ابن الأعرابي .
- ٦ سأى الثوب والأديم : مده حتى انشق .
- ٧ الحاذ : طريقة المتن وهو موضع اللبد من الفرس ؛ وجأى : قذف .
- ٨ ذأى : ساق سوقاً شديداً وطرد .

اللهُ يرعاهُ زماناً لم يحلُ
فأيّ مَفْنَى أهلِ بيمته^١
هل تُرجِعُ الأيامُ عيشاً باللوى
عن بذلٍ ما نأمله ولا أبى
لمقصدٍ حَلَّتْ لنا فيه الحُبَا
فراقه كان اللُّهُيْمَ الأُرْبَى^٢

تالله لا أعبأ بعيشٍ قد مضى
مذ علقْتُ كَفِيَّ بالهادي الذي
كالبحر لا يفيضُ يوماً وردُهُ
متصلُ البرِّ لمن قد أمَّهُ
ولا ينجي نفسهُ في ضيقة
إنَّ رسولَ الله مصباحُ هُدَى
كفَّ بني الجور بعدلٍ واضحٍ
كم ذي هوى قد راضه بهديه
قد خالط الحلمُ سجايا طبعه
أقسمتُ لا زلتُ أوالي مدحه
ولا زمانٍ قد تعدى وعنا
ساد الورى طفلاً وكهلاً وفتى
لوارِدٍ إذا أصافَ أو شتا
لا يكره العودَةَ ممن قد أتى
أيّ نهارٍ سرَّ هذا ومي
يُهدى به من في دجى الليل متاً^٣
كما تكفُّ اليدُ كفّاً من فتى
فانقاد كالعبد إذا العبد قتا^٤
كثل ما قد خالط الثوبُ الستا^٥
ما اشتدَّ بالناس زمانٌ ورتا^٦

لولا اشتياقي لديارٍ كرمتُ
ومدحُ منْ أرجو بأمداحي له
لم أجعل الشعرَ لنفسي خلةً
لبعدها يرثي لنا من قدرثي
إصلاح ما قد عاثَ مني وعثا
ولم يحشُ فكري به ولا غثا^٧

- ١ ق : أمله .
٢ اللهم : الداهية ؛ الأربى : الشديدة .
٣ متا في الأرض مثل مطا ، أي مشى .
٤ قتا العبد : خدم ، أو أحسن الخدمة .
٥ سى الثوب يستيه بمعنى سدها يسديه .
٦ رتا - من الأضداد : شد وأرعى .
٧ غثا : كثر غثاؤه .

فما أرى الأيام تبدي منصفاً
يا ضيعة الأبواب في دهرٍ غدا
يا ويل أمّ ليس تزجي ضيمها
هل مارستُ إلا أخوا عزم إذا
تسيلُ من جهْدِ السرى أعطافه
له اعتصامٌ بالرسولِ المجتبي
من ليس للدنيا محلٌّ عنده

* * *

أنا الفتى لا يطيبني طمع
لكن إذا اضطر زمانٌ جائرٌ
لا أسأل التذللَ ولو أتني به
حسبي بنو عبد مناف بهم
أولئك القومُ الألى من أمهم
يلفك منهم كلُّ وجهٍ مشرقٍ
إتني مذُ أملتهم لم يشني
إن أنا قد نكّرني دهرٌ عدا
يطوي العدا ذكرى ومجدي ناشري
أنا الذي أعملتُ للمجدِ السرى

* * *

- ١ الخشي : جمع خشي ، وهو روث الثور .
- ٢ الخفا : التراب المخبأ أو المخبئ .
- ٣ جثا : جلس على ركبتيه للخصومة أي لمواجهة الخطب ، فهو مستوفر .
- ٤ اللثي : شيء ينضجه ساق الشجرة أبيض خائر .
- ٥ يريد بملء الكفين .

كم سرتُ في البيداء لا يُقلقني
 أرسلها غرَّ الذرا تسري بنا
 يطيحُ مفتوت الحصى من دونها
 فكم بذلتُ الجهد في كسبِ العلاء
 أرغمُ أعدايَ بحزمٍ نافذٍ
 أذودُ عن عرضي وأحمي حسي
 أقسم بالبيت ومن طاف به
 وكل من أعملَ لله الخطا
 ومعشر تجَّوا وعجَّوا فلهم
 لا زلتُ أزجها لإدراكِ العلاء

يا عجباً من حاسد لي قد زها
 كأنني لم أعرف العزَّ ولا
 وإنما الدهرُ له تُقلَّب
 إن الذي لا يشني عن جوده
 خيرُ الوري طراً من الله به
 شرفه الله وحلَّى جيسه
 زينته تواضعٌ على علا
 فكم حمى بهديه وكم وفي

بعيشه الغض عليّ وانتخى
 صاحبت دهرى في سرورٍ ورخا
 إن ارتخى شد وإن شد ارتخى
 إن بخل الدهر لنا وإن سخا
 أذهب عنا كل غيِّ فامتخى^٢
 بجوهرٍ من كل مجد موتخى^٤
 فما ازدهى بعزة ولا نخا^٥
 وكم أفاد آملاً وكم نخا

١ طحا : ذهب بعيداً .

٢ الوحى : الصوت .

٣ يقال اغنى من الشيء أي تبرأ منه وتخرج .

٤ موتخى : متحرى .

٥ نخا : زهي ، وقال الأصمى ، يقال : نخى وانتخى ولا يقال نخا .

خَلَّصَ من أسر الخطايا جاهه فما على قلب امرىء منها طخا^١
خَفَّفَ عَنَّا ثَقْلَ ما نَحْمَلُهُ فلم نَبِتْ من ثقله نَشْكو السَّخَا^٢

* * *

إن تحسب الرُّسُلَ سماءَ قد بَدَتْ فإنَّه في أفقها نَجْمٌ هَدَى
وإن يكن كلُّ كَرِيمٍ قد مَضَى طَلًّا فقد أَضْحَى لنا غَيْثٌ جَدَا
وإن يكونوا أَجْمًا في فلكِ فإنَّه مِن بَيْنِهِم بَدْرٌ بَدَا
واسِطَةُ السِّلْكِ إذا ما نُظْمُوا وملجأ القوم إذا الخُطْبُ عَدَا
كالبحر بل كالبدْرِ جوداً وسَنَا فحبذا من اجتدى أو اقتدى
أَحْسَنَ أخلاقاً من الروض إذا ما اختال في بُرْدِ الصِّبَا أو ارتدى
وساقَطَ القَطْرُ عليه دَمَعَهُ فابتلَّ بِبُرْدِ الزَّهْرِ منه وانتدى
تفديهِ نَفْسِي من شَفِيعِ اللُّورَى وَقَلَّتِ النَّفْسُ لَهُ مِنِّي فِدَا
هو الَّذِي أنعشنا من بعد ما قد يبس الغصنُ وأذواه الصِّدَى
وكنْتُ في ليل الهوى ذا حيرةٍ فجاء بالحقِّ وأنجى وهَدَى

* * *

فكم كسا من ثوبِ نَعْمَى قد ضفا وكم هَدَى بعلمه وكم غَدَا
من اقتدى بغيره فإنَّه لم يتَّبِعْ سُبُلَ الهدى ولا جَدَا
هل هي إلاَّ سَنَّةُ الحَقِّ التي أرشد مَنْ لا ذباها أو احتدى
كفُّ اللسانِ وانبساط الكفِّ بالِ خير وطيب الذكر هم قَدُّ شَدَا^٣

١ الطخا : قطع السحاب .

٢ السخا : ظلع يصيب البعير حين يشب بالحمل الثقيل .

٣ شدا : آذى ، أي أن هذه الواجبات تفتق من يريد الاحتفاظ بها ، وفي التجارية : عرف قد شدا ، ويكون شدا بمعنى تطيب .

أحسنُ ما نالَ الفتي من كرمٍ
والصمتُ عمّا لا يفيدُ قوله
لا شيءٌ كالصمتِ وقاراً للفتى
من عيبه يشغله عن غيره
ومن يعب عيباً ومن يحسنُ إذن
ومن تكن دنياه أقصى همته

* * *

لا تنفقِ العمرَ سوى في حبٍّ منْ
يهديك من رشدٍ ومجدٍ واضحٍ
أجاد هدياً وأفاد نائلاً
تري بني الحاجاتِ نحو بابهِ
لهم إلى رؤيته تشوقٌ
ذا يبتغي علماً وهذا نائلاً
كانتهم إذا رأوا غرتهُ
وجهٌ لديه يُحمدُ السيرُ، كذا
هدا إذا ما أخلفَ الناسُ وفتى
إذا شددتِ الكفَّ في أمرٍ به

هو الذي في سننِ الحقِّ جرى
روضين من علمٍ وذَكَر قد سرى
وجاد حتى عممَ الجودَ الورى
قد أعملوا العيسَ بحزنٍ في البرى
تشوقَ الساري إلى نارِ القيرى
وخائبٌ من قصده ليس يرى
وقد حجيجَ عاينوا أمَّ القرى
عند الصباحِ يحمدُ القومُ السرى
نائي المدى في مجده سامي الذرا
فليس بالواني ولا الواهي العرى

* * *

أنهضني بهديه إلى التقى بعد قصور العزم والباع الوزى^٣

١ غدا : لان واسترخى .

٢ ق : الساري ؛ وقوله « عند الصباح . . . » مثل .

٣ الوزى : القصير .

هو الشفيحُ المجترى بجاهه
 مذزرته لم أشكُ من شحط النوى
 وما وجدتُ غربةً ولم يجدُ
 متصلُ البشرِ غضوبٌ للهدى
 أصبح من أيامه في مأمنٍ
 تحذتهُ كهفاً فبتُ آمناً
 أدبنا بسنةٍ أفلحَ منْ
 يجزي أخا الحسنى على إحسانه
 لستُ أجازي الشرَّ بالشرِّ ، ولا
 لم ترَ عينُ كرسول الله ذا

* * *

إذا ملّمتُ الأمور قلّقلّت
 بخلقه فليقتدِ المرءُ فما
 كنُ حذراً وإن رأيتَ تمرةً
 لا تباسنَّ إن تناعى أملٌ
 وإن بدا صبحُ المشيبِ فاطرحْ
 ولا تظنَّ الشيبَ يرجي طبهُ
 إذا الفى قوسَ واعتدَّ العصا
 فاذكرْ زمانَ الشيبِ في حال الصبا

ألفيته كأنه طودٌ رسا
 أكرمها من مقتدى ومؤتسى
 فمثلها توقدُ جمرةَ الأسى
 وكلّما عثا زمانٌ قد عسا
 ما كان إذ ليلُ الشباب قد غسا^١
 بزورِ صبغٍ أو مُدامٍ يُحتسى
 لقوسه عن وترِ أعيا الأسا
 عسى يلينُ للتقى قلبٌ قسا

١ رزا : إذا قبل البر ، وأرزي إلى : بجا .

٢ حزا : عرف وجرب ، والحازي : الكامن .

٣ غسا الليل ينسو : أظلم .

ما أقبح اللهو على المرء إذا ما اشتعل الرأسُ مشياً واكتسى

لا تحسب الراحة راحاً قرَففاً إذا أداروها وقد جنَّ الدجى
قد حُجبت في دنِّها دهرأ إلى لم يبقَ من جوهرها إلا سنا
كأنها والكأسُ قد حَفَّتْ بها يدبرها مختلفُ الحسن إذا
يحكي القطا والطبي والغصن إذا وإنما الراحة زهدُ المرء في
والمجدُ إيقادك نيران القري والجود أن تعطي قباء للندی
للشربِ منها قبَسٌ ومثشى وشى بهم نيرها فيمن وشى
أن برزت كأنها صبحُ فشا ينشىء أفراح الفتى إذا انتشى
متيماً أصبحَ مضرومَ الحشا أقبلَ بدرٌ ، وإذا تاه رشا
ما قد تثنى أو تجتئى أو مشى أعراض دنيا تورث العين غشا
يعشوها في الأزمان من عشا لا لافتخار أو لجاه يَحْتَشَى

خاب امرؤ لم ير أرضاً حلَّها أرسله الله هدًى ورحمةً
وخلَّص الأنفُسَ من أسر الهوى ذو رافة تلقاه يوم العَرْضِ قد
صَلَّى عليك الله يا من جاههُ صلتى على من كفته الماءُ ومن
بك اعتصامي يوم يدنو من دنا من اصطفى رب السماء وانصى
أوصى ووالى الخير فينا ووصى في يوم هولٍ فاز فيه من فصى^١
مالَ بنا عن الجحيم ومصى^٢ يوم الحسابِ ملجأ لمن عصى
حنَّ له الجذعُ وسبَّحَ الحصى من رحمة الله ويَقْصَى من قِصا

١ فصى الشيء من الشيء : فصله ، ولعله يعني هنا : ميز الخير من الشر .

٢ مصى : لم أجد له معنى ملائماً للسياق هنا .

هل غير إحسانك يرجو مذنبٌ
يا مَنْ سما في يوم بدرٍ بدرهُ
أحصاهمُ ربُّ السماء عدداً
طالب به خوفُ الخطايا وانتصى
عزاً ليشقى كلُّ من شقَّ العصا
وإنهم أدنى الفريقين حصى

* * *

يا مجتنبى من خير قومٍ حسباً
يا من تدانى قاب قوسين ومن
ومن أتى والناسُ من ظلمهمُ
فكان كالصبحٍ جلاً جنح الدجى
رُضيتَ للإرسالِ إذ آدمُ يبى
اختارك الله رسولاً هادياً
يا أحلمَ الناسِ على من قد جنى
يا مُصغراً الألفِ إذا ما جاد أو
يا ناصحاً أحكم تشييد الهدى
يا مُضنياً للناسِ ظلِّ رحمةٍ
فيما أتى من زمن وما مضى
قيل له سلِّ تعطَّ قد نلت المضا
في ظلمةٍ ليس لها من مرتضى
فأذهب الإظلامَ عنا وانتضى
ن الماء والطينِ فكنت المرتضى
أكرمُ بما اختار لنا وما ارتضى
وأعدل الخلقِ إذا ما قد قضى
جرّداً في الهيجاء سيفاً أو نضاً
عزماً فلماً ينتفضُ ولا انقضى
بات العدا منها على جمر الغضا

* * *

ادفع الشرَّ بحسنى فإذا
وانفٍ لنفسٍ كرهت أعمالها
إن يدرك الهوى الفتى في بيته
وإن خيراً من صديقٍ سيءٍ
ولا ترمُ ما لا تطيق نيلهُ
وبت من الدنيا مبات خائفٍ
وخلها عنك ولا تبعاً بما
به أخو صدقٍ وإن كان سطا
كمن يريك قدرها حث الخطا
ليس كمن سعى إليه وخطا
أن يصحب الإنسان في البيد القطا
فخجلة الخيبة شرُّ مُمتطى
فليلي عدواتٍ وسطا
تبواً المكثراً منها وعطا

وجنب الحرص - تعش - ذا عزة
 ولا تجد للنفس حظاً واطرح
 لا تطرين صاحباً بغير ما
 أفلح من إن شده الحرص نطاً^١
 من امتطي الكبر فبئس ما امتطي
 فيه فإطراء الفتى كسر المطأ^٢

* * *

لا يحسن المدح سوى لمن يرى
 خير عباد الله ذو العز الذي
 كم آمن ببابه وقبل أن
 أصبح من حرمة في حرم
 في منزل سيان فيه ربه
 إن رسول الله غيث وكف
 إذا أعد للمؤمن القرى
 لما علمت جودة الجزل وما
 يمته فوق طير ضامر
 ليس بمس الأرض من سرعته
 مادحه بمدحه قد احتطي
 لظله بأوي الشريف والشطي^٣
 بلقاه لاقى ما عجا وما عطا^٤
 يرفل في ظل هبات وحظا
 وضيفه فيما اقتنى وما حظا^٥
 إذا هيب الصيف داج والتظي
 لم يدخر عن ضيفه ولا حظا^٦
 هناك من علم وحلم وبظا^٧
 منتظم الأعضاء مكموم الشظا
 كأنما يخشى بها مس اللظي

* * *

يا موسع الألف بصاع شبعاً
 وأخصب الصرع بلمس كفه
 ومن مشى الدوح إليه وسعى
 وبادر المزن له لما دعا

١ نطا : بعد أو امتد .

٢ المطأ : الظهر .

٣ الشطي من الناس : الموالي والأتباع .

٤ يقال لقي الإنسان ما عجا وما عطاء وما أورمه : إذا لقي شدة وبلاء .

٥ كأنه يعني : أصاب حظاً .

٦ حظا : فاضل بين .

٧ البظا : اكتناز اللحم ، ويريد هنا وفرة العلم .

وسلّم الظبي عليه كرمًا
 واستشهد الضبّ فحيًا معلنا
 إليك أعملت المطايا في الفلا
 مسوغًا^١ جاهك علي في غد
 أزكى صلاة وسلام أبدأ
 وسبّح الرعدُ بحمد من سقى
 فاشتملت بالتور كلّ فدغد
 وباكر البيداء غيثٌ مُسبِلٌ^٢
 وكلم الميت فقام ورعى
 بصدقه ومشتبًا لما ادعى
 تنسابُ ما بين أراك ولعا
 أكون ممن قد أجاد ورعا
 عليك ما ارتاح الظليم وارتمى
 صوبَ الحيا فقال للأرض لعا
 لم يكُ للسارح فيه مرتعى
 فأخلف النبت الهشيم ورعى

• • •

ودقُ سحبٌ تحسبُ البرقَ به
 واخضرتِ الدوحُ ومدتْ قُضْبُها
 وساقطتْ لها السحابُ حملها
 ترى خريزَ الماء في قضيبه
 فسكنَ القبطُ لهيبَ حره
 غيثٌ حمى الرمضاء عنا مثلما
 ناهٍ عن الفحشاء داعٍ للهدى
 أسنةٌ قد أشرعت يوم وغى
 فيبينها حُسن التمام وصفا^٢
 إذ خوف الرعدُ تساقطَ الفغا^٣
 كأنه مَيّتُ ذودُ قد رغا
 وفرّ لما أن رأى الماء طغى
 حمى رسولُ الله جورَ من بغى
 لم ينتطقُ بباطلٍ ولا لعا

• • •

هذا إذا استكفيت في أمر به
 تهفو به ریحُ العلا إلى الندى
 محيي الهدى والعدل في زمانه
 أجنداك فيما تنتحيه وكفى
 كأنه ناعمُ غصنٍ قد هفا
 من بعد ما ألفاهما على شفا

١ ق : مرعًا .

٢ الصفا : الميل .

٣ الفغا : البسر الفاسد المخبر ، أو ما يخرج من الطعام فيرمى به .

أخفى الهدى قومٌ فأضحى وهو قد
 إن يقض يعدل أو متى يسأل يهب
 وإن يخذل يجزل وإن جاد يعدد
 بحرطما، بدر سما، غضب حمى
 لمجتد أو مقتد أو معتد
 ما لي لا أضفي له المدح وقد
 أسس خلقت الجود فينا فاغتندي
 أظهره بعدله فما اخفى
 وإن يقل يصدق وإن يعدد ونفى
 وإن تسيء يحسن وإن تجن عفا
 روض نما، طب أفاد وشفى
 أو مجذب أو مشتك خطباً جفا
 أضحي به الحق علينا قد ضفا
 به لنا ورد المعالي قد صفا

* * *

الجود يعلي المرء والبخل لقد
 والعز ما أحسنه لكنته
 والجهل للإنسان عيب قادح
 والعلم في حال الغنى والفقير لا
 ولا ألوم المال فالمال حمى
 قد جبيل الناس على حب الغنى
 وما لذي الفقر لديهم رتبة
 إن الغنى طب لعلات الفتى
 والحزم أحرى ما به المرء اقتدى
 من لم يبت مع الليالي حازماً
 يحط عن رتبته من ارتقى
 إن كان هذا مع علم وتقى
 ولو حوى مالا ككثبان نقا
 يزال يرقى بك كل مرتقى
 من جاهل يلقاك شراً ملتقى
 فربته فيهم مهاب متقى
 ولو أفاد وأجاد واتقى
 والفقير داء لا تداويه الرقى
 في أمره وما به النفس وقى
 لغدرها غادرته فيها لقى

* * *

أمضيت طرفي كي يرى طرفي ما أخبرته من طيب مجد قد زكا

١ ق : أو مجتز .

وفاق ما عاينته ما قد حكى
 وأشكت الأيامُ مَنْ كان شكاً
 ذلٌّ، ومن يضحكُ بها يوماً بكى
 جلدٌ إذا ما هبُّ الحربُ ذكاً
 فذلٌّ حتى صار قصواه بُكاً
 من ملجأ يوماً ولا من مشتكى
 منها ابن حُجرٍ كَأْسِ سَمِّ كَالذِّكَا
 ترك له على الليالي مرتكى^١

فَصَدَّقَ الحَاكِمِي ما أبصرته
 فسَهَّلَتْ رُؤْيَتُهُ جَهْدَ السَّرِي
 عَجِبْتُ لِلأَيَّامِ مَنْ عَزَّ بِهَا
 فكَم لها من كَرَّةٍ على فتي
 تجتنبُ الأَسْدُ سَطَاهُ في الوغَى
 وكَم صرِيعٌ غادرتُ ليس لهُ
 عدتُ على نفسِ عديٍّ وسقتُ
 واستلبتُ مُلْكَ بَنِي سَاسَانَ لم

ولا ابنُ هندٍ من عوادِها خَلَا
 باتِ الطَّلَا^٢ يسقيهما صِرْفَ الطَّلَا
 فأظفرتُ عَمْرًا بها فما أَلَا^٣
 وَجِرَعَتِ مهلهلاً كَأْسِ البِلَى
 فمَزُقُوا في كلِّ قفرٍ وقَلَا
 وزوَدتُ منها تيمماً بالصَّلَى^٤
 فمات قهراً بعد عزٍّ وعِجَلَا
 أفنتُ يزيدَ حَسْرَةً لَمَّا اعْتَلَى
 من بعد ما قد خضعتُ له الطَّلَى^٥

لم يَأْمَنِ المَأْمُونُ من صولتها
 وأتبع جعفرًا الفضلَ وكَم
 وغالتِ الزبَاءُ في منعها
 وأنفذت في آلِ بكرٍ حكمها
 وكَم سَبَّتْ من سبيلٍ من نعمةٍ
 وأهلكتُ عاداً وأفنتُ جرهماً
 فرعونَ موسى أُولِحَتْ في لِحَةٍ
 وأظفرتُ بابنِ زيادٍ مثلما
 وسيفٌ استلته من عُمدانه

١ الذكا : الجمرة الملتهية .

٢ المرتكى : المومل .

٣ الطلا : الغلام ، شبهه بولد الطيبة .

٤ ألا يالو : قصر .

٥ الصلى : الوقود ، يشير إلى ما فعله أحد المناذرة ببني تميم حين حرقهم .

٦ الطلى : الرقاب .

ثم أعادته فحزَّ الجيـشُ عن حوزته حزَّ النبات المختل^١

* * *

هي الليالي ليس يرعى صرفها
ولا رسول الله فينا لم يزل
لله ما أكرمه من سيد^٢
سليم صدر ذو وفا لم يحش
أوسعنا فضلاً فما خاب امرؤ
يا من غدا للمخلق كهفاً وحمى
إننا أتينا من ديار دونها
وإنتي من قبح ما أسلفته
فلا تخيبيني مما لك من
إتاك من قوم بهم يشفى العنا

لا خاملاً فيها ولا من قد سما
كهف حمى^٢، فهو لنا نعم الحمى
يُنمى من المجد لأعلى منمى
في صدره غش أمرى ولا غمى^٤
أوى إلى ذاك الجناب وانمى
فأكرم المثوى وآوى وحمى
موحشة يبداء أو بحر طما
ذو كبد رُضت ودمع قد همى
شفاة تُرجى وفضل قد نما
ويُدركُ الشاؤُ البعيد المرتمى

* * *

أعرض عن الجاهل مهما قد أسا
ولا تلم ذا سفة فإنه
وإن رأيت من كريم عثرة
وإن ترعك من زمان فرقة
لم أشكر البعد على خير حمى
يا مترلاً ما بين نجد والحمى

وحسبه من جهله ما قد حوى
إن لته لم يتشد ولا ارعوى
فقل لعا ولا تعب بما احتوى
فاصبر لها فالصبر أشفى للجوى
قد صدتني عن أنه شحط النوى
ويا دياراً بين كئبان اللوى

١ المختل : المقطوع .

٢ ق : حياً .

٣ ق : من سند .

٤ غمى : غطى .

هل لي إلى تلك المعالي عودة*
لا تعجبوا من لعِبِ الدهر بنا
إن عشتُ لا فَيْتُهُمْ* وإن أمتُ
إن رسولَ اللهِ مُذْ أَمَلْتَهُ
أو جرعة* من ذلك الماء الرَوَى
فأيّ إنسان على حالٍ سوا
فإنما الدنيا فناء وتَوَى
فالدهر قد أضمر نصحي ونوى

إي والذي ما زال يسري جاهداً
فقدّم الغسلَ وصلّى ونضاً
ثم نوى مُلَبِّياً ثم مضى
ثم أتى بابَ بني شَيْبَةَ قد
فقبلَ الركنَ وطاف وسَعَى
ثم أتى الموقفَ يدعو راغباً
ثم رمى ثم أفاض وانبرى
ثم مضى مرتحلاً فيمن مضى
يبغي التي شرفها الله بيمين*
فلَمْ يكن ممن إذا حج جفا
حتى أتى ميقاته وما وني
أثوابه مستغفراً ممّا جنى
حتى رأى ذاتَ السناء والسنى
أبصرَ ما أَمَلَ قدماً مذ دنا
ثم مضى مرتحلاً نحو منى
حتى إذا ما نفر القومُ انثنى
مُعْتَمِراً قد نالَ غاياتِ المنى
ميمماً طيبة لا يشكو العنا
شاد به الدينَ القويمَ وابنى
بل يتمّ القبرَ وزارَ واعتنى

خلقُ عَلَيّ لم يحوِها إلا امرؤ
فإن يقلُ: من حازها؟ قل: الذي
معتصمُ الراجين إن خطبُ دنا
المرشدُ الناصحُ لله فما
من جدّ في إدراك ما رام يجدُ
فلا يقصر بك خوفُ خيبةٍ
واكتسبَ الحمدَ بما تبديهِ من
نهاه عن نبدِ العُلا رَعِي النُهي
لَهُ تسامى كلُّ مجدٍ وانتهى
وكهفهم إن راع أمرٌ ودهى
قصرَ في نصر الهدى ولا لها
ولم يصب منّ قد توانى وسها
منّ خيّلَ الخيبة في البدء وهي
فتح اللّها بمستدامات اللّها

واحرص على المجد ودينك اطرح
والمرء من ان فاته لم يكتب
من لازم الكبر على الناس اغتدى
فأمرها أمرٌ زهيدٌ المشتى
وان ينل لم يفتخر ولا ازدهى
متضع القدر ولو نال السها

أتى تخيب اليوم آمالي ولي
يدني الفتى إلى مدى آماله
ان أهزل القوم زمان معور
وان أمات الجذب كل محصب
أرسل سحب هديه جارية
أوقع في الأنفس من ماء لدى
لم تعي من فعل جميل كفه
ما لي لا أبلغ أقصى غاية
لكل شخص غاية يبلغها
تعيأ يد السائل من معرفه
من كفه أكرم من صوب الحيا
ولو غدا من دونها الأرض التيا
أنعشهم حتى يرى لهم حيا
بدا لنيران القرى منه حيا
بالحق حتى حي الدر حيا
ظام إذا ما اشتد بالشمس الحيا
ولا له في المكرمات معتا
في مدح من بالغ جوداً واغتيا
وما له في المعلوات مقتيا
ولم يقصر كرمأ ولا اعتيا

والآن قد أكملت في مدحه
ضممتها من كل فن درأ
حليتها جيد معاليه وما
مقصورة يقصر عنها من خلا
نظماً فأضحت من نفيسات الحل
أملح حلي المدح في جيد العلا

١ الأرض اليا : التي بعد ماؤها واشتد السير فيها .

٢ الحيا : الحصب .

٣ لعله شبيه بقولهم : حاييت النار أي أحييتها .

٤ الحيا : المطر .

٥ مفتيا : موضع غاية أو نهاية .

جعلتها مني وداعاً فاعتجبُ لنظمتها الحلو الجنى كيف حلا

مَنْ قارب الرحلة عن ذاك الحمى أرسلتها من خاطر خامره وكيف لا آسى على بعدي عن أنصار دين الله والهادي الذي فالقلب بين مشرق ومغرب إذا ذكرت الغرب حنت مهجتي وإن ذكرت حباً من في مشرق إن يصف من وجه لشخص مورد فإن ترحلت فقلبي عندكم

كيف أجاد النظم يوماً أو درى وجد جلا عن مقلتي طيب الكرى قوم جرى من جودهم ما قد جرى لولا وضوح هديه ضل الورى مقسم اللوعة مجذوب العرى وبلى دمي من جوى الشوق الثرى أبطأ بي حبهم عن السرى كدر من أخرى فلا صقو يرى لم يرتحل عن بابكم ولا سرى

ولا تزال رسل شوقي أبدا ولن تمر ساعة إلا هفا فليس عندي للنجاة مخلص بكم ملاذي وحماكم ملجئي وما ذخرننا عدة سواكم لا أوحش الله دياراً أنتم ولا نأت داركم ولا خلا

ترى على مجدكم الخزل الندى بذكركم مفصح نظمي وشدا إن لم يكن منكم نوال أو جدنا ليس سوى ذاك السماح المجتدى مثلكم من يرتجى ويمتدى فيها ولا أزرى بمرغها الصدى ربمكم ما راح يوم واغتندى

ومن محاسنه أيضاً البديعية المشهورة ، وهي المعروفة ببديعية العميان ، ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي صلى الله عليه وسلم لكفى ، وهي من غرر القصائد ، وكثير من الناس ينسبها للقاضي

الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض ، وكنت أنا في أول الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة ، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر ، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر ، وهي :

في كل فاتحة للقول معتبره
في آل عمران قديماً شاع مبعثه
من مدد للناس من نعماء مائدة
أعراف نعيمه ما حل الرجاء بها
به توسل إذ نادى بتوبته
هود ويوسف كم خوف به أمنا
مضمون دعوة إبراهيم كان ، وفي
ذو أمة كدوي النحل ذكرهم
بكهف رحماه قد لاذ الورى ، وبه
سماه طه ، وحض الأنبياء على
قد أفلح الناس بالنور الذي غمروا
أكابر الشعراء اللسن قد عجزوا
وحسبه قصص للعنكبوت أتى
في الروم قد شاع قديماً أمره وبه
كم سجدة في طلى الأحزاب قد سجدت
سباهم فاطر السبع العلاء كرمأ
في الحرب قد صفت الأملاك تنصره
لغافر الذنب في تفصيله سور
شوراه أن تهجر الدنيا فزخرها

حق الثناء على المبعوث بالبقرة
رجالهم والنساء استوضحوا خبره
عمت فليست على الأنعام مقتصره
إلا وأنقال ذلك الجود مبتدره
في البحر يونس والظلماء معتكره
ولن يروع صوت الرعد من ذكره
بيت الإله وفي الحجر التمس أثره
في كل قطر ، فسبحان الذي فطره
بشرى ابن مريم في الإنجيل مشتهره
حج المكان الذي من أجله عمّره
من نور فرقانه لما جلا غرّره
كالنمل إذ سمعت آذانهم سورّه
إذ حاك نسجاً بباب الغار قد ستره
لقمان وفق للدر الذي نثره
سيوفه فأراهم ربّه عبره
لمن يباسين بين الرسل قد شهره
فصاد جمع الأعادي هازماً زمّره
قد فصلت لمعان غير مختصره
مثل الدخان فيعشي عين من نظره

عزّت شريعته البيضاء حين أتى
فجاء بعد القتال الفتح متصلاً
بقاف والذاريات الله أقسم في
في الطور أبصر موسى نجم سؤده
أسرى فنال من الرحمن واقعة
أراه أشياء لا يقوى الحديد لها
في الحشر يوم امتحان الخلق يقبل في
كف يسبح لله الحصة بها
قد أبصرت عنده الدنيا تغابنها
تحريمه الحب للدنيا ، ورغبته
في نون قد حقت الأمداح فيه بما
بجاهه سال نوح في سفينه
وقالت الجن جاء الحق فاتبعوا
مدثراً شافعاً يوم القيامة هل
في المرسلات من الكتب انجلى نبأ
الطافه النازعات الضيم في زمن
إذ كورت شمس ذاك اليوم وانفطرت
وللسماء انشقاق والبروج خلت
فسبح اسم الذي في الخلق شقعه
كالفجر في البلد المحروس عثرته
والليل مثل الضحى إذ لاح فيه ألم
ولو دعا التين والزيتون لا ابتدرا

أحفاف بدر وجند الله قد نصره
وأصبحت حجرات الدين منتصره
أن الذي قاله حق كما ذكره
والأفق قد شق إجلالاً له قمره
في القرب ثبت فيه ربه بصره
وفي مجادلة الكفار قد نصره
صف من الرسل كل تابع أثره
فاقبل إذا جاءك الحق الذي قدره
نالت طلاقاً ولم يصرف لها نظره
عن زهرة الملك حقاً عندما نظره
أنتى به الله إذ أبدى لنا سيره
سفن النجاة وموج البحر قد غمره
مزملاً تابعا للحق لن يذره
أتى نبي له هذا العلاء ذخره
عن بعثه سائر الأخبار قد سطره
يوم به عبس العاصي لما ذعره
سماؤه ودعت ويل به الفجره
من طارق الشهب والأفلاك منثره
وهل أتاك حديث الحوض إذ نهره
والشمس من نوره الوضاح مستره
نشرح لك القول في أخباره العطره
إليه في الحين واقرأ تستبين خبره

في ليلة القدر كم قد حلّ من شرف
 كم زلزلت بالجياد العاديات له
 له تكاثر آيات قد اشتهرت
 ألمّ ترّ الشمس تصديقاً له حبست
 أريت أنّ إله العرش كرمه
 والكافرون إذا جاء الوري طردوا
 إخلاص أمداحه شغلي ، فكم فلق
 أزكى صلاتي على الهادي وعقرته
 صديقهم عمر الفاروق أحزمهم
 سعد سعيد عبيد طلحة وأبو
 وحزمة ثمّ عباس وأهما
 أولئك الناس آل المصطفى وكفى
 وفي خديجة والزهرا وما ولدت
 عن كل أزواجه أرضى ، وأوثر من
 أقسمت لا زلت أهديهم شذا مدّحي

في الفخر لم يكن الإنسان قد قدره
 أرض بقارعة التخريف منتشره
 في كل عصر فويل للذي كفره
 على قرّيش ، وجاء الروح إذ أمره
 بكوثر مرسل في حوضه نهره
 عن حوضه فلقد تبّت يدا الكفرة
 للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره
 وصحبه ، وخصوصاً منهم عشره
 عثمان ثمّ علي مهلك الكفرة
 عبيدة وابن عوف عاشر العشرة
 وجعفر وعقيل سادة خيرة
 وصحبه المقتلون السادة البره
 أزكى مديحي سأهدي دائماً دره
 أضحت براءتها في الذكر منتشره
 كالروض ينثر من أكمامه زهره

[معارضات لقصيد ابن جابر في تضمين السور]

انتهت القصيدة ، وقد عارض منحاهم جماعة فما شقّوا لها غباراً ، ومن
 معارضاتها قول بعضهم :

بِسْمِ الْإِلَهِ افْتِاحِ الْحَمْدِ وَالْبِقْرَةِ
 عَلَى نَبِيِّ لَهُ الرَّحْمَنُ مَمْتَدِحِ
 كَذَا بِمَالِدَةَ الْأَنْعَامِ فَضَّلَهُ
 أَنْفَالَهُ نَزَلَتْ أَيْضاً بِرَاءَةِ مِنْ

مُصَلِّياً بِصَلَاةٍ لَمْ تَزَلْ عَطْرَهُ
 فِي آلِ عِمْرَانَ أَيْضاً وَالنَّسَاءُ ذَكَرَهُ
 وَوَصَفَهُ أَلَمْ فِي الْأَعْرَافِ قَدْ نَشَّرَهُ
 يَجِبُهُ وَهُوَ مَشْغُولٌ بِمَا أَمْرَهُ

به نجا يونس من حوته ونجا
 أقسم برعد إبراهيم أن له
 سبحان جاعله كهفا لآت
 طه به الأنبياء للحج قد وفدوا
 آيات فرقان ذلت لها الشعرا
 والعنكبوت على غار له نسجت
 لقمان حكيمه من بعض حكيمه
 كم في سابع حيرة للقلب قد فطرت
 قد صفت الأنبياء والرسل قلطبة
 إن صاد قلبي الهوى تنزيل منقده
 كم خلعة فصلت للطامعين له
 لم تلههم زينته الدنيا وزخرفها
 إذا جثا الخلق والأحقاف قد شرفت
 محمد خص بالفتح المبين وقد
 قاف الوفاق وذر الطور نجم هدى
 رحمن واقعة كل الحديد بها
 من يمتحن صفنا في يوم جملتنا
 مطهر من نفاق ليس بينهم
 وحرموها وفي ملك لها زهدوا
 إن تسألوني عن نوح نبي هدى
 مؤمّل اسمه مدثر، ولسه
 للمرسلات نبأ في يوم نازعة

هود ويوسف من سجن به عبره
 في حجر نحل ترى الآيات مشتهره
 ومريم زوجة في جنة نصره
 والمؤمنون على النور اقتضوا أثره
 وسورة النمل قد قصت لنا سيره
 والروم ولت برعب منه منكمره
 فاسجد لرب على الأحزاب قد نصره
 فلذ يباسين تنجرو يا أبا البرره
 خلف النبي بأمر الله مؤتمره
 وغافر الذنب كم ذنب له خضره
 وأمرهم بينهم شورى بلا نكوره
 كانوا يروها كدخان له قتره
 فذاك يوم على الكفار قد نصره
 أتاه في الحجرات الوحي بالخيره
 وشق رب السما للمصطفى قمره
 كم من مجادلة في الحشر محتدره
 فليس يلقى به غش ولا كدره
 تباين طلقوا دنياهم القنره
 كزهده صاحب نون حقق خبره
 والمصطفى سامع الجن الذي جهره
 يوم القيامة للإنسان ما ضميره
 عبوس تكوير شمس فيه منظره

مطفف الكيل قد بانَّت خسارته
 كم طارقٍ سبَّح الأعلى بغاشيةٍ
 والليلُ قُمه ولا ترك صلاةَ ضحى
 بسورةِ التينِ اقرأَ أتها نزلت
 ولم يكن مثل خير الرُّسلِ أحمدنا
 بعادياتِ لها قرع بهامته
 من كان في عصره همّازةً أبداً
 ويلٌ للمانع ماعون تراه غدا
 الكافرون إذا جا نصرُ خالقنا
 أخلص لربِّ فلق الناس تنجُ إذا
 وصل ربُّ على الهادي وعِترته

في يوم شقّ السّما أبراجها النضره
 والفجر بلدته بالشمس مستره
 يشرح لك الصدر والخيرات مُدّخره
 في ليلة القدر ، والأنوارُ منتشره
 منه تزلزلت الكفّارُ والفجره
 أعمى التكاثر من قلبٍ له بصره
 يلقاه قبل قريش قاهرٌ قهره
 مباعداً كوثر الهادي الذي أثره
 تبا لهم لُعِنوا همُ أمةٌ كفره
 يومَ المعاد غدا من شرّة عسره
 وآله وعلى أصحابه العشره

وممن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندي إذ قال :

عوذت حبي برب الناس والفلق
 إخلاص وجدي له والعذر يقلقني
 يهدي لأمتي والنصر يعضده
 هذا له كوثر والدين شرعته
 ألم ترَ الماء قد سحّت أصابعه
 في كلِّ عصر ترى آياته كثرت
 وعند قارعة فهو الشفيع لنا
 وزلزلت من غرامي كلُّ جارحة
 يا عالي القدر رفقا مسّني ضرر

المصطفى المجتبي المدوح بالخلق
 تبّت يدا عاذل قدّ جاء بالملق
 والكافرون وعذّالي على نسق
 والمصطفى من قريش دينٌ وتقي
 ويلٌ لكلِّ جهول بالنبي وشقي
 أضحي تكاثرها في سائر الأفق
 والعاديات من الأجفان في طلق
 وكلُّ بينة تحكي لكم علق
 فالله قد خلق الإنسان من علق

والشرح عنه^١ طويل غير مختلق
كالشمس في بلكد والفجر في أفق
أنت الشفيح إلى الأعلى وخير تقي
مثل البروج أتى في أحسن الطرق
ويل من الصد ، والأجفان في أرق
والشمس قد كورت في القلب ذي الحرق
وقد أتى نبأ من دمه الغدق
إلى القيامة من دمعي ومن حرقي
وبالمزمل إن أجمت بالعرق
هذا ونوح به أنجي من الفرق
حقاً ، وفي حاقة كتر لمخترق
والملك خييره حتى رأى ولقي
وبالطلاق من الدنيا لمنطلق
إذ المناق في خسر وفي نفق
في الصف عند امتحاني أنج من زلقي
عسى تزيل حديد النار من عنقي
فاشفع إلى ربك الرحمن من رمقي
إلا لعلك من نار الحميم تقي
ودر دمعي غدا بالذاريات سقي
وليس في حجرات الدمع من رمق
أحقاف جائية في الغيظ والحنق
شوراي تركه في أنف محترق

ولو دعا التين والزيتون جاء له
يبدو كشمس الضحى والليل طرته
إني بغاشية لولاك يا أملي
كم طارق منك بالإحسان يطرفني
وفي انشقاق فؤادي عبرة ، وبه
والانفطار به مما يكابده
والصب في عبس والنازعات به
ومرسلات دم الإنسان جارية
وبالمدثر إني ماسك أبدأ
فالجن والإنس في خير ببعثته
وفي المعارج معراج الرسول علا
والله مرسله في نون بشره
وجاء بالحل والتحريم أمته
وفي التغابن تجار به ربخوا
يا صاحب الجمعة الغراء يا أملي
وأنت في الحشر عوني في مجادلي
وعند واقعة إن كان لي رمق
لم أزع يا قمري للتعجم في سهر
قلبي الكليم غدا للطور مرتقياً
وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم
إننا فتحنا قتالاً للعدول ففي
دخان زخرف ما العُدال فيه هبا

وعزَّ مَنْ فَصَّلَتْ فِي مَدْحِهِ سِوَرِ
 فِغَاغِرِ الذَّنْبِ كَمْ أَهْدَى بِهِ زُمْرًا
 وَلَيْسَ غَيْرِكَ فِي الصَّافَاتِ أَقْصَدُهُ
 يَا فَاظِرًا قَدَّ سَبَا الْأَحْزَابِ طَلَعْتَهُ
 لِقَمَانٍ يَشْهَدُ أَنَّ الرُّومَ تَعْرِفُهُ
 هَذَا وَلِي قِصَصٍ بِالنَّمْلِ قَدْ كَتَبْتُ
 تَبَارَكَ اللَّهُ مِنَ النُّورِ كَلَلُهُ
 يَا آيَتَهَا الْأَنْبِيَاءُ طَهَّ خَتَامِكُمْ
 لِأَذْوَانِ بَكْهَفٍ لَهُمْ سُبْحَانِ خَالِقِهِ
 فَالرُّكْنَ وَالْحَجْرَ حَقًّا قَدْ أَضَاءَ لَهُ
 وَاللَّهُ رَبِّي بِرُجْبِ الرَّعْدِ يَنْصُرُهُ
 فَيُوسِفُ مَعَ هُودٍ وَالْحَلِيلِ إِذَا
 لَتَوَيْتِي أَرْجِيهِ الْأَنْفَالَ مِنْهُ غَدًّا
 أَعْرَافِ أَنْعَامٍ إِنْعَامٍ لَهُ اشْتَهَرَتْ
 كُلَّ النَّسَاءِ لَمْ تَلِدْ مِثْلَ الرَّسُولِ إِذَا
 أُعْطِيَتْ خَاتِمَةٌ مِنْ سُورَةِ الْبَقْرَةِ
 فَأَنْتَ فَاتِحَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتِمَتُهُمْ
 وَالْقَلْقَشَنْدِي حَبُّ قَالَ سِيرَتُهُ
 فَاقْبَلِ هَدِيَّةَ عَبْدٍ أَنْتَ مَالِكُهُ
 صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ الْعَرْشِ مَا طَلَعْتُ

وهذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي مما يُتبرك به ،
 والأعمال بالنيات .

ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى

قصيدة ابن جابر ، وهي :

بحمد إله العرش أستفتح القولا
وفي آل عمران أتى ذكر أحمد
بأعراف رحماه بأنفال جوده
له يونس نادى وهود ويوسف
ودعوة إبراهيم كان محمد
له أمة كالنحل قد صبح فضلهم
علا فضله والناس في كهف نيله
وطه له فضل على الخلق كلهم
ولولاه ما حُجَّ المقامُ وكعبة
ومن نوره الوهاج كل منور
ترى الشعرا كالنمل حول محمد
علا ديننا روما ولقمان عالم
والاحزاب يسيهم بحكمة فاطم
وصاد جميع الكافرين بزمرة
وشوراه في الدنيا بها كل زلفة
لقد رأوا الدخان حول بيوتهم
محمدنا لم يخلق الله مثله
وقد أنزل الجبار قافاً بذكره
بطور سما والنجم ما ضوء احمد
به الله رحمن وفي وقعة ترى

وفي آية الكرسي "أستمنح الطولا
نسالهم بالعقد قد أنعموا القولا
شرفنا وفضلنا وتبنا إلى المولى
وذاكره في الرعد لا يسمع الهولا
وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا
فبجان من أسرى بأحمدنا ليلا
ومريم في الأخرى يكون لها بعلا
ولكن جميع الأنبياء علا فضلا
فأطلع من قد طاف فيها ومن حلا
وفرقائه قد أحمد الكفر والبطلا
إذا قصص في الصكوت لهم تتلى
بأن السيوف أسجدت كل من ضلا
وياسين قد صفت له الملائ الأعل
له غافر في الحرب قد فصلت فصلا
وقد زخرف الكفار في دينهم جهلا
بجائية الأحقاف قد قتلوا قتلا
وفي الحجرات فضله أبدأ يتلى
كما تذر الكفار ريح بها تبلى
كما قمر بل نور خير الورى أجلى
حديداً به الكفار يجلهم جدلا

وقد سمع الغفار دعوة أحمد
صففنا بجمع للأعادي فمنهم
يرى غبته في الخير منهم مطلق
لأحمد ملك لا يوازيه سيد
بحق لقد سألت أباطح مكة
صحيح بأن الجن جاءت لأحمد
للدثر فضل القيامة واضح
وعم يجدواه فلا من منازع
لقد كورت شمس بها انفطر السما
ولكن بروج الجو ترهوا بأحمد
وغاشية كالنجر حلت ببلدة
وفاق الضحى حقاً جين محمد
فأقسم بالتين الذي عم نفعه
ألم يكن الكفار قد ضل سعيهم
وقارعة جلت وألهام الهوى
ألم تر أن الله فضل أحمداً
أريت بأن الكوثر العذب خصه
لقد نصر الرحمن ربي محمداً
فيا أحد إنني بفضلك عائد

بحشر ، ولكن بامتحان به تبلى
مناقق إن الكفر في درك سفلى
ولكن من يجرم نعيماً فقد ضللاً
ونون لقد قلنا مقالاً به استعلى
بفضل الذي قد كان نوح به استعلى
ومزمل كان الغمام له ظلاً
أناه ، وجمع المرسلات حوت سبلا
فحيث تراه لا عبوساً ولا بخلاً
لويل أتى الكفار وانشق واستولى
وفي طارق الأفلاك فضله الأعلى
بها حرم أمن كشمس جلت ليلاً
كما بانشرح الصدر قد خصه المولى
وبالقلم الأعلى لقد ر له أعلى
وقد زلزلوا بالعاديات كما يتلى
ووالعصر إن الويل يقريهم نزلاً
لأمن قريش حيثما سلكوا السبلا
به ، وجميع الكفر لن يردوا أصلاً
فأردى أبا لهب ولم يكتسب نيلاً
إذا غسق الديجور ناديت يا مولى

ولم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة ، وقد سقط منها كما رأيت
سورة الناس ، فقلت مكملًا على نمطه :

ويا مالكا للناس إنني لا أئذ بعفوك فاغفر عمد عبدك والجهلا

ويا رب عاملنا بما أنت أهله من الجود والرحمى وإن لم نكن أهلاً
وصلّ على مسك الختام محمد أمّ صلاة تملأ الحزن والسهلا

[خطبة لعياض يورى فيها بأسماء السور]

وتذكرت بهذا الموضع خطبة القاضي أبي الفضل عياض التي ضمّنها سور
القرآن على المهبج الماضي آنفاً ، وهي : الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه ،
وبين في سورة البقرة أحكامه ، ومد في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه ،
وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس وأر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف
الصدّيق في دار الكرامة ، وسبّح الرعد بحمده ، وجعل الناز برداً وسلاماً على
إبراهيم ، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كهف ولا ملجأ
إلاّ إليه ولا يظلمون قلامه ، وجعل في حروف كهيمص سرّاً مكنوناً قدم بسببه
طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه ، وأوضح الأمر
حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلاًّ وصغاراً لعظمته ،
وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحي القيوم ،
نزل به الروح الأمين على زَيْنَ مَنْ وافى القيامة ، وأفصح لقمان الحكمة بالأمر
بالسجود لرب الأحزاب فسبا فاطر السموات أهل الطاغوت ، وأكسبهم ذلاًّ
وخزياً وحسرة وندامة ، وأمدّ ياسين صلى الله عليه وسلم بتأييد الصافات
فصاد الزمر يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صنائدهم في القليب مكدوس ومكبوب
حين شالت بهم النعام ، وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدرين رضي الله
عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة
العذاب وأيس من السلامة ، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف
الآخرة عن دخان الدنيا فجنوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد صلى الله عليه
وسلم يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتح وبوتوا حجرات الجنان وحين

تلوا ﴿قاف﴾ والقرآن المجيد ﴿﴾ وتدبروا جواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم
 الحقيقة وانشق لهم قمر اليقين فنافروا السامة ، ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت
 الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد وهزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم
 لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين حين نافروا السلامة .
 أحمده حمد من امتحنته صفوف الجموع في نفق الثغابن فطلق الحرمات حين
 اعتبر الملك وعامه ، وقد سمع صريف القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله
 وخلفه وأمامه ، وفاح نوح الجن فترمل وتلاثر فرقا من يوم القيامة ، وأنس
 بمرسلات النبي فترع العيوس من تحت كور الصامة ، وظهر له بالانفطار
 التطفيف فانشقت بروج الطارق بتسبيح الملك الأهل وغشيتة الشهامة ، فورب
 الفجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرفت صدور المتقين ، حين
 تلوا سورة التين ، وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه يبين ، ولم يكونوا
 بمنفكين دهرهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات
 ليظفثوا نور القارعة ، ولم يلهمم التكاثر حين تلوا سورة العصر والمهزة وتمثلوا
 بأصحاب الفيل فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ،
 أرايتهم كيف جعلوا على رؤوسهم من الكور عمامة ، فالكوثر مكتوب لهم
 والكافرون خذلوا وهم نصرروا وعدل بهم عن لب الطامة ، وبسورة الإخلاص قروا
 وسعدوا وبرب الفلق والناس استعاذوا فأعينوا من كل حزن وهم غم وندامة ،
 وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله
 شهادة نال بها منازل الكرامة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت
 في الأيك حمامة ، انتهت .

وممن نسبها للقاضي عياض الشيخ أبو عبد الله محمد ابن الشيخ أبي العباس
 أحمد بن أبي جمعة الوهْراني ، وفي نفسي من نسبتها له شيء لأن نفس القاضي
 في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم .
 وكنت رأيت بتلمسان المحروسة بخط عمي ومفيدي ولي الله تعالى العارف

المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المقي الخطيب سيدي سعيد بن أحمد المقي -
صَبَّ اللهُ عليه سجال الرضوان - خطبة من هذا النمط نصّها :

[خطبة على مثالا لأبي جعفر الطنجالي]

الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفي من آل عمران
رجالاً ونساءً وفضلهم تفضيلاً ، ومدّ مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال
كرمه وحققه على أهل التوبة وجعل ليونس في بطن الحوت سبيلاً ، ونجّى هوداً
من كربته وحزنه ، كما خلّص يوسف من سجنه وجبّه ، وسبّح الرعد بحمده
ويمنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً
نوع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بنحي لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفاً قد
شيد بنيانه ، وأرسل روحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً ، وفضل طه على جميع
الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ،
إذ جعل نور الفرقان دليلاً ، وصدّق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي عجزت
الشعراء عن صدق نفته ، وشهدت النمل بصدق بعثه ، وبين قصص الأنبياء في
مدة مكثه ، ونسج العنكبوت عليه في الغار ستراً مسدولاً ، وملئت قلوب الروم
ربعاً من هيته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان
بدعوته ، وهزم الأحزاب وسباهم وأخذهم أخذاً ويلاً ، فلقبه فاطر السموات
والأرض بياسين كما نفذ حكمه في الصافات ، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات ،
وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهجرهم هجراً جميلاً ، فغفر له غافر
الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم
شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفي دخان الشرك وخربت المشركون
جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلاً ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال
وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز ، وحجر الحجرات الحريز ، وبقاف القدرة

قُتِلَ الْحَرَّاصُونَ تَقْتِيلاً ، كَلَّمَ مُوسَى عَلَى جَبَلِ الطُّورِ ، فَارْتَقَى نَجْمٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَرَبَتْ بِطَاعَتِهِ مَبَادِي السَّرُورِ ، وَأَوْقَعَ الرَّحْمَنُ وَاقِعَةَ الصَّبْحِ
 عَلَى بَسَاطِ النُّورِ ، فَتَعَجَّبَ الْحَدِيدُ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَكَثُرَتْ الْمَجَادِلَةُ فِي أُمَّتِهِ ، إِلَى أَنْ
 أُعِيدَ فِي الْحَشْرِ بِأَحْسَنِ مَقِيلًا ، اِمْتَحَنَهُ فِي صَفِّ الْأَنْبِيَاءِ وَصَلَّى بِهِمْ إِمَامًا ،
 وَفِي تِلْكَ الْجُمُعَةِ مَلِكَتْ قُلُوبَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ التَّغَابِنِ خَسْرًا وَإِرْغَامًا ، فَطُلِقَ وَحَرَّمَ
 تَبَارَكَ الَّذِي أَعْطَاهُ الْمُلْكَ وَعَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ وَرَتَلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ، وَعَنْ عِلْمِ الْحَاقَّةِ كَمْ
 سَأَلَ سَائِلٌ فَسَالَ الْإِيمَانَ ، وَدَعَا بِهِ نُوحٌ فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الطُّوفَانِ ، وَأَتَتْ إِلَيْهِ
 طَائِفَةٌ الْجَنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ،
 فَكَمْ مِنْ مَدَثَرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيقَةً عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا أُرْسِلَ مَرَسَلَاتِ الدَّمْعِ فَعَمَّ
 يَتَسَاءَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَمَا تَقْبَلُ مِنْ نَازِعَاتِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا عَبَسَ عَلَيْهِمْ
 مَالِكٌ وَتَوَلَّاهُمْ بِالْعَذَابِ ، وَكَوَّرَتْ الشَّمْسُ وَانْفَطَرَتْ السَّمَاءُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ
 كَثِيبًا مَهِيلًا ، فَوَيْلٌ لِلْمُطْفَفِينَ إِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ، وَطُوِيَتْ ذَاتُ الْبُرُوجِ
 وَطَرَقَ طَارِقُ الصُّورِ بِالنَّفْخِ لِلْقِيَامِ ، وَعَزَّ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى لِعَاشِيَةِ الْفَجْرِ فَيَوْمَئِذٍ
 لَا بِلَدٍّ وَلَا شَمْسٍ وَلَا لَيْلٍ طَوِيلًا ، فَطُوبَى لِلْمُصَلِّينَ الضَّحَى عِنْدَ انْشِرَاحِ
 صُدُورِهِمْ إِذَا عَايَنُوا التِّينَ وَالزَّيْتُونَ وَأَشْجَارَ الْجَنَّةِ فَسَجَدُوا بِاقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ
 الَّذِي خَلَقَ هَذَا النَّعِيمَ الْأَكْبَرَ لِأَهْلِ هَذِهِ الدَّارِ مَا أَحْيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَتَبَتَّلُوا
 تَبْتِيلًا ، وَلَمْ يَكُنْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ الزَّلْزَلَةِ مِنْ صَدِيقٍ وَلَا
 حَمِيمٍ ، وَتَسَوَّقَهُمْ كَالْعَادِيَاتِ إِلَى سُوءِ الْجَحِيمِ ، وَزَلْزَلَتْ بِهِمْ قَارِعَةُ الْعِقَابِ وَقِيلَ
 لَهُمْ : أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، هَذَا عَصْرُ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ وَحُشْرِ الْمُهْمَزَةِ وَأَصْحَابِ
 الْفِيلِ إِلَى النَّارِ فَلَا يُظْلَمُونَ فِتِيلًا ، وَقَالَتْ قَرِيشٌ : مَا أَمْنَمَ مِنْ هَوْلِ
 الْمُحْشَرِ ، أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ كَيْفَ طُرِدَ عَنِ الْكُوثرِ ، وَسِيقَ الْكَافِرُونَ
 إِلَى النَّارِ وَجَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فَتَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ إِذْ لَا يَجِدُ إِلَى سُورَةِ
 الْإِخْلَاصِ سَبِيلًا ، فَنَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَنَعُوذُ بِرَبِّ
 النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ ، وَنَتُوبِ

إليه ، وثوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، انتهى .
وهي من إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبي المجد عبد المنعم ابن
الشيخ الفقيه العدل أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي
رحمه الله تعالى ونفعنا به وبسلفه الطاهر .

[عود إلى نظم ابن جابر]

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله :

جعلوا لأبناء الرسول علامةً إنَّ العلامةَ شأنٌ مَنْ لم يُشهرِ
نورُ النبوةِ في كريمٍ وجوههم يعني الشريفَ عن الطراز الأخضرِ

وفي هذا المعنى يقول شمس الدين^٢ الدمشقي :

أطرافُ تيجانٍ أتت من سندسٍ خضِرَ بأعلامٍ على الأشرافِ
والأشرفُ السلطانُ خصَّهمُ بها شرفاً لتضرقهم من الأطرافِ

والأشرف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون
الصالح الألفي ، رحمهم الله تعالى .

وقال الرحالة ابن بطوطة في رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح
ابن الملك المنصور ما نصّه^٣ : وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض الشام والعراق

١ ق : وينسله .

٢ ق : شمس الدين الحزوين .

٣ رحلة ابن بطوطة : ٢٣٨ ، وقال ابن بطوطة في الملك المنصور . والد الملك الصالح : كان كريماً
شهير الصيت ولي الملك بها (أي بماردين) نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك التتر وصاهر
السلطان خدابنده بابنته ديار خاتون .

ومصر أكرم منه ، يقصده الشعراء والفقراء فيجزل عطاياهم جرياً على سنن أبيه ،
قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي الهواري الكفيف مادحاً فأعطاه
عشرين ألف درهم ؛ انتهى .

ومن شعر ابن جابر رحمه الله تعالى :

وفي الخيامِ وَمَنْ لي بالخيامِ رَشاً لا أحسبُ البدرَ في حُسْنِ يقاومهُ
مثلُ الغزاةِ إن تاهتْ وإن طلعتْ فكيف يصرفُ عنه الصبُّ لائمهُ

وقوله رحمه الله تعالى :

في القلبِ من حبِّكم بدرٌ أقام بهِ فالطرفُ يبصرُ نوراً حين يبصرهُ
تَشابهُ العقدُ حسناً فوق لَبتهِ والثغرُ نظماً إذا ما لاحَ جوهرهُ

وقوله :

ردفٌ أقام لنا بها فتنَ الهوى وإذا أتت لتقومَ قالَ لها اقعدي
أبصرتها ما بينَ ذاكَ وبينَ ذا فوقعتُ منها في المقيمِ المقعدِ

وقوله :

سامحَ بالوصلِ على بخلِهِ وقال لي أنت بوصلي حقيقُ
فقلتُ ما رأيك في نزهِةِ ما بينَ كاساتِ وروضِ أنيقِ
فقال يعني خده واللمى : هذا هو الروضُ وهذا الرحيقُ
فبتُ منْ دمعي ومن خده ما بينَ نعمانِ وبين العقيقِ
وإذ تذللتُ على حبه قال : أما تخشى ؛ أما تستفيقُ ؟
قدي وخدي خفهُما يا فتي هذا هو الرمحُ وهذا شقيقُ

وقوله :

وَقَفَّتْ لِلوَدَاعِ زَيْنَبُ لَمَّا رَحَلَ الرَّكْبُ وَالْمَدَامُ تُسْكَبُ
مَسَحَتْ بِالْبِنَانِ دَمْعِي ، وَحَلَوُ سَكْبُ دَمْعِي عَلَى أَصَابِعِ زَيْنَبُ

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى :

ومن قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين ابن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه وبينه ، جواباً عن رسالة خاطب بها لسان الدين ابن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرني ذلك الآن قوله :

مالي بحملِ الهوى يَدَانِ مِنْ بَعْدِ مَا أَعُوذَ التَّدَانِي
أَصْبَحْتُ أَشْكُوهُ مِنْ زَمَانِ مَا بَتُّ مِنْهُ عَلَى أَمَانِ
مَا بِالْ عَيْنِيكَ تَسْجِمَانِ وَالْدَمْعُ يَرْفُضُ كَالْحِمَانِ
نَادَاكَ وَالْإِلْفُ عَنكَ وَإِنِ وَالْبَعْدُ مِنْ بَعْدِهِ كَوَانِي
يَا شَقَةَ النَّفْسِ مِنْ هَوَانِ لِحَجِّ فِي أَبْحَرِ الْهَوَانِ
لَمْ يَشْنِهْ عَنِ هَوَاكَ ثَانِ يَا بَغِيَةَ الْقَلْبِ قَدُّ كَفَانِي

وقال بعض الحفاظ في ترجمة أبي الحسن علي بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق : إنّه أخذ عن جماعة غيرهم ، كالشريف القاضي الفقيه أبي علي الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسيني السبتي نزيل تلمسان ، والفقيه الإمام العلامة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبي عبد الله محمد المقرّي التلمساني القرشي ، والشريف العالم أبي القاسم محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب وجدّ الأدارسة .

قال : وروى أيضاً عن القاضي ابن شبرين الإشبيلي ثم السبئي نزيل غرناطة ،
والقاضي أبي البركات البلقيني ، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر ابن صفوان
القيسي المالكي ، وابن خاتمة ، والفقير الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح
العالم أبي عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أبي القاسم محمد الغساني الرحبي نزيل
فاس ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم من الأئمة الأعلام ، نجوم الإسلام ؛ انتهى .

[خطبة للكفعمي في تفضيل أسماء السور]

وقد وقفت للكفعمي رحمه الله تعالى في شرح بديعته على خطبة وقصيدة من
هذا النمط . قال رحمه الله تعالى ما نصه :

ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة ، في فيها عزيزة ، وجعلناها في مدح سيد البرية ،
وتورياتها في السور القرآنية ، فكن لسورها قارياً ، ولمعارجها راقياً ، وعلماً
وانهل من شرابها السكري ، وفكه نفسك بتسجيحها النميري ، وهي هذه :

الحمد لله الذي شرف النبي العربي بالسبع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنعام ،
وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم
بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له الذي نجى يونس وهوداً ويوسف من قومهم برعد الانتقام ، وغذى
إبراهيم في الحجر بلعاب النحل ذات الإسراء فضاهي كهف مريم عليها السلام ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان
الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضلته تخبر ، ولقصص العنكبوت الروم تذكر ،
ولقمان في سجده يشكر ، والأحزاب كأياذي سبا تُقهر ، وفاطر يس لصافاته
ينصر ، وصاد مقلة زمره تنظر الأعلام ، قال حم بقتال فتحه في حجرات قافه
قد ظهرت ، وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عطرت ، وبالرحمن واقعة حديده
يوم المجادلة قد نصرت ، وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حسرت ،

وصفّ جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحرير
ومقام الملك والقلم فناهيك به من مقام ، وفي الحاقة أعلى الله له المعارج على نوح
المتطهر ، وخصته من بين الإنس والجن بيا آيتها المزمّل وبيا آيتها المدثر ، وشقّعه
في القيامة إذا دموع الإنسان مرسلات كالماء المتضجر ، ووجهه عند نبأ النازعات
وقد عبس الوجه كالهلال المنثور ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين
وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حرست لمولده السماء بالطارق
الأعلى وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللثام ، فهو البلد الأمين وشمس
الليل والضحي المخصوص بانسراح الصدر ، والمفضل بالتين والزيتون المستخرج
من أمشاج العلق الطاهر العلي القدر ، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة
تدوس أهل التكاثر ومشركي العصر ، أهلك الله به الهمة وأصحاب القبيل
إذ مكروا بقريش ولم يتواصوا بالحقّ ولم يتواصوا بالصبر ، المخصوص بالدين
الحنيفي والكوثر السلسال والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى
آله وأصحابه ما تبّت يدا معاديه ، ونعم بالتوحيد مواليه ، وما أفصح فلق الصبح
بين الناس وامتد الظلام .

[قصيدة على مثاها للكعبي]

ولنشغ هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن ، في مدح سيد ولد عدنان ،
يحسن هنا أن ننضي عن فرائد نقائسها لطلابها ، ما أغدق من خمرها وستورها ،
ونُجّلّي عن خرائد عرائسها لخطابها ، ما أسدق من غررها في خدورها ،
فانظر إلى سور آياتها وصور تورياتها ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، فحفظاً لها
ووعياً ، وهي هذه :

يا مَنْ له السبعُ المثاني تنزلُ وخواتم البقرهُ عليه تنزلُ
في آل عمران النساء لم تلدُ كنظيره الأجساد ذلكَ تفعلُ

مولى له الأنعام والأعراف والا
 بعلاه توبة يونس قبلت كذا
 وكذلك إبراهيم في حجر له
 يا كهفَ مريمَ أنت طهَ الأنبيا
 يا نورُ يا فرقانُ يا مَنْ مدحه
 والنملُ في قصص الحديث به دعت
 والروم تتلو اسمه ولكم به
 وبغزمه الأحزاب جمعهم سبأ
 يس سمّاه الإلهُ بذكره
 يا لَيْثِي صَادٍ شربت بكأسه
 كم مؤمنٍ قد فُصِّلَتْ أعلامه
 ودخان جاثية على أحقادها
 حجراتُ قاف ذارياتُ سمائه
 ودنا له القمرُ المنيرُ وشقته الـ
 زَغَفُ الحديدُ بحربه أصواتها
 وله لدى الحشرِ العظيمِ شفاعَةٌ
 عن صَفِّ جمعته المنافقُ نائياً
 يا مَنْ به شُرِعَ الطلاقُ ومن له الـ
 يا من به ذو النون لاذ بيئته
 يا من سألَ نوحٌ بظاهرِ اسمه
 مدَّسَّرُ يومَ القيامةِ شافعٌ
 يا مَنْ نزلُ الرسائلِ بيئته

أنفال والحِكم التي لا تُجهل
 هود ويوسف رعدهم يتجلجل
 والنحل في الإسرا عليه تعولُ
 والحج ثم المؤمنون الأفضل
 نطقت به الشعراء وهو المرسل
 وعليه نسجُ العنكبوت يهدلُ
 لقمان حقاً في المضاجع يسألُ
 وبه الملائكةُ الكرامُ تفضل
 وكواكبُ بسعوده لا تأفل
 وعليه في زُمَرٍ وردت فأنهَلُ
 من زخرفٍ بجَدَاهِ يا من يعقل
 بقتاله أظفى وضع أدخل
 في طورها نجمٌ منيرٌ يكمل
 رحمنٌ واقعةٌ له لا تُجهل
 رعدٌ مجادلةٌ لقومٍ أبلوا
 في أمةٍ بالإمتحان تسربلوا
 يومَ التغابن من حديد ينعل
 تحريمٌ والملكُ العظيمُ الأكل
 لما أصيب بحاقة لا تعدل
 يا من أتهُ الجنُّ يا مزَمَلُ
 ومخلصُ الإنسان وهو الموئل
 يا أيها النبأ العظيمُ الأكل

هذا ، وقد عبس الجبين وأذهلوا
والإنفطار من السماء يجعل
في الإنشقاق إذ البروجُ تبدل
لولادةِ الأعلى بهِ يفضل
كالفجر إذ أنواره تتهلل
والشعر ضاهى الليل بل هو أيل
الأنشراحُ ، وقلبه لا يغفل
فاقرأ ولا يرتاب فيه ، واسألوا
وعداه بالزلال منه تزلزلوا
وبقوله الهاكم ما تجهل
ويل لأهل القيل منه وقتلوا
يُسقى غداً من كوثر يتسلسل
مسد إذا التوحيد عنه تعدل
والناس منه مكبر ومهلل
والكفعمي بمدحه يتجمل
ما زال طير الضليل يعندل

والنازعات نزعن نفسَ عدوة
وهو الشفيح إذا المنيرة كورت
ولدى ذوي التطفيف ويئلُ والسما
والله قد حرس السماء بطارق
وأزال غاشية العذاب ونوره
بلدٌ أمين ثم شمس أشرفت
شمس الضحى من وجهه ولصدره
يا من أتى في التين حقاً ذكره
يا من ليالي القدر بيئة له
بالعاديات أزال قارعة العدا
ولقد أتى من قبل عصر نبينا
هو صاحب الإيلاف والدين الذي
والكافرون لنصره في جيدهم
يا خاتماً فلتق الصباح كوجهه^١
أياتها ميقات موسى عدة^٢
صلى عليه الله مع أصحابه^٣

[ترجمة الكفعمي]

والكفعمي هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر
عيما^٣ قرية من قرى أعمال صفد ، كما تقول في النسبة إلى بني عبد الدار :

١ ق : بوجه .

٢ ق : ثم صحابه .

٣ في ق والتجارية: عتبا ، والكفعمي نسبة إلى كفر عيما إحدى قرى جبل عامل ، كما ذكره صاحب =

عبدري ، وإلى حصن كيفا : حصكفي ، وشرحه لبيدعيته سماه نُور حَدَقة
البديع ونُورُ حديقة الربيع «^١ وما رأيت مثله في سعة الحفظ والجمع .

ومن نظمه في أسماء الكتب :

يا طريقَ النجاةِ بحرَ فلاحِ	أنتَ دفعُ المومِ والأحزانِ
أنتَ أنسُ التوحيدِ عِدَّةُ داعِ	ثم روحُ الإحياِ وفلكُ المعانيِ
نهجِ حيِّ ونثرُ درِّ نبيسه	ورِياضُ الآدابِ ذكرى البيانِ
فاتقُ رائعَ مسرةِ راضِ	متهى السؤلِ جامعُ للأمانِ
نزهةُ عِدَّةُ ظرائفُ لطفِ	روضةُ مبهجِ جنانِ الجنانِ
زاهرُ كاملُ شهابِ وكترِ	مجتى من ذخيرةِ الإخوانِ
فصاحُ الألفاظِ فيه تلقى	وشنورُ العقودِ والمرجانِ
وهو قوتُ القلوبِ نهجِ جنانِ	وكنوزُ النجاجِ والبرهانِ

فناسب بين أسماء الكتب ، وقصدُه غيرُ ذلك ، وأكثر هذه الكتب التي
ورى بها غير موجودة بأيدي الناس ، بل ولا معروفة لديهم ، وهذا دليلٌ على
سعة اطلاعه .

ومن بدائع الكفعمي المذكور رسالة كتبَ بها إلى قاضي القضاة العالم العلامة
أبي العباس ابن الفرفور^٢ في شأن أستاذ دار قاضي القضاة المذكور الأمير علاء

= روضات الجنات (٧) نقلا عن بهاء الدين العاملي ، والنسبة الشائعة إليها كفعمياوي . والمترجم به
إمامي المذهب ، وله كتب وأشعار وتصانيف منها : كتاب جنة الأمان الواقية المشتهر باسم المصباح
وكتاب البلد الأمين والدرع الحصين وكتاب نهاية الأرب في أشغال العرب وغيرها ، وقد توفي سنة
٩٠٥ .

١ ذكره حاجي خليفة (١٩٨٢) وأوله : الحمد لله الذي شيد بنيان صرح البيان .
٢ هو شهاب الدين أحمد بن محمود بن عبد الله بن محمود الشهير بابن الفرفور الدمشقي الشافعي (٨٥٢ -
٩١١) ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر سنة ٩١٠ فأتاب عنه
بدمشق ولده ولي الدين (الكواكب السائرة ١ : ١٤١) .

الدين ، ويخرج من أثنائها قصيدة منها : يقبل الأرض وينهي (سلام) عبد لكم
(محب) وعلى المقة مكب (لو بدا) للناظرين (عشر) معشار (شوقه)
وغرامه (لطبتق) ذلك (ما بين) آفاق (السموات) السبع (والأرض) لشدة
هيامه (تراه) حقاً (لكم) حافياً (بالأمن) والسرور (والسعد) والحبور
(داعياً) لا جرم (وهذا) الثناء المتوالي و (الدعا) للمقام العالي (لا شك)
من لازم الفرض (ملكه الله تعالى أزيمة البسط والقبض ، وأنجلك) ربي من
المعاطب (في) دينك و (دياك) وأنقذك (من) شر (كل) صغير (شدة)
وكبيرها ، (وأرضاك) ، وجعلك أميناً (في) الأرض ، إلى (يوم القيامة)
والنشور (والمرض ، كما أنت) أمن (لي) من المخاوف و (عون) في كل
شدة (وغوث) وملجأ (وعدة) وأنجحت آمالي (ووفرت) بإخداكم (لي)
مالي) وأحسنت قرصي (ووفرت) بإجلالك (لي عيرضي ، وينهي) المملوك
(إلى) سيده (قاضي القضاة) وكافي الكفاة (بأن) المتولي الأمين (ذا) الفخر
المبين (علي ابن) المرحوم (فخر الدين) قوله (في أمركم) العالي (مرضي)
وفعله مقضي (ومدحكم) عليه (فرض) واجب (قراه) أبدأ (لسانه) ويذكر
المناب (وجحكم) له واختياركم (إياه) دالٌّ بأنه أمين حليم (شاهده) حقاً
(يقضي) يجعله على خزائن الأرض إنه حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم)
ليس من مدائحه ، و (لا يمر) أبدأ (بقلبه) وجوارحه (وإن مر) في خاطره
(لا يخلو) قطعاً (وحكمكم) عليه شرعاً ، ومرسومكم (يمضي) وأمركم يقضي
(بتيه) سروراً (به) رؤساء أهل الشام ، ومن في (القيبيات) من الأنام ،
(عزة) وعلواً (لخدمته) الشريفة (إياك) ولأته (يا قاضي) قضاة الدين
و (الأرض) لا يريد سواك ، (فإن يك) الخادم المذكور (في) بعض (أفعاله)
غافلاً (أو) في (مقاله) غير كامل و (عصاكم) في بعض الأمر (فعين
العفو) والستر (عن ذنبه) لا جرم (تغضي) ، وهو بتوبته إليه يقضي ،

و (سلام) الله (عليكم) ورحمته لديكم (كلّما) نطق ناطق أو (ذرّاً) في
المشارك (شارق) وما دارت الأفلاك ، (وسبحت) بلغاتها (الأملاك ، في)
فسيح (الطول و) رحب (العرض) ، دوماً ما بين السماء والأرض .
وهذه أبيات القصيدة المتولدة من هذه الرسالة :

سلام محب لو بدا عَشْرُ شوقه	لطبّق ما بين السّموات والأرضِ
تراه لكم بالأمن والسعد داعياً	وهذا الدعا لا شك من لازم الفرض
وأنجاك في دنياك من كل شدة	وأرضاك في يوم القيامة والعرض
كما أنت لي عون وغوث وعدة	ووفرت لي مالي ووفرت لي عِرْضي

هذا ، ويصح أن يقرأ «عوناً» بالنصب على الحالّية ، وهو الذي رأيته
بخطه ، أعني الكفعمي ، ثم قال :

وينهي إلى قاضي القضاة بأنّ ذا	عليّ بن فخرالدين في أمركم مرّضي
ومدحكُمُ فرض قراه لسانه	وحبكم إيساه شاهده يقضي
حديث سواكم لا يمر بقلبه	وإن مرّ لا يحلو وحبكمكم يمضي
يتيه به أهلُ القببات عزّة	لخدمته إياك يا قاضي الأرض
فإن يكُ في أفعاله أو مقالهِ	عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضي
سلام عليكم كلّما ذرّاً شارق	وسبّحتِ الأملاك في الطول والعرض

قلت : وهذه طريقة بدیعة ، وقد تبارى فيها البلغاء ، فبعضهم يعمد إلى
أحاديث أو آيات وينسج على منواله مثلها ، ويفرقها في أبياته أو سجعاته ، ويكتبها
بلون مخالف للأصل ، وقد ذكرت في روضة الورد من «أزهار الرياض» من
كلام ابن عاصم ما لا مزيد وراءه ، فليراجعه مَنْ أراد ، وذكرت في غيره
أيضاً نبذة .

رجع إلى نظم ابن جابر - فمن ذلك قوله :

ناديتُ مَنْ أَسْرِي بهِ بحياة من أَسْرِي بهِ
سلُّ مدمعاً تجري بهِ بلكواه في تجريه

وقوله :

أيها العاذلُ في حبي لهُ خلُّ نفسي في جَواها تحترقُ
ما الذي ضَرَكَ منهُ بعدَ ما صار قلبي في هواه تحت رِقِّ

وله :

بَرْدُ الصِّباحِ على بَرْدِ الصِّبَّاسِ حَرّاً ما زالَ يَدُوكَرنِي أوقاتِ نَعمانِ
لهفي لَمِيشٍ قَضِينا في معاهدِها ما بينَ حُسْنٍ من الدنيا وإِحسانِ

وله رحمه الله تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضاً :

جعلتُ ملاكَ العَيْنِ والقلبِ في الهوى بناطقةَ القُرْطَيْنِ صامتةَ القلبِ
تصحَّفُ لي أَلحاظُها لَينَ قدَّها وتقلُّه كَما تصيدَ بهِ قلبي

قال بعض علماء المشرق : أجاد والله هذا العالم المغربي المقال ، وأراد أن لفظ لين إذا قلب صار «نيلًا» ، وإذا صحف صار «تبلًا» ، وهذا زيادة على ما فيه من التحريف ؛ انتهى .

[من شعر أبي جعفر رقيق ابن جابر]

وقريب منه لرقيق المذكور قوله :

يفترُّ عَن بَرْدٍ يثير بَرْدِهِ حرَّ الغرامِ ولا سبيلَ لرشفه
أخذ الرشا من حُسْنه طَرَفًا لَذا نَسَبَ الوري ملح الجمالِ لَطرفه

وله :

تجرُّ فرعيها على إثرها
فقطُّعُ البدرِ لنا في الدجى
رافلةٌ في حُللِ الحسنِ
وتُرسلُ البدرُ على الغصنِ

وله :

قد نعمنا بجزعِ نَعْمَانَ لَكِنْ
قُلْ لِأَهْلِ الْخِيَامِ أُمَّا فَوَادِي
عَقْنَا الْبَعْدُ ، وَالْعُقُوقُ قَبِيحُ
فَجَرِيحُ لَكِنْ وَدَيَّ صَحِيحُ

وقوله :

مُقَدَّمَاتُ الرِّقِيبِ كَيْفَ غَدَّتْ
تَمَنُّنَا الْجَمْعَ وَالْحُلُوءَ مَعَا
عند لقاءِ الحبيبِ مُتَّصِلَةٌ
وإنما ذاك حُكْمُ مُنْفَصِلَةٍ

وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين :

رحمةٌ أرسلهُ اللهُ لَنَا
وَهَبَ الْمَالَ لِمَنْ مَالَ لَهُ
وَشَفِيحاً قَدْ غَدَا فِينَا غَدَا
وَقَدَى مِنْ ذَنْبِهِ مَنْ وَقَدَا
هو أَحصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدَا
ليس يَحْصِي فَضْلَهُ إِلَّا الَّذِي

وله :

حَسَنَ النِّيَّةِ مَا اسْطَعَتْ وَلَا
إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، مَنْ
تَتَّبِعْ فِي النَّاسِ أَسْبَابَ الْهَوَى
يَنْوِ شَيْئاً فَلَهُ مَا قَدْ نَوَى

وله :

قَالَتْ وَقَدْ حَاوَلْتُ نَيْلَ وَصَالِهَا
بِاللَّهِ قُلْ لِي أَيْنَ نَحْوِكَ يَا فَي
مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ لَا تَجُوزُ الْمَسْأَلَةُ
أَرَأَيْتَ مُوَصُولاً يَجِيءُ بِهَا صَلَّةُ

وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكُرَّتِهِ ، وقضيةُ ابنِ عَينٍ في ذلك مع
المعظم دالةٌ على توقُّدِ فكرته ، وما ذاك إلاَّ أنَّه مرض فكتب إلى الملك المعظم :

انظرْ إليَّ بعينِ مولَى لم يزلْ يُولي الندى وتلافَ قبلَ تلافِي
أنا كالذي ، أحتاجُ ما يحتاجُهُ فاعنمُ دعائي والثناء الوافي

فعاده المعظم وأعطاه ألفاً ، وقيل : ثلاثمائة ، وقال له : هذه الصلة ، وأنا
العائد .

قال بعض المغاربة في هذا : قد تطف ابن عَينٍ في الصلة والعائد ، وأجاد
وسبق المعظم إلى فهم مقصوده مطابقة الحوار فأتى بما يُستغرب عن سيويه
ونظرائه ، فلذلك جعل الشرف ابن عَينٍ ديوانه مملوفاً بمدحه وأطرابه ، ونقلته
من حفزي وفيه بعض تغيير بيتين .

[عود إلى شعر ابن جابر]

وقال ابن جابر المذكور :

يا دارَ ليلي لا صمتك يدُ البلى وسقاك درَّ القيث كلُّ سحابِ
أصبو إلى تلك الربوع ، وكيف لا أصبو وهنَّ منازلُ الأجابِ

وقال من قصيدة :

وأطلبُ تشويقَ الأنامِ بحسنه فاذكرُ من أسمائه كلَّ طيبِ

ومنها :

وإني لم أمدحهُ إلا تشوقاً وإن كان مشهوراً بشرقٍ ومغربِ

وقال :

أمر الشباب [.....]
أسر الهوى مهج الأنام لها
فَهففا فقالت : دَمَعَيَّ أَغْلَى
إذ سلَّ من أعطافها أسلا

وقال :

ظعنوا [والقُدود] منهم رماح
جاد دَمَعِي لَهْم وَقَدْ حَاد صَبْرِي
طَعَنُوا فِي الْحِشَا بِهَا فَأَصَابُوا
حِينَ سَارَتْ بِالظَّاعِنِينَ الرَّكَّابُ

وقال :

شاه وَجَهَ الرَّقِيبِ إِذْ شَاءَ وَصَلِي
زارني بالنَّهَارِ فِي اللَّيْلِ لَكِنْ
قَمْرِي ، وَالْأَنَامُ عَنَّا نِيَامُ
لَيْلُ فَرْعٍ يَحَارُ فِيهِ الظَّلَامُ

وقال :

يا أَيُّهَا الْجَائِرُ فِي حَكْمِهِ
قَدْ كَدَّ مِنْ أَعْدَلِ شَيْءٍ يُرَى
إِنِّي فِيمَا قَدْ جَرَى حَائِرُ
وَأَنْتَ فِي أَهْلِ الْهَوَى جَائِرُ

وقال :

قَدَّ زَعَمَ الْعَاذِلُ لِي أَنَّهُ
مَا هُوَ هَادٍ لِي وَلَكِنَّهُ
يُهْدِي لِي الرَّشْدَ بِمَا يَصْنَعُ
هَازٍ فَسَمِعِي قَالَ لَا تَسْمَعُوا

وقال :

شَفَى فَوَّادِي مِنْ شَقَا هَجْرِهِ
وَزَارَنِي بِحَكْمِي غَزَالَ النِّقَا
وَبَيْتٌ مِنْ لِقْيَاهُ فِي عَيْدِ
فِي الْحَسَنِ لَوْلَا الْحَلِيُّ فِي الْجَيْدِ

وقال :

سلبَ القلبَ غزالٌ قدُهُ قدُ حكي البانَ لنا والسَلَمَا
ساحرُ العينِ إذا أبصره كاتبٌ ألقى لديه القَلَمَا

وقال :

يكفي الأنامَ بسيفه وبسييه عقَدَ المكارهَ والمكارمَ دائما

وقال :

تحلّت بما يحكي محاسن ثغرها وحلّت عقودَ الصبرِ مني عقودُها
ثقيلةُ أردافٍ فصعبُ قيامُها بما حملتُ منها وسهلُ قعودُها

وقال :

أبى حُسْنُها إلاّ افتتانَ قلوبنا فكَمَ قد أباد الحسنُ فيها من الناسِ
وقالت تحمّلُ طولَ هجري إن تُردُ وصالَ ذواتِ الحسنِ قلتُ على راسي

وقال :

أرى أناساً ، من أراد الرضى منهم رجا ما ليس بالممكنِ
سيانَ أن يعطوا وأن يمنعوا قد ضاعَ فيهم كرمُ المحسنِ

وقال :

يا جيرةَ الحيِّ حياً الله وإديكم فكَمَ سرورٍ به للقلبِ قد عرّضا
فلن أنالَ حياةً أستلذّ بها إذا أنا لم أنلُ من وصلكم غرضاً

وقال :

شبَّ حرَّ الفؤادِ ماءً رضاب منهُ قد حارَ فيه ماءُ الغمامِ
زان بالخلي جيدةُ قلت : ماذا ؟ قال : شيءٌ نظمتهُ من كلامي

وقال :

صَادَ قَلْبِي وَصَدَّ عَنِي صِدُودَا
وَأَنْشَى يَسْحَبُ الذُّوَابَ سَوْدَا
فَرَأَيْتُ الصَّبَاحَ فِي اللَّيْلِ يَبْدُو
وَشَهِدْتُ الرَّشَا يَصِيدُ الْأَسْوَدَا

وقال :

لَأَنْتِي سَمَّيْتُ مِنَ الزَّمَانِ لَطُولِ مَا
قَدْ صَدَّ عَنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ رَجَالَهُ
وَمِنَ النُّوَادِرِ فِي زَمَانِكَ أَنْ تَرَى
خِلَاً حَمَدَتْ وَدَادَهُ وَخِلَالَهُ

وقال :

إِنْ قَابَلَ الْغَصْنَ بِأَعْطَافِهِ
فَقُلْ أَنْ تُبْصِرَ مِنْ فَرْقِ
قُلْتُ قَدْ اسْتَبَعَدَ كُلُّ الْوَرَى
فَقَالَ ذَاكَ الْبَعْضُ مِنْ حَقِّي

وقال :

صَحَّ أَنْ الصَّبَاحَ مِنْ وَجَنَّتِيهَا
وَعُصُونَ الرِّيَاضِ مِنْ مَعْطَفِيهَا
قَاتَلَ اللَّهُ عَاذِي قَلَّ يَوْمٌ
لَيْسَ يَسْمَى بِالْعَدْلِ فِيهِ إِلَيْهَا

وقال :

شَدُّوا حَامِلَهُمْ يَوْمَ الرِّحَالِ وَقَدُّ
مَازُوا الْغُصُونَ عَلَى الْكُثْبَانِ حِينَ مَضَوْا
مَحَارِسُومَ اصْطَبَارِي فَقَدُّ مَنْ رَحَلَا
وَأَسْبَلُوا فَوْقَ أَقْمَارِ الدَّجَى كِلَلَا

وقال :

خَدُّ تَرَى الْوَرْدَ بَعْضًا مِنْ مَحَاسِنِهِ
لِصَارِمِ اللَّحْظِ قَدْ أَرَخَى حَمَائِلَ مِينِ
تَبَارَكَ اللَّهُ مَا أَبَى شَمَائِلَهُ
عِذَارِهِ فَحَمَى عَنَا خَمَائِلَهُ

وقال :

قام حادي الركاب ليلاً فغنى
قيل نام الأنامُ فاهجعُ قليلاً
فاستقامَ السرى وثارَ العَرامُ
قلتُ دونَ الحبيبِ لستُ أنامُ

وقال :

ترامى بنا في البيدِ شوقٌ إلى الحمى
فلما رأينا ربَّعَ مَنْ سَكَنَ الحشا
ترى عندهُ الأجفانَ منهلةً الدمعِ
نزلنا فقبلنا ثرى ذلك الربيعِ

وقال :

يراوذي الواشي على حبِّ غيرها
موقرةُ الأردافِ ، مهضومةُ الحشا
وإنَّ محالاً أن يرى مثلَ حسنِها
يُريكِ النضاتِ الظبي فاترُ جفنها

وقال :

سلتُ علينا سيوفاً من لواظها
أضحَّت لسفكِ دمِ العشاقِ هادرةً
ومَنْ لنا من سيوفِ اللحظِ من واتي
فما ترى ديةً في قتلِ عشاقِ

وقال :

في خدِّها شَبَهٌ للخالِ أو شِيَّةٌ
وشئى من الحسنِ لم يحتجِ لصنعِ يدِ
بما حوى الحسنُ من أظافِ أسرارِ
تبارك اللهُ هذي صنعةُ البارِ

وقال :

بين الجوانح لو علمت من الجوى
فدَعِ المدامعِ في مدى جربانها
نارٌ عليها سَكَبُ عيني يَهْمَعُ
فالدمعُ بعدَ فراقهم لا يُمْنَعُ

وقال :

قالوا بدارين قد قالوا ، وقد وردوا
ماء العقيق ، وبالزوراء قد باتوا

بانوا عن العينِ لكن بالقلوبِ ثوروا وفي الهجاءِ عن الأحابِ آفاتُ
وقال :

مليحةُ الخدِّ به شامةُ كالوردِ قد نُقِطَ بالغاليةُ
قلتُ لها : ما اسمك؟ قولي لنا قالت : فما تعرفني غاليهُ
وقال :

جاريةُ جاريةُ في مدَى شبابُها من أُمَلِحِ الخلقِ
ما بينَ فَرَقِ الصبحِ لما بدا ووجهها للناسِ من فرقِ
وقال :

لصبهٍ منه امتدادُ النوى فلا يلامُ الدمعُ في صبِّه
في قدِّه لينٌ فهلاًّ قضى بقلبه منه إلى قلبه
يريدُ بالقلبِ الأولِ التحويلَ والنقلَ : أي فهلاًّ قضى بتقلِّ اللينِ الذي في
قدِّه إلى قلبه .

وقال :

يا لابسَ اللامِ والأسيافِ عاريةُ قد انعطفتَ على الأعطافِ واللامِ
ويا ضجيجَ رماحِ الخطِّ يُرسلها في كلِّ هامٍ لها باللحظِ في الهامِ
الهامِ الأولِ : جمع هامة ، والثاني اسم فاعل من همى يهمي .
قال رقيقه : لو قال « من الهام » لكان أليق بالمعنى وألطف .

وقال :

مَنْ مالَ يبغي كَسْبَ مالٍ لهُ من حِرْمِه إن جاء أو حِلِّه

فلا تثقُ يوماً بهِ واحترزُ منهُ فما يُبقي على خِلتهِ
وقال يتشوق إلى وطنه بالمرية :

للهِ عيشٌ بالمريةِ قد ذهبَ
وهبتُ لنا تلكَ الليالي مدةً
وأخباره بالحسنِ تكتبُ بالذهبِ
ثم استردَّ الدهرُ منا ما وهبَ
وقال :

أنَّ من شوقه فثار الضرامُ
لا تسَلْ ما جرى من الدمعِ لما
ودرى الناسُ أنهُ مُستهمُ
قيل هذي النقا وهذي الخيامُ
وقال :

صلاةُ إلهِ العالمين على الذي
يجودُ على الراحي وإن كان مذنباً
أقلُّ العطايا منه وادٍ من النعمِ
وما قوله للسائلين سوى نعمِ
وقال :

قدْ سبَّ قلبي غزالٌ فاتنٌ
أنا لا أعتبُ فيما قدْ جرى
سَلْ به كيف اعتدى في سَلْبِهِ
صَفَحَ اللهُ لَهُ عَنْ ذَنْبِهِ
وقال :

صبرتُ لهُ فتمادى بهِ
وأنكر بيري ويا طالما
هواهُ ، فكانتْ هي الفاصلةُ
أتاني يوماً فألقى صلةُ
وقال :

وليلٍ نظمنا بهِ شملنا
وفرقنا الدهرُ من بعدِ ذا
كما انتظم البيتُ بالقافيةِ
فلستُ من اليومِ ألقى فيهُ

أي فته ، ولا يكمل التجنيس فيه إلا بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه ، ولما أنشده
قال :

ومن هذا النوع قولُ بعض الأندلسيين :

وقائلٍ قالَ ألا صِفْ لنا بستاننا هذا ونارنجنا
قلتُ لهم بستانكم جنّةٌ ومَن جنى النارنجَ ناراً جنى

وقال ابن جابر المذكور :

قلْ بحقِّ الهوى سمحتِ بوصلٍ ربةَ القلبِ أم نهاكِ الرقيبُ
رُميتُ نيلَ الوصالِ منها فقالت لك وصلٌ غداً فقلتُ : قريبُ

وقال :

زَيْنَ الخلدِ منه صدغٌ كنونٍ قد بدأ نحتُهُ عذارُ كلامِ
قلتُ هذي محاسنُ ابنِ هلالٍ فانشئ وهو ضاحكٌ من كلامي

وقال :

لها حُسْنٌ لها عن كلِّ شيءٍ به قلبي ، فما أنا أستفيقُ
على وجنّاتها نعمانٌ يبدو لنا وشفاهاها هنَّ العقيقُ

وقال :

تمرُّ في ذكركم ، والله ، أحياني ولو سرى طيفكم ليلاً لأحياني
لا يعذبُ العيشُ لي بعد العذيبِ ولا نعيمٌ مثلُ ليالينا بنعمانِ

وقال :

مدارةُ هذا الخلقِ أوليكِ بينهم صفاتٌ هي الأعمارُ والنظمُ داراتُ

وشاراتُ حمدِ المرءِ أن لا تُرى له
على الناسِ ممّا لازمَ الحلمِ داراتُ
وقال :

أرى كدأً سعيي إلى خاملٍ ، ولو
وما الخيرُ يوماً من لتيمٍ بممكنٍ
وقال :

أرى حَيْدِي عن كلِّ طارئٍ نعمةٍ
فمن أخذَ المعروفَ من غيرِ أهلهِ
تروحُ الليالي وهو في عُنُقِهِ غُلٌّ
أراحَ يدي من أن يُقَيِّدَها الذلُّ
وقال :

شبا لحظها الماضي وحسنُ شبابها
كثيبُ النقا من ردفها ، وقضيئُهُ
لمعطفها ، والبدرُ تحتَ نقابها
هُما حملاً نفسي من الوجدِ ما بها
وقال :

حلَّ عَقْدَ الصبرِ مني عَقْدُها
تحسُّ الدرُّ على لَبَّتِها
إذ نبتَ قلبي بما في قلبها
أنجماً قد كُتِلَ البدرُ بها
وقال :

شعراً كالليلِ يَبْدُو نَحْتَهُ
نَقَلَ السواكُ عن ميسمه
فمرُّ قد حارَ شعري في صفاته
أنَّ ماءَ الوردِ يجري من لثاته
وقال :

مَنْ سَنَّ تَلْكَ اللِحَاظَ فَاتَّبَعَتْ
تَقْتَلُ عَشاقَها بلا سببٍ
من سِنَّةِ الحَبِّ كلِّ متبِعٍ
وذاك في الحَبِّ غيرُ مبتدِعٍ

وقال :

وما شجواُ صالٍ لوعةَ الهجرِ قد قضى
كشجوٍ محبٍ لم يذقْ لذةَ الرضى
زمانَ وصالٍ لم تُكدرْ مشاربه
ولا باتٍ والغيدُ الحسانُ تلاعبه

وقال :

سرتُ في رحالِ العيسِ منه أهلةٌ
بعيشك قلْ لي هل دروا كيف علّتي
فأيسرُ حالٍ أن أزودها قلّتي
وفيضَ دموعي بعد مُنصرفِ الركبِ

وقال :

من جنابِ الحمى إذا الناسُ ناموا
هو قدّ نالَ كلَّ ما يتمنى
وسعتُ في مُرادِهِ الأيامُ
من جنابِ المعاني

وقال :

لطائفُ حسنها برُبوعِ قلّتي
تريك تكاسلاً في اللحظِ منها
لطائفُ الجأتني للغرامِ
لتحسبه تنبّهً من مَتامِ

وقال :

إذا زُرْتَ حيّاً بالعقيقِ فحيّهمْ
حرامٌ فراقُ العيسِ حتى تُحلّتي
وذكرهمْ عهدي وحقّ ودادي
بواديه من تلك الوجوهِ بوادي

وقال :

من فرطٍ ما في الطرفِ من فتنهٍ
قالَتْ نَسيتَ العهدَ قلتُ اكفني
قدّ غلبَ الحبُّ على الناسِ
عني فما عبدكِ بالنّاسي

وقال :

بينَ نعمانٍ وسَلْعٍ مَلَأَ ليسَ منهمُ لمحِبِّ أَلَمِ
كَلَفِي منهمُ بِبَدْرِ حَلٍّ فِي فَتَلِكِ العَلِيَاءِ فَاعْرِفْ مَنْ هُمُ

وقال :

أراقبها وحينَ أرى سبيلاً أقاربها فتنفّرُ كالغزالِ
وقالت أنتَ مرتقبٌ لماذا فقلتُ لها : ارتقابي للهِلالِ

وله من قصيدة مطوّلة في فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت ، فمما يختص منها بأبي بكر رضي الله تعالى عنه قوله :

فمنهمُ أبو بكر خليفَتُهُ الذي له الفضلُ والتقديمُ في كلِّ مشهدِ
وصديقُ هادي الخلقِ والمؤثرِ الذي لإنفاقه للمالِ في الله قَدُّ هُدِي
وصهرُ رسولِ الله ، وابنتُهُ التي يبرئها نصُّ الكتابِ المُمجَّدِ
وصاحبه في الغارِ إذ قال لا تخفُ فثالثنا ذو العرشِ أوثقُ منجدِ
وسدَّ على المختارِ مخرجَ حَيَّةٍ هناكَ برجلٍ منه فازتُ بأسعدِ
وفيه وفي خيرِ الأنامِ تسامعوا بمكَّةَ صوتَ الهاتفِ المتقصدِ^١
« جزى الله ربَّ الناسِ خيرَ جزائه رقيقين حلاًّ خيمتي أمَّ معبدِ »^٢
وعتقُ بلالٍ حسبهُ ، فهو سيّدُ تأثّلَ في الإسلامِ ، إعتاقُ سيّدِ

١ يقال إن أهل مكة سمعوا بعد هجرة الرسول ومعه أبو بكر هاتفاً يقول : جزى الله ... إلخ البيت التالي ؛ وقد مر الرسول وصاحبه بخيمتي أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف الخزاعية فقالا عندها ، ويقال إنها ذبحت لهما شاة وطبختها (انظر إمتاع الأسماع : ٣ ؛ وعيون الأثر ١ : ١٨٨ - ١٨٩) .

٢ رواية البيت في عيون الأثر (١ : ١٨٨) :

جزى الله خيراً والجزاء بكفه رقيقين قالا خيمتي أم معبد

وقد وردت الرواية المثبتة في النسخ مع وضع « قالا » موضع « حلا » في ص : ١٨٩ من الكتاب المذكور .

وقال رسولُ الله إنَّ أُمَّنَّكُمْ
فصدَّق إذ كذبتُم ، وأطاع إذ
ولو أنتي من أُمِّي كنت آخذاً
لكان أبو بكر ، ولكن أخوة
فلما أراد الله قبضَ نبيّه
تقدم في نيلِ الخلافةِ بعُده
وقد فارقتُ يومَ السقيفةِ فرقةً
وقام عليٌّ بعُد ذلك مبيعاً
وأظهرَ عنراً في تأنيهِ صادقاً
قَابَ بِحمدٍ منهمُ غيرَ قاصرٍ
وما أشبه الصديقَ في الفضلِ مشبهٌ

عليٌّ أبو بكر وأوفى بموعِدِ
عصيمٌ ، ووافاني موافاةً مُسعدِ
خليلاً تولّى خلتي وتودُدِي
في الإسلامِ مهما تنقصِ الناسُ تُزددِ
وصار إلى دارِ النعيمِ المخلدِ
بإجماعهمُ لا بالحسامِ المهنّدِ
فلما رأته الحقَّ لم تُرددِ
فأثني ثناءَ المخلصِ المتودّدِ
وباعَ طوعاً لا لفقدانِ مسندِ
ومن يتبعِ الإنصافَ والحقَّ يُحمدِ
ولا أُحصيت أوصافُهُ بتعددِ

ومما يختص بعمر رضي الله تعالى عنه قوله من هذه القصيدة :

ويتبعه في فضله عُمُرُ الذي
وما كلُّ مَنْ رام السعادةَ نالها
هو المرءُ لم يتركْ له الحقُّ صاحباً
ولا سلكَ الشيطانُ فجاً قد اغتدى
ومِن ظلّه قد كان ينفرُ هيبَةً
رمى عن قسيِّ الصديقِ قوسَ مُسدّدِ
ولكنّه مَنْ يُسعدِ الله يُسعدِ
ولا قعدَ الشيطانُ منهُ بمقعدِ
لهُ سالكاً من خوفه المتريّدِ
لهُ حيثما أضحي يروحُ ويغتدي^٣

١ يشير إلى الحديث: « ما من أحد أعظم عندي يداً من أبي بكر وأساني بنفسه وماله » رواه الطبراني ، وفيه أخطاء أبو حاتم وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٩ : ٤٦) .

٢ هو تعبير عن الحديث : « لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر ولكن إياه ومودة إلى يوم القيامة » رواه الطبراني ، وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك (المصدر السابق ٩ : ٤٥) .

٣ في الأحاديث : « إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خسر لوجهه » (مجمع الزوائد ٩ : ٧٠) وهناك أحاديث أخرى في خوف الشيطان منه . وفي صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) : والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك .

وقد جاء عنهم : ما برحنا أعزةً
ومن قولهم : إسلامه كان غرة
وإمرته كانت على الناس رحمة
ومن فضله رعي النبي بغيرة
وقد قيل للفاروق : هذا ، ومن به
فأقبل يبكي قائلاً كيف غيرني
ورؤيا رسول الله للقدح الذي
وناوله الفاروق من بعد ما ارتووا
فأوله العلم الذي منه ناله
فصارت له غرباً فأروى بها الورى
ورؤياه أيضاً في قميص يجره
فأول خير الخلق طول قميصه
وتفريقه ما بين حق وباطل
وسمي بالفاروق من أجل هذه
وحسبك أن الله وافق رأيه
كذا في أذان والحجاب وجعلهم

بإسلامه فانكف من كان يعتدي
وهجرته فتحاً شجاً كل ملحد
فأبوا إلى فتح وعز مهتد
له فأنثى عن قصره المتشيد
فأنبأه عن ذا النعيم المؤبد
عليك ، ولولا أنت ما كنت أهندي
تناول من در به غاية الصدي
إلى أن غدا من ظفره الري يتندي
وأول رؤيا الدلو حسن التأيد
فكان افتتاح الأرض فتح مهتد
وللناس قمص بعضها يبلغ الشدي
بما حاز في إيمانه من تأيد
يوم سقى الكفار أفضع مورد
وما زال في نص الهدى ذا تجلد
لدى يوم بدر إذ رأى قتل من فدي
مصلى مقاماً للخليل بمسجد

- ١ يشير إلى الحديث : « دخلت الجنة فرأيت فيها داراً أو قصرأ فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخل فذكرت غيرتك ؛ فبكى عمر وقال : أي رسول الله ، أو عليك يفا ؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٣) وورد فيه الحديث بصورة أخرى وانظر مجمع الزوائد ٩ : ٧٤ .
- ٢ عن ابن عمر عن النبي (ص) أنه قال : بينا أنا نائم إذ رأيت قدساً أتيت به فيه لبن فشربت حتى لأرى الري يجرى في أطافيري ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب ، قالوا : فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : العلم . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٣ عن أبي سعيد عن النبي (ص) قال : بينا أنا نائم رأيت الناس يمرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي ومنها ما هو أسفل من ذلك ، وعرض علي عمر وعليه قميص يجره . فقال من حوله : ما أولت يا نبي الله ذلك ؟ قال : الدين . (الرياض النضرة ١ : ٢٧٥) .
- ٤ عن عمر أنه قال : وافقت ربي في ثلاث : مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر (وانظر =

شديدٌ على أهل الهوى رحمةٌ لمن
ومما رَوَوْا إن كان في أمةٍ فتي
وما أبغض الفاروقَ إلا مُفارقٌ
لدين الهدى ذو مذهبٍ لم يسدِّدْ
عن الحقِّ لَمْ يَجْنَحْ ولم يتحمَّدْ
يُحَدِّثُ فالفاروقُ من ذاك فاعدداً

ومما يختصُّ بعثمان رضي الله تعالى عنه قوله :

وحسبي عثمانُ بن عفان أنه
إمامٌ صبورٌ للأذى وهو قادرٌ
هو الجامعُ القرآنَ والقانتُ الذي
ويقطعُ بالصوم النهارَ ويتشي
وقال رسولُ الله في بشر رومةٍ
لَهُ الجنةُ العليا بذلك فاشترى
فقال رسولُ الله إذ جاءهُ بما
هنيئاً لعثمان بن عفان فعلهُ
وقولُ ألا أبدي حياءً لمن له
وبلغ بشرى الهاشميِّ بأته
ولكن على بلوى ، وقال سأرتضي
عليه اعتمادي وهو سؤلي ومقصدي
حليمٌ عن الجاني جميلُ التعودِ
إذا جنَّ ليلٌ ليس بأوي لمترقَدِ
مدى ليله في خشيةٍ وتهجدِ
أما مشترٍ يبغي بها الأجرَ في غدِ
وتجهيزُ جيشِ العسرةِ اذكر وعددِ
قد احتاج من مالٍ وظهْرٍ وأعبُدِ
وما ضرَّهُ ما بعدُ مع هذه اليدِ
قد استحييتِ الأملاكُ أشرفُ محتدِ
من الجنةِ العليا بأكرمٍ مقعدِ
وأصبرُ صبرِ الطائع المتجلدِ

= تفصيل ذلك في الرياض النضرة ١ : ٢٦١ وما بعدها وانظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ .

١ في صحيح مسلم (٢ : ٢٣٤) قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم ؛ قال ابن وهب في تفسيره محدثون : ملهون . وانظر الرياض النضرة ١ : ٢٦٠ .

٢ من فضائل عثمان أنه جهز جيش العسرة بتسمائة وخمسين بعمراً وأتم الألف بخمسين فرساً (وقيل أكثر من ذلك) وقال فيه الرسول « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » - وهو حديث حسن غريب - وأنه اشترى بشر رومة بعشرين ألف درهم (انظر الرياض النضرة ٢ : ١٢٠ - ١٢٢) .

٣ يشير إلى الحديث الذي ينص على أن الرسول (ص) كان مضطجماً في بيته كاشفاً عن فخذه أو ساقه، فاستأذن أبو بكر ثم عمر وهو على تلك الحال، فلما استأذن عثمان جلس وسوى ثيابه، فلما سئل في ذلك قال: « ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟ » (صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤-٢٣٥).

فأظهر يوم الدار صبر أولي النهى
ولم يرضَ ، صوناً للدماء ، بحربهم
فمات شهيداً صابراً فهو خير من
على بنتي المختارِ أرخى ستوره
ولم يدع ذا النورين إلا لأته
وإن لعثمانَ بنِ عفانَ رتبةً
ولو شاء لم تظفر به يدُ معتد
وكان متى يستنجد القومَ يُنجد
على نفسه في غيرِ حقٍ قد اعتدِي
فناهيك من مجدٍ وعزٍّ مجدّد
حوى بيته نورين من نورِ أحمد
من المجد تسمو عن سيماكٍ وفرقد
ومما يختص بعلي رضي الله تعالى عنه قوله :

وإن علياً كان سيفَ رسوله
وصهرُ النبيِّ المجتبي وابنُ عمته
وزوجه ربُّ السما من سمائه
بخير نساء الجنة الغرِّ سؤدداً
فباتا وحليُّ الزهدِ خيرُ حلاهما
فأثرت الجنات من خلل ومن
وما ضرَّ من قديبات والصفوف لبسه
وقال رسولُ الله إنِّي مدينةٌ
ومن كنتُ مولاه عليٌّ وليته
وإنك مني خالياً من نبوة
وقال غداً أعط اللواء محبباً
فباتوا وكلُّ يشتهي أن يناها
فنادى علياً ثم أبرأ عينه
فأعطاه إياها وقال له ادعهم
وصاحبه السامي لمجد مشيد
أبو الحسين المحتوي كُلاً سؤدداً
وناهيك تزويجاً من العرشِ قد بُدي
وحسبك هذا سؤدداً لسؤد
وقد آثرا بالزاد من جاء يجتدي
حلياً لها رعيّاً لذلك التزهد
وفي السندس الغالي غداً سوف يفتدي
من العلم وهو الباب ، والباب فاقصد
ومولاك فاصدق حبّ مولاك ترشد
كهرون من موسى وحسبك فاحمداً
إليّ وللرحمن بالنصر مرتدي
إلى أن بدا وجهُ الصباحِ المجدود
بتفت كأن لم يمس قبلُ بأرمد
ومهما أبوا فانهد إليهم تؤيد

١ أشار في هذا البيت وما سبقه إلى أحاديث في فضائل علي منها : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » و « من كنت مولاه فعلي مولاه » ومنها « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » .

فجدل منهم من جنى عندما دعا
وقاتل طول اليوم والباب ترسه
فأعجزهن الباب من بعد عشرة
وكان من الصبيان أول سابق
وجاء رسول الله مرتضياً له
فمسح عنه التراب إذ مس جلده
وقال له قول التلطف « قم أبا
وفي ابنه قال المصطفى ذان سيدا
وأرسله عنه الرسول مبلغاً
وقال هل التبليغ عني ينبغي
وقد قال عبد الله للسائل الذي
وأما علي فالتفت أين بيته
بأميرين من حرٍّ وبرد فلم يجد
وما زال صواماً منياً لربه
قتنوعاً من الدنيا بما نال ، معرضاً
لقد طلق الدنيا ثلاثاً ، وكلّما
وأقربهم للحق فيها وكلّهم

إلى الحرب دعوى الفاتك المتمرد
يجرّ به للقوم في كل مرصدا
فما الظن في هذا القوي المؤيد
إلى الدين لم يسبق بطائع مرشد
وكان عن الزهراء بالمشرد
وقد قام منه ألفاً للتفرد
تراب « كلام المخلص المتودد
شبابكم في دار عزٍ وسؤدد
وخص بهذا الأمر تخصيص مفرد
لمن ليس من بيتي فبالقوم فافتد
أتى سائلاً عنهم سؤال مندّد
وبيت رسول الله فاعرفه وأشهد
أذى بردها أو حرها المتوقد
على الحق قواماً كثير التعبد
عن المال ، مهما جاءه المال يزهد
رأها وقد جاءت يقول لها ابعدني
أولو الحق لكن كان أقرب مهتد

ومنها في ذكر السبطين رضي الله تعالى عنهما :

- ١ قص في هذه الأبيات إعطاء الراية لعملي يوم خيبر : « لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه »
ثم سأل عن علي فقيل : إنه يشتكي عينيه ، فأرسلوا إليه ، فلما جاء بصق في عينيه ودعا له فبرئ
حتى كأن لم يكن به وجع ؛ وفي الهجوم على الحصن طرح ترسه وتناول باباً عند الحصن فترس به
نفسه . . . إلخ . (الرياض النضرة ١ : ٢٤٢ - ٢٤٧) .
- ٢ في سبب تلقيب علي بأبي تراب انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٢٨ .

وبالحسنين السيدين توسلي
هما قرنا عين الرسول وسيدا
وقال : هما ريحاناي ، أحب من
هما اقتسما شبه الرسول تعادلا
فمن صدره شبه الحسين أجله
وللحسن السامي مزايا كقوله
سيصلح رب العالمين به الوري
وإن تطلبوا ابناً للنبي فلن ترؤا
بدا سيداً ظهر الرسول قد ارتقى
فقالوا له طال السجود فقال لا
وكان الحسين الصارم الحازم الذي
شبهه رسول الله في البأس والندی
لمصرعه تبكي العيون وحقها
فبعداً وسحقاً لليزيد وشمره

بجدهما في الحشر عند تفردي
شباب الوري في جنة وتخلد
أحبهما ، فاصدقهما الحب تعدد
وماذا عسى يحصيه منهم تعددي
وللحسن الأعلى وحسبك فاعدد
هو ابني هذا سيد وابن سيدا
على فرقة منهم وعظم تبدد
سواي : مقال منه غير مفند
فقر ولم يعجله وهو بمسجد
ولكنما ابني خفت إن قمت يشردا
متي يقصر الأبطال في الحرب يشدد
وخير شهيد ذاق طعام المهند
فله من جرم وعظم تمرد
ومن سار مسرى ذلك المقصد الردي

ومنها في ذكر حمزة رضي الله تعالى عنه :

ومن مثل لث الله حمزة ذي الندى
فكم حزاً أعناق العداة بسيفه
فقال رسول الله : هذا أمرته
وقال أبو جهل : أصبت محمداً

مبيد العدا مأوى الغريب المطرد
وذب عن المختار كل مشدد
ولي أسد ضار لدى كل مشهد
بما ساءه فاهتر هزة سيد

١ إشارة إلى الحديث : إن ابني هذا سيد وليصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين . (مجمع الزوائد ٩ : ١٧٨) .
٢ انظر الخبر عن الحسن كيف جاء وهو طفل فصعد على ظهر النبي وهو ساجد . (المصدر السابق ص : ١٧٥) .

وأهوى له بالقوس ما بين قومه ، وقال له : إني على دينه فإن فذلَّ أبو جهل وأبدى تطفلاً فعاد وقد نال السعادة واهتدى وفي يوم بدرٍ حثَّ عند سؤالهم لمن كان لإعلامٍ بريشٍ نعامةٍ فذاك الذي والله قد فعلتُ بنا وفي أحدٍ نال الشهادة بعدما ففاز وأضحى سيدَ الشهداء في وصلي رسولُ الله سبعينَ مرّةً وقال : مصابٌ لن نُصابَ بمثله وأسمعهم لكن حمزة ما له نوائحهُ وزاد إلى فضلِ العمومةِ أنه وما زال ذا عرضٍ مصونٍ عن الأذى كريمٌ متى ما أوقد النَّارَ للقري

وقال : وأخرى بالحسام المهند أطقتَ فمرجَ عن طريقيَ واردد ومن ينصرَ الحقَّ المُبين يؤيدُ وأضحى لدين الله أكرم مسعد لما شهدوا من بأسه المتوقد يشردنا مثلَ النعامِ المشرّد أفاعيلُهُ في الحربِ ما لم نُعودَ أذاقَ سباعاً للردى شرَّ مورد ملائكةِ الرحمن يسعى ويغتدي عليه إلى ثنتين عند التعدّد وإن كان لي يومٌ سأجزى بأزيد وبشر بالنارِ النوائح ما عدي وقلن يا عين اسعدي^٢ أخوه رضاعاً هكذا المجدُّ فاشهد ومالٍ مهانٍ في العطايا مبدد « تجد خير نار عندها خيرٌ موقد »^٣

ومنها في ذكر العباس رضي الله تعالى عنه :

١ يتحدث عن إسلام حمزة بعد أن سمع أن أبا جهل أساء إلى النبي فجاء إلى أبي جهل بفناء الكعبة ، وجمع يديه بالقوس وضربه بها فيقال إن أبا جهل قال له : « ما كنت يا أبا عمارة فاحشاً » وعلى أثر هذه الحادثة أعلن إسلامه . (مجمع الزوائد ٩ : ٢٦٧) .

٢ تتحدث كتب السيرة بإسهاب عن استشهاد حمزة يوم أحد على يد وحشي ، وحزن النبي عليه ، وصلاته عليه كلما صل على شهيد من أمته ، وقوله « لكن حمزة لا بواكي له . . . » وقوله « لن أصاب بمثلك أبداً » .

٣ شطر بيت للحطيئة (ديوانه : ٥١) وصدوره : متى تأته تعشو إلى ضوء ناره .

وقد بلغ العباس في المجد رتبة
 ألا إنه فضل السقاية قد حوى
 وكان طويل الباع في الباس والندی
 ويوم حنين ليس ينسى ثباته
 وقال رسول الله فيه علي ما
 ألا إن عم المرء صنو أبيه كي
 وبشره أن الخلافة في الوری
 بشيئته استسقوا إذ المحل شامل
 تقول لبدري التم : قصرت فابعدي
 فكان لوفدي الله أكرم مورد
 كريماً متى يسترفدي القوم يرفد
 ودعوته مستنجداً كل منجد
 عليه وأيضاً مثله في التزید
 يزيدهم في بره المتأيد
 لأولاده من سيد ومسود
 فجاءهم غيث سقى كل فد فد

انتهى ما وقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة ، وليس بيدي الآن ديوان
 شعره حتى أكتبها بكاملها فإنها مناسبة لهذا الباب الذي جعلناه ختماً للكتاب
 كما لا يخفى .

ومن مقطعات ابن جابر :

شغفت بها حيناً من الدهر لم يكن
 وما أصل هذا كله غير نظرة
 سوى سكب دمي في محبتها كسي
 إلى مقلة منها أضعت لها قلبي

وقال :

قد بان عذري في مליح له
 إنني على الهجر مطيع له
 لحظاً رشاً يلحظ من دُعر
 ممثلاً في السر والجهر

وقال :

هذا الرشا يقنص ليث الشرى
 لو عارض العاذل يوماً له
 بنظرة منه فلا مخلص
 لكان من أول ما يقنص

وقال :

ظبيةٌ في ثغرها لَعَسٌ يُجتنى من رشفه عَسَلٌ
سَلَكَ التيهُ بمقلتها مسلِكاً قد زانه كسلٌ

وقال :

رَقَمَ الخالُ خَدَّها فرأينا قَمَرَ الأفقِ فيهِ نقطةٌ ليلِ
قلتُ: أين الكئيبُ والغصنُ؟ قالتُ: كلُّ ما قد ذكرتَهُ تحتَ ذيلي

وقال :

إن خفتَ من فتكِ المهتدِ والقنا فإذا رَتَّتْ وإذا مشتُ لا تقربِ
في قلبِ بُرُقِعتها محاسنُ أنزلتِ قَمَرَ السماءِ لنا بقلبِ العقربِ

وقال :

رأى عذولي حُسْنَهَا بعدما حَقَّقَ كوني للهوى جانحا
فقال إن كنتَ محباً لها فقد حمدنا رأيك الناجحا

وقال :

ذكرَ اللهُ بالمريّةِ عيشاً لستُ عن ذكره الجميلِ أحولُ
طالَ عهدي بها وما دمتُ حيّاً لا يزيدُ الرجاءُ بل قد يطولُ

وقال :

مَرَّتْ ليالٍ بالمريّةِ طالما قَضَيْتُ من ليلٍ بهنٍ مآربا
لم أسلُ عن تلكِ الديارِ وإنما جعلَ الفضاءَ لكلِ نفسٍ غالبا

وقال :

لا تَعْقُتِي عن العقيقِ فإنتي
وعلى تُرْبِهِ وَقَفْتُ دموعي
بين أكنافه تركتُ فؤادي
ولسُكَّانهِ وهبتُ ودادي

وقال :

عرف المنزل الذي دار فيه
فشجاه قلبُ التلاقي فراقاً
زمنُ الأُنسِ والشبابِ النضيرِ
وانثنى عنهُ ذا فؤادٍ كبيرِ

وقال :

جمالُ هذا الغزالِ سحرٌ
هلالُ خَدَيْهِ لم يُغَيِّبْ
غزالُ أنسٍ يصيدُ أسداً
دلاله دلٌّ كلُّ شوقٍ
كماله لا يخافُ نقصاً
نباله قد رمت فؤادي
حلالٌ وصلي له حرامٌ
زلالُ ذاك الحمى حياتي
قتاله لا يطاقُ لكنْ
يا حبّذا ذلك الجمالُ
عني وإن غُيِّبَ الهلالُ
فاعجبُ لما يصنعُ الغزالُ
عليّ إذ زانتهُ الدلالُ
دام لهُ الحسنُ والكمالُ
يا حبّذا تلکم النبالُ
وحكم قتلِي له حلالُ
وأين لي ذلك الزلالُ
يعجبني ذلك القتالُ

وقال :

بين تلك الخيامِ أكرم حيّ
قد أقاموا بين العقيقِ وسلعِ
طَرَبَتْ للندى عليهم خيامُ
فحياةُ النفوسِ حيثُ أقاموا

وقال :

إذا جئتَ نجداً كرم الله عهدَه
فسلم على أهل المنازلِ من نجدِ

لئن حال بُعدُ الدارِ بيني وبينهم فإتني لأرعاهمُ على ذلك البعدِ
وقال :

خَجَلتْ عندما نظرتُ إليها وانثنتْ وهَيَ بينَ تيهٍ ومنعِ
إنما ورَدُ خدِّها زرعُ طرفي حينَ مروا فكيفَ أحرَمُ زرعِي
وقال :

لكَ نفسِي إذا بدتَ لكَ نَجْدُ فلَقَدتُ سرِّي الزَّمانُ بنجْدِ
فلتلكَ الخيامِ عندي عهدُ وأبى اللهُ أنَ أُضَيِّعَ عهدِي
وقال :

سلْ عن القومِ إن بدتَ لكَ سَلْعُ فصُوادي عِنْدَ الذينَ بسَلْعِ
لي على تلکمُ المعاهدِ دمعُ كادَ يُغني بها عَن اللثِّ دمعِي
وقال :

صفحوا عَنَ محبهم وأقالوا من عثارِ النوى ومَنّوا بوصلِ
لستُ أستوجبُ الوصالَ ولكن أهلُ تلكَ الخيامِ أكرمُ أهلِ
وقال :

مالَ الزمانُ بهمُ عَنِّي وقدَ بعدوا لم يلهني عنهمُ أهلٌ ولا مالُ
إتني لأخشى وما الأيامُ طوعُ يدي أني أموتُ ولي في القلبِ آمالُ
وقال :

بينَ وادي النقا وبانِ المِصَلّي ملأَ ألبسوا الوجودَ جَمالاً
إن يكنِ قد نوى لي الدهرُ قرباً منهمُ فهوَ قد كفاني نوالاً

وقال :

زرتُ الديارَ عن الأُحبةِ سائلاً ورجعتُ إذلالاً بدمعِ سائلِ
ونزلتُ في ظلِّ الأراكَةِ قائلاً والرَّبُّ أخرمسُ عن جوابِ القائلِ

وقال :

لا أوحشَ اللهَ المنازلَ منهمُ منهمُ غدتُ تلكَ الديارُ حسانا
فاشكرُ لدهركَ أن أراكَ بجاجرٍ بانَ الحمى وأراكهُ قد بانا

وقال :

لكَ يا واديَ العقيقِ عَلَيْنَا كلُّ ما شئتُ من ذمامٍ وثيقِ
فمنَ البرِّ أنِّي أتبرِّى مِن عقوقِ لمتزلٍ بالعقيقِ

وقال :

يا أهلَ ذي سَلمٍ بشرى لستلمِ ذاكَ الثرى مُقَدِّمِ في السيرِ لم ينمِ
يؤمُّ داراً بها خيرُ الورى حسباً الخاتمُ الرسلِ من عَرَبٍ ومن عجمِ

ولنقتصر من كلام ابن جابر في هذا الموضع على هذا المقدار ، وإنما أظنبت فيه لما تقدم من الاعتراض على لسان الدين في عدم توفيقه بحق المذكور وحق رفيقه ، مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره ، وأيضاً فإن كليهما غريب عندنا بالمغرب ، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كل الاشتهار ، وكان خيرهما في الشرق أشهر .

[من شعر رفيق ابن جابر]

وأما رفيقه شارح بديعته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع بعض حاله وكلامه ، ولتَنزِدْ هنا ما تيسر ، فنقول : من نظمه :

لَمَّا عَدَا فِي النَّاسِ عَقْرَبُ صُدْغَهَا
وَالصَّبِيحُ تَحْتَ خَمَارِهَا مُتَسْتَرٌ
كَفَّتْ أَذَاهُ مِنْ الْوَرَى بِالْبَرْقِعِ
عَنَّا مَتَى شَاءَتْ تَقُولُ لَهُ أَطْلِعْ

وقال :

تَجَنَّتْ فَجَنَّةً فِي الْهَوَى كُلُّ عَاقِلٍ
وَمَا وَعَدَتْ إِلَّا عَدَّتْ فِي مِطَالِهَا
رَأَاهَا وَأَحْوَالُ الْمُحِبِّ جَنُونَ
كَذَلِكَ وَعَدُّ الْغَايَاتِ يَكُونُ

وقال :

لَا تَجِدُوا فِي الْهَوَى عَلَى كَلْفٍ
لَهْفَانُ مَا يَشْتَكِي إِلَى أَحَدٍ
نَظِيرُهُ فِي الْغَرَامِ لَنْ تَجِدُوا
ظَمَانُ غَيْرَ الدَّمُوعِ لَا يَرُدُّ

وقال :

رَبِّ لَيْلٍ قَطَعْتُهُ بِالْجَزِيرِ
قَصَرَ الْأَنْسُ مَا تَطَاوَلَ مِنْهُ
فَتَذَكَّرْتُ أَهْلَنَا بِالْجَزِيرِ
وَكَذَا أَرْمُنُ السَّرُورِ سِيرِهِ

قال : والجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمى بالعاصي ،
والثانية جزيرة الأندلس .

وله أيضاً :

وَمَا لِي وَالتَّزِينَ يَوْمَ عِيدٍ وَجِيدُ صِبَابِي بِالْدمِ حَالِي
وَقَدْ أَرْسَلْتُ أَشْهَبًا بَرِيدًا وَبَعْدَ كَمِيَّتِهَا يَنْبِي بِحَالِي

والمراد بالأشهب الدمع الذي لا يشوبه شيء ؛ وبالكميّة الدمع المشوب
بالدم ، قال رحمه الله في شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصّه :
قلت : وكان هذا الوادي المبارك زمن عثمان رضي الله تعالى عنه ذا قصور محتفّة ،
وحدات ملنّسة ، وبنيان مشيد ، ونخل طلعه نضيد ، وجنات تؤتي أكلها كلّ حين ،

وسواقٍ تجري بهِ بماءٍ معين ، ثم لعبت بهِ أيدي السنين ، وغيرت معالهُ
 فصار عبرةً للناظرين ، فلم يبق من معاهدهِ إلا آثارٌ تشهد بحسنه ، ونضرة نعيم
 تدلُّ على ما سلف من نضارةِ غصنه ؛ وقد خرجنا إلى هذا الوادي أيام مجاورتنا
 بالمدينة الشريفة ، وهو يتدفق بمائه ، ويعارضُ بجوهرِ حبابه أنجم سماءه ، وقد
 سألتُ شعباه ، وفاض عُبابه ، والناسُ تفرقوا في جهاته ، وافترشوا غصنَ نباته ،
 والشَّيخُ قد توشَّحَ بالندى ، والأنسُ قد راح بهِ وغدا ، والأصيلُ مُذهبُ الرداء ،
 والبيداءُ مخضرةُ الأنداء ، وبجافتهِ آثارُ قصور ، ليس لها في الحسنِ قصور ، قد
 بليتْ وحسنها جديد ، وخربت وربَّعها بالأنسِ مشيد ؛ انتهى .

ومن بديع نظمه قوله :

مهلاً فما شيم الوفا منقادةً لمنِ ابتنى من نيلها أوطارا
 رتبُ المعالي لا تنالُ بجيلةٍ يوماً ولو جهد الفتي أو طارا

وقوله رحمه الله تعالى :

على وادي العقيق سكبتُ دمعي بلا عينٍ فيبدو كالعقيقِ
 فكم غصنٍ وريقٍ منه يُحكى قوامَ رشا شهبيِّ فمِ وريقِ

وقال :

سألتك بالله يا من غدا يصرفُ بالقلبِ أفعالهُ
 تداركُ محباً بدرياقٍ وصلِ فإنَّ بعادك أفعى لهُ

وقال :

لا تأمننهُ على القلو بِ فمهُ أصلُ غرامها
 فلحاظهُ هنَّ التي رمَّتِ الوري بسهامها

ومن فوائده رحمه الله تعالى في شرح البديعية ما نصه : ومن غريب ما في

« لَدَى » أن أبا علي حكى في تذكرته عن المفضل أنها أتت بمعنى « هل » وأنشد :

لدى من شبابٍ يشتري بمشيب وكيف شبابُ المرء بعدَ ذهابٍ ؟^١

رجع - وقال رحمه الله تعالى يتشوق إلى حمراء غرناطة :

ذابت على الحمراء حمراً مدامعي والقلبُ فيما بين ذلك ذائبُ
طال المدى بي عنهم ولربما قد عاد من بعد الإطالة غائبُ

وقال :

ما هبَّ من نحو السبيكةِ بارقُ^٢ إلا غدا شوقي لقلبي شابكا
والله ما اخترتُ الفراقَ لربها لكن قضاء الله أوجب ذلكا

وقال :

منازلُ سلمى إن خلتَ فلطالما بها عمرتُ في القلبِ مني منازلُ
رسائلُ شوقي كلَّ يومٍ تزورها وما ضيَّعتُ عند الكرامِ الرسائلُ^٢

وقال :

بجورِ الوداعِ لنا موقفُ أذاب الفؤادَ لأجلِ الوداعِ
فما أنا أنسى غداةَ النوى وحادي الركائبِ للبينِ داعي

قال : وجور الوداع موضع بظاهر غرناطة ، عادة من سافر أن يودع هناك .

وقال :

ناولته وردةً فاحمرَّ من خجلٍ وقال : وجهي يُغني عن الزهرِ

١ ق : ذيب .

٢ ق : الرسائل .

الحدُّ وردٌ ، وعيني نرجس ، وعلى
خدِّي عذارٌ كريحانٍ على نهرٍ
وقال رحمه الله تعالى في التشريع :

يا راحلاً يبغني زيارة طيبة
حيّ العقيق إذا وصلت وصف لنا
وإذا وقفت لدى المعرف داعياً
زالّ العنا وظفرت بالأوطارِ
نلتَ المني بزيارة الأخيارِ
وأدي مني بأطياب الأخبارِ

وقال :

يا أولاً في المرسلين وآخراً
من قبّل آدم قد جعلت نيته
أوحى إليك لكي تكون حبيبه
الله خصّك بالكمال ليرضيك
قدماً فقدّمك الإله ليحلبك
ويتمّ نعمته عليك ويهديك

وقال :

صيرتني في هواك اليوم مشتهراً
زعمت أنّ غرامي فيك مكتسبٌ
لا قيسٌ ليلى ولا غيلانٌ في الأوّل
لا والذي خلق الإنسان من عجلٍ

وقال :

لا تُعادِ الناس في أوطانهم
وإذا ما شئت عيشاً بينهم
قلّما يُرعى غريبُ الوطنِ
«خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ»

وقال :

نسختي اليوم في المحبة أصلٌ
نقلوا مرسل المدامع منها
قد رواها قبلي جميلٌ وقيسٌ
فعليتها اعتمادٌ كلّ عميدٍ
وصحيح الهوى بغير مزيدٍ
حينَ هاما بكلّ لحظٍ وجيدٍ

ومن فوائده : أنه لما أنشد في « طراز الحلة » قول سعد الدين محمد بن عربي
في ابن مالك :

إنَّ الإمامَ جمالَ الدينَ فضَّلَه

« إلى آخره » قال ما ملخصه : ولما أورده الصفدي في « فض الختام » قال :
هذا في غاية الحسن لو كان الكتاب المذكور يسمى « الفوائد » وإنما هو « تسهيل
الفوائد » فذكر المضاف إليه دون المضاف ، وهي تورية ناقصة ، قلت : ابن مالك
له كتابان : أحدهما « الفوائد » صنعه أولاً ثم صنع « تسهيل الفوائد » بعده ،
وكأنه سهَّلَ فيه كتابَ الفوائد ، وكنت وقفت على هذا الكتاب المسمّى بالفوائد
ببلدنا غرناطة ، فلما وصلنا إلى هذه البلاد بحثنا عنه فلم نجده ، وتمادى الأمر
على ذلك إلى سنة ٧٦٠ ، فوجدناه في حلب ، وهو الآن عندنا ، وهو عزيزُ
الوجود ، ولذلك خفيَ على القاضي صلاح الدين ؛ انتهى وبعضه بالمعنى .
وقال أبو جعفر أحمد المترجم به : كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين
خليل الناسخ :

مَدَدْتَ النوى وَقَصَرْتَ اللَّقا
أَرْضِي بِهَذَا وَأَنْتَ الْخَليلُ
وَتَرَكَ أَحْمَدَ ذَا وَحْشَةٍ
لَدَيْكَ وَأَنْتَ لَهُ ابْنُ جَليلِ

وقال :

قد كان لي أنسٌ بطيب حديثكم
والآن صار حديثكم برسولِ
ولقد مددتُ من النوى مقصوره
إنَّ الخليلَ يراه غيرَ جميلِ

وله رحمه الله تعالى :

ما للنوى مُدَّتْ وَأَنْتَ خَليلنا
أَتَبَعْتَ فِي ذَا مَذْهَباً لَا يُرْتَضَى
ولقبيلُ قد قصرت برغم الكاشحِ
أبداً وليس الرأيُ فيه بصالحِ

وله :

ولما رأى الحسادُ منك التفاتةً إلى جانب اللّهُ الذي كان مرفوضاً
أضافوا إلى عتياك كلَّ نصيحةٍ حقيقٍ لدينا بالإضافة مفضوضاً

وله :

حُسْنُكَ ما بين الوري شائعٌ قد عُرِفَ الآن بلام الطلر
فجاء منه مبتدأ للهوى خببره الأَسُّ مع الجلنار
ولنقتصر على هذا المقدار إلى هنا .

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى :

وقد قلنا أن علي بن لسان الدين كان نديمَ السلطان وخاصته ، كما ذكرنا
في مخاطبته لابن مرزوق في الباب الخامس قوله : فالسلطانُ يرعاه الله تعالى يوجب
ما فوق مزية التعظيم ، والولدُ هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظ قلَّ أن ينالوه
بغير هذا الإقليم ، والخاصةُ والعامّةُ تعامل بحسب ما بَلَّتْهُ من نصيحِ سليم
وترك لما بالأيدي وتسليم ، وتديير عاد على علوها بالعذاب الأليم ، إلا من
أبدى السلامة وهو من إيطان الحسد بحال السليم ؛ انتهى .
ولقد صدق رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصيح وغيره .

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطان ، ونصه : « من
عبد الله أمير المسلمين محمد وصلَّ الله تعالى سعده ، وبلغه من فضله العميم
قصدَه ، إلى أوليائنا المخصوصين منا ومن سلفنا بدمام الجوارِ القريب ،
والمساكنة التي لا يتطرقُ إلى حقها الذي بني استرايةُ المستريب ، المعتمدين إذا
عدت الرعايا ، وذكرت المزايا ، بمزيد الاعتناء والتقريب ، من الأشياخ
الجلَّة الشرفاء والعلماء ، والصدور الفقهاء ، والعلول الأذكيا ، والأعيان

الوزراء ، والحُماة المدافعين عن الأرجاء ، والأمناء الثقات الأتقياء ، والكافة الذين نصل إليهم عوائد الاعتناء ، ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السواء ، من أهلِ حضرتنا غرناطة المحروسة بفضل الله تعالى وربّصها ، شرح الله تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صدورهم ، وكنف بنتائج الاستقامة سرورهم ، وأصلح بعنايته أمورهم ، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم وأمورهم : سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته .

« أمّا بعد حمد الله الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباساً ، والذكرى لبناء المتاب أساساً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي هدانا إلى الفوز العظيم ابتغاء لرحمته والتماساً ، والرضى عن آله الذين اختارهم له ناساً ، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداء واقتباساً ، فلانّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى إعزازكم وحرس أحوالكم ؛ وجعل للعمل الصالح اهتزازكم ؛ وبقبول النصائح امتيازكم - من مستقرنا بمحروسة الحمراء ، حماها الله سبحانه ، ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هداية تظهر على الأقوال والأعمال ، وعناية تحف من اليمين والشمال ، وتوكل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال ، وأنتم أولياؤنا الذين لا ندخر عنهم نصحاً ، ولا نهمل في تدبيرهم ما يثمر نجحاً ، وبحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحة ترشدكم إذا غفتم ، وموعظة نقصها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واختلقتم ، وذبح عنكم تارة بسلم نعتدّها ، ومطاولّة نُسدّها ، وتارة بسيوف في سبيل الله تعالى نحدّها ، وعمارة للشهادة ترددها ، ونفوس بوعده الله نعدّها ، ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم ، وبالكد لتتدع صبيانكم وولدانكم ، وباقتحام المخاوف ليتصل أمانكم ، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا ، أو أمكننا أن لا تفضلكم رعيةً بصلاح دينٍ أو دنيا لفعلنا ، هذا شغل زماننا منذ عرفناه ، ومرمى همنا مهما استهدفناه ، وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم ، وملائنا طاعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ،

والراعي إذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيبة ، ويتتبع مساقط الغمام الصيبة ، ويوردها الماء النмир ، ويتبع لها النماء والثمار ، ويصلح خللها ، ويداوٍ عللها ، قلَّ عَدَدُهَا ، وهدمت غلَّتْهَا وولدها ، فندم على ما ضيعه في أمْسِهِ ، وجنى عليها وعلى نَفْسِهِ .

« وألفيناكم في أيامنا هذه الميامنِ عليكم قد غمرتكم آلاء الله تعالى ونعمه ، وملأت أيديكم مواهبهُ وقِسْمَهُ ، وشغل عدوكم بفتنة قومه فنتم للعافية فوق مهاد ، وبعَدَ عهدكم بما تقدم من جهدٍ وجهاد ، ومخمصيةٍ وسُهاد ، فأشفقنا أن يجركم توالي الرخاء إلى البَطَر ، أو تحملكُم العافيةُ على الغفلة عن الله تعالى وهي أخطرُ الخطر ، أو تجهلوا مواقعَ فضله تعالى وكرمه ، أو تستعينوا على معصيته بنعمه ، فمن عرف الله تعالى في الرخاء وجده في الشدَّة ، ومن استعد في المهل وجد منفعة العدة ، والعاقلُ من لا يغرُّ في الحرب أو السلم بطول المدة ، فالدهر مُبلي الجِدَّة ، ومستوعب العِدَّة ، والمسلمون إخوانكم اليوم قد شغلوا بأنفسهم عن جبركم ، وسلموا لله في نصركم ، ونشبت الأيدي ولا حول ولا قوَّة إلا بالله بشغركُم ، وأهمتهم فتن تركت رسومَ الجهاد خالية خاوية ، ورياض الكتاب الخضر ذابلة ذاوية ، فإن لم تشمروا لما بين أيديكم في هذه البرهة فماذا تنتظرون ؟ وإذا لم تستنصروا بالله مولاكم فبمن تستنصرون ؟ وإذا لم تستعدوا في المهل فمتى تستعدون ؟ لقد خسر من رضي في الدنيا والآخرة بالدون ، فلا تأمنوا مكر الله ﴿ فلا يأمنُ مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون ﴾ (الأعراف : ٩٩) .

« ومن المنقول عن المِلل ، والمشهور في الأواخر والأول ، أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربهم ، وانقطعت عنهم الرحمات ، ووقعت فيهم المثالات والنقمت ، وشحَّت السماء ، وغيض الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجفَّت الضرُوع ، وأخلفت الرضوع .

« فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التي توظف من السنّة ، ونفرع آذانكم بقوارع الألسنة ، فأفزعوا الشيطان بوَعْيها ، وتقربوا إلى الله تعالى برَعْيها ، الصلاة الصلاة فلا تهملوها ، ووظائفها المعروفة فكمّلوها ، فهي الركنُ الوثيق ، والعلم المائل على جادة الطريق ، والخاصة التي يتميز بها هذا الفريق ، وبادروا صفوفها المائلة ، وأتبعوا فريضة النافلة ، وأشرعوا إلى تاركها أسنة الإنكار ، واغتموا بها نواشيء الليل وبوادي الأسحار ، والزكاة أختها المنسوبة ، ولدتها المكتوبة المحسوبة ، فمن منّعها فقد بخل على مولاه ، باليسير ممّا أولاه ، وما أحقّه بذهاب هبة الوهاب وأولاه ؛ فاشترّوا من الله تعالى كرائم أموالكم بالصدقات ، وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف النفقات ، وواسوا سؤالكم كلما نُصبت الموائد ، وأعيدت للترفّ العوائد ، واروعوا حق الحوار ، وخذوا على أيدي الدعرة والفجّار ، وأخرجوا الشنآن من الصدور ، واجعلوا صِلّة الأرحام من عزّم الأمور ، وصونوا عن الاغتيال أفواهكم ، ولا تعودوا السفاهة شفاهكم ، وأقرضوا القرض الحسن إلهكم ، وعلموا القرآن صبيانكم ، فهو أسُّ المبنى ، وازرعوه في تراب تراثهم فعسى أن يُجنّى ، ولا تركوا النصيحة لمن استنصح ، وردوا السلام على مَنْ بتحية الإسلام أفصح ، وجاهدوا أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، وثابروا على حلق العلم والتعلّم ، وحفوا بمراقي التكلّم ، وتعلّموا من دينكم ما لا يسعكم عند الله تعالى جهله ، ويتبين أنكم أهلّه ، فمن القبيح أن يقوم أحدكم على وقاية بُره وشعيّره ، ورعاية شاتيه وبعيّره ، ولا يقوم على شيء يخلص به قاعدة اعتقاده ، ويُعدّه منجاة ليوم معاده ، والله عزّ وجل يقول ولقوله يرحل المتجعون ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لِئِنَّا لَا تَرْجِعُونَ ﴾ (المؤمنون : ١١٥) .

« واثقفوا من الحوادث الشنيعة ، والبدع التي تفتّ في عصّد الشريعة ، فقد شنّ علينا الملبّسة بأهل التصوف المغار ، ونال حملتها بل جملتها بإغماضهم

الصغار ، وتؤول المعاد والجنة والنار ، وإذا لم يَغُرَّ الرجل على دينه ودين أبيه فعلى مَنْ يَغَارُ ، فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء ، هم أئمةُ الاقتداء ، والكواكبُ التي عَيْنُها الحقُّ للاهتداء ، فاحذروا معاطبَ هذا الداء ، ودسائس هذه الأعداء .

« وأهم ما صرفتم إليه الوجوه ، واستدفعتم به المكروه ، العملُ بأمره جل وعلا في الآيةِ المثلوةِ - ، والحكمةُ السافرةُ المجلوةُ ، من ارتباط الخليل وإعداد القوة ، فمن كان ذا سعةٍ في رزقه ، فليَقَسِّمَ الله بما استطاع من حقه ، وليتخذ فرساً يعمر محلته بصهيله ، ويقتنه من أجل الله وفي سبيله ، فكم يتحملُ من عيالٍ يلتمسُ مرضاتهم باتخاذِ الزينة ، والتنافس في ترف المدينة ، ومؤونة الارتباط أقل ، وعلى الهمة والدين أدل ، إلى ما فيه من حماية الخوذة ، وإظهار العِزة ، ومن لم يحسن الرمي فليتدرب ، وباتخاذ السلاح إلى الله فليقترب ، وقبل الرمي تُرَأْسُ السَّهَامِ ، وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام .

« والسكَّةُ الجارية في حوادث نواديكم ، وأثمان العُرُوض التي بأيديكم ، مَنْ تحيَّفَ حروفها ، ونكَّرَ معروفها ، أو سامح في قبول زَيْفٍ ، أو مبخوس حيف ، فقد اتَّبَعَ هواه ، وخان نفسه وسواه ، قال الله عز وجل ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الشراء : ١٨١) ولتعلموا أن نبيكم صلوات الله عليه إنما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضياً ، وعن الهفوات حليماً متغاضباً ، فمستكوا بحبِّله ، ولا تعدلوا عن سبِّله ، يُرْوِكُم اللهُ تعالى من سبِّله ، ويُرَاعِيكُم من أجله ، مُرَاعَاةَ الرجل لنتجِّله ، فهو الذي يقول ﴿ وما كانَ اللهُ ليعذبَهمُ وأنْتَ فيهم ، وما كانَ اللهُ مُعذِّبَهُمُ وهمُ يستغفرون ﴾ (الأنفال : ٢٢) وإن كان في وطنكم اليوم سعة ، وقد ألحفكم أمن من الله تعالى ودعة ، فاحسبوا أنكم في بلد محصور ، وبين لحبي أسدٍ هَـصُور ، اكتنفكم

بحرٌ يعبُّ عبابه ، ودار بكم سورٌ بيدِ عدوكم بابه ، ولا يدرى متى ينتهي
السُّلم ، وينشعب الكَلَم ، فإن لم تكونوا بناءً مرصُوصاً ، وتستشعروا الصبر
عموماً وخصوصاً ، أصبح الجناح مقصوفاً ، والرأي قد سلبته الحيرة ، والمال
والحریم قد سلبت فيه الضنانة والغيرة ، وإن شاء الله تهبُّ ریح الحمية ، ونصرة
النفوس على الخيالات الوهمية ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله مُثِمُّ
نوره على رغم الجاحدين وكره الكافرين ﴿ وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ
فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) .

« واعتقدوا أن الله تعالى لم يجعل الظهور مقروناً بعدد كثير ، ولو مثل جراد
مزرعة أثارها مثير ، بل بإخلاص لا يبقي لغير الله افتقاراً ، ونفوس توسع ما
سوى الحقي اقتداراً ، ووعد يصدق ، وبصائر أبصارها إلى مشابهة الجزاء تحديق ،
وهذا الدين ظهر مع الغربة ، وشظف التربة ، فلم ترعه الأكاسرة وفيولها ،
والقياصرة وخبولها ، دين حنيف ، وعلم مُنيف ، من وجوه شطر
المسجد الحرام تولى ، وآيات على سبعة أحرف تتلى ، وزكاة من الصميم تنتقى ،
ومعارج ترتقى ، وحج وجهاد ، ومواسم وأعياد ، ليس إلا تكبير شهير ، وأذان
جهير ، وقوة تعد ، وثغور تسد ، وفيء يقسم ، وفخر يرسم ، ونصيحة تهدي ،
وأمانة تؤدى ، وصدقة تخفى وتبدي ، وصدور تشرح وتشفى ، وخلق على خلق القرآن
تحذى وتقفى ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا العقد قد سُجِّل ،
والوعدُ به قد عُجِّل ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ (المائدة : ٣) ولا ينقطع لهذا الفرع عادةٌ
وصليه ، ما دام شبيهاً بأصله ، وإنما هو حلبٌ لكم زبدته المخوضه ،
وخلصته المخوضه ، والعاقبة للمتقين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾
(ص : ٨٨) .

« وحضرتمكم اليوم قاعدة الدين ، وغاب المجاهدين ، وقد اخترعت بنا أيامنا
هذه وأيام والدنا المقدس الآثار الكبار ، والحسنات التي تنقلت بها الأخبار ،

وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة ، والمنقبة المبرورة ، وهي يمارستان يقيم منكم المرضى المطرحين ، والضعفاء المغترين منهم والمعرضين في كل حين ، فأنتم تطؤونهم بالأقدام ، على مرّ الأيام ، ينظرون إليكم بالعيون الكليّة ، ويعربون عن الأحوال الذليلة ، وضرورتهم غير خافية ، وما أنتم بأولى منهم بالعافية ، والمجانين تكثر منهم الوقائع ، وتنفش منهم إمامة العهد الذائع ، عار تحظره الشرائع ، وفي مثله تُسدّ الذرائع .

«وقد فضلتهم أهل مصر وبغداد ، بالرباط الدائم والجهاد ، فلا أقل من المساواة في معنى ، والمنافسة في مَبْتَى ، يذهب عنكم لؤم الحوار ، ويزيل عن وجوهكم سِمَات العار ، ويدل على همتكم ، وفضل شيمتكم ، أهل الأقطار ، وكم نفقة هانت على الرجل في مشروع ، وحرص اعتراه على ممنوع ، فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع ، ولولا اهتمامنا بمرتزة ديوانكم ، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم ، لسبقناكم إلى هذه الزئفة ، وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمل الكلفة ، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنة بينائه ، وأسهمناكم في فريضة أجره وثنائه ، فنحن إن شاء الله تعالى نعين له الأوقاف التي تجري عنها المرفقة ، وتتصل عليه بها الصدقة ، تأصيلاً لفخركم ، وإطابة في البلاد لذكركم ، فليشاور أحدكم هيمته ودينه ، ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمينه ، ونسأل الله تعالى أن يوفقك كلاً لهذا القصد ويعينه ، ومن وراء هذه النصائح عزم ينهيا إلى غايتها ، ويجبر الكافة على اتباع رأيها ورايتها ، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول ، وتلقوا داعي الله تعالى فيها بالقبول ، والدنيا مزرعة الآخرة ، وكم معتبر للنفوس الساخرة ، بالعظام الناخرة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (فاطر: هـ) وأنتم اليوم أحقّ الناس بقبول الموعدة نفوساً زكية ، وفهُوماً لا قاصرة ولا بطيّة ، وموطن جهاد ، ومستسقى غمام

من رحمة الله تعالى وعياده ، وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن ،
وألقوا فيها العطن ، فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم ، وصحة إيمانكم ،
وتساوي إسراركم وإعلانكم ؟

« اللهم إنا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحملة ، وبلغناهم نصيحتك
المكلمة ، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤلمة ، فيسرتنا وإياهم لليسرى ،
وعرفنا لطائفك التي خفي فيها المسرى ، ولا تجعلنا ممن صم عن النداء ،
وأصبح شماتة الأعداء ، فما ذل من استنصر بجنابك ، ولا ضل من استنصر
بسنتك وكتابك ، ولا انقطع من توسل بأسبابك ، والله سبحانه يصل لكم
عوائد الصنع الجميل ، ويحملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ، ويصل
سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .
انتهى .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان السلطان بعد كلام :

« الله الله في الهمم فقد خمدت ريحها ، والله الله في العقائد فقد خفيت
مصاييحها ، والله الله في الرجولية فقد قل حدها ، والله الله في الغيرة فقد
تعتسرت جدتها ، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله ، والله الله في الحریم
فقد مد إلى استرقاقه يد تأميلة ، والله الله في الملة التي يريد إطفاء سناها ، وقد
كل فضلها وتناهى ، والله الله في الحریم ، والله الله في الدين الكريم ، والله الله
في القرآن ، والله الله في الجيران ، والله الله في الطارف والتالد ، والله الله في الوطن
الذي توارثه الولد عن الوالد ، اليوم تستأسد النفوس المهينة ، اليوم يستنصر
الصبر والسكينة ، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذمم ، اليوم يسلك سبيل
العزم والحزم والشدة والشتم^١ ، اليوم يرجع إلى الله المصرون ، اليوم يفیق من
نوم الغفلة المغترون ، قبل أن يتفاقم الهول ، ويحق القول ، ويُسد الباب ، ويحيق

١. اليوم . . . والشتم : سقطت من ق .

العذاب ، ويسترق الكفر الرقاب ، فالنساء تقي بأنفسهن أولادهن الصغار ،
والطيور ترفرف لتحمي الأوكار ، إذا أحست العيث^١ بأفراخها والإضرار ،
تمر الأيام عليكم مرّ السحاب ، وذهابُ الليالي لكم ذهاب ، فلا خير يفضي
إلى العين ، ولا حديث في الله تعالى يُسمع بين اثنين ، ولا كد إلا لزيئة يُحلتى
بها نحرٌ وجيد ، ولا سعي إلا لمتاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد ، وبالأمس
نُدبتم إلى التماس رُحْمى مسخرِ السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال
مرسل الديمة ، ومحبي البشر والبهيمة ، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء ،
وأغبرت جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء ﴿ وفي السماء رزقكم وما
توعدون ﴾ (الذاريات : ٢٢) وإليها الأكف تمدون ، وأبوابها بالدعاء تقصدون ،
فلم يُصحر منكم عدد معتبر ، ولا ظهر للإنابة ولا الصدقة خبر ، وتثوقل عن
إعادة الرغبة إلى الولي الحميد ، والغني الذي ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق
جديد ﴾ (إبراهيم : ١٩) وإيم الله لو كان هوأ لارتقت الساعات ، وضافت
المتسع ، وتزاحمت على أنديته الجماعات .

« أنعزأ على الله وهو القوي العزيز ؟ أتليسا على الله وهو الذي يميز الخبيث
من الطيب والشبه من الإبريز ؟ أمعاندة والنواصي في يديه ؟ أغروراً بالأمل
والرجوع بعد إليه ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من ينزل الرزق ويفيده ؟ من
يرجع إليه في الملمات ؟ من يرجى في الشدائد والأزمات ؟ من يوجد في المحيا
والمات ؟ أفي الله شك يخلج القلوب ؟ أثم غير الله يدفع المكروه ويسر
المطلوب ؟ تفضلون على اللجل إليه عوائد الفضل ، ونزه الجهل ، وطائفة منكم
قد برزت إلى استسقاء رحمته تمد إليه الأيدي والرقاب ، وتستكشف بالخضوع
لعظمته العقاب ، وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب ، وكأنتكم عن كرمه

١ ق : العياث .

٢ ق : الجالية .

قد استغنيتم ، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم .
«أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله عليه من التبليغ باليسير ، والاستعداد للرحيل إلى دار الحق والمسير ، ومداومة الجوع ، وهجر الهجوع ، والعمل على الإياب إلى الله تعالى والرجوع : دخلت فاطمة رضي الله تعالى عنها ويدها كسرة شعير فقال : ما هذا يا فاطمة ؟ فقالت : يا رسول الله خبزت قرصة وأحببت أن تأكل منها ، فقال : يا فاطمة أما إنته أول طعام دخل جوف أهلك منذ ثلاث . وكان صلى الله عليه وسلم يستغفر في اليوم سبعين مرة يلتمس رحماه ، ويقوم وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى ورمت قدماه ، وكان شأنه الجهاد ، ودأبه الجِد والاجتهاد ، ومواقف صبره تعرفها الربى والرهاد ، ومقامات رفقته تحوم على مراتبها الزهاد ، فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون ؟ وإذا لم تهتدوا به فبمن تهتدون ؟ وإذا لم ترضوه باتباعكم فكيف تعترُونَ إليه وتتسبون ؟ وإذا لم ترغبوا في الاتصاف بصفاته غضباً لله تعالى وجهاداً ، وتقللاً من العَرْض الأذنى وسهاداً ، فقيم ترغبون ؟

« فابتروا حبال الآمال فكل آت قريب ، واعتبروا بمثلات من تقدم من أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب ، وتفكروا في منابرها التي يعلو عليها واعظ وخطيب ، ومطيل ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة ، المعمورة بأنواع الطاعة ، وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم ، وعاقب الجمهور بما أغضوا عنه عيونهم ، وساءت بالغفلة عن الله تعالى عقبى جميعهم ، وذهبت النجمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم ، وأصبحت مساجدهم مناصب للصليان ، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان ، هذا والناس ناس والزمان زمان .

« فما هذه الغفلة عن الله الرجعى وإليه المصير ؟ وإلى متى التساهل في حقوقه

وهو السميع البصير ؟ وحتى متى مد الأمل في الزمن القصير ؟ وإلى متى نسيان اللجج إلى الولي النصير ؟ قد تداعت الصلبان مجلبة عليكم ، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم ، أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم ؟ وأسنة الآيات تنادىكم ، لم تمتح سطورها ، ولا احتجب نورها ، وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل ، وصابر فيها كل خطب جليل ، فوالله لو تمحض الإيمان ، ورضي الرحمن ، ما ظهر التلث في هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأيد ، لكن شمل الداء ، وصم النداء ، وعميت الأبصار فكيف الاهتداء ؟ والباب مفتوح ، والفضل ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعاً فهو الغفور الرحيم ، ونستقل مقيل العثار فهو الرؤوف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم ، سُدت الأبواب ، وضعفت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا فتاح يا وهّاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم ﴾ (محمد : ٧) ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ، ولا تهنوا ولا تحزّنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (آل عمران : ١٣٩) ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) أعلوا الخيل وارتبطوها ، وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها ، فمن خاف الموت رضي بالدنية ، ولا بد على كل حال من المنية ، والحياة مع الذلّ ليست من شيم النفوس السنية ، واقتنوا السلاح والعدة ، وتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدة ، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم ، واستميتوا من دون أبنائكم ، وكونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدو النازل بفنائكم ، وحوطوا بالتعويل على الله تعالى وحده بلادكم ، واشتروا من الله جل جلاله أولادكم . ذكروا أن امرأة

١ ق : مجابة ؛ التجارية : مراكمة .

احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة ،
فتصدقت برغيف ، فأطلق السبع ولدها ، وسمعت النداء : يا هذه لقمه بلقمه ،
وإنما استنودِناه لحافظون .

« واهجروا الشهوات ، واستدركوا البقية من بعد الفوات ، وأفضلوا المساكينكم
من الأقوات ، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات ، وخذوا نفوسكم بالصبر
على الأزمات ، والمواساة في المهمات ، وأيقظوا جفونكم من السّنات ، واعلموا
أنكم رضعاء ثدي كلمة التوحيد ، وخيران البلد الغريب والدين الوحيد ، وحزب
التمحيص ، ونفر المَرَام العويص ، فتفقدوا معاملاتكم مع الله تعالى ، ومهما
رأيتم الصدق غالباً ، والقلب للمولى الكريم مراقباً ، وشهاب اليقين ثاقباً ، فثقوا
بعناية الله التي لا يغلبكم معها غالب ، ولا ينالكم لأجلها عدو مطالب ، فإنكم
في السر الكثيف ، وكنف الخبير اللطيف ، ومهما رأيتم الخواطر متبددة ،
والظنون في الله مترددة ، والجهاث التي تخاف وترجى متعددة ، والغفلة عن
الله ملامسها متجددة ، وعادة دواعي الخذلان دائمة ، وأسواق الشهوات قائمة ،
فاعلموا أن الله تعالى منفذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين ، وأنكم قد
ظلمتم أنفسكم ولا عدوان إلا على الظالمين ، والتوبة ترد الشارد إلى الله تعالى
والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وهو القائل ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ
ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (هود : ١١٤) .

« وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحّت العزائم ، وتوالت على
حزب الشيطان الهزائم ، وخملت الدنيا الغربية في العيون ، وصدقت فيها عند الله
الظنون ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا
يُغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (فاطر : ٥) وثوبوا سراعاً إلى طهارة الثوب ، وإزالة

١ ق : وعظة .

٢ ق : السارح .

الشُّوب ، واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب ، واعلموا أن سوء الأدب مع الله تعالى يفتح أبواب الشدائد ، ويسد طرق العوائد ، فلا تطلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله فتغنشوا إيمانكم ، ولا تعلقوا متابكم بالضرائر ، فهو علام السرائر ، وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنا أولى بالنصيحة ، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة ، الصادرة - علم الله تعالى - عن صدق القريحة ، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار ، وإنما لكم لدينا نفس مبدولة في جهاد الكفار ، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار ، واجتهاد فيما يعود بالحسن وعقبى الدار ، والاختيار لله ولي الاختيار ، ومصرف الأقدار ، وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدي بنفوسنا البلاد والعباد ، والحريم المستضعف والأولاد ، ونصلى من دونهم نار الجلال ، ونستوهب منكم الدعاء لمن وعد بإجابته ، فإنه يقبل من صرف إليه وجه إجابته ، اللهم كن لنا في هذا الاهتمام نصيراً ، وعلى أعدائك ظهيراً ، ومن انتقام عبدة الأوثان كفيلاً ، اللهم قو من ضعفت حيلته فأنت القوي المعين ، وانصر من لا نصير له إلا أنت فيأيك نعبد وإياك نستعين ، اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام ، ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام ، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام ، اللهم دافع بملأكتك المسومين ، اللهم اجعلنا على تيقظ وتذكر من ﴿ قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ (آل عمران: ١٧٣) .

وقد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم ، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم ، بني مرين أولي الامتعاض لله تعالى والحمية ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية ، بعزمهم على الامتعاض لحق الجوار ، والمصارحة التي تليق بالأحرار ، والنفرة

لانتهاك ذِمَار نبيِّهم المختار ، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار ، ومدافعة
أحزاب الشيطان وأهل النار ، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم
الآثار ، والسعي الضمين للجزء والأجر والفخار ، والسلام الكريم يخصكم أيها
الأولياء ورحمة الله وبركاته ؛ انتهى .

وممّا كتبه ابنُ لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطانه الغني بالله تعالى
والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته :

« هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحاً للصدور ، مصلحاً
بإعانة الله تعالى للأُمور ، مُلحفاً العدل^١ والإحسان الخاصة والجمهور ، يعلم
من يسمعه أو يقف عليه ، ومَنْ يقرؤه ويتدبر^٢ ما لديه ، ما عاهدنا الله تعالى
عليه من تأمين النفوس وحقن الدماء ، والسير في التجاني عنها على السنن السواء ،
ورفع التناوب عن البعيد منها والقريب ، والمساواة^٣ في العفو والغفران بين
البريء منها والمريب ، وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر محمّل
الحبيب ، وترك ما يتوجّه بأمر المطالبات ، ورفض التبعات ، ممّا لا يعارض
حكماً شرعياً ، ولا يناقض سنناً في الدين مرعياً ، فمن كان رهن تبعه أو طريد
تُهّمه ، أو منبوزاً^٤ في الطاعة برية توجب أن نريق دمه^٥ ، فقد سحبتنا عليه
ظلال الأمان وألحفناه أثواب العفو والغفران ، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق
والإحسان ، حكماً عاماً ، وعفواً تاماً ، فاشياً في جميع الطبقات ، منسحباً على
الأصناف المختلفة ، عاملنا في ذلك من يتقبل الأعمال ، ولا يضيع السؤال ،
واستغفرنا عن نفسنا وعمن أخطأ علينا من رعيتنا ممن يدرأ الشرع غلظته ،

١ ق : ملحفاً جناح الله للعدل .

٢ ق : وييلي .

٣ ق : والمساواة منها .

٤ ق : منبوزاً .

٥ توجب . . . دمه : سقطت من ق .

وَيَقْبَلُ الْحَقَّ قِيَّاتَهُ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (النساء : ١١٠) لما رأينا من وجوب اتفاق الأهواء والضمائر ، وخلص القلوب والسرائر ، في هذا الوطن الذي أحاط به العدو والبحر ، ومَسَّه بتقدم الفتنة الضر ، وصلة لما أجراه الله تعالى على أيدينا ، وهياه بنا في نادينا ، فلم يخف ما سكن بنا من نار الفتنة ، ورفع من بأس وإحنة ، وكشَف من ظلمة ، وسَدَل من نعمة ، وأصفى من مورد عافية ، وأولى من عصمة كافية ، بعدما تخربت الثغور ، وفسدت الأمور ، واهتضم الدين ، واشتد على العباد كَلَبُ الكافرين المعتدين ﴿ ذلك من فضل الله عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ (يوسف : ٢٨) فله الحمد دائماً ، والشكر واجباً ، ومن الله نَسأل أن يتم نعمته علينا كما أتمها على أبويننا من قبل إن ربك حكيم عليم .

« ونحن قد شَرَعْنَا في تعيين مَنْ ينوب عَنَّا من أهل العلم والعدالة ، والدين والحلالة ، للتطوَّف في البلاد الأندلسية ، ومباشرة الأمور بالبلاد النصرية ، يُنْهَوْنَ إلينا ما يستطلعونه ، ويبلغون من المصالح ما يعرفونه ، ويقيدون ما تحتاج إليه الثغور ، وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور ، ونحن نستعين بفضلاء رعيئنا وخيارهم ، والمراقبين الله تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم ، على إنهاء ما يخفى عَنَّا من ظلامه تقع ، أو حادث يُبتدع ، ومن اتخذت بجواره خمر فاشية ، أو نشأت في جهته للمنكر ناشية ، فنحن نقلده العهد ، ونطوقه القلادة ، ووراء تبيينها على ما خفي من الشكر لمن أهداه ، وإحمام سعي من أبلغه وأداه ، ما نرجو ثواب الله تعالى عليه ، والتقرب به إليه ، فمن أهدى لنا شيئاً من ذلك فهو شريك في أجره ، ومقاسم في مثوبته يوم ربح تجره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » انتهى .

[وصية لسان الدين لأبنائه]

وإذ أجرينا طرف القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه الله تعالى من

النصائح والمواعظ والوصايا ، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا ، كلّ دون شأوه ، وقصر عن أمده مديدُ خطّوه ، وقد تقدم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة ، فلتراجع في محالها المتكاثرة ، وقد آن أن نسرّد في هذا المحل الوصية التي أوصى لسانُ الدين رحمه الله تعالى بها أولاده ، وهي وصية جامعة نافعة ، يحصل بها انتعاش ، لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش ، ونصّها^١ :

الحمد لله الذي لا يروعه الحِمَام المرقوب ، إذا شيمَ نجمة المثقوب ، ولا يبغته الأجل المكتوب ، ولا يفجؤه الفراق المعتوب ، ملُهم الهدى الذي تظمن به القلوب ، ومُوضِح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب ، لا سيما للولي المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب ﴿ أم كنتُم شهداء إذ حضرَ يعقوب ﴾ (البقرة : ١٣٢) ﴿ ووصى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوب ﴾ (البقرة : ١٣٢) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرتْ على نوره جيوبُ الغيوب ، وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تفتحمه العيون ولا تصممه العيوب ، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب ، والأمل المسلوب ، والافتداء الموصل للمرغوب ، والعز والأمن من اللغوب .

وبعد ، فإنني لما علاني المشيب بقمته ، وقادني الكبر في رمته^٢ ، وادكرت الشباب بعد أمته^٣ ، أسفت لما أضعت ، وندمت بعد الفطام على ما رضعت ، وتأكدت وجوب نصحي لمن لزمني رعيتُه ، وتعلق بعيني^٤ سعيتُه ، وأمّلت أن

١ قارن نص هذه الوصية بما ورد في أزهار الرياض ١ : ٣٢٠ .

٢ ق : برمه ، والتصويب عن الأزهار .

٣ ق : بهته .

٤ الأزهار : بسيمي .

تتعدى إلى ثمرة^١ استقامته وأنا رهين قَوَات ، وفي برزخ أموات ، ويأمن العثور
 في الطريق التي اقتضت عثاري ، إن سلك - وعسى أن لا يكون ذلك - على
 آثاري ، فقلت أحاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد ، بعد الضراعة إلى الله تعالى
 في توفيقهم ، وإيضاح طريقهم ، وجمع تفريقهم ، وأن يمن عليّ منهم بحسن
 الخلف ، والتلافي من قبل التلف ، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف ،
 فهو ولي ذلك ، والهادي إلى خير المسالك :

اعلموا هذاكم الله تعالى الذي بأنواره تهدي الضلّال ، وبرضاه تُرفع
 الأغلال ، وبالتماس قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفت الآمال ،
 وتبرأت من يمينها الشمال - أني مُودعكم وإن سألني الردي ، ومفارقكم وإن
 طال المدى ، وما عدا ممّا بدا ، فكيف وأدوات السفر تجمع ، ومناذي الرحيل
 يسمع ، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر ، وعجالة مقتصر ، ورتيمة^٢
 تُعقد في خنصر ، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر ، تتكفل لكم بحسن العواقب
 من بعدي ، وتوضح لكم من الشفقة والحنو قصدي ، حسبما تضمن وعد الله
 من قبل وعدي ، فهي أرببكم الذي لا يتغير وقفه ، ولا ينالكم المكروه ما رفّ
 عليكم سقفه ، وكأني بشبابكم قد شاخ ، وبراحلكم قد أناخ ، وبتناشطكم قد
 كسل ، واستبدل الصاب من العسل ، ونصول الشيب تروع بأسل ، لا بل
 السام^٣ من كل حذب قد تسل ، والمعاد للحد ولا تسل ، فبالأمس كنتم فراخ
 حجر ، واليوم أبناء^٤ عسكر مجر ، وغداً شيوخ مضبعة وهجر ، والقبور
 فاعرة ، والنفوس عن المألوفات صاعرة ، والدنيا بأهلها ساخرة ، والأولى تعقبها

- ١ الأزهار : ثمرات .
 ٢ الرتيمة : الحيط الذي يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة .
 ٣ السام - بتخفيف الميم - : الموت .
 ٤ الأزهار : آباء .

الآخرة ، والحازم من لم يُتَعظ به في أمر ، وقال : بيدي لا بيد عمرو ،
فاقتنوها من وصية ، ومرآم في النصح قصية ، وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا ،
ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحسي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً ، ولكن
ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ، ولا رضي الدنيا مثزلاً ، ولا لطف بمن أصبح عن
فته الخير منغزلاً .

ولتلقنوا تلقيناً ، وتعلموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجدوا بعد أن أفرد بذني ،
ويفرش التراب جنبي ، ويسح انسكابي ، وتهول عن المصلتي ركابي ، أحرص
مني على سعادة إليكم تُجلب ، أو غاية كمال بسبيكم تُرتاد وتطلب ،
حتى لا يكون في الدين والدنيا أوزف منكم ظلاً ، ولا أشرف محلاً ، ولا أغبط
نهلاً وعلاً ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصبخوا إلى قولي الآذان ،
وتستلمحوا صُبْحَ نصحي فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان : أعوذ بالله
من الشيطان الرجيم ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك
بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم ، يا بني أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وأنه
عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ،
ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمنس في الأرض مراحاً ، إن الله لا يحب
كل مختال فخور ، واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن
أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ (لقمان : ١٣ - ١٩) وأعيد وصية خليل الله
وإسرائيل ، حكم ما تضمنه حكم تنزيله ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكُم الدين
فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٢) والدين الذي ارتضاه واصطفاه ،
وأكله ووفاه ، وقرره مصطفاه ، من قبل أن يتوفاه ، إذا عمل فيه انتقاد ، فهو
عمل واعتقاد ، وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدم ،
وبناؤه مع رفض أخيه متهدم ، فالله واحد أحد ، فردٌ صمد ، ليس له والد ولا ولد ،

١ قوله قالها الزباء حين انتحرت وأبت أن تستلم لعمرو بن عدي .

تنزه عن الزمان والمكان ، وسبق وجوده وجود الأكوان ، خالق الخلق وما يعملون ، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون ، الحي العليم المدبّر القدير ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١) أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس^١ إلى النجاة من الشقاء ، وتوجه الحجة في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ، ثم ختم ديوانهم بنبي ملتق المرعية الحمل^٢ ، الشاهدة على الملل ، فتلخصت الطاعة ، وتعيّنت^٣ الإمرة المطاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ، ثم إن الله تعالى قبضه إذ كان بشراً ، وترك دينه يضم من الأمة نشرأ ، فمن تبعه لحق به ، ومن تركه تورط^٤ عنه في منتشبه ، وكانت نجاته على قدر سببه ، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدي : كتاب الله ، وسنتي ، فعضوا عليهما بالنواجذ »^٥ .

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد ، ومشفق شفقة والد ، واستشعروا حبه الذي توفرت دواعيه ، وعوّا مرآشد هديه فيا فوز واعيه ، وصلّوا السبب بسببه ، وآمنوا بكل ما جاء به مجملًا^٦ أو مفصلاً^٦ على حسبه ، وأوجبوا التجارة لصحبه الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولي الفضل الشهير ، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع ، ولا تع التشاجر بينهم أذن واع ، فهو عنوان

١ الأزهار : المباد .

٢ الأزهار : المرعية للحمل .

٣ الأزهار : وتبينت .

٤ ق والتجارية : نوط .

٥ هو من حديث العرياض بن سارية السلمي الصحابي عن الرسول ؛ وعضوا عليهما بالنواجذ أي تمسكوا بهما كما يتمسك العاص بجميع أضراره ، وروي الحديث « فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين عضوا عليها بالنواجذ » (أسد الغابة ٣ : ٣٩٩) .

٦ أو مفصلاً : سقطت من ق والأزهار .

الساد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة ، وأتمتها الجيلة ، فهم صقلة نصولهم ، وفروع ناشئة من أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم .

واعلموا أنني قطعت في البحث زماني ، وجعلت النظر شاني ، منذ برآني الله تعالى وأنشاني ، مع نبل يعترف به الشاني ، وإدراك يسلمه العقل الإنساني ، فلم أجد خابط ورق ، ولا مصيب عرق ، ولا نازع حطام ، ولا متكلف فطام ، ولا مقتحم بحر طام ، إلا وغايته التي يقصدها قد فضلتها^١ الشريعة وسبقتها ، وقرعت نيتها وارقتها ، فعليكم بالترام جادتها السابلة ، ومصاحبة رقتها الكاملة^٢ ، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة ، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) وقد علت شرائعه ، وراع الشكوك رائعه ، فلا تسترلكم الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوس فعل المهتدين ، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الأبدين ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أحسن ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغت فأنت خير الشاهدين .

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شوه الوجوه ونضج الخلود ، واستعينوا برضى الله من سخظه ، واربأوا بنفوسكم عن غمظه ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بفرور قد خدع أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل اتلافكم ، واقتنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسوا على ما فات وتعلمر ، فإتما هي دجنة ينسخها الصباح ، وصفقة يتعاقبها^٣ الخسار والرباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها ، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها .

١ الأزهار و ق : فضلتها ؛ وفضلتها ؛ سبقتها وبعثتها في الرمي .

٢ الأزهار : الكافلة .

٣ الأزهار : يتعقبها .

واعلموا أن الإحلال بشيء من ذلك خرق لا يرفقه عمل ، وكل ما سوى
 الراعي همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت ^١ أمل ، وتمسكوا بكتاب
 الله تعالى حفظاً وتلاوة ، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في
 آياته ومعانيه ، وامثلوا أوامره ونواهيه ، ولا تتألولوه ولا تغلوا فيه ، وأشربوا
 قلوبكم حب من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر
 الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التي يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم .
 الله الله في الصلاة ذريعة التجلة ، وخاصة الملة ، وحاقنة الدم ، وغنى المستأجر
 المستخدم ، وأم العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ، والناحية عن
 الفحشاء والمنكر وإن ^٢ عرض الشيطان عرضهما ، ووطأ للنفس الأمارة سماءهما
 وأرضهما ، والوسيلة إلى بل الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض
 الفكر ، وضامنة ^٣ حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجار ، والواسمة
 بسمة السلامة ، والشاهدة للبعد ^٤ برفع الملامة ، وغاسول الطبع إذا شانه طبع ،
 والخير الذي كل ما سواه له تبع ^٥ ، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة ،
 فالخير عادة ، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية ، وتؤثروا على العلية الدنية ^٦ ،
 فإن أوقاتها ^٧ المعينة بالانقلاط تنبئ ^٨ ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ، وإذا
 قورنت ^٩ بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيره الغدو ولا الأصيل ،

١ الميت : سقطت من الأزهار .

٢ الأزهار : مهما .

٣ الأزهار : وضابطة .

٤ الأزهار : للمقد .

٥ الأزهار : كل خير له تبع .

٦ وتؤثروا . . . الدنية : سقطت من ق وأصل الأزهار .

٧ ق : فأوقاتها .

٨ تنبئ : تسمع .

٩ الأزهار : قورنت .

والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت ، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتوها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استحققت^١ الكمال ، ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال^٢ ، وذلك أخرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطها محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ، والحجول والغرر فأطيلوها ، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف برئاسه . واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفرقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال ، وكان في درج الرجولية ذا انتقال ، واستفاض صدأه بصقال ، وإن تراخى فهقر الباع ، وسرقتة الطباع ، وكان لما سواها أضيع فشمّل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولدتها القربية ، مفتاح السماحة بالعرض الزائل ، وشكران المستول على الضدّ من درجة السائل ، وحق الله تعالى في مال من أغناه ، لمن أجهده في المعاش وعنته ، من غير استحقاق ملاً يده وأخلى يد أخيه ، ولا علة إلا القدر الذي يخفيه ، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه . فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها ، في اختيار عرضها ونتاجها ، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عدل ، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرّون أين تسلكون ، فوهب وأقدر ، وأورد بفضله وأصدر ، ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ،

١ الأزهار : استحق .

٢ زاد في الأزهار : وثابروا عليها في الجماعات ، وبيوت الطاعات ، فهو أرفع للام ، وأظهر شرائع الإسلام وأبر بإقامة ... إلخ .

فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نَوَالِه .
وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلْفَى ، المحووضة لمن يعلم السر
وأخفى ، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ، والاجتهاد ،
وإيثار التهجد^١ على المهاد ، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية ، ولواحقه
الشرعية ، فبذلك تحسن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب
قسوة الطباع ، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع .
والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب ، والفرص على العين لا يحجبه
الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما قرّض عن ربه
وسنّه ، وقال ليس لهُ جزاء عند الله إلاّ الجنة .

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه ، وغنى
لديه ، فكونوا ممّن يسمع نفيده ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .
هذه عمد الإسلام وفروضه ، ونقود مهرة وعروضه ، فحافظوا عليها تعيشوا
مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين ، وتلقوا الله لا مُبَدّلين ولا مُغَيّرين ،
ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلي محاسنها من بعد
الانتقاب ، فعليكم بالعلم النافع ، دليلاً بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا
الباب ، والموصل إلى اللباب ، والله عزّ وجلّ يقول ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٩)
والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المنيفة ، وشرطه الخشية لله تعالى
والخيفة ، وخاصة الملاء الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تُتلى ، والسييل في
الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة ، والذخر الذي قليله ينفع ،

وكثيره يشفع^١ ، لا يقبله الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزّه الدهر إذا مال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله ، وقليل وإن جم ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فالتمسوه لبنينكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودرّسِهِ ، واجعلوا طباعهم ثرّى^٢ لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه ، وسهر يهجر له الجفن كراه ، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تُعزل ، وتُحلّوهم مثابة رفعة لا يُحطّ فارعا ولا يُستزل ، واختاروا من العلوم التي ينفقها الوقت ، ما لا يناله في غيره المقت .

وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابها المرّبعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فإنّما هي آلات لغير ، وأسباب إلى خيّر منها وخير ، فمن كان قابلاً لازدياد ، وألّفى فهمه ذا انقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحة من سقيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة ، المهدي كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرّب في طرق النظر وتصحيح الأدلّة ، وهذه هي الغاية القصوى في الملتّة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعد عن التي هي أسمى ، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، ولإياكم والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً ركيكاً ، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتطريق الظنون ، وتطوير الاحتقار ، وسيمّة الصغار ، وخمول الأقدار ، والحسّف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال ، وأوفق^٣ من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن رشد قاضي المصّر

١ الأزهار : والذخر الذي قليله يشفع وينفع وكثيره يعلى ويرفع .

٢ ق : ندى .

٣ ق : وأشفق .

ومُفتنيه ، وملتمس الرشد ومُؤليه^١ ، عادت عليه بالسخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورط في ازدحامها ، ولا تخلطوا سامكم بحامها ، إلا ما كان من حساب ومساحة ، وما يعود بجدوى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحمجور ، وضرم مسجور ، وممقوت مهجور .

وأمرُوا بالمعروف أمراً رقيقاً ، وانها عن المنكر نهياً حريماً بالاعتدال حقيقاً ، واغبطوا من كان من سِنَةِ الغفلة مُفياً ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتى لا تسلكوا منه طريقاً .

وأطيعوا أمر من ولاه^٢ الله تعالى من أموركم أمراً ، ولا تقربوا من الفتنة جَمَراً ، ولا تُدْخِلُوا في الخلاف زيداً ولا عمراً .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به . وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُؤَارَى ، والسوأة التي لا يُرتاب في عارها ولا يُتَمَارَى ، وأقل عقوبات الكذاب ، بين يدي ما أعد الله له من العذاب ، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق ، ولا يعول عليه إن كان بالحق نَطَقَ .

وعليكم بالأمانة فالحياسة لُوم ، وفي وجه الديانة كُلوْم ، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الحشمة والصيانة ، ولا تجزوا من أقرضكم دينَ الحيانة ، ولا توجدوا للغدر قبُولاً ، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ (الإسراء : ٣٤) ولا تستأثروا بكثر ولا حَزَن ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حَزَن ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كيل أو وزن ، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في

١ الأزهار : وموتيه .

فُسحة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير مُنْسدة ، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه ،
ويغمس في الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سَنَتاً قويمًا ،
وجلى من الجهل والضلال ليلاً بهيماً ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء :
٩٣) واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه ، وامتد في سبيل
السعادة باعه ، لو لم تلتق نور الله الذي لم يهد شعاعه ، فالخلال لم تضق عن الشهوات
أنواعه ، ولا عدم إقناعه ، ومن غلبت عليه غرائر جهله ، فلينظر هل يجب أن
يُزنى بأهله ، والله قد أعدَّ للزاني عذاباً وبليلاً ، وقال ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ
كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (النساء : ٢٢) .

والخمر أم الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ، واللهم لم يجعله الله في الحياة
شرطاً ، والمحرم قد أغنى عنه بالخلال الذي سوَّغ وأعطى ، وقد تركها في الجاهلية
أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد ،
والله تعالى قد جعلها رجساً محرماً على العباد ، وقرنتها بالأنصاب والأزلام في
مباينة السداد .

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهي الدين ، والله تعالى يقول ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ
الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة : ٢٧٨) وقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمِجْرَبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة : ٢٧٩) في الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق
يبسحه ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ، والتمسوا الحلال يسعى فيه
أحدكم على قدمه ، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تلجأوا إلى المشابهة
إلا عند عدمه ، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع ، والمحافظ عليه
مقبوط ، وإياكم والظلم فالظلم ممقوت بكل لسان ، مجاهر الله تعالى بصريح
العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان . والنميمة فساد
وشتات ، لا يبقى عليه متات ، وفي الحديث « لا يدخل الجنة قتاتٌ »^١ .

١ القتات : النمام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسع على القوم وهم لا يعلمون (النهاية ٣ : ٢٢٧) .

واطرحوا الحسد فما ساد حسود ، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود ،
 والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود . وإياكم وما يُعْتَدَر منه فمواقع الخزي
 لا تستقال عثراتها ، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها ، وتفقدوا أنفسكم
 مع الساعات ، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات ، ورقوا على ذوي الزمانات
 والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات . وعولوا عليه وحده
 في الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نصّبتم الموائد ، وتقربوا إليه باليسير من
 ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ، وارعوا
 حقوق الجار ، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار ، وتعاهدوا أولي الأرحام ،
 والشائج البادية الالتحام ، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر ، وتفسد
 السرّ والجهر ، والرُّشا فإنها تحط الأقدار ، وتستدعي المذلة والصغار ، ولا
 تساعوا في لعبة قمر ، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر . وصونوا المواعيد من
 الإخلاف ، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف ، وحقوق الله تعالى من
 الإزراء والاعتساف ، ولا تلهجوا بالآمال العجاف ، ولا تكلفوا بالكهانة
 والإرجاف . واجعلوا العمر بين معاش ومعاد ، وخصوصية وابتعاد . واعلموا أن
 الله سبحانه بالمِرْصاد ، وأن الخلق زرع وحصاد ، وأقلوا بغير الحالة الباقية
 الهموم ، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذِر السموم . واعلموا أن الخير أو
 الشر في الدنيا محال أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذية المؤذنين ، ولا تقارضوا مقالات
 الظالمين ، فالله لمن بُغِيَ عليه خير الناصرين ، ولا تستعظموا حوادث الأيام
 كلِّما نزلت ، ولا تضحجوا للأمراض إذا أعضلت ، فكل منقرض حقير ،
 وكل مُنْقَض وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشقوا من جناب الله تعالى
 الأرج ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى
 لعبد إليه جانح]^١ ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجاؤوا إليه في البأساء والضراء ،

١ واجنحوا ... جانح : سقطت من ق وأصل الأزهار .

وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد ، ويعذب الوارد ، وأسهموا منها للمساكين وفضلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ، فمن الآثار « يا عائشة ، أحسني جوار نعم الله ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم » . ولا تطفوا في النعم فتقصروا عن شكرها ، وتلفكم الجهالة بسكرها ، وتتوهموا أن سعيكم جلبها ، وجدكم حلتبها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بذهابه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومراعاة في علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تُتجهل ، وحق لا يُهمل . وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصلوا التعاهد والتراور ، تُرغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة ، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة ، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان ، وطاعة النساء شرٌّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقرّوه .

والله الله لا تنسوا مقارضة سَجَلِي ، وبروا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلبي المهاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام التوب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومن بلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر معاداة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة ، ويسر من رضى

١ زاد في التجارية : فإنه دأب الفر ، والعبارة ساقطة من ق والأزهار .

الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير نقصان ، والزعازع تسلم اللدن اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الحظوظ^١ وغلاباً ، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، داع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً ، فليتلق^٢ وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة وعحنة ، وأسر وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة ، وإخلال عبادة ، وتوقع عزل ، وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل ، ومزلة قدام ، واستتباع ندم ، ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها ، وتجارتي التي لربحكم أدرتها ، فتلقوها بالقبول لتصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ، وبقدر ما أمضيت من فروعها ، واستغشيت من دروعها ، اقتنيت من المناقب الفاخرة ، وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما أضعت لآلها النفيسة القيسم ، استكثرت من بواعث الندم . ومهما سئمت إطالتها ، واستغزرت مقالتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلكت الحساب ، وضابط هذا الباب ، كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا مناخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ، جعلها الله من وراء خطة النجاة^٣ ، ونفق بضائمتها المزجاة ، بلطائفه المرتجاة ، والسلام عليكم من حبيبكم المودع ، والله سبحانه يلأمه حيث شاء من شمل متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ، ورحمة الله وبركاته .

انتهت الوصية القريدة في حسنها ، الفريية في فنها ، المبلغة نفوس الناظرين

١ التجارية : المطلوب .

٢ ق والتجارية : جعل ... خطة النجاة .

فيها فوق ظنتها ، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التأليف العديدة كـ « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب » - وهو في ست مجلدات [ولولم يكن له غيره] لكان كافياً ، وله مصنفات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك ، ولم يؤلف في المذهب مثلها - [كثيراً ما يدخل منها في خطبه]^١ .

[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]

رجع إلى ما كنا فيه :

أقول : لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصية لأولادهم وعمالمهم باقتفاء النهج الذي يرون فيه السلوك ، وقد وقفت للفقير الكاتب أبي عبد الله محمد ابن الجنان المرسي الأندلسي رحمه الله تعالى على وصية ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على ما لا بد منه ، فرأيت أن أذكرها هنا تمييزاً للفائدة ، ونصها بعد الصدر :

من مجاهد الدين ، وسيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود ، أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بتمكينه ، وأعانه على ما ينويه من إحياء معالم دينه ، إلى صِنُونَا المبارك ، وقسيمنا وأخينا المخصوص بتبجيلنا وتكرميننا ، وحُسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزمنا وتصميمنا ، الأمير الأعلى ، الموقر الأسمى ، الميمون النقيبة المحمود السجية ، الأحب النية ، الأعز علينا ، المتمم بمساعيه الصالحة كل ما نَوَيْنَا ، أدام الله تعالى تظفيره وإسعاده ، وأمضى في الحق قَوَاضِيهِ وصِعاده ، ووالى معونته وإنجاده ، وتولى توفيقه

١ قد سقط ما بين معقفين من ق والتجارية ، وزدناه حسب المعنى من أزهار الرياض .

وإرشاده ، سلام طيب كريم زاكٍ يخلصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .
 أما بعد - فالحمد لله الذي أوضح للحق سبيلاً ، ومد ظل رحمته على الخلق
 ظليلاً ، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلاً ، ونزل الأحكام على قدر
 المصالح تنزيلاً ، ونصّب معالم الهدى علماً لمن اقتدى ودليلاً ، وأهم إلى ما
 يرضاه عملاً ومعتقداً وقيلاً ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصيّبة ، على سيد
 العالمين ، وخاتم النبيين ، محمد رسوله الذي فضّله بخلته واصطفاه تفضيلاً ، وبعثه
 بالحنيفية السمحة فينبها تبييناً وفصلها تفصيلاً ، ورتبها كما أمره ربه بإباحة وندباً
 وتحريماً وتحليلاً ، حتى ثبتت سنة الله ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ
 لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر : ٣٠) وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم
 به عليه الصلاة والسلام نصّاً وتأييلاً ، وأبقوا من سيرتهم الفاضلة ، وأحكامهم
 العادلة ، أساساً للمتقين جليلاً ، ومآثر للمقتضين تسبّح الأفهام والأقلام في
 بحارها سبّحاً طويلاً ، وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحق باطلاً وبالهدى تضليلاً ،
 ورضوان الله تعالى يتوالى على خليفته ، وحامل أمانته إلى خليفته ، الذي كمل
 الله تعالى له موجبات الإمامة تكميلاً ، وأناله من هدي النبوة أفضل ما كان
 للهداة منيلاً ، سيدنا ومولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبي جعفر المنصور أمير
 المؤمنين المتبويء من ساحة الشرف والجلالة محلاً شريفاً جليلاً ، والمنتخب من
 بحبوحة بيت الرسالة الذي وجد الوحي عنده معرّساً ومقبلاً ، والدعاء له من
 لدن العزيز القوي بنصر يأتي لإمداده بمدد الملائكة قبلاً ، وفتح يؤتي الإيمان من
 الظهور بغية وتأميلاً - .

فإنّا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم عزماً لا يزال عَضْبُهُ صقيلاً ، وعزّاً
 يروق بإظهار الحق غرةً وتحجيلاً ، ورأياً لقداح السداد والنجاح مُجيباً ، وسعداً
 يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلاً ، من حضرتنا بمرسية حرسها الله تعالى ، ونحن
 نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو على فضله الذي أناله جسيماً جزيلاً ، ونثوكل
 عليه ، توكل من يلجأ في كل أحواله إليه ، وكفى بالله وكيلاً ، ونستعينه على أمور

المسلمين التي حملنا منها أمانة كبيرة وعيبتنا ثقيلاً ، ونقف بالضراعة بين يديه ، طلباً لما يخلصنا لديه ، عساه أن يجعل لرغبتنا قبُولاً وتوسيلاً ، ونعوذ به من كل عمل لا يكون حاصله إلا مآلاً وبيلاً ، وعرضاً من الدنيا قريباً ومتاعاً قليلاً .

إنّا - والله المرشدُ - لنعلم أن هذا الأمر الذي قلدنا الله تعالى منه ما قلده ، وأسنده إلينا من أمور خلقه فيما أسنده ، قد ألزمننا من حقوقه الواجبة ، وفروضه الراتبة ، ما لا يستطيع إلا بمعونته أداؤه ، ولا يستتب إلا بتوفيق الله تعالى انتهاؤه واجداؤه ، فهو المشكور عزّ وجهه على نعمته ، والمستعان على ما يلذني من رضاه ويقرب من رحمته ، وأن كل امرئ بشأنه مشغول ، وعن خوِيصة نفسه مسؤول ، ونحن بما أسرّعانا الله تعالى مشغولون ، وعن الكبير والصغير مسؤولون ، وعلينا النصيحة لله في عباده وبلاده ، والنظر لهم بمتهى جدّ المجتهد واجتهاده ، ولا قوة إلا بالله عليه توكلنا ، وبه إليه توسلنا ، فعيننا تسهر لتنام للرعية عيونهم ، ونحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم ، وأملنا أن لا نفر فيهم بحول الله تعالى ظلماً ولا هضماً ، ولا نخرم لهم في إقامة حقوق الله ما استطعنا نظماً ، وأنتى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته ، من يعرف أن الله جل جلاله لا يجوز ظلم ظالم في بريته ، ولعل الله الذي حملنا ما حملنا ، واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا ، أن يهب لنا توفيقه ، ويسلك بنا إلى هداه طريقه .

ألا وإن منّ وكيناه أمراً من أمور المسلمين فهو مطلوب به ، وموقوف عليه عند ربه ، فليُنظر امرؤ في جزئية ما نيظ به وكييته ، وليراقب فيما لديه علم خفيته وجليته ، ألا وكلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته ، فمن حفظ الله حفظه الله في نفسه وآله ، وقضى له بالسعادة في حاله ومآله ، وأنجاه يوم عرضه وسؤاله ، واتخلق عيال الله فأحبهم إليه أحبهم لعياله . العدل العدل فيه قامت السموات والأرض ، وإقامته أقيمت السنة والفرص ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (المائدة : ٨) وأقوى ما تشد به أركان الدين وتقوى ، أما إن الحق في أن لا تتعدى

أساليب الشرع وقوانينه ، وأن لا يتجاوز في قضية من القضايا إفصاحه وتبيينه ، وأن يجازى بحكمه المسيئون والمحسنون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .
 ألا وإنا قد عثرنا لبعض قواد الجهات وحكامها على أمور أنكرنا معرفاتها ، واستبغنا مستوصفاتنا ، وبرئنا إلى الله تعالى من متغيراتها ومخرفاتها ، وعلمنا أن منهم أقواماً لا يتورعون عن الأموال والدماء ، ولا يحذرون فيما يأتون ويدترون جبار الأرض والسماء ، فأزلنا بحمد الله ذلك ونحوه ، وعجلنا ابتغاء رضاه محقه ومحوه ، واتبعتنا لنظر جديد ، واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد ، وتقليظ في المحرمات وتشديد ، واستقبلنا ما يوسع الأمور ربطاً وضبطاً ، ويفيض على الأمة بعون الله تعالى عدلاً وقسطاً ، وتعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كل من استكفيناها بالبلاد ، ووليناها النظر عنا في مصالح العباد ، بما يكون إن شاء الله تعالى الاعتماد على فصوله ، والاستناد إلى محموله ، والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله :

فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كل حال ، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل اتحاء وانتحال ، والوقوف عند حدود الله التي حلها ، وأرصدنا بإزاء موجباته وعداها ، فإنه لا يتعداها إلا من رام تعصي رسماً وطمنسه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (الطلاق : ١) والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة ، والملاحظة لما يضم الرعايا من حوزة أولي الحياطة المنيعة ، والمثابرة على ما تكف به أكف الاعتداء ، والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاعتداء ، والطريقة المثل ، وآيات الله التي تتلى ، وهداياته التي لأبصار البصائر تجلى ، وحقن الجناح ، والأخذ بالرفق والإنجاح ، وتوخي الحق الذي هو أوضح انبلاجاً من فلق الإصباح ، والحلم والأناة ، والمذاهب المستحسنات ، والأمور البيئات .

والله الله في الدماء فإنها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ، ولا سبيل لاستحلالها إلا بعد ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل المسلم

لأخيه ، وقد قال مالك الأمر والخلق ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الأنعام: ١٥١) فثبتوا فيها فأمرها جليل ، وتحريمها لا يدخله تحليل ، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاة الجهاد حكماً أو نظراً ، أو تَكَلِّبُوا إِلَيْهِمْ مِنْهَا مُسْتَكْرَئاً أو مُسْتَزْرَئاً ، فإنه إذا استبدَّ بالقضاء فيها كل وال ذهب هَدْرًا ، واستباحها الجاهل والجاهل أشراً وبَطْرًا ، وربما كان فيهم من في طباعه سَبْعِيَّةٌ فيقتل بها الناس قتلاً ذريعاً ، ويتسهل بذلك من جورهِ صعباً ويرتكب بجهله شنيعاً ، ويذمل عن قول الله تعالى ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: ٣٢) فأنى تحمل المسامحة في هذا الشأن ، أو يحكم به كل إنسان في نفوس أهل الإيمان ؟ معاذ الله أن يكون هذا ونحن نعرفه ، أو ينصرف إليه نظرنا فلا نزيله ولا نصرفه ، فسدُّوا هذا الباب سدًّا ، وصدوا عنه مَنْ أَمَّهُ صَدًّا ، وكفوا كل ما كان من الأيدي للدماء ممتدًّا ، وَمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْقَتْلُ شَرْعًا وتعين ، واتضح موجب القصاص فيه وتبين ، فليس لكم إلا القاعدة الكبرى ، تُتَحَرَّى فِيهَا الْأَحْكَامُ عَلَيْهِ بِمَحْضَرِ الْقَاضِي وَالشُّهُودِ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَتَحَرَّى ، بعد أن يثبت في نازلته لديكم ويستجلى ويُسْتَبْرَأ ، فلا تحمل القضية إلا على بصيرة ، وحقيقة مستنيرة ، فقد يلوح في اليوم ما خفي بالأمس ، ويتعذر بعد الإقادة إعادة النفس .

وملاكُ الأمر في انتقاء من يتصرف ، وتولية من لا يضيع ولا يتحيف ، فتخيروا للأنظار والجهات ، مَنْ تُرْتَضَى سِيرَتُهُ مِنَ الْوَلَاةِ ، وَلَا تَسْتَعْمَلُوا أَهْلَ الْفِظَاظَةِ وَالْجَهَالَةِ ، والمصرين على الراحة والبطالة ، فإنهم إذا استرعوا أضعاعوا ، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا ، وميلوا باختياركم إلى المتسمين بالصلاح ، المرسمين في ديوان الكفاة النصاح ،

١ شرعاً : سقطت من ق .

وأطيلوا مع ذلك التقير عنهم والتقيب ، ولا تغفلوا عن التعهد بالبحث البعيد منهم والقريب ، ومنّ عشرتم له على منكر من استباحة دم أو مال ، وإضاعة للحقوق وإهمال ، فخذلوا على يده ، وجازوه بفساد مقصده ، وأنزلوه بالمنزل الأقصى ، وعاملوه معاملة من أوصي بتقوى الله فما استوصى .

واصرفوا نظركم إلى القضاة فإن مدار الشريعة إنمّا هو على ما يستند إليهم ، ويقصر من الأحكام عليهم ، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة ، وذوي التزاهة والصيانة ، أمسكهم الورع بزمامه ، وبلغ العهد بهم غاية تمامه ، وإذا كانوا بضدّ هذا قبلوا الرشوة ، وأوطأوا العشوة ، وأطالوا النشوة ، وأحلّوا من الدماء والفروج محرّمها ، وطمسوا من السنّة بالميل والمين معلمها ، وحكموا بالهواة والهوى ، وطووا من الحق ما انتشر ونشروا من الباطل ما انطوى ، فانقوهم فهم أولى بالانتقاء ، وشرّ جاسرهم وجاهلهم أحق بالانتقاء ، ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل ، ولكن قدموهم بتورعهم في القضايا وعلمهم بالمسائل .

وممّا نؤكد عليهم فيه أمر الشهود ؛ فإن شهادة الزور هي الداء العضال ، والظلمة التي يتستر بها الظلمة والضلال ، والحجة الداخضة التي بها يحتلّ الحرام ويحرم الحلال ، وقد كثّر في هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة ، ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة ، فتقدموا إلى القضاة وفقهم الله تعالى أن لا يقبلوا إلاّ مشهوراً بزكاء وعدل ، موفوراً حظّه من رجاحة وعقل ، ومن كان مغموزاً عليه في أحواله ، منبوزاً بالاسترابة في شهادته وأقواله ، فلتردّ شهادته على أدراجها ، وليبطل ما يكون من حجاجها . وأكدوا عليهم عند تعارض العقود في الترجيح ، والنظر في التعديل والتجريح ، لتجري أمور المسلمين على مستوى الحقّ المستين ، وتبدو المعدّلة مشرقة الغرّة مؤتلفة الجبين .

وممّا نأمركم به أن تبحثوا عن العمال ، ولا تولّوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضي الأعمال ، ومن لم يكن منهم جارياً على القوانين المرعية ، ناصحاً لبيت المال

رفيقاً بالرعية ، وكان في أمانته حائداً عن الجادة السوية ، قائلاً كما قال قبله ابن التتبية^١ ، فليعوّض منه غيره ، وليُرفع عن الجائنين ضيره ، فإنه ما كانت الحياة قط في شيء إلا أهلكته ، ولا وضعت في إنسان طبيعة سوء إلا ملكته .
 وإنما هو مال الله تعالى الذي يرزق منه الحماة ، وبه تُسد الثغور المهمات ، فينبغي أن يختار له محتاط في اقتضائه وقبضه ، حافظ لدينه ومروءته في كلّه وبعضه ، فخذوا في انتقاء هذه الأصناف المسمين ، واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والمولين ، واجمعوا من الاجتهاد الحميد والتصد والاعتماد الأثر والعين ، وأنصفوا منهم إن تظلم من أحدهم متظلم ، واشفوا شكوى كل متشك وألم كل متألم ، واعلموا أن حرمة الأموال بجرمة الدماء لاحقة ، وأن إحدى القضيتين للأخرى مساوية ولاحقة ، ومن أكبر ما ورد في ذلك وأعظمه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » .

وليكن الناس في الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ، ولا مجاوزة في تغليب قوي على ضعيف ولا محاولة ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وإن دلائل الشرع بمراد الله سبحانه وتعالى لشاهدة ، ولا يؤخذن أحد بجريرة أحد ، ولا يبني ولد على والد ولا والد على ولد ، فكتاب الله تعالى أولى بالاتباع وأحرى ، لقول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام : ١٦٤)^٢ اللهم إلا من آوى محدثاً فإنه مأخوذ بما أجرم ، وملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فارفعوا — أعاننا الله تعالى وإياكم — للعدل بكل علم مناراً ، واتخذوا الرفق بالإمامة شعاراً ، فقد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرفق لا يكون

١ يسمى عبد الله بن التتبية بن ثعلبة الأزدي ، قال ابن حجر في الإصابة (٤ : ١٢٣) : مذكور في حديث أبي حميد الساعدي في الصحيحين أن النبي (ص) بعث رجلاً على الصلقات يدعى ابن التتبية وذكره الفيروزابادي في تحفة الأبييه (ص : ١٠٧) باسم عمر بن التتبية وقيل الأتبية الأول قول ابن دريد والثاني قول ابن الكلبي .

٢ وردت الآية أيضاً في سورة الإسراء : ١٥ وفاطر : ١٨ والزمر : ٧ .

في شيء إلا زانه ، ولا يُترع من شيء إلا شأنه » وقد نصّ الكتاب والسنة على مواضع اللين والاشتداد ، ونبها على منازع المقاربة والشداد ، فلا غضب لأمر إلا بما غضب له الله عز وجل ، ولا رضى به إلا إذا استقر فيه رضى الله تعالى وحل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الذي يجلد فوق ما أمر الله تعالى به يقول له الله عز وجل : عبدي ، لم جلدت فوق ما أمرتك به ؟ فيقول : رب غضبت لغضبك ، فيقول : أكان ينبغي لغضبك أن يكون أشد من غضبي ؟ ثم يؤتى بالمقصر فيقول : عبدي ، لم قصرت عما أمرتك به ؟ فيقول : رب رحمته ، فيقول : أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي ؟ » قال : فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لم يحفظه الراوي ، إلا أنه قال : صيروهما إلى النار ، أعاذنا الله تعالى منها بفضلها ورحمتها ! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع ، ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والفرع ، واحتاطوا في الرعية فإنه رأس المال ، والأمانة التي لا ينبغي أن يكون فيها شيء من الإهمال ، ومع توفيقكم لما سطرناه ، في هذا الكتاب وشرحناه ، من أبواب الخير السعد في المآب والمآل ، فاستوفوا ضروب الصالحات واستقصوها ، واعملوا أعمال البر وخصوها ، واذكروا آلاء الله وقصوها ، ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) واشتدوا في تغيير المنكرات كلها ، واحسموا أدواءها من أصلها ، ورغبوا الناس في الطاعات واندبواهم إليها ، ووضحوا لهم أعمالهم وحرصوا عليهم ، وانتهوا في كل سعي ناجح ، ورأي راجح ، إلى أفضل ما ينتهي إليه المتصحون ، ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وخلوا بعمارة مساجد الله التي هي بيوت الأتقياء ، وحلّ مناجاة ذي العظمة والكبرياء ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين .

ومرؤهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار يطفىء غضب

الرَّبِّ ، ونعم الشفيع يوم القيامة ، والمتوسل فيما يتوج القاريء وأباه تاج الكرامة ،
وأرشدوا للخير ما استطعتم ، واتبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم ، والله ولي التوفيق
والإرشاد ، والملجئ بالهداية إلى طريق الفوز والسداد .

وهذه أوامرنا إليكم امثلنا أمر الله تعالى فامثلوها ، وأحضروها في خواطركم
مع كل لحظة ومثلوها ، وإنّا لما يكون منكم فيها لمستمعون ، ولآثاركم فيما
يوفيهام لتطلعون ، وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمنا في التذكير ، ونهجننا لكم
منها التقديم والتأخير ، والله تعالى يعلم أنّا إنّما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم
الحساب ، وأردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر والإيجاب ، لنعى حقه
سبحانه فيمن استرعانا ، ونسعى في صلاح الأمة عسى الله تعالى أن ينجح فيه
مسعانا .

اللهم عبّدك بضرع إليك ، ويخضع بين يديك ، في أن تلهمه إلى ما يحمل
قصداً ومعتمداً ، وتب له من لذنك رحمة وتيسر له من أمره رشداً ، اللهم
منك المعونة على ما وليت ، ولك الشكر على ما أوليت ، فاللهدي من هديت ،
والخير كله فيما قضيت . اللهم من أعاننا على مرضاتك فكن له معيناً ، وأورده
من توفيقك عذباً معيناً ، إنك الولي النصير ، العلي الكبير .

وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصوه على الناس مفصلاً ومجملاً ، وأظهروا
مضمونه لهم قولاً وعملاً ، واسلكوا بهم من مرآشده سنناً مستجملاً ، إن شاء
الله تعالى ، والله سبحانه يديم علاكم ، ويصل إعادتكم في كل محمّد وإبداكم ،
ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم ، بمنه وكرمه لا ربّ سواه . والسلام
الأكرم الأزكى بخصمكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب في الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة ؛

انتهى .

وهذا ابن الجنان له الباع المديد في النظم والنثر ، ومن شعره رحمه الله تعالى في مرضه الذي توفي فيه ، وهو آخر كلامه :

جهل الطبيبُ شكائِي ، وشكائِي أنَّ الطيبَ هو الذي هو ممرضي
فإن ارتضى برئي تداركَ فضلَهُ وإن ارتضى سقمي رضيتُ بمارضي
ما لي اعتراضٌ في الذي يقضي به لكنْ لرحمته جعلتُ تعرّضي
ومن نظمه رحمه الله تعالى ملفزاً في بطيخة :

وحُبلى بأبناء لها قد تمخضوا بأحشائها من بعد ما ولدوها
كسوها غداة الطلق بُرداً معصراً على يفتقِ أزرارها عقدوها
ولما رأوها قد تكاملَ حُسنها وأبدرَ منها طالعٌ حسدُها
فقدتْ واقميصَ البدرِ بالبرقِ واجتلوا أهلتها من بعد ما فقدوها
ولو أنصفوا ما أنصفوا بدرَ تمها ولا أعدموا الحسنة إذ وجدوها

وقال أيضاً ملفزاً في الميل ، وهو المرود :

مسترخص السوم غال عال له أي خطوه
ما جاوز الشبر قدرأ لكنّه ألفُ خطوه

وهذا استخدام ما به باس ، لأنه اكتسى من الحسن خير لباس ، وكم لهذا

١ كتب حيشما ورد في ق والتجارية « ابن الجيان » - بالياء - وهو خطأ ؛ فقد ذكره ابن عبد الملك في مواضع من الذيل والتكملة (٤ : ١٠٨ و ٥ : ٣٢٧ . . .) بالنون ؛ ونسخة الجزء الخامس من الذيل والتكملة مضبوطة مصححة . وكذلك ثبت اسمه في المصادر التي ترجمت له (انظر الإحاطة ٢ : ٢٥٦ - ٢٦٤ وعنوان الدراية : ٢١٣) . وله في الذيل والتكملة (٥ : ٣٢٧) رسالة إلى أبي عبد الله ابن عابد ، وفي (٤ : ١٠٨) تمزية في أستاذه سهل بن مالك ، والجزء الذي ترجم له فيه ابن عبد الملك لا يزال مفقوداً ، وعنه ينقل لسان الدين .

الكاتب من محاسن ، ماؤها غير آسن .

وقد عرف لسان الدين في الإحاطة بابن الجنان ، وأطال في ترجمته ، ونشير إلى بعض ذلك باختصار .

وهو محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري من أهل مرسية ، أبو عبد الله ابن الجنان .

كان محدثاً راوية ضابطاً ، كاتباً بليغاً شاعراً بارعاً ، رائق الخط ، ديناً فاضلاً ، خيراً ذكياً ، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتبرم من ذلك ويقلق منه ، ثم خلصه الله تعالى منه ، وكان من أعاجيب الزمان في إفراط القماءة ، حتى يظن رائيه الذي استدبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها ، متناسب الخلق ، لطيف الشائل وقوراً ، خرج من بلده حين تمكن العدو من قبضته سنة ٦٤٠ ، فاستقر بأريولة إلى أن دعاه إلى سبته الرئيس أبو علي ابن خلاص^٢ ، فوفد عليه ، فأجل وفادته ، وأجزل إفادته ، وحظي عنده حظوة تامّة ، ثم توجه إلى إفريقية ، فاستقر ببجاية ، وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته ، وروى ببلده وغيره عن أبي بكر ابن خطاب وأبي الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وأبي الربيع ابن سالم وأبي عيسى ابن أبي السداد وأبي علي الشلوين وغيرهم ، وكان له في الزهد ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بدائع ، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيراً ؛ انتهى مختصراً ، وإلا فترجمته في الإحاطة متسعة ، رحمه الله تعالى .

ولما كتب له أبو المطرف ابن عميرة برسائله الشهيرة التي أولها « تحييك الأقلامُ تحية كسرى ، وتقف دون مداك حسرى » وهي طويلة ، أجابه بما

١ الإحاطة : ويضيق .

٢ هو الحسن بن خلاص تولى سبته سنة ٦٣٧ ثم ثار فيها في زمن السعيد أبي الحسن ابن المعتض بالله من خلفاء الموحدين سنة ٦٤١ وبايع للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب تونس . وكانت وفاته سنة ٦٤٦ (ابن عذاري ٣ : ٣٥٩ ط . تلوان) .

نصه : « ما هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وهذه الروية ؟ أتتكيت من الأقلام ؟ أو تبيكت من الأعلام ؟ أو كلا الأمرين توجهَ القصدُ إليه ، وهو الحق مصداقاً لما بين يديه ؟ وإلاّ فعهدي بالقلم يتسامى عن عكسه ^١ ، ويتراعى للغاية البعيدة بنفسه ، فمتى لانت أنابيه للعاجم ، ودانت أعاريه للأعاجم ؟ واعجباً لقد استنوق الحمل ، واختلف القول والعمل ، لأمرٍ ما جدّع أنفه قصير ^٢ ، وارتد على عقبه الأعمى أبو بصير ، أمس استسقي من سحابه فلا يسقيني ، وأستشفي بأسمائه فلا يشفيني ، واليوم يُحلتني محلّ أنوشروان ، ويشكو مني شكوى الزيدية من بني مروان ^٣ ، ويزعم أنني أبطلت سحره ببشر ذروان ^٤ ، ويخفي في نفسه ما الله مبديه ^٥ ، ويستجدي بالأثر ^٦ ما عند مستجديه ، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة ، والشريعة المبتدعة ؟ أظن أن معماه لا ينفك ، وأنه لا ينجلي هذا الشك ؟ هل ذلك منه إلا إحماض التيه ، وإحماض تفتيه ، ونشوة من خمر الهزل ، ونخوة من ذي ولاية آمنٍ من العزل ؟ تالله لولا محله من القسم ، وفضله في تعليم النَّسَم ، لأسمعته ما ينقطع به صلّقه ، وأودعته ما ينصدع به صدّقه ، وأشرت بطرف المشرفي وحده ، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده ، ولكن هو القلم الأوّل ، فقوله على أحسن الوجوه يتأوّل ، ومعدود في تهذيبه ، كل ما لسانه يهذي به ، وما أنساني إلا الشيطان أبياده أن أذكرها ^٧ ، وإتما أقول :

١ أي عن الملق .

٢ هذا مثل يرد في قصة الزبلاء وجذيمة .

٣ الزيدية : أتباع زيد بن علي ، وقد قتله الأمويون في زمن هشام بن عبد الملك .

٤ بشر ذروان : بناحية المدينة ، وفي حديث هشام بن عروة أن لبيد بن الأعصم سحر الرسول ونجياً السحر في تلك البئر .

٥ إشارة إلى الآية : « وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس » .

٦ ق : بالأسد ؛ التجارية : بالأثر .

٧ من الآية : « وما أنساني إلا الشيطان أن أذكره » .

ليت التحية كانت لي فأشكرها^١

ولا عتب إلاّ على الحياء ، المبرحة بالبرحاء ، فهي التي أقامت قيامتي في الأندية ، وقامت عليّ قيام المتعدية ، يتظلم وهو عين الظالم ، ويُلين القول ونحته سم الأراقيم ، ولعمر اليراعة وما رضعت ، والبراعة وما صنعت ، ما خامرني هواها^٢ ، ولا كلفت بها دون سواها ، ولقد عرّضت نفسها عليّ مراراً ، فأعرضت عنها ازوراراً ، ودفعتها عني بكل وجه ، تارة بلطفٍ وأخرى بنجّه^٣ ، وخفتُ منها السامة ، وقلت : انكحي أسامة ، فرضيت مني بأبي جهم^٤ وسوء ملكته ، وابن أبي سفيان وصعلكته^٥ ، وكانت أسرع من أم خارجة للخطبة ، وأسمح من سجاح^٦ في استنجاح تلك الخطبة .

« ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع في عشرتها ، واستنقال الاجتماع من عترتها ، وأرى من الغبن والسفاه ، أخذها وترك بنات الأفواه والشفاه^٧ ، إذ هي أيسر مؤونة ، وأكثر معونة ، فغلطني فيها أن كانت بمترل تتوارى صوتاً عن الشمس ، ومن نسوة خفريات لا ينطقن إلا بالهمس ، ووجدتها أطوع من البنان للكف ، والعنان للكف^٨ ، والمعنى للاسم ، والمعنى للرسم ، والظل للشخص ، والمستدل للنص ، فما عرفت منها إلاّ خيراً أرضاه ، وحسبتها من الحافظات

- ١ من شعر كثير عزة ؛ وتماه : مكان يا جبل حبيت يا رجل .
- ٢ الضمير عائذ إلى « الحياء » ولعله يعني قصيدة أو رسالة بنيت على تكرير الحياء في كل كلمة .
- ٣ النجى : الرد القبيح .
- ٤ في ق والتجارية : أبو جهل ، وهو خطأ ، انظر التعليق التالي .
- ٥ يشير إلى قصة فاطمة بنت قيس أخت الضحاك حين خطبها معاوية وأبو جهم : أما معاوية فوصف بأنه صلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فإنه لا يضع عصاه عن عاتقه (أي يضرب النساء) ، وتزوجت فاطمة بعد ذلك أسامة بن زيد .
- ٦ قصة زواج سجاح من مسيلة مشهورة ؛ وقد ضرب بها المثل في الإسماح .
- ٧ بنات الأفواه والشفاه من الحروف مثل الباء والميم . . . إلخ .
- ٨ الكف : الكبح والمنع .

للغيب بما حفظ الله ، فعجبت لها الآن كيف زلت نعلها ، ونشزت فنشرت ما استكنمها بعلمها ، واضطربت في رأيها اضطراب المختار بن أبي عبيد^١ ، وضربت في الأرض تسعى علي^٢ بكل مكر وكيد ، وزعمت أن الجيم خدعها ، وألان أخذعها ، وأخبرها أن سيلغ بخبرها الخابور^٣ ، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدي قيصر سابور^٤ .

« فقد جاءت إفكاً وزوراً ، وكثرت من أمرها متزوراً ، وكانت كالقوس أرنت^٥ وقد أصمت القميص ، والمرأودة قالت ﴿ مَا جَزَاءُ ﴾ وهي التي قدت القميص^٤ ، وربما يظن بها الصدق وظن الغيب ترجيم ، ويقال : لقد خفضت الحياء بالجوار لهذا الجيم ، وتنتصر لها التي خيمت بين الرجسة والريحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه أكرم نبي على الله سبحانه ، فإن امتعضت لهذه التكلمة ، تلك التي سبقت بكلمتها بشارة الكلمة ، فأنا ألوذ بعلمها ، وأعوذ بفضلها ، وأسألها أن تقضي قضاء مثلها ، وتعمل بمقتضى ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ (النساء : ٣٥) .

« على أن هذه التي قد أبدت مئنها ، ونسيت الفضل بيني وبينها ، إن قال الحكمان : منها كان النشوز ، عادت حرورية^٥ العجوز ، وقالت : التحكيم في دين الله تعالى لا يجوز ، فعند ذلك يحصص الحق ، ويعلم من الأولى بالحكم والأحق ، ويصيبها ما أصاب أروى ، من دعوة سعدية حين الدعوى ، وبها ويحها أرادت أن تجني علي^٦ فجننت لي ، وأناخت لي مركب السعادة وما ابتغت إلا ختلي ، فأتى شرها بالخير ، وجاء النفع من طريق ذلك الضير ، أتراها علمت

١ المختار بن أبي عبيد الثقفي النائر للمطالبة بدم الحسين؛ حوالي ٦٥ هـ . لم يكن ثابت الرأي مخلص النية .

٢ أي سيلغ خبرها إلى مكان ناء ، والخابور من روافد الفرات .

٣ يعني سابور ذا الأكتاف ويقال إنه تنكر ودخل بلاد الروم فوقع في يد قيصر .

٤ إشارة إلى قصة امرأة العزيز « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » وعندما انفصح الأمر قالت « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً . . . الآية » .

٥ أي ترفض التحكيم وتقول : لا حكم إلا لله .

بما يثيرة اعوجاجها ، وينجلي عنه عجاجها ، فقد أفادت عظيم الفوائد ، ونظيم الفرائد ، ونفس الفخر ، ونفيس الدر ، وهي لا تشكر أن كانت من الأسباب ، ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسباب .

« وإنما يستوجب الشكر جسيماً ، والثناء الذي يتضوع نسيماً ، الذي شرف إذ أهدى أشرف السحاعات ، وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة في الحاءات ، فإنه وإن ألمَّ بالفكاهة ، بما أملَّ من البدهاة ، وسمَّى باسم السابق السكَّيت ، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت ، وتلاعب في الصفات تلاعب الصفاح والصبَّ بالبانة ، والصبَّ بالعاشق ذي اللبانة ، فقد أغرب بفنونه ، وأغرى القلوب بفنونه ، ونفت بخفية الأطراف ، وعبث من الكلام المشقَّق بالأطراف ، وعلم كيف يحض البيان ، ويخلص العقيان ، فمن الحق شكره على أياديه البيض ، وإن أخذ لفظه من معناه في طرف التقيض .

« تالله أيها الإمام الأكبر ، والغمام المستمطر ، والحبر الذي يشفى سائله ، والبحر الذي لا يرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المسلك ، ومن أين حصل ذلك النور لهذا الحلك ، وضح أن يقاس بين الحداد والملك ؟ إنَّه لتواضع الأعزَّة ، وما يكون عند الكرام من الهزَّة ، وتخريض الشيخ للتلميذ ، وترخيص في إجازة الموضوع بالنيذ ، لو حضر الذي قُضي له بجانب الغربي أمرُ البلاغة ، وارتضى ما له في هذه الصناعة ، من حسن السبك لخليها والصياغة ، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافي الحسان ، واتبعت فيما جمعته لكن بغير إحسان ، لأذعن كما أذعنت ، وظن عن محل الإجادة كما ظعنت ، وأنتى يضاهى الفرات بالنغبة ، ويباهى بالفلوس من أوتي من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة ، وأي حظ للكلالة بالنشب ، وقد اتصل للورثة عمود النسب ، هيهات والله المطلب ، وشتان الدر والمخشب ، وقد سيم الغلب ، ورجع إلى قياده السلب .

« وإن كنا ممن تقدّم لشدة الظلم إلى المنهل ، كن أقدم إلى عين تبوك بعد النهي للعلل والنهل ، فقد ظهرت بعد ذلك المعجزة عياناً ، وملاً ما هنالك جناناً ،

وما تعرضنا بإساءة الأدب واللوم ، ولكن علمنا أن آخر الشرب ساقى القوم ، وإن أسهبنا فما لنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن أعرقنا فهوانا في الحجاز ، فلكم قصيرات الحجال ، ولنا قصيرات الخطا في هذا المجال ، وإكثارنا في قلة ، وجارنا من الفقر في فقر وذلة ، ومن لنا بواحدة يشرق ضياؤها ، ويخفي النجوم خجلها منها وحياتها ؟ إن لم تطل فلأنتها للفروع كالأصل ، وفي الجموع ككيلة الوصل ، فلو سطع نورها الزاهر ، ونورها الذي تطيب منه الأنوار الأزاهر ، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال ، ووجدت قفحات ريتاها في أعطاف الجنوب والشمال ، وأسرت نحوها النفوس إسراع الحجيج يوم السفر ، وسار خبرها وسرى فصار حديث المقيمين والسفر ، وما ضرَّ تلك الساحرة في تجليها ، الساحرة بتجنيها ، أن كانت بمنزلة ريبتها بل ريبتها ، هذه التي سبقتني لما سقتني بسيتها^١ ، ووجدت ريحها لما فصلت من مصر غيرها ، وحين وصلت لم يدلني على ساريا إلا عبيرها ، وكم رامت أن تستر عني بليل خبرها في هذه المغاني^٢ ، فأغراني بهاؤها^٣ وكل مغرم مغرى بيباض صبح الألفاظ والمعاني ، وهل كان ينفعها ، تلفحها بمرطها وتلفعها ؟ إذ نادتها المودة ، قد عرفناك يا سودة ، فأقبلت على شم نشرها وعرفها ، ولثم سطرها وحرفها ، وقريتها الثناء الحافل ، وقرأتها فزينت بها المحافل ، ورمت أمر الجواب ، فعزني في الخطاب ، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزى واشية ، وإليكم مني على استحياء ماشية ، وإن رقَّ وجهها فما رقت لها حاشية ، فمنا بقبولها على عللها ، وانقعوا بماء سماحتكم حرَّ غلَّها ، فإنها وافدة من استقر قلبه عندكم وثوى ، وأقر بأنه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النوى ، بقيم سيدي للفضل والإغضاء ، ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء ، واقتضيم السعادة

١ السيتة : اللبن قبل نزول الدرة .

٢ ق : أن يستر عني الليل خبرها في هذه المعاني .

٣ ق : بها .

المتصلة مدة الاقتضاء ، يمين الله سبحانه » انتهى .

ومن ثمر ابن الجنان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم :
« للمحمد خير الأنام ، ولتبيته التمام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، خيرة المفاخر ،
يتضاءل لعظمتها المفاخر ، والمعالي ، يتصاغر لعزتها المعالي ، والمكّارم ، يعجز
عن مساجلتها المكّارم ، والمناقب ، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب ، والمحامد ، لا
يبلغ مداها الحامد ، والمماجد ، لا يتعاطى رتبهن المُمّاجد ، والمناسب ، سمت
بجلالهن المناصب ، والعناصر ، طيّبها الشرف المتناصر ، والفضائل ، تفجرت
في أرجائهن الفواضل ، والشمائل ، تأرّجت بعرفهن الجنائب والشمائل ، فلا
مُجاري لسيد البشر ، الآتي بالندارات والبُشر ، فيما حباه الله تعالى به وخصّه ،
وقصّه علينا من خلقه العظيم ونصّه ، عند رسم مدائحہ يوجد المعول ، وفي الثناء
عليه يُستقصرُ الكلام المطول ، هو الآخر في ديوان الرسالة والأول ، وله
في الفضيلة ، وقبول الوسيلة ، النص الذي لا يؤوّل ، نوره صدع الظلم ، وظهوره
رفع لدين الله تعالى العلكم ، بدأه الوحي وهو بحراء ، وأسرّ إليه سر تقدم الإسرائ ،
حتى إذا نصب له المعراج ، وتوقد في منارة السماء ذاك السراج ، ناجى الحبيب
حبيبه ، وجلا عن وجه الجلاء جلايبه ، فتلقى ما تلقى ، لما علا وترقى ، ثم صدر
عن حضرة القدس ، وجين هدايته يبهرُ سنا الشمس ، فشق لمعجزاته القمر ،
ونهى بأمر ربه وأمر ، وأزال الجهالة ، وأزاح الضلالة ، وكسر منصوب الأوثان ،
ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان ، وبنى الملة على قواعدها
الخمس ، وأحيا دين إبراهيم وكان رُفاتاً بالرّمس ، فرفلت الحنيفية البيضاء في
بردة الجدة ، وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودة ، وانتشرت الرحمة
بنيها ، ومطرت المرحمة من سحب حبيها ، وافتنت الآيات الباقيات البيئات في
مساقها واتساقها ، وإشراقها في آفاقها واثلاقها .

« وشهد الحجر والشجر ، والماء من بين البنات يتفجر ، والظبية والضب ،
والجذع المشتاق الصب ، والشاة والبعر ، والليث إذا هداً أو سمع منه الزئير ،

والحي والحمداد ، والقَصَّة والزاد ، بأن محمداً رسول الملك الحق ، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق ، وصاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، والقول المسموع ، والذكر المرفوع ، والصدر المشروح ، والفخر الباهر الواضح ، والأنوار المتناقلة ، والآثار المتداولة ، والنبوة التي عهدُها تقادم ، من قبل خلق آدم ، والمزية المعروفة قدرها الجليل ، المقبول فيها ما دعا به الخليل ، والرتبة التي استشرف إليها الكليم ، حتى قال له ﴿ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٤) ربُّه الكريم ، والبشارة التي كان بها يصيح حين يسبح ، روح الله تعالى وكلمته عيسى المسيح ، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم ، ويقرَع بها الباب المرتج المبهم ، فما لنينا المختار ، من علو المقدار ، واصطفاء الجبار ، والاختصاص بالأثرة ، والاستخلاص للحضرة ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

« وحسب هذا الوجود من الفضل الرباني والوجود الذي لم يزل عظيماً ، أن بعث الله تعالى فيه رسولاً رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً ، عزيزاً على ربِّه الكريم كريماً ، بسرِّه سجدت الملائكة لآدم تعظيماً ، وبذكره ينظم سلك المادح لحضرتة العلية تنظيماً ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلِّم تسليماً ، صلاة تتصل ما دار كأس محبته على أحبته . فكان مزاجه تسنيماً ، وسلاماً يتزل دار دارين فيرسل بيضائهما إلى روضة الرضى نسيماً » .

ومن خطبه المرتجلة قوله ساعه الله تعالى :

« الحمد لله الذي حمده من نعمائه ، وشكره على آلائه من آلائه ، أحمده حمداً عارف بحق سنائه ، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه ، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل آثائه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته وكبريائه ، المتقدس عما يقوله الملحدون في أسمائه . وأصلي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه ، محمد المفضل على العالمين باجتماعه

واصطفائه ، المتقى من صميم الصميم وصریح الصريح بجملة آياته ، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه ، أرسله الله للناس كافة عموماً لا يتخصص باستثنائه ، وفضّله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونظرائه ، ورقاه إلى الدرجات العلا وأنهاه إلى سِدْرَةِ المنتهى ليلة إسرائه ، وحباه بالخصائص التي لا يضاهاى بها بهاء كماله وكمال بهائه ، وردّاه رِداء العصمة فكانت عناية الله تكفنه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه^٢ ، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزيتته على الليث والغيث في إياته وانهمائه ، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه ، صلاة تتصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره والقطر باندفاق أنوائه ، وسلّم تسليماً .

ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلّم ، وهي :

«السلام العميم الكريم ، والرحمة التي لا تبرح ولا تريم ، والبركة التي أولها الصلاة وآخرها التسليم ، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة ، المؤيدة بالعصمة والأيد والقوة ، ومثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صفاً ومرّوة ، مقام سيد العالمين طُراً ، وهاديهم عبداً وحرّاً ، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألقوا العيش ضنكاً والدهر مرّاً ، ومقر الأنوار المحمدية ، والبركات السمرمية ، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها ، وكلاءة ظلّاتها العلية وأفيائها ، وأقر عين عبدها بلثم ثراها ، والانخراط في سلك من يراها .

«السلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، سلام من يمدّ إليك يد الفريق ، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق ، ويتقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلما ازدلف إليك فريق ، وعمرت نحوك طريق ،

١ ق : مجد .

٢ ورداه . . . ورائه : سقطت من ق .

ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يحفز ريق .

« كُتِبَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ رَحَلَ الْمَجْدُونَ وَأَقَمْتَ ، وَاسْتَقَامَ الْمَسْتَعْلُونَ وَمَا اسْتَقَمْتَ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ لُثْمِ ثِرَاكِ النَّبَوِيِّ ، وَلِمَحِّ سِنَاكِ الْمَحْمَدِيِّ ، مَفَاوِزُ لَا يَفُوزُ بِقَطْعِهَا إِلَّا مَنْ طَهَرَ دَنْسَ ثَوْبِهِ ، بِمَاءِ تَوْبِهِ ، وَسَتَرَ وَصَمَّ عَيْبِهِ ، بظَهْرِ غِيْبِهِ ، فَكَلَّمَا رُمْتَ الْمَتَابَ رُدِدْتَ ، وَكَلَّمَا يَمَّتْ الْبَابُ صُدِدْتَ ، وَقَدْ أَمَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى بِالْمَجِيءِ إِلَيْكَ ، وَالْوَفَادَةِ عَلَيْكَ ، وَمَنْ لِي بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالْآثَامُ تُنْشَى وَتُتْبَعِدُ ، وَالْأَيَّامُ لَا تُدْنِي وَلَا تُسْعِدُ ، وَبَيْنَ جَنْبِي أَشْوَاقٌ لَا يَزَالُ يَهْزِنِي مِنْهَا الْمُقْسِمُ الْمُقْعِدُ ، وَلِئِنْ كُنْتُ مَمَّنْ خَلَفْتَهُ عَيْبُهُ ، وَأَوْبَقْتَهُ ذَنْبُهُ ، وَلَمْ يَرْضَ لِلْوَفَادَةِ وَهُوَ مَدْنَسٌ ، عَلَى ذَلِكَ الْمَقَامِ وَهُوَ الْمَطْهَرُ الْمُقَدَّسُ ، فَعِنْدِي مِنْ صِدْقِ مَحَبَّتِكَ ، وَحُبِّ صَحْبَتِكَ ، وَالْإِعْتِلَاقِ بِذِمَّتِكَ ، مَا يُقَدِّمُنِي وَإِنْ كُنْتُ مَبْطِئًا ، وَيُقَرِّبُنِي وَإِنْ كُنْتُ غَاطِئًا .

« فَاشْفَعْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي زِيَارَتِكَ فَهِيَ أَفْضَلُ الْمَنَى ، وَتَوَسَّلْ لِي إِلَى مَوْلَى بَيْنَ فَضِيلَتِكَ ، وَتَقَبَّلْ وَسِيلَتِكَ ، فِي النَّقْلَةِ مِنْ هُنَاكَ إِلَى هُنَا ، وَاقْبَلْنِي وَإِنْ كُنْتُ زَانِفًا ، وَأَقْبَلْ عَلَيَّ وَإِنْ أَصْبَحْتُ إِلَى الْإِثْمِ مَتَجَانِفًا ، فَأَنْتَ عِمَادُ أُمَّتِكَ جَمِيعًا وَأَشْتَائَا ، وَشَفِيعَهُمْ أَحْيَاءُ وَأَمْوَاتًا . وَمَنْ نَأَتْ بِهِ الدَّارَ ، وَقَعَدَتْ بِعِزِّهِ الْأَفْدَارَ ، ثُمَّ زَارَ خَطُّهُ وَلَفْظُهُ ، فَقَدْ عَظَّمَ نَصِيْبَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَحَقَّقَهُ ، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ سَابِقًا فَعَسَى أَنْ أَكُونَ مُصَلِّيًّا ، وَإِنْ لَمْ أُعَدِّ مُقْبِلًا فَلَعَلِّي أُعَدُّ مُؤَلِيًّا ، وَوَحَقُّكَ وَهُوَ الْحَقُّ الْأَكِيدُ ، وَالْقَسَمُ الَّذِي يُبَلِّغُ بِهِ الْمُقْسِمُ مَا يَرِيدُ ، مَا وَخَدَّتْ إِلَيْكَ رِكَابَ ، إِلَّا وَلِلْقَلْبِ إِثْرُهَا التَّهَابُ ، وَلِلدَّمْعِ بَعْدَهَا سَحٌّ وَانْسِكَابُ ، وَيَا لَيْتَنِي مَمَّنْ يَزُورُكَ مَعَهَا وَلَوْ عَلَى الْوَجْتَيْنِ ، وَيَحْيِيكَ بَيْنَ رِكَبَيْهَا وَلَوْ عَلَى الْمُقْلَتَيْنِ ، وَمَا الْغَنَى دُونَكَ إِلَّا بؤْسٌ وَإِقْلَالُ ، وَلَا الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَتْ إِلَّا سَجُونَ وَأَغْلَالُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُنُّ عَلَى كِتَابِي بِالْوَصُولِ وَالْقَبُولِ ، وَعَلَى بِلْحَاقِي بِبِرْكَتِكَ وَلَوْ بَعْدَ طَوْلِ .

« ثُمَّ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبِرَكَاتِهِ عَلَيْكَ يَا سَيِّدَ الْخَلْقِ ، وَأَقْرَبِهِمْ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَمَوْلَاهُ يَا حِرَازَ قَصَبِ السَّبْتِ ، وَمَنْ طَهَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِثْوَاهَ وَقَدَّسَهُ ، وَبَنَاهُ عَلَى

التقوى والرضوان وأسهه ، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفَسَه ،
وعلى ضجيعك السابقين لمهاجرينك وأنصارك ، الفائزين بصحبتك العلية وجوارك ،
وعلى أهل بيتك المطهرين أوائلَ وأواخرَ ، الشهرين مناقب ومفاخر ، وصحابتك
الذين عزروك ووقروك ، وآووك ونصروك ، وقدموك على الأنفس والأموال
والأهل وأثروك ، وأقرئك سلاماً تنال بركته مَنْ مَضَى من أمتك وغَبِرَ ،
ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وسَطَّرَ ، إن شاء الله تعالى .

« كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى ، اللائد بحرمك الأمتع الأوقى ،
المتأخر جسماً المتقدم نطقاً ، فلان ، والسلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك
وسلم تسليمًا كثيرًا ورحمة الله تعالى وبركاته » .

وله من خطبة طويلة : « ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الصفوة المجتبي ،
الكريم أمّاً طاهرة وأباً ، المختار من الطيبين مباركاً طيباً ، المصطفى نبيّاً إذ كان
آدم بين الماء والطين مُتَقَلِّباً ، المتقدم بمقام تأخر عنه مقام الملائكة المقربين ،
انتخبه الله وانتجبه ، وأظهره على غيبٍ عن غيره حَجَبِيَه ، وشرفه في الملأ
الأعلى وأعلى رُتَبَه ، وخطَّ اسمه على العرش سَطْرًا وكتبه ، فهو وسيلة النبيين ،
والمرشح أولًا لإمامة المرسلين ، بعثه ربّه لحتم الرسالة ، ونعته بنعت الشرف
والجلالة ، وأيده بالحجة البالغة والدلالة ، وجعله نوراً صادعاً لظلام الضلالة ،
وأثنى في ذكره الحكيم ، على خُلُقِه العظيم ، فما عسى أن يبلغ بعدُ ثناء المُشَنِّين ،
بفضله التصريح وإليه الإشارة ، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى
البشارة ، وعليه رافت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة ، وهو المخير
بين الملُك والعبودية فاختر العبودية بعد الاستخارة والاستشارة ، فبتواضعه
حل بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربه إليه ، ووفد أكرم وفادة عليه ،
وأذناه قاب قوسين لديه ، ووضع إمامة الرسالة العظمى في يديه ، وقال له
﴿ اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (الحجر : ٩٤) فصعد بأمر الله

صَدْعًا ، وَأُوتِيَ مِنَ الثَّانِي سَبْعًا ، وَمِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ آيَاتًا وَإِنْ كَانَ أُوتِيَ
مُوسَى تَسْمًا .

«فما مشيُ الشجرِ إليه يجر عروقهُ إلا كرجوع العصاحية تسمى ، وما تفجرُ
الحجر بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعاً ، فارتوى منه خمسمائة
وقد كان يكفي آفاً فكيف المئين ، وكم لهُ عليه الصلاة والسلام من معجزة
تبهر ، وآية هي من أختها أكبر ، رجعت لهُ الشمس وانشق القمر ، وكلمته
الضرب وأخبر به الذئب وسلّم عليه الشجر والحجر ، وكان للجذع عند فراقه
إعلاناً بوجوده واشتياقه أنه وحين ، أعطي من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ،
وكانت له في الغار آيات بيّنات خفي بها على القوم الأثر ، وارتج لمولده إيوان
كسرى وخمدت نار فارس وكان ضرهما يتسعر ، وأتته أخبار السماء فما عمي
في الأرض الخبر ، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين ، وجعل له
القرآن معجزة تُتلى ، يَبْلَى الزمانُ وهي لا تَبْلَى ، وتعلو كلماتها على الكلم
ولا تُعلَى ، وتجلّي آياتها في عين آيات الشمس حين تُجلى ، فيتوارى منها
بالحجاب حاجب وجين ، بهر إعجاز التتريل العلي ، وظهر به صدق النبي
العربي ، فكّم نادى لسان عزّه في الندى ، بأهل البديهة من الفصحاء والرويّ :
قل فأتوا بسورة من مثله فلم يكونوا لها مستطيعين .

«لقد خص نبينا عليه السلام بالآيات الكبر ، والدلالات الواضحة الغرر ،
والمقامات السامية المظهر ، والكرامات المخلّدة للمفخر ، فهو سيد الملاّ النبوي
والمعشر ، وحامل لواء الحمد في المحشر ، وصاحب المقام المحمود والكوثر ،
والشفيع المشفّع يوم يقوم الناس لرب العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ،
وذريته المباركين ، وصحابته الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، صلاةٌ
موصولة تتردد إلى يوم الدين ، وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتاباً في
عليّين ، وسلّم تسليمًا .

ومن ثره في خطبة قوله : «أيها الناس ، رحمكم الله تعالى ، أصبحوا

أَسْمَاعِكُمْ لِمَوَاعِظِ الْيَوْمِ ، وَاعْتَبَرُوا بِأَحَادِيثِهَا اعْتَبَارَ أُولِي النُّهْيِ وَالْأَحْلَامِ ،
 وَأَحْضِرُوا لِفَهْمِ مَوَادِّهَا أَوْعَى الْقُلُوبِ وَأَصَحَّ الْأَفْهَامِ ، وَانظُرُوا آثَارَهَا بِأَعْيُنِ
 الْمُسْتَقِظِينَ وَلَا تَنْظُرُوا بِأَعْيُنِ النَّوْمِ ، وَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدُّنْيَا بِتَهْوِيلِ
 الْأَبَاطِيلِ وَأَضْفَاتِ الْأَحْلَامِ ، وَلَا تَنْسِينَكُمْ خُدْعُهَا الْمَوْهَةَ وَخِيَالَاتِهَا الْمُمَثَّلَةَ
 مَا خَلَا مِنْ مَقَالَاتِهَا فِي الْأَنَامِ ، فَهِيَ دَارُ انْتِيَابِ النَّوَابِ ، وَمَصَابِ الْمَصَائِبِ ،
 وَحُدُوثِ الْحَوَادِثِ وَالْمَامِ الْأَلَامِ ، دَارُ صَفْوِهَا أَكْدَارُ ، وَسَلْمِهَا حَرْبُ تَدَارُ ،
 وَأَمْنِهَا خَوْفٌ وَحَذَارُ ، وَنَظْمِهَا تَفْرُقُ وَانْتِشَارُ ، وَاتِّصَالِهَا انْقِطَاعٌ وَانْصِرَامُ ،
 وَوُجُودِهَا فَنَاءٌ وَانْعِدَامُ ، وَبِنَاوِهَا تَضَعُّضٌ وَانْهَادُ ، يَنَادِي كُلُّ يَوْمٍ بِنَادِيهَا
 مَنَادِي الْحِمَامِ ، فَلَا قَرَارَ بِهَذِهِ الْغُرَارَةِ ١ وَلَا مَقَامَ ، وَلَا بَقَاءَ لِسَاكِنِيهَا وَلَا دَوَامَ .
 « فَبَسَّتِ الدَّارَ دَارًا لَا تَدَارِي ، وَلَا تُقِيلُ لِعَاثِرِهَا عِثَارًا ، وَلَا تُقْبَلُ لِمُعْتَذِرِ
 اعْتِدَارًا ، وَلَا تُقِي مِنْ جُورِهَا حَلِيفًا وَلَا جَارًا ، وَليْسَ لَهَا مِنْ عَهْدٍ وَلَا ذِمَامَ ،
 كَمْ فَتَكَتْ بِقَوْمِ غَافِلِينَ عَنْهَا نِيَامَ ، كَمْ نَازَلَتْ بِنَوَازِلِهَا مِنْ قِيَابِ وَخِيَامِ ، كَمْ
 بَدَلَتْ مِنْ سَلَامَةِ بَدَاءٍ وَمِنْ صِحَّةِ بَسْقَامِ ، كَمْ رَمَتْ أَغْرَاضَ الْقُلُوبِ بِمُصْمِيَّاتٍ ٢
 السَّهَامِ ، كَمْ جَرَدَتْ فِي الْبِرَايَا لِلْمَنَائِيَا مِنْ حُسَامِ ، كَمْ بَدَدَتْ بِأَكْفِ النَّائِبَاتِ
 النَّاهِبَاتِ مِنْ عَطَايَا جِسَامِ ، كَمْ أَبَادَتْ طَوَارِقَ حَوَادِثِهَا مِنْ شَيْخٍ وَكَهْلٍ وَغَلَامِ .
 لَا تَبْقَى عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا تَرْتِثِي لَوَالِدٍ وَلَا وَلَدَ ، وَلَا تَخْلُدُ سُرُورًا فِي خَلْدِ ، وَلَا
 يَمْتَدُّ فِيهَا لِأَمَلٍ أَمْدُ ، بَيْنَا يُقَالُ قَدْ وَجَدَ ، إِذْ قِيلَ قَدْ فَقَدَ . بَعْدَ أَلِهَا قَدْ طُبِعَتْ
 عَلَى نَكْدٍ وَكَمْدٍ ، فَالْفَرْحُ فِيهَا تَرَحُّ ، وَالْحَبْرَةُ عِبْرَةٌ ، وَالضُّحْكُ وَالِابْتِسَامُ ،
 بِكَاءٍ وَأَدْمَعِ سِجَامِ . تَفْرُقُ الْأَحِبَّةَ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ ، وَتَسْكُنُ الْوَحْشَةَ مُؤَنَسِ
 رَبَاعِهِمْ ، وَتَبِيحُ بِالْحِمَامِ حَمَى الْأَعْزَةِ فَلَا سَبِيلَ إِلَى امْتِنَاعِهِمْ ، وَتَسْتَحْثُّ رُكَّابَ
 الْخِلَاقِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ ، إِلَى مَصِيرِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَارْتِجَاعِهِمْ ،

١ ق : القرارة .

٢ ق : بمزايها بمصيات .

فيسرون طوع الزمام ، ويلقون مقادة التذلل والاستسلام ، حتى يلجأوا بالرغام ،
ويتزلوا بطون الرجام ، ويحلّوا الوهد بعد المقام السام ، فلا ناج من خطبها العظيم
ولا سليم ، يتساوى في حكم المنية الأغر والبهيم ، والأعز والمضيم .
«ولو أنه ينجو من ذلك مجد صميم ، وجدّ كريم ، وحظ عظيم ، ومضاء
وعزيم ، ومزية وتقديم ، وحديث في الفضل وقديم ، وشرف لسمك السموات
مُسام ، وعُلّي على ساق العرش المجيد ذو ارتسام ، لنجا حبيبُ الملك العلام ،
وسيد السادات الأعلام ، وصفوة الصفوة الكرام ، وخاتم الأنبياء ولبنة التمام ،
وصباح الهدى ومصباح الظلام ، والأبيض المُستَسقى به غيثُ الغمام ، ثمال
الأرامل وعصمة الأيتام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، لكن مع قدره الجليل
وفضله الجلي ، أقدم الموت على جانبه العلي ، وتقدم ملك الموت لقبض روحه
القدسي وتغيب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي ، وتفيض ماء السماء والندى ، لملك
السماحة النبوية والندى ، وأصيب المسلمون وأعظم بها مصيبة بنيهم العربي ،
الهاشمي القرشي ، فيا له وللإسلام ، من مصاب أسلمنا للحزن أيّ إسلام ،
وأسال مياه الدموع عن احتراق للصلوع واضطرام ، وأرانا أن الأسي في رزية
لخير البرية واجب وأن التأمي حرام .

«وهل يسوغ الصبر الجميل ، في فقيد بكنه الملائكة وجبريل ، وكثر له في
السموات السبع النحيب والعويل ؟ انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتزير ،
وعظمت الرزية به أن يؤدي حقيقتها الوصف^١ والتمثيل ، غداة أقر منه الرّبع
المُحِيل ، وأوحش من أنسه السفح والنخيل ، وكان من تلك الروح الطاهرة
الوداع والرحيل ، وقامت البتُولُ تندب أباها بقلب قريح وجفن دام ، وتنادت
الأمّة مات الرسول ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام ، وحارت الألباب
والعقول فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الأقدام . ولما نُعميت إليه صلى الله عليه

١ الوصف : سقطت من ق .

وسلم نفسه ، وآن أن تأفل من تلك المطالع شمسه ، آذن أمته بالفراق وأعلمهم ،
وناشدهم في أخذ القصاص وكلمهم ، مخافة أن يمضي إلى الملك الحق ، وعليه
تباعة لأحد من الخلق ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ، من صفات جائر للأمة
ظلاماً ، ولكنه تعريف من نبي الرحمة بما يجب وإعلام ، ثم استمر به صلوات
الله وسلامه عليه وتمادى ، وزاد به السقم المتتاب وتمادى ، حتى وراه ملكه ،
وخلا منه ربه ومسجده ، فعمّ الحزن والاكتئاب ، وتوارى النور فأظلم
الجناب ، وعاد الأصحاب ، وكأنما دموعهم السحاب ، فقالت فاطمة وقد رابها
من دفن أبيها الكريم ما راب : أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله
عليه وسلم التراب ؟ فكان كلامها للقلوب المفجعة كلام ، وللعيون المفجرة
بالدموع انسحاق وانسجام .

« وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع ، المشيد بذكر الأشجان المذيع ، كانت وفاة
هذا النبي الهادي الشفيح ، وانتقاله إلى الملا الأعلى والرفيق الرفيع ، حين ناداه ربه
إلى قربه ، فلبى بشوق قلبه تلبية المهطع المطيع ، وحنّ إلى حضرة القدس فانظم
حين حل بها ما كان من شمله الصديق ، وانتظر من صنع الرب جميل الصنيع ،
وإنجاز وعد الشفيح في الجميع ، إذ أعطي لواء الحمد وقام محمود المقام ، ووقف
على الحوض ينادي : هلموا إليّ أروكم من العطش والأوام .

« اللهم اسقنا من حوضه المورود ، وشرّفنا بلوائه المعقود ، وشفّعنا فينا في
اليوم المشهود ، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللّحود ، اللهم اجعله لنا
تعزية من كل مفقود ، وأوجد لنا من بركاته أشرف موجود ، وجازه عنا بما
أنت أهله من فضل وإحسان وجود ، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابه الرّكّع
السّجود ، واجعلنا معهم في الجنة دار الخلود ودار السلام . واخصصهم عنا
بأكرم تحية وأفضل سلام ، وصلّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أيّ
استلام ، وتتنظّم له كرامات إحسانك أيّ انتظام .

« فصلوات الله عليه ، وأطيب تحياته ورحمته تتوالى لديه ، وأجزل بركاته ،

ما تجدد في ربيع ذكر وفاته ، وتمهد كهف القبول لطالبي فضله وعفاته ، وتعزى به كل مصاب في مصيباته ، وترجى شفاعته كل محب فيه متبع لهداياته ، وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جنباته ، حظوظ من بَرَّ الله تعالى وأقسام ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦) اللهم صلِّ عليه من نبي لم يزل بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، اللهم صلِّ عليه من نبي أوجبت حبه وعظَّمته تعظيماً ، اللهم صلِّ عليه من نبي صليت عليه تجلَّة وتكريماً ، وأمرتنا بالصلاة عليه لإرشاداً وتعليماً ، فلنا بأمرك اقتداء واثتمام ، وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام ، وكلامك يا ربنا أشرف الكلام ، ولوجْهك وحده البقاء والدوام ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٧) ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٥) « انتهى .

وترجمة ابن الجنان واسعة جداً ، وكلامه في النبويات نظماً ونثراً جليل ، رحمه الله تعالى .

وقال لسان الدين في « الإحاطة » بعد أن عرف به وأورد له الرسالة ما صورته : ومحاسنه عديدة ، وأماده بعيدة ، ثم قال : إنه انتقل إلى بجاية فتوفي بها في عشر الخميس وستمائة ؛ انتهى .

وقال صاحب « عنوان الدراية » في حق ابن الجنان المذكور ما ملخصه ١ :
 الفقيه الخطيب ، الكاتب البارع الأديب ، أبو عبد الله ابن الجنان ، من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان ، وجودة الخط وحسن الضبط ، وهو في الكتابة من نظراء الفاضل أبي المطرف ابن عميرة المخزومي ، وكثيراً ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء ، ولا يصل إليه إلا القليل من البلغاء ، ونثره ونظمه

١ عنوان الدراية : ٢١٣ .

كلته حسن ، ونظمه غزير ، وأدبه كثير ، ومن ذلك قصيدته الدالية التي مطلعها :

يا حاديَ الركبِ قفْ بالله يا حادي وارحمْ صبايةَ ذي نأيٍ وإبعادِ

وله أيضاً :

تركُ التزاهةَ عندنا أدى إلى وصفِ التزاهةِ
ما ذاكَ إلا أنها تدعو الوقورَ إلى الفكاهةِ
وإذا امرؤُ نبذَ الوقا رَفقد تلبسَ بالسفاهةِ

[خمسات من المدائح النبوية]

ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد
الوجود ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم^١ :

اللهُ زاد محمداً تكريماً
وحبَّاهُ فضلاً من لدنه عظيماً
واختصَّهُ في المرسلين كريماً

ذا رافةٍ بالمؤمنين رحيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

جلّت معاني الهاشميِّ المرسلِ
وتجلّت الأنوارُ منه لمجتلي
وسمّا بهِ قدرُ الفخارِ المعتلي

فاحتلّ في أفقِ السّماءِ مُقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

١ وشرف وكرم : سقطت من ق .

حاز المحامدَ والمادحَ أحمدُ
وزكت مناسبة وطابَ المحتدُ
وتأثَّلتَ علياؤه والسؤددُ

مجداً صميماً حادثاً وقديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

شمسُ الهداية ، بدرها الملتاحُ
قطبُ الجلالة ، نورها الوضاحُ
غيثُ السماحة للندي يرتاحُ

يروى بكوثره الظماء الهيما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

تاجُ النبوة ، خاتمُ الأنبياء
صفوُ الصريح ، خلاصةُ العلياء
نجلُ الذبيح ، سلالةُ العلماء

بُشرى المسيح ، دعاء إبراهيم صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فخرُ لآدم قد تقادم عصره
من قبل أن يدري ويجرى ذكره
سرُّ طوّاهُ الطينُ فهمَ نشره

معنى السجودِ لآدمِ تفهيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لله فضلُ المصطفى المختارِ
ما إن لهُ في المكرمات مُجاري
ولا مبارٍ باختصاصِ الباري

بالحقِّ قدّم مجدهُ تقدماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أوصافُ سيّدنا النبيِّ الهاديِّ
ما نالها أحدٌ من الأجدادِ
فالرُّسل في هدي وفي إرشادِ

قد سلّموا لنبينا تسليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

آياته بهرت سننا وسناء
وأفادت القمرين منه ضياء
وعلت بأعلام الظهور لواء

فهدي به الله الصراط قويما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذنت النجومُ الزُّهُرُ يومَ ولادته
ورأت حليلةً آيةً لسيادته
وتحدّثت سعدٌ بذكرِ سعادته

فتضاءلوا نعمَ اليتيمِ يتيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لما ترعرع جاءهُ المَلَكُانِ
بالبطسِ فيها حكمةُ الرحمنِ
فاستخرجا القلبَ العظيمَ الشانِ

منهُ وطهرتُم عادَ سليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

كرمتُ مناشي أحمدَ خيرِ الوري
وجرى له القلمُ العليُّ بما جرى
ما كان ذلكمُ حديثاً يُفترى

لكنهُ الحقُّ الجليُّ رسوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما زالَ برهانُ النبيِّ يُلوحُ
يغدو به الإعجازُ ثمَّ يروحُ
حتى أتاهُ بعدَ ذاكَ الروحُ

يوحى لهُ وحي الإلهِ حكيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

شهدتُ له بمزية التفضيلِ
سُورَ وآياتٍ من التنزيلِ
وصلاةُ خالقه أدلُّ دليلِ

فأفهمتهُ وأسمع قولهُ تعظيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

إنَّ الرسولَ المعتلي المقدارِ
لمؤيدٍ من ربِّه القهارِ
بالمعجزاتِ جَلَّتْ عَمَى الأبصارِ

وشفت من آدواء الضلال سقيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

كم شاهدٍ لمحمدٍ بنبوتهِ
في أيدي تأييدِ الإلهِ وقوتهِ
فبذاك أعلى الله دعوةَ حجتهِ

فمضت حساماً صارماً وعزيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

البدرُ شقَّ لهُ ليُظهرَ صدقهُ
والشمسُ قد وقفت تعظّمُ حقّهُ
والمزنُ أرسلَ إذ توصلَ ودقهُ

فاخضرَّ ما قد كان قبلُ هشيماً صلّوا عليهِ وسلّموا تسليماً

والماء بينَ بَنَانِهِ قَدْ سَالَ
عَذَاباً مَعِيناً سَائِغاً سَلْسَلَا
كَتَدَاهُ يَمْنَحُ رَفْدَهُ مِنْ سَالَ

وَيُنِيلُ رَاجِيهِ النَّوَالِ جَسِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

بِرَكَاتِهِ أُرْبِتْ عَلَى التَّعْدَادِ
كَمْ أَطْعَمَتْ مِنْ حَاضِرِينَ وَبَادِي
مِنْ قِصْعَةٍ أَوْ حَيْثَةٍ مِنْ زَادِ

رِزْقاً كَرِيماً لِلْجِيُوشِ عَمِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

سَجَدَ الْبَعِيرَ لَهُ سَجُودَ تَذَلُّلِ
وَشَكَكَ إِلَيْهِ بِمَرْقَةٍ وَتَمَلُّلِ
وَالشَّاةُ قَالَ ذِرَاعَهَا : لَا تَأْكُلِ

مَنْتِي فَإِنِّي قَدْ مَلَأْتُ سَمُومَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وَالْفِصْنَ جَاءَ إِلَيْهِ يَمْشِي مُسْرِعَا
وَالصَّخْرُ أَفْصَحَ بِالتَّحِيَّةِ مَسْمَعَا
وَالظُّبِيَّةُ الْعَجْمَاءُ فِيهَا شُفْعَا

وَالضَّبُّ كَلَّمَ أَحْمَدَا تَكْلِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

وَالْجُدْعُ حَنَّ لَهُ حَنَّ الوَالِهِ
يَبْدِي الَّذِي يَخْفِيهِ مِنْ بَلْبَالِهِ
أَفْلَا يَحْنُ مَتِيماً بِجَمَالِهِ

يَشْتَاقُ وَجْهاً لِلنَّبِيِّ وَسِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ما بالنا نسلو وحبٌ حيينا
يقضي بيتٌ غرامنا ونحيننا
لو صح في الإخلاص عقد قلوبنا

لم ننسَ عهداً للرسولِ كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أين الدموع نُفِضُهَا هَتَانَا
أين الضلوعُ نُقِضُهَا أَشْجَانَا
حتى نقيمَ على الأسيِّ برهَانَا

لنتممِ إرشادنا تَتَمِّمِا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أوليس هادينا إلى سُبُلِ الهدى
أوليس منقذنا من أشراكِ الردى
أوليس أكرمَ من تعمّمِ وارتدى

أوكمَ بكنْ أركي البريةَ خيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ذاك الشفيعُ مقامه محمودُ
ولو اوزه بيدِ العلا معقودُ
فإذا توافقتْ للحسابِ وفودُ

قالوا : تقدّمْ بالأنامِ زعيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فيقومُ بالبابِ العليِّ ويسجدُ
ويقولُ : يا مولاي أنّ الموعدُ
فيجابُ : قلْ يُسْمَعُ إليك عمّدُ

ونُربِكَ متاً نضرةً ونعيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أعظمُ بعزِّ محمدٍ وبجَاهِهِ
أكرمُ به متوسلاً لإلهِهِ
شربتُ كرامُ الرُّسلِ فضلَ مياهِهِ

فعدتُ تعظُمُ حقَّهُ تعظيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا سامعي أخباره ومفاخرِهِ
ومطالعي آثاره ومآثرِهِ
ومؤملي وافي الثوابِ ووافرِهِ

إن شتتمُ فوزاً بذاك عظيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

قلت : وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس ،
وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح
النبوية مَقِيلٌ وتَعْرِيسٌ ، وهي قصيدة ميلادية كَأَتَمًا لم ينظمها مؤلفها إلاّ مقدّمة
لهذه القصيدة الفريدة ، وهي :

اسمعُ حديثاً قد تضمّن شرحُهُ روضاً من الإيناس أبنع دوحُهُ
فيه الشفاء لمن تكاثر برّحُهُ وافي ربيعٍ قدّ تعطرَ نفحُهُ
أذكي من المسكِ الفتيق نسيمًا

شهرٌ حوى بوجود أحمد أسعدًا بالمصطفى بينَ الشهور تفرّدا
يا ما أجلّ سنا علاه وأمجدا لولادة المختار أحمد قد غدا
يزهو به فخراً تراه عظيمًا

يا مَنْ بأدمعٍ مقلّتيه يَغْتَنّدي كم ذاتنادي حسرة : مَنْ مُنْقِدي
وتقول للزفراتِ : هل من منفذٍ بُشِرى بشهرٍ فيه مولده الذي
سرّ الزمان علوهُ تعظيماً

ا ق : بز .

يا ليلة رُفعت بأحمد حُجُبُها لَمَّا دنا بعد التباعِدِ قريبا
وتطلعتُ للسعدِ فينا شُهَبُها ضياءت لها شرقُ البلادِ وغربُها
وتأنقتُ أرجاؤها تنعيما

أسدى إليك الدهر حُسْنُ صنيعه وحبّاك من غضبِ الجنى ببيدعه
وافى هلال محمدٍ بريعه فاعتزّ أمر الله عند طلوعه
وغدا به دين الإله قويمًا

نظم الزمانُ بجيدِ عمركُ درةً فاشكرُ ماثره وواصلِ بيرةً
وافاك بالسرِّ المصونِ فسرّه واعرف لهذا الشهر حقاً قدره
فلقد غدا بين الشهورِ كريماً

يا صاحِ جاءت بالأمانِ أسعدُ وأطلَّ بالبشرى الكريمةَ مولدُ
هذا ربيعٍ فيه أنجز موعدُ شهرٍ كريمٍ جاء فيه محمدُ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثم قلت أنا عند نخمِ درّس « الشفا » ، موطناً لقصيدة ابن الجنان المذكور
ولعذب براعتها مرتشفا ، ما نصه والأعمال بالنيات :

انشقّ أزاهر عن فنونِ رياضٍ للعلمِ واكرغ من عذابِ عياضٍ
واسقِ الرياضِ بذكره الفيّاضِ واحفظُ كلاماً للإمامِ عياضِ
قدّ تمت أقسامه تنميماً

لله روضٌ منه أبتغِ دوحهً يجنى به من الكريمِ ومنحهً
فهو الشفاء لمن تكاثر برّحه مسكُ الختامِ به تعطر نفعه
فشذاه في الأرجاء صار شميماً

فاضت علينا من هداه عوارفُ زهرٌ وأنوارٌ وظلٌّ وارفُ
ونمارقٌ مصفوفةٌ ومطارفُ يا حُسنَ ما أبداه فذُّ عارفُ
دُرّاً بأسلاكِ الحديثِ نظيماً

لمْ لا وبالمملكِ الشقيعِ تشرفاً خيرُ البريةِ ركنَ أربابِ الصفا
من أسعدِ الراجي وقصداً أسعفا طهَ النبيّ الهاشميّ المصطفى
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة
ابن الجخان المذكور في روي تلك القصيدة غير خمسة مستقلة بنفسها ، وهي قوله
رحمه تعالى :

صلّوا على خيرِ البريةِ خيماً وأجلٌ منَ حازَ الفخارِ صميماً
صلّوا على من شرفتُ بوجوده أرجاءُ مكةَ زمزماً وحطيماً
صلّوا على أعلى قريشٍ منزلاً بذراه خيّمَتِ العُلا تخيماً
صلّوا على نور تجلّى صبحه فجلا ظلاماً للضلالِ بيماً
صلّوا على هادٍ أرانا هديه نهجاً من الدين الحنيفِ قويماً
صلّوا على هذا النبيّ فإته من لم يزلْ بالمؤمنينِ رحيماً
صلّوا على الزاكي الكريمِ محمدٍ ما مثله في المرسلينِ كريماً
ذاك الذي حاز المكارمَ فاغتندتُ قد نُظمتُ في سلكه تنظيمياً
من كان أشجعَ من أسامةَ في الوغى ولدى الندى يحكي الحيا تجسيمياً
طلقُ المحيا ذو حياءِ زانه وسطَ النديّ وزاده تعظيماً
حكمتُ له بالفضلِ كلُّ حكيمةٍ في الوحي جاء بها الكتابُ حكيماً
وبدت شواهد صدقه قد قسّمتُ بدرَ الدجى لقسيمه تقسيماً
والشمسُ قد وقفت له لما رأت وجهاً وسيماً للنبيّ وسيماً
كم آيةٍ نطقتُ تصدقُ أحمداً حتى الجمادُ أجابه تكليماً

والجدعُ حنَّ حنينَ صبِّ مغرمٍ
 جلَّتْ مناقبُ خاتمِ الرُّسلِ الذي
 وسمت به فوق السماء مراتبُ
 فلهُ لواءُ الحمدِ غيرَ مدافعٍ
 نرجوه في يومِ الحسابِ ، وإنَّما
 ما إنْ لَنَا إِلَّا وَسِيلَةُ حَبِّهِ
 ونخير ما أهدي امرؤُ لنبيِّه
 يا أيُّها الراجون منهُ شفاعَةٌ
 أضحي للوعاتِ الفِراقِ غريماً
 بالنورِ ختمَ والهدى تختيماً
 بمقامِ صدقِ عزِّ فيه مقيماً
 وله الشفاعةُ إذ يكون كليماً
 نرجو لموقفه العظيم عظيماً
 وتحيمةُ تذكو شَدًّا وشميماً
 أَرَجُ الصلاةَ مع السلامِ جسيماً
 صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبي العلاء إدريس بن موسى القرطبي^١ في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقف عليها أبو عبد الله ابن الجنان المذكور وقرظها بما سنذكره بعدها قريباً ، وهي :

أهلاً بكم يا أهل هذا النادي
 أهدوا الصلاة إلى النبي الهادي
 يندى نسيماً
 مذكراً تسنيماً
 أهلَ اعتقادِ الوعدِ والميعادِ
 وصلُّوا السلامَ له مع الآبادِ

هو أولُ الشفعاء يومَ المحشرِ
 بهت الحضورُ لهولِ ذلك المحضِرِ
 قدْ هيَّمتْ
 ألبابهم تهييماً
 وسواه بينَ تقدُّمٍ وتأخُّرٍ
 والكلُّ في الخطبِ العميمِ الأكبرِ

ذلك المقامُ الأشهرُ المحمودُ
 فيه الشفاعةُ ذخرها موجودُ
 فضل الكليمِ به وإبراهيمِما
 هو للنبيِّ محمدٍ موعودُ
 درك المراد وحوضهُ المورودُ

١ هو إدريس بن محمد بن محمد بن موسى الأنصاري القرطبي ، مال إلى العربية والآداب وأقرأ ذلك بقرطبة إلى أن تملكها الروم فخرج إلى سبته وأقرأ هناك ؛ وكانت له مشاركة في النظم والنثر مع غلبة الانقباض عليه والصلاح ؛ توفي آخر سنة ٦٤٧ (التكملة : ١٩٧) .

عيسى وموسى والخليل مروّع من هول مطّلع هنالك يَفْطَعُ
فيقال أحمدُ قلْ فإنك تَسْمَعُ فيقومُ بحمد ربه فيشفعُ
فضلاً من الرب العظيم عظيماً

يا أمة المختار أنتم أمة والهولُ قد عمّ البسيطة بيه
والأنبياء سواء كلُّهم مهتمة وليس بهمته
من كان في الدنيا عليه كريماً

صلى الإله على الذي صلى عليه عشرًا بواحدة يركبها لديه
وأراه في الدارين قرّة ناظره يا قاصدين إلى وصولكم إليه
راجين من أرجّ القبول نسيماً

لولا وصيّة صاحب التزليل أن لا يقال له غلّوا القيل
قول الغلاة لصاحب الإنجيل لغلّوا في التعظيم والتبجيل
عظمُ المكانة يوجبُ التعظيم

طوبى لقلب قد تلالا إذ صفا بالسرّ منه قد ثبت إذ هفا
خطّت به آيات حبّ المصطفى فغدا لصاحبه بذلك مصحفا
يهدى إلى نهج النجاة قويماً

فاقت علا ذكره إذ رافت حلى ملأ النبوّة أهم حين اعلى
في ليلة الإسراء أعلى معلى كتب الإله له التقدم في العلا
وعليهم التفضيّل والتسليماً

وكذاك يسلم في الشفاعة كلهم ومحلّهم عند الإله محلّهم
ظلّ النبيّ محمد هو ظلّهم يمشون تحت لوائه فيدلّم
يندى عليهم بهجة ونعيماً

أوصافه من كل حسن أبهجُ العرفُ ينفحُ والسنا يتبلجُ
فتأرج الأرجاء منهُ وتبهجُ فاقَ الزواهرَ نورها يتوهجُ
والزهرُ نفاحُ النسيمِ وسيما

طلّقَ المحيّا منهلٌ للنائلِ أنحى على الدنيا بزهدٍ كاملِ
هو مثلُ الدنيا بظلٍ زائلِ لم تُرضيه حالُ النعيمِ الحائلِ
ما حاول الترفيهَ والتنعيما

ما ورث المختارُ مالَ مؤملِ إلا جواهرَ في الكتابِ المتزلِ
أشهى لقلبِ الناظرِ المتأملِ وأقرَ إعجاباً لعينِ المجتليِ
من كلِّ قيمةٍ مقتضٍ تقويما

وفقتَ يا مَنْ لم يخالف نصّهُ حزت الكمالِ وليس تخشى نقصهُ
نهج الهدى قولُ النبي اقتصهُ بالوحي شرفه الإلهِ وخصهُ
شرفاً على شرفِ السناء صميما

سبحان موحٍ لا يجدُ له الكلامُ من قال ذات كلامِ خلاق الأنامِ
خلّقُ فذلك آثمُ كلِّ الأثامِ ذلك الذي في الدين ليس له ذمامِ
إلا ذمامٌ لا يزال ذميما

ضلّ الذي يبغي الهدى مماسواه وهوى به في كل مهواة هواءه
من فارق الفاروق قد تبّت يدها حيران لم يهْد السبيلَ إلى هداه
لا يعرف التحليل والتحرّما

بالملاح مجد المصطفى يمتته من حلّي أوصاف له نظمته
لم أبلغ العشارَ إذ أحكمته بعضاً نسيتُ وبعضه أهمتته
قلّدهُ جيدُ الزمان نظميما

لو فزت بالإحسان من حسانٍ . وسجتُ أذبابي على سحبانٍ
أو أيدتني لسنن كلِّ زمانٍ . من كلِّ ذي زعمٍ عظيم الشانِ
ما كنتُ بالمعشار منه زعيماً

إدريسُ حَفَّتْكَ الحفوقُ خفوقاً . هلاً خَفَّتْ إلى الرسولِ خفوقاً
وقريتُ بالعزمِ المهمومِ ضيوقاً . وشلوتُ أن هال الزمانِ صروقاً
مهلاً كفاك معلمي التعليما

ثقةٌ بفضلِ الواحدِ القهارِ . ملكِ الملوكِ مصرفِ الأعصارِ
جعلَ النبي مكرمِ الآثارِ . وأمدّه بالنصرِ والأنصارِ
وأممٌ نعمتهُ له تميماً

هلْ أجلون بصري بكحل سناه . يا سعد من كحلت به عيناه
ظفرت يده ، وساعدته مناه . لله ذاك الأفق ما أسناه
كرم المحل فيقتضي التكريماً

ونصُّ تقرُّظ ابن الجنان على هذه القصيدة هو قوله :

ما زال كلُّ حليفٍ لله أضحي ولياً
وللعلومِ خليلاً . وعن سواها خلياً
يصوغُ عقبانَ مدحٍ للهاشمي حلياً
ويوجبُ الحقَّ فيه إجابهُ الأوليأ
ويقتفي في رضاه نهجاً جليلاً جلياً
والكلُّ أحظاهُ حظُّه فالفوزُ يُلْفَى ملياً
لكن إدريسَ منهم حاز المكانَ العلياً

ولا يخفك أنه الترم في هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء ، رحمه

الله تعالى .

ولا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجنان المذكور السابق أولاً في البحر والروي والمنحى الذي لا يضل قاصده ، وكيف لا وهو مدح^١ الجناب الرفيع العظيم النبوي .
فمن ذلك قول أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي ، فإن بعضاً ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام ، وهي لا تقتضي رفع الريبة فيه والاتهام^٢ :

جعل المهيمن^١ حباً أحمد شيمة^٢
وأتى به في المرسلين كريمة^٣
فغدا هواه على القلوب تيمة^٤

وغدا هداه هديهم تميماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أبدى جبين^١ أيه شاهد نوره
ستجت^٢ به الكهان قبل ظهوره
كالطير غرد^٣ معرباً بصفيره

عن وجه إصباح^١ بطل^٢ نسيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أنس^١ الرسالة بعد شدة فقرة
متنجى البرية وهي في يد غمرة
محبي النبوة والهدى عن فقرة

فكأنما كفل^١ الرشد يتيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

١ ملح : سقطت من ق .

٢ لم أجد هذه الخمسة منسوبة لابن سهل الإسرائيلي إلا في النسخ ، ولم ترد في ديوانه (ط . صادر

١٩٦٧) .

اللهُ أَوْضَحَ فَضْلَهُ فَتَوَضَّحَا
وَاللهُ يَبَيِّنُ حَبَّةَ فِي (وَالضَّحَى)
وَالجَدْعُ حَنَّ لَهُ هَوَى فَرَنَحَا

والماءُ فاض بكفه نسيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

رَبِّمَا الرّوَايَةُ عَنِّ عُلَاهُ زَكِيَّةُ
نَجْوَاهُ رَبِّيَّةُ مَلِكِيَّةُ
أَوْصَافُهُ عُلُوِّيَّةُ فَلَكِيَّةُ

فإنّخالُ شعري عندها تنجيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

أَحْتَتَّ فِي السَّبْعِ الطَّبَاقِ بِرُاقَةٍ
وَالْأَرْضُ وَالجَمَّةُ تَخَافُ فِرَاقَهُ
سَبْحَانَ مَنْ أَدْنَى سُرَاهُ فِسَاقَهُ

شخصاً على ملك الملوك كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

فَأَشْتَمُ رِيحَانَ الْقُلُوبِ الطَّيِّبَا
وَدَدَنَا فَأَسْمَعُ يَا مُحَمَّدُ مَرْحَبَا
لِأَنْتِي جَعَلْتِكِ جَارَ عَرْشِي الْأَقْرَبَا

إن كنتُ قبلك قد جعلت كليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

يَا لَيْلَةَ يَجْرِي الزَّمَانُ فَتَسْبِقُ
الْحَجْبُ فِيهَا وَالْأَرَائِجُ تُفْتَقُ
مَا كَانَ مَسْكُ اللَّيْلِ قَبْلَكَ يَعْبِقُ

١ ق : تفخيماً ، وما أثبتته أنسب .

بُشْرَى مُحَمَّدٍ اسْتَفَادَ نَسِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

حَتَّى إِذَا اقْتَعَدَ الْبَرَاقَ لِيَتَزَلَّ
نَادَتْهُ أَسْرَارُ السَّمَوَاتِ الْعُلَا
يَا رَاحِلًا وَدَعَّعْتُهُ لَا عَن قَلْبِي

مَا كَانَ عَهْدَكَ بِالْغُيُوبِ ذَمِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

صَعَدَ النُّجُودَ وَسَارَ فِي الْأَغْوَارِ
سَمَكَ السَّمَاءَ طَوْرًا وَبَطْنَ الْغَارِ
مُقَسَّمًا فِي طَاعَةِ الْجَبَّارِ

مَا أَشْرَفَ الْمُقْسُومَ وَالتَّقْسِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

الشَّافِعُ الْمُتَوَسِّلُ الْمُتَقَبَّلُ
القَائِنُ الْمُدْتَرُّ الْمَزْمَلُ
وَإِنِّي وَظَهَرَ الْأَرْضِ دَاجٍ مِمَّحَلُ

فَجَلَا الْبَهِيمَ بِهِ وَأَرَوَى الْهَيْمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

دَفَعْتُ كِرَامَتَهُ الزَّنُوجَ عَنِ الْحَرَمِ
وَدَعَاهُ جَبْرِيلُ الْمُتَزَّهُ فِي الْحَرَمِ
وَعَزَّتْ لَهُ آيَاتُ نُونٍ وَالْقَلَمِ

خُلُقًا بِهِ شَهِيدَ الْإِلَهِ عَظِيمَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمَا

طَاوَرَ يُفَيْضُ الزَّادَ فِي أَصْحَابِهِ
غَيْثٌ وَلَكِنْ كَانَ يُسْتَصْحَى بِهِ
طَابَتْ ضَمَائِرُ قَلْبِهِ وَتَرَابِهِ

منهُ بَسْرٌ لَمْ يَكُنْ مَكْتُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يا شوقي الحامي الى ذاك الحمي
فمتى أقضيه غراماً مغرماً
ومتى أعانقه صعيداً مكرماً

بِضَمِيرِ كُلِّ مُوحَّدٍ مِثْلُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ومن ذلك قول بعض الوعاظ ، وأظنه من أهل المشرق :

جلَّ الذي بعثَ الرسولَ رحيمًا
ليردَّ عَنَّا في المَعَادِ جحيمًا
وبِهِ نُرَجِّي جَنَّةً ونعيمًا

أضحى على الباري الكريم كريمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ما ضلَّ عن وحي الإله وما غوى
حاشا رسول الله ينطق عن هوى
الصادقُ الثقةُ الأمينُ بما روى

قَدْ نَالَ مِنْ رَبِّ السَّمَاءِ عُلُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وإني لهُ الروحُ الأمينُ مبشِّرًا
نادى به يا خيرَ مَنْ وطىء الثرى
أجيبِ المهيمنَ يا محمدُ كي ترى

ملكاً كريمًا في السماء عظيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

فأجابه المختارُ حينَ دعا به

ربُّ السموات العُلا لخطابه
ركبَ البراقَ وقد أتى لجنابه

أُسى لهُ الروحُ الأمينُ نديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فمتى أرى الحادي يبشّرُ باللقا
ويضمّه بانُ المحصبِ والنقا
وأرى ضريحَ المصطفى قد أشرقاً

مولى حليماً لئن يزالَ رحيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وأقول للزوّار قد نلتُ المنى
يهنيكمُ طيبُ المسرةِ والهنا
فاستبشروا من بعد فقيرٍ بالغي

فالله زادكمُ بهِ تكريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثمّ الرضى عنّ آله الكرماء
وكذاك عنّ أصحابه الخلفاء
فهواهمُ ديني وعقد ولائي

قوماً تراهمُ في المعاد نجوماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ومنها قول بعض فضلاء المغاربة رحمه الله تعالى :

يا أمةَ الهادي المبارك أحمدِ
يهنيكمُ نيلُ الأمانِ في غدِ
بمحمدٍ فزتمُ ومنّ كمحمدِ

إن شتمُّ أن تدركوا التميماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صلّوا على البدر المنير الزاهرِ
صلّوا على المسكِ الفتيقِ العاطِرِ
صلّوا على الغصنِ البهيّ الناضرِ

وتنعمّوا بصلاتكم تغيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ° بالنبوة زينا
صلّوا على من بالكمال تمكنا
بمحمد فزنا بإدراك المني

فضلا° منحنا حادثا وقديما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على البدر المنير اللائحِ
صلّوا على الهادي الحبيب الناصحِ
صلّوا على المسكِ الفتيقِ الفائحِ

للرشدِ فهم° والهدى تفهيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ° مجدهُ قد أسسا
والماء بينَ بنانهِ قد بُجسا
وأنت إليه سرّحةٌ حتى اكتسى

بفروعها إذ خيمتُ تغيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من كان يبصرُ من قفا
وعليه سلّمتِ الجنادلُ والصفا
والذئبُ قال صدقتُ أنت المصطفى

وشكا إليه بازلٌ قد ضيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من قد شفَى بالريقِ
عينَ الضريرِ ولدغَةَ الصديقِ
وأعاد طعمَ الماءِ مثلَ رحيقِ

إذ معَّ فيه الغنير المختوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على منّ بالملائِك جيشا
وغدت تظله الغمامُ إذا مشى
حرستُ سماءَ الله لما أن نشأ

ليكونَ سرُّ حبيبه مكتوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا عليه كلَّ حينٍ تربحوا
وبهديه مهما اهتديتم تفلحوا
والأجر يشملكم فجدوا تنجحوا

وإذا أردتم أن يكون عظيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا بجمعكمُ على شمسِ الهدى
صلّوا على بدرِ يزِينُ المشهدا
صلّوا عليه به الرشادُ تمهدا

والذكرُ بينَ فضلهُ تفيخيا صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا بإخلاصٍ على خيرِ البشرِ
صلّوا على من فاق حسناً واشتهرُ
ونمتُ فضائلهُ وشقُّ له القمرُ

ولكم دليل في علاه أقيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَيَّ مَنْ قَد رَأَى الرَّحْمَانَ
بِالْقَلْبِ أَوْ بِالْعَيْنِ مِنْهُ عَيَانًا
عَنْ قَابِ أَوْ أُذُنِي مَقَامِ كَانَا

فَخَذِ الْفَوَائِدَ كَيْ تَفَادَ عُلُومًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَيْهِ كَلُّكُمْ لَا تَسْأَمُوا
وَتَبَرَكُوا بِصَلَاتِهِ وَتَنَعَّمُوا
فَعَلَيْهِ صَلَّيَ الْأَنْبِيَاءُ وَسَلِّمُوا

شَرَفًا لَهُمْ إِذْ أَمَّهُمْ تَقْدِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَا حَاضِرِينَ بَلِّغْتُمْ كُلَّ الْمَنَى
عَنْ جَمْعِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ذَهَبَ الْعِنَا
وَالْيَكْمُ وَاللَّهُ قَدْ وَجَبَ الْهِنَا

بِمُحَمَّدٍ كَرَّمْتُمْ تَكْرِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

قُولُوا بِرَغَمِ مَعَانِدِينَ وَحُسَدِ
كَيْ تَرْغَمُوا أَنْفًا لِكُلِّ مَفْنَدِ
صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

أَبْدَأْ وَزَادَ لِقُدْرِهِ تَعْظِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

يَا رَبُّ يَا ذَا الْمَنِّ وَالْإِحْسَانِ
جُدْ بِالرَّضَى وَالْعَفْوِ وَالْغَفْرَانِ
لِلْوَالِدِينَ وَمَنْشَدِ الْأَوْزَانِ

وَالسَّامِعِينَ أَنْلَهُمْ تَعْيِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صلى عليه الله ما اجتمع الملا
صلى عليه الله ما قطع الفلا
صلى عليه الله ما انتجع الكلا

أبدأ وما رعت السوامُ هشيما صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن ذلك قولُ الإمام العالم الشهير الأديب مالك بن المرحل المالقي ثم السبتي ،
وهي من غرر القصائد ، وفيها لزوم ما لا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم
بجعلها بدأ وروياً على اصطلاح المغرب :

ألف : أجلُ الأنبياء نبيء
بضياته شمس النهار نضيء
وبه يؤملُ محسن ومسيء

فضلاً من الله العظيم عظيما صلوا عليه وسلموا تسليما

باء : بدا في أفق مكة كوكبا
ثم اعلى فجلا سناه الغيها
حتى أنار الدهرُ منه وأخصبا

إذ كان فيضُ الخيرِ منه عميما صلوا عليه وسلموا تسليما

تاء : تبينت الهدى لما أتى
فنفى الشريك عن القديم وأبتا
أحديةً من حاد عنها قد عتا

وتلا كلاماً للكريم كريما صلوا عليه وسلموا تسليما

ثاء : ثوى في الأرض منه حديثُ

في كلِّ أفقٍ طيبُهُ مبعوثُ
داعٍ بأنواعِ الهدى مبعوثُ

يتلّو نجومًا أو يهز نجومًا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

جيم : جلا بسراجِه الوهاجِ
ما جنّ من ليلِ الظلامِ الداجي
وسقى القلوبِ بمائه الثجاجِ

فأصارها بعدَ الغيومِ غميما صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

حاء : حمى دينِ الهدى بصفائحِ
وسما يشمُّ كالجبالِ أراجحِ
من كلِّ أزهرٍ هاشميٍّ واضحِ

لولا نداهُ غدا النباتِ هشيما صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

خاء : خبّتْ نيرانِ جهلِ شامخِ
آياتِ علمٍ للرسالةِ راسخِ
مِنْ مُثبِتِ ماحٍ ومنسٍ ناسخِ

قد خصص بالذکر الحکیم حکيما صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

دال : دعا فأجاب كلُّ سعيدِ
وأتى بوعدٍ صادقٍ ووعدِ
حتى أقرَّ الناسُ بالتوحيدِ

ونجّبتوا الإشرāk والتجسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

ذال : ذُبابُ حسامه مشحوذُ
للتاكثين ، وعهدهم منبوذُ
أما السعيدُ فبالنيِّ يلوذُ

فيدال من ذُلِّ الشقاء نعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

راء : رويانا عن ذوي الأخبار
أنّ الندى والبأس مع إيثار
بعض صفات المصطفى المختار

كَمْ قد تقدم بالأنام زعيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

زاي : زعيمٌ بالترال عزيزُ
وبليغٌ معنى في المقالِ وجيزُ
فلقوله من فعله تعزيرُ

ولربما عادَ الكلام كلُّوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

طاء : طويلُ السيفِ متسعُ الخُطا
رحبُ الذراعِ ومن يمد لهم سَطَا
يردي العدا وإذا ارتدى متخبطا

ييري عذاباً إذ ألام أليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ظاء : ظهير للعباد حَظِظُ
حظٌ لدى ربِّ العبادِ حَظِظُ
حقٌّ لهُ التَّابِينُ والتَّقْرِيفُ

ميتاً وحيّاً ظاعناً ومُقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليما

كاف : كريمُ العنصرين مبارَكُ
متفردٌ بالجاه ليس يشارِكُ
فهو الذي بمقامه يتداركُ

والهولُ يغدو مُقْعِداً ومقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لام : لهُ عقد اللواء الأَحْفَلُ
ولهُ الشفاعةُ في غد إذ تسألُ
وإذا دعا فدعاؤه متقبَّلُ

حق الرحيم بأن يرى مرحوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ميم : ملائكة الإله تسلّم
فوجاً عليه إذ بدأ وتعظّم
ويعرُّ جبريل بها يتقدّم

فيضعف التعظيم والتكرّما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

نون : نبيُّ جاءنا ببيان
و بمعجزاتٍ أبرزت لعيان
وبحسبه أن جاء بالقرآن

يشفي قلوباً تشتكى وجسوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

صاد : صَفِيٌّ للإله ومخلصُ
ومقرَّبٌ ومُفَضَّلٌ ومُخَصَّصُ
ذَهَبٌ سيك وزنه لا ينقصُ

قد طاب خيماً في الورى وأروما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ضاد : ضميرٌ نصحه محوضٌ
ضافي القراءة بالعلومِ يفيضُ
إن غاض ماء البحر ليس يغيضُ

لما استمرَّ زلالهُ تسنيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

عين : عزيزٌ ذكره مرفوعٌ
في الأنبياء وقوله مسموعٌ
مشروح صدر حبه مشروعٌ

من لا يدينُ بذاك كان ذميماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

غين : غزا من زاغ عنه ومن طغى
وغدا يشبُّ لمن طغى نار الوغى
حتى أقامت من عصي بعد الصفا

وتقومُ النارُ العصا تقويماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

فاء : فواتحُ سورة الأعرافِ
وبراءة والرعدِ والأحقافِ
أحظتهُ بالأقسامِ والأوصافِ

فمى توفى حقه منظوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

قاف : قوافي النظمِ عنه تضيقُ
أيطيقه الإنسانُ ليس يطيقُ
فالخلقُ في التقصيرِ عنه خلقُ

ولوّآهم ملأوا الفضاء رقوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

سين : سلام كالنَّفيس تنفَّسا
وقد اجتنى ورداً وصافحَ نرجسا
أهدى إليه في الصباح وفي المساء

بِقِصَائِدٍ كَادَتْ تَكُونُ نَسِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

شين : شمائله الكريمة تعطشُ
من كان من سكر المحبة يرعشُ
لكن أضع العمرَ فيما يوحشُ

فَقَدَّتْ نَدَامَتَهُ عَلَيْهِ نَدِيمًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

هاء : هو الهادي الذي اقتدح النهي
فتفكرت في ملك من رفع السُّها
وقضى بحمدٍ للأمر ومتتهى

فَأَفَادَهَا النَّظْرَ السَّيِّدَ عَمُومًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

واو : وهي ركن التجلد، بل هوى
لمَّا ثوى في التراب من بعد التَّوى
فحوى الضريح الرحب نجماً ما غوى

أَجْرَى مِنَ الدَّمْعِ السَّجُومَ سَجُومًا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

لام : لأجلك فاض دمي جلولا
فاخضرت آس أساك إذ يبس الكلا
يا خير من كلِّ المكارم والعلا

وَحَمَى الْحَمَى وَرَمَى فَأَعْمَى الرُّومَا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ياء : يَجِيهٖ وَيَسْقِيهِ الْحَيَا
رَبُّ الْعِبَادِ مَجَازِيًا وَمَوْفِيَا
وَمُشْرِفًا وَمُسْلِمًا وَمُصَلِّيَا

يا مُسْلِمِينَ وَرَثْتُمُ التَّسْلِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب أبي العباس أحمد بن محمد بن العباس المغربي حسبما نقلته من المجلد الخامس والعشرين من كتاب « انتهى السؤل في مدح الرسول »^١ للحسن بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عنزة المغربي الأنصاري رحمه الله تعالى ورضي عنه ونقننا بقصده ، وهي أيضاً مرتبة على حروف المعجم ما عدا الابتداء وبيوت الانتهاء ، غير أن ترتيب حروف المعجم في آخر الأشرطة ولم يلتزم صاحبها الابتداء كما فعل مالك بن المرحل ، رحمه الله تعالى :

الله زَادَ الْمُصْطَفَى تَعْظِيمَا
وَقَضَى لَهُ التَّفْضِيلَ وَالتَّقْدِيمَا
وَأَنَالَهُ شَرْفًا لَدَيْهِ جَسِيمَا

فَهُوَ التَّمَمُ فَخْرُهُ تَمِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوْا عَلَى مَنْ خُصَّ بِالْأَنْبَاءِ
وَأَبُوهُ مَا بَيْنَ الثَّرَى وَالْمَاءِ
ثُمَّ اسْتَمَرَ النَّوْرُ فِي الْآبَاءِ

فَتَوَارَثُوهُ كَرِيمَا وَكَرِيمَا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

١ قد ذكرت في المقدمة نقلا عن رحلة العياشي قول هذا الرحالة إن المقرئ لم يطلع على كتاب « انتهى السؤل » وهذا هو المؤلف يذكر اطلاعه على الجزء الخامس والعشرين منه ؛ وبما أن الكتاب كثير الأجزاء فكلام العياشي يظل يعني أن المقرئ لم ير الجزء الذي ذكر فيه مدح النعل النبوية .

صَلُّوا عَلَى بَدْرِ بَدَا مِنْ يَثْرِبِ
فَأَضَاءَ بِالْأَنْوَارِ أَقْصَى الْمَغْرِبِ
وَجَلَا عَنِ الدُّنْيَا دِيَاجِي الْغَيْهَبِ

فَبَدَا لَنَا نَهْجَ الرِّشَادِ قَوِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْشَّرَائِعِ قَدْ أَتَى
وَأَبَادَ أَحْزَابَ الطُّغَاةِ وَشَتَّتَا
وَأَبَانَ أَسْبَابَ النُّجَاةِ وَوَقَّتَا

لِلْأُمَّةِ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْغَيْبِ يَحْدُثُ
وَبِرُوعِهِ الرُّوحَ الْمُقَدَّسَ يَنْفُثُ
مُحِبُّوْنَا وَشَفِّعُنَا إِذْ نُبْعَثُ

فِي يَوْمِ لَا يَدْرِي الْحَمِيمُ حَمِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى صَبْحِ الْهُدَى الْمَتَّبَعِ
صَلُّوا عَلَى بَحْرِ النُّدى الْمَتَمُوجِ
صَلُّوا عَلَى رَوْضِ الْجَمَالِ الْمُبْهَجِ

كَيْمًا تَنَالُوا الْفَوْزَ وَالتَّنَعِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى غَيْثِ الْأَنْامِ السَّافِحِ
صَلُّوا عَلَى الْمَسْكِ الذِّكِيِّ النَّافِعِ
أَزْرَتْ رَوَائِحَهُ بِكُلِّ رَوَائِحِ

فَالْأَرْضَ طَبَّقَهَا شَذَاهُ نَسِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيْمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ عَهْدُهُ لَا يُفْسَخُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ شَرَعُهُ لَا يُنْسَخُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ حِزْبُهُ لَا يُمَسَخُ

نَبَأَ يَفْهَمُ فَضْلَهُ تَفْهِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ فَخْرُهُ لَا يَنْفَدُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ فَضْلُهُ لَا يَمُحَدُ
أَتَى وَكُتِبَ الرُّسُلُ طُرًّا تَشْهَدُ

تَنْبِيِ الْيَهُودِ بِفَضْلِهِ وَالرُّومِ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدَحَمَى عَنَا الْأَذَى
وَمَنْ الْغَوَايَةَ وَالضَّلَالَةَ أَنْقَذَا
صَلُّوا عَلَى مَنْ ذَكَرَهُ نَعْمَ الْغَدَا

وَبِمَدْحِهِ نُرْوِي الْقُلُوبَ الْهَيْمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا بِإِخْلَاصٍ عَلَى خَيْرِ الْبَشَرِ
مَنْ قَبْلَ نَشَأَتِهِ الْمُبَارَكَةِ اشْتَهَرَ
كَمْ كَاهِنٍ عَنْهُ أَبَانَ وَكَمْ خَبَرَ

وَلَكُمْ دَلِيلٌ فِي عِلَاقِهِ أَقِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ جَلَّ مَوْلَدُهُ وَعَزَّ
ضَاءَتِ قُصُورِ الشَّامِ لَمَّا أَنْ بَرَزَ
وَتَدَانَتْ الشُّهُبُ الثَّوَابِقُ كَالْحَرَزِّ

أَوْ كَاللَّاتِي نُنْظِمُ تَنْظِيمًا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

صَلُّوا عَلَى مَنْ يَوْمَ مَوْلَدِهِ سَطَا
بِجَمِيعِ آلهَةِ الضَّلَالَةِ وَالْخَطَا
وَهُوَ لَهُ عَرْشُ الْعَيْنِ وَأَسْقَطَا

وَالْفَرَسِ هَدَمَ صَرْحَهُمْ تَهْدِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ لَيْسَ فَظًّا غَالِظَا
لَأَخِيهِ فِي الْإِرْضَاعِ كَانَ مَحَافِظَا
فَاعْجَبْ لِدَلِكْ كَيْفَ كَانَ مَلَا حِظَا

لِلْعَدْلِ فِينَا مَرَضِعًا وَفَطِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ شَأُوهُ لَا يَدْرِكُ
صَلُّوا عَلَى مَنْ شَأُوهُ لَا يَشْرِكُ
مُوسَى وَعِيسَى وَالْخَلِيلَ تَبْرَكُوا

بَلِيقَاتِهِ وَعَتَّوْنَا لَهُ تَسْلِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ خَلَّفَهُ صَلَّى الرَّسُلُ
شَرَفَ عَلَى تَمَكِينِ عِزَّتِهِ يَدُلُ
فَإِذَنْ فَقُلْ هُوَ سَيِّدٌ لَهُمْ وَدَلُ

لَا تَخْشَ تَوْبِيخًا وَلَا تَحْشِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدِ صَرَى نَحْوَ السَّمَاءِ
لَيْلًا وَعَادَ وَمَا بَرَحْنَا نَوْمَا
بِالرُّوحِ وَالْجَسْمِ الْمَطْهَرِ قَدْ سَمَا

قَلْبُهُ وَرَاغِمٌ مِنْ أَبِي تَرْغِيمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلوا على مَنْ قد رأى الرحمانا
بالقلبِ أو بالعين منه عيانا
من قاب أو أدنى مكان كانا

فخذ الفوائد واحذر التجسيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلوا على مَنْ بالمحبة خُصّصا
والقلبُ منه شقّ حتى خُلّصا
من حظ إبليس اللعين ومحصا

وأعيد ما إن يشتكي تليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على من بالسيادة قد حضي
وانشقّ إكراماً له البدر المضي
ولكم دليل كالصباح الأبيض

فاسمع وكن بالمعجزات عليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلّوا على مَنْ كَلَّمته ذراعُ
وبفضله كَفَّت المئين الصاعُ
والجدعُ حنّ له وما الأجداعُ

بأرقّ منا أنفساً وفهُوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صلوا على من مدحه لا يفرغُ
ماذا عسى مُدّاحه أن يبلغوا
فإلّها يُثني عليه ويبلغُ

فاقرأ تجده محكماً تحكيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صَلُّوا عَلَى مَنْ كَانَ يَبْصُرُ بِالْقَفَا
وَعَلَيْهِ سَلَّمَتِ الْجَنَادِلُ وَالصَّفَا
وَالذُّبُّ قَالَ صَدَقْتَ أَنْتَ الْمُصْطَفَى

وَشَكَا إِلَيْهِ بَازِلٌ قَدْ ضَمِيَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ شَفَى بِالرِّيْقِ
عَيْنَ الضَّرِيرِ وَلَدَعَا الصَّدِيقِ
وَأَعَادَ طَعْمَ الْمَاءِ مِثْلَ رَحِيقِ

إِذْ مَجَّ فِيهِ الْعَنْبَرُ الْمُخْتَمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ مَجَّدَهُ قَدْ أَسَا
وَالْمَاءَ بَيْنَ بَنَانِهِ قَدْ بَجَسَا
وَأَتَتْ إِلَيْهِ سَرْحَةٌ حَتَّى أَكْتَسَى

بِفُرُوعِهَا إِذْ خِيَمَتْ تَخِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ بِالْمَلَائِكِ جَيْشَا
وَعَدَّتْ تَظَلَّلَهُ الْعَمَامُ إِذَا مَشَى
حَرَسَتْ سَمَاءَ اللَّهِ لَمَّا أَنْ نَشَا

لِيَكُونَ سِرًّا حَبِيْبُهُ مَكْتُومَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَدْ حَبَّاهُ إِلَهُهُ
بِالْكُوْثْرِ الْمَرْوِيِّ لَنَا أَمْوَاهُهُ
فِي يَوْمِ حَشْرِ الْخَلْقِ يَظْهَرُ جَاهُهُ

إِذْ يَقْدُمُ الرُّسُلَ الْكِرَامَ زَعِيْمَا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَا

صلوا على من خُصَّ بالحوض الرّوي
وكذاك خصَّص بالمقام وباللوا
نوحاً وآدم والكليم قد احتوى

وابن البتول حوى وإبراهيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

•
صلى عليه الله ما قُطِعَ الفلّا
صلى عليه الله ما اجتمع الملا
صلى عليه الله ما انتُجِعَ الكلا

أبدأ ، وما رعت السوام هشيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

صلى عليه الله ما هطل الحيا
صلى عليه الله ما التمع الضيا
فلقد شفى الدنيا من الداء العيا

ولقد حمى عنّا لظى وجحيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

* * *

لله سيدنا النبي الأكل
لله برق جبينه المتهلل
لله جود يمينه المتهطل

أحيا وأغنى بالنوال عديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا

١ قد انتهت المدحة النبوية بحسب الترتيب الهجائي ولا أدري هل هذه البقية منها أو من قصيدة جديدة .

لله منه ذاته وحقيقته
لله منه خلقه وخليقته
لله منه شرعه وطريقته

فلقد جلت بشموسها التغيما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يا أمة الهادي النبي المصطفى
بالله لو كنّا نعامل بالوفا
متنا عليه حسرة وتلهفا

حتى نؤدي حقّه المحتوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ما كان أولانا بطول نحينا
ما كان أوجبنا بفرط وجينا
أفستطيع الصبر عن محبوبنا

ما الصبر عن لقياه إلا لوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لم لا نُفيضُ على النوام دموعنا
لم لا نقضُ من الغرام ضلوعنا
لم لا نخلي أهلنا وربوعنا

حتى نغاي من ذراه رسوما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أو لم يكن يحنو علينا مشفقا
أو لم يكن متعطفاً مترفقا
أو لم يعالجنا بأنواع الرقي

حي اغتدى منا العليل سليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

من مثله ما إن يضرُّ وينفع
من مثله يدْرأ العذاب ويدفع
مَنْ مثله لذوي الكبائر يشفع

مَنْ مثلهُ بالمؤمنين رحيمًا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا ويح نفسي كم أرى ذا صبوة
ومسامعي عن واعظي في نبوة
فعسى الرسول يُقيلني من كبوة

فلكم رجاء عائرٌ فأقيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا رب بالهادي الرفيع المحتد
اغفر لعبدك أحمد بن محمد
فلقد توسل إذ رجاك بسيد

ما رُدَّ معتلق به محروماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ناشدتكم يا سامعي هذا الثنا
قولوا متى أسمعتموه تدينًا
اغفر لقاتله المقصر ما جنى

بمدح خير الوري المعصوما صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

قلت : وإنتي لأسأل الله تعالى بلسانٍ لم أعص به وهو لسان هذا المادح ،
إذ قال « يا رب بالهادي » فإنني أحمد بن محمد بكّغه الله أمله من غفرانه بمنّه
وكرمه آمين .

رجع - ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب الأديب أبي العباس أحمد بن القاسم

الإشبيلي الشهير بابن القصير ، وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدمة من بعض
الوجوه ، رحم الله تعالى الجميع :

اللهُ أكرمُ أحمداً تكريماً
فَغداً رسولاً للعبادِ كريماً
فاشكرْ غفوراً للذنوبِ رحيماً

أرضى النبي بقوله تعليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

لله منه هدى نبيّ مرتضى
بالبعث منه لنا قضي لطف القضا
ملأت فضائله المَهَارِقِ والفضا

ودجا الوجودُ فعند مبعثه أضاً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

عجبت لنا منه ملائكة السما
أن كان بالإسراء ليلاً قد سما
ورقى البراق به وجبريل لما

قد سره سرّاً وجهراً سلماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أعظّم به من مرسل قدّ بشرّاً
بوجوده البشر السعيد ويسراً
لليسر فهو أجلُّ مبعوث يُرى

بهده أمته زهت بين الورى صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

من جاء بالقرآن معجزة له
أعيا الورى من بعده أو قبله
الله كرمه وفضل فضله

وأجلّ منه فرعه وأصله صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

من سبّحت صمّ الحصى في كفه
والبدر شقق نصفه عن نصفه
ليرى به إعجاز من لم يُصفه

حزنا بمعجز ذكره أو وصفه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يكفيه أن يتلى اسمه ويكرّر
مع إسم خالقه إذا ما يُذكر
هذا الذي بمقاله لا يفجر

أبدأ ولا لخلافه يتصور صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

العبد أسرف يا نبي الله
في الذنب ساه عن تقاه لاهي
فاشفع له من مذنب أوّاه

يرجو كريماً منك جمّ الجاه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أنأى الزمان وصوله أو سوله
فاستصحب الأبيات منه رسوله
فأنيل بفضلك للمراد حصوله

حسي ثناً وازنت منه فصوله صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ابن القصير أطال فيك نظامه
ليرى لذاك مسلماً إسلامه
وترى مطاوع أمره وكلامه

لا زال يُقربكَ إِلَهُ سَلامه صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وما أحسن قولَ جمال الدين بن جلال الدين الجوزي رحمه الله تعالى :

فَصَلَ النَّبِيَّ الرَّسُولَ مُحَمَّدَ شرفاً يزيد ، وزادهم تعظيماً
درّ يَتِيمٌ في الفخار ، وإنّما خيرُ اللّآلِي ما يكون يتيماً
سادَ النَّبِيِّنَ الكرامِ وكلّهم صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
والله قدّ صلّى عليه كرامة صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

[مسدسات في مدح الرسول]

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذي هو من نظم الإمام العارف بالله تعالى علاء الدين محمد بن عفيف الدين الأيحي الحسني الصفوي الزيني - رحمه الله تعالى - مما رتبّه على حروف المعجم والترم الحرف أول الأَشطار الأربعة وآخرها :

اللهُ أحمدُ أحمداً إذ يبرأ أوْضَى وضيءٌ نوره يتلألأ
أنواره كلّ العوالم تملأ أكوانه لولاه لم تك تنشأ
إن كنتمْ انقدتمْ له تسليماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
بدرٌ بدأ من نوره يتطلبُ بحرٌ بحورُ الجود منه تركبُ
برٌّ وبرهان جلا يتقلّبُ بالمصطفى ممّن صفا أتقربُ
بادر بما يجدي لكم تنعيماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
تالله مثلُ محمد لا يثبت تم الكمال المنتهى ونبوّة
تاج العُلا بالمصطفى يثبت تاهت عقول للذي هو ينعت
تحف الصلاة به عليه أديماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثقت بالذي يوماً يقومُ ويُبعث
 ثبت الشفاعة للورى يتحدث
 ثبت لزام الباب فيه مقيماً
 جاء النبيُّ عوالمًا يتبلج
 جاءه ينجلي من لظى تنوهج
 جاور نبيَّ الله نلت نعيمًا
 حقاً هو الحقُّ المبين^١ الأوضح
 حسناته حسياته^٢ تُسرجح
 حوت العلوم لذاته تكريماً
 خيراً البرايا دينه هو ناسخ
 خراً الذي عن دينه هو بازخ^٣
 خذُ باتباع - فعاله ترسيماً
 دلت الأنام على الإله محمدُ
 دارٌ له مأوى المحامد محمدُ
 داوم على باب له تخيماً
 ذكرُّ الحبيبِ أحقُّ ما يتأخذُ
 ذاك الشفيعُ لمن به يتعوذُ
 ذلوا له ولبابه تغنيماً
 ثبة البرية بالنبي تغوث
 ثرة الطوائف للذي يتشبت
 صلوا عليه وسلموا تسليماً
 جاه له من جاءه يتبهج
 جاءت له الأشجار أرضاً تفرج
 صلوا عليه وسلموا تسليماً
 حب حياة حبه يرتجح
 حتى القلوب بحبه ترجح
 صلوا عليه وسلموا تسليماً
 خيراً له خير الحيور رواسخ
 خال خلي عن نقائص باذخ
 صلوا عليه وسلموا تسليماً
 دامت سعادة من بأحمد يسعد
 دان الوجود به ومن هو أحمدُ
 صلوا عليه وسلموا تسليماً
 ذخرأ ليوم بالنواصي يؤخذُ
 ذاك الذي بجانبه يستنقدُ
 صلوا عليه وسلموا تسليماً

١ ق : الحقيق .

٢ ق : حسناته .

٣ البازخ : المتقاص .

رب النبي محمد هو يذكر	رتب الحبيب كتابه متذكر
رائي محيا أحمد هو ينظر	روح القلوب ولاؤه هو ينصر
روح بذكراه المريح ندما	صلوا عليه وسلموا تسليما
زين البرايا بالوجود معزز	زان العوالم حسنه يتفوز
زن فضله عن كلهم يتميز	زد ذكره عن زلة يتحرز
زلفي أنه بالمنى تميما	صلوا عليه وسلموا تسليما
سبق الأنام بفضله هو أنفس	ساد الجميع بسؤدد يرأس
سبحان من أسرى به يتأس	سر الحبيب بسرّه يتقدس
سمع الكلام من الإله كليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
شمس الهدى بدر الدجى يتبشش	شرف الحبيب من الوجوه يفتش
شكراً لمولانا عليه وأبهش	شوقى إليه وافر أعطش
شغل للبك بالحبيب أديما	صلوا عليه وسلموا تسليما
صفة الكلام لذاته هو أخلص	صفة الكتاب كماله يتلخص
صفة القلوب بحبه تتخلص	صفه صبا صبّ وأتى يخلص
صل بالصلاة جنبه تكليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ضفت الفيوض من الحبيب تفيض	ضعفي إليه آملاً يتعوض ^٢
ضري وضيري كله يتقوض	ضل الذي في بابه لا ينهض
ضمن الحبيب لذاكره زعيما	صلوا عليه وسلموا تسليما

١ ق : لسانك .

٢ ق : يتفوض .

طابت به أحواله والمنشط	طوبى لمن بحبيبه يتنشط
طالَ الإلهَ علي طولاً يسط	طال اشتياقي طيبة أتسط
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	طوبى بمدحته يطيبُ نسِما
ظلمات شرك قد جلت تتدلظ ^٢	ظلُّ الهدى بهداه قد يتحفظ ^١
ظهري ظهيري حبه أتخفظ ^٣	ظلي لظلّ وداده يتحفظ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	ظني به يغدو العقاب عديما
عزّ علاه للذي هو يتبع	علت المعالي بالتّبي وترفع
عرش العظيم قد ارتقى يترفع	عمّت عطاياه لكل ينفع
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	عرجَ الإلهُ به إليه عليما
غيثُ الندى هو في البرايا سائغ	غوث الورى ذا المصطفى هوسائغ
غزر الحيا شمسٌ وبدراً بازغ	غمر الندى أقصى النهاية بالغ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	غنماً نما بالمؤمنين رحيماً
فردٌ وحيدٌ في العوالم أشرف	فخرٌ وذخرٌ بالمفاخر يشرف
فازَ الفقير بلطفه يتلطف	فتح الوجود وكل كون مردف
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	فاح النسيم من الحبيب جسيما
قسمت وجوه الحسن منه فيسبق	قسم الإلهُ بعمره فيفوق
قَمينٌ بذكراهُ الدعاء معلق	قمرٌ وشمسٌ نوره متألق
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	قطب للدائرة الوجود كريمًا

١ ق : يتيقظ .

٢ تتدلظ : تسرع في مرورها .

٣ ق : أتخفظ .

كتب الإلهُ ثناءهُ ما يدرك
كلُّ الكمالِ لهُ بهِ يستدرك
كيف كفى درَّ الثناءِ يتيما
كتبَ اسمَهُ قُربَ اسمِهِ يتبرك
كُنهُ الكَمالاتِ التي لا تدرك
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

لمعات نورِ محمدِ هي تخجل
لذاتِ ذكرِ محمدِ هي أكمل
لذخِذِ يجدُ منك تُلْفَ حكيما
للشمسِ والبدرِ المنيرِ فتخمل
للنويِ الحوائجِ لائذِ متكفل
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

من مثلهُ في العالمينِ معظم
مَنْ للإلهِ لَدَى اللقائِ يكلم
مَنْ الإلهِ لديهِ صارَ عميما
من مثلهُ في العالمينِ مكرم
مَنْحاً حَبَاهُ منهُ قد يتعلم
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

نورَ لهُ في آدمِ يتبين
نأيِ العوالمِ إذ أتى متعين
نعماءِ جمتْ^١ إذ نعم كريمة
نقلًا إلى آباءِهِ يتعين
نارِ المجوسِ تخمدتِ تنهون
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

وجهُ بهِ كلُّ الوجوهِ إليه هو
ووجهه وجهُ المرامِ فوجهوا
وجهُ إلينا نظرةِ تكريما
وجهُ الوجاهِ بكله يتوجهوا^٢
وجهُ إليك نبيتنا فتوجهوا
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

هو مصطفى عندَ الإلهِ الأوجه
ها إنهُ وجهي لهذا أوجه
هامَ الفؤادُ بحبِّهِ تتيما
هادِ لنا وبوجهِهِ من أوجه
هيه هتينا وجههُ بالأوجه
صلُّوا عليهِ وسلِّمُوا تسليما

١ ق : جلّت .

٢ ق : بوجهه قد أوجهوا .

لا مثل للمختار أعلى من علا
لاذ الصفيُّ به يتوب فأقبلا
لازم محباً للحبيب نديماً
لاجيه ناجٍ قد نجى كل البلى
لاقى النبي محمد أن يقبلا
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

يا أكرم الخلق الذي هو ملجئي
يده يمدُّ إليك مرتجياً وفي
عناً لذكرك يبتدي تحتيماً
يأتي محمد العفيفي الذي
يقن بصفوته الصفي ويكتفي
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

وله أيضاً رضي الله تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه ، وقد نظمها
بعدها نفع الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية قصده وأمنيته ، وهي هذه :

أحسن بطلعة أحمد هي أضوا
أزين به لما أتى بتلا
الله قدمه بها تقدماً
أعلن بلمعته العوالم تملأ
أبين بآيات له فتنبأ
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

بدأ الإلهُ بنوره فيعقب
فيه لذي الحاجات إذ يتطلب
بل هو إلى الأرب انتفع تعميماً
بدء الذي بالمصطفى يتقلب
بدء بذكراه به يستوهب
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

تلت العلامات التي هي تثبت
تمت له الآيات فيك تبكت
توقيع حاجات صفوا تسليماً
تَبَّ العدا تَبّاً وعنه تثبت
توراة موسى ناطقاً هي تنعت
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

ثبت الكمال له ومنه يورث
ثبت بذكرى المصطفى يتحنت
ثبت بذكر قد تراه قديماً
ثبت الورى لو لم تكن لا تحدث
ثبت الذي يجنا به يتشبث
صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

جاء العوالم نورهُ يتبلج جاد العوالم بحره يتموج
جاز السّموات العلّا يتعرج جاب الجميع بسامه يتفرج
جار لهُ جارى لهُ تنعما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

حار العقول ملدحه إذ يمدح حيا الحياء بريّة بستروح
حي لهُ فضل به يسترجح حي لهُ حامى حمى فتروح
حي الحمى الحامى تصير سليما صلّوا عليه وسلّموا تسليما

خلق لهُ كل به يتشمخ خلق لهُ أحسن به هو أبذخ
خلق لهُ إلهي بذاك تمعما خلق لهُ بالنقص لا يتلطخ
خلق لهُ الشناء الأرسخ صلّوا عليه وسلّموا تسليما

دار الحبيب أحق ما يتعمد دانت أهاليها بما هو يرشد
دارك سكونا بالسكون مقيما دارت بها كل السعادة تسعد
دارك بحسنى طيبة لا تبعد صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذكر الحبيب محمد هو يتقد ذكر الإله ثناؤه ويلدذ
ذكره تنفع سامعا يتلذذ ذيل النبي خذ اعتصم تعظيما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ربّ الورى سبحانه هو أكبر ربّ الورى حبيبه فيدبر
ربّي اصطفاه من الورى فأكبر ربّ ارتجساء للمنى تدويما
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

زاد الإلهُ عُرُوجه فيبرُز
زاد لأخرى حبه يتحرز
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

زانَ العوالم إذ أتاها يبرز
زادت معاليه عروجاً ينشز
زعمَ الشفاعة ذاكره زعيما

سارَ السّموات العلّا يستأنس
سامي ذراهُ للمُحبّ تؤنس
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

سادَ الجميع إذا أتى هو أنفس
سألَ الإلهَ وزاد ما يتنافس
سارعُ إلى ذاك الذرا تخيما

شرق لأشرق شرقه يفرش
شوقاً إليه قد إليه أجهدش
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

شرف لأمتِه به يتفايش
شرقاً وغرباً فيه عقل يدعش
شكراً على النعمى تزيد نعيما

صفة عن الشيء الذي ينتقص
صفة شريعته النقائص تخلص
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

صفة له ذات له هو أخلص
صفة له حارت عقول تفحص
صفة له وبربه لتسدّيما

ضاع الذي عن ذكره هو يعرض
ضاف بذكراهُ المُنى يتعرّض
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ضاعَ المديح لأحمد يروّض
ضاف حباه كفه ليفضفض
ضاعف له الأمال صلّه مديما

طابت مدائحهُ قطاب المغبط
طام لهُ بجر الألى يتنشط
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

طالَ العوالم إذ أتى هو يقسط
طالت به النعمى وطاب المنشط
طالب مطالب كلّها تميما

ظهر لأمتِه ظهير ملحظ
ظلّ لهُ ظلوا به يتحفظوا
صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ظهر النبي وربّ [أحمد يلحظ]
ظهِروا على الأمم افتخار ملحظ
ظلت الظلال إذا ذكرت نديما

عدّ المحاسن للنبي يستبج	عدّ له آياته تتنوع
عدّاه مولاة إليه فيطلع	عد لذكراه غداة يشفع
عدّ باب منّ بالمؤمنين رحيمًا	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
غزرت له الآيات هنّ نوابغ	غزر الحيا عزّ الورى هو سائغ
غمر الرّدا بحر الندى يترفع	غمر البلاد بذكراه يستفرغ
غمر بذكراه الفؤاد وسيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
فاض الجمال وفاض منه يوسف	فاز المحبّ بذكراه لا يوسف
فاضت عليه فيوضه يتزلف	فاشّ له الآيات لا يتكلّف
فاد له كلّ بهم تقدّما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
قمر بدا من أفقه هو فاتق	قمرّ يجاب بذكراه ويعلق
فمقام كلّ الأنبياء وسائق	فمقام جود عمّ كلّاً يرفق
قم بابه مستنجحاً ومقيما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
كلّاً به فتح الوجود ويدرك	كلّ الكمالات احتوى لا يشرك
كلّ اللسان عن البيان ويمسك	كلّىء الذي يجناه يتمسك
كلّ مرتجأك إليه ثق تكريما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
لمحمد هو مصطفى ومؤمل	لمحمد بن محمد ما يأمل
لمحت عليه بروقه يتحمل	لمعان نور وداده يستكمل
لم لأصيب من الحبيب شميما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما
من مثل ذلك المصطفى يتعظم	من كلّ وجه للكمال ليعظم
منّ علينا من إله أعظم	منه العروج إليه وهو يعظم
من كان للربّ العظيم كليما	صلّوا عليه وسلّموا تسليما

نور الإله حيبه يتمكن نادى الإله حيبه يتمكن
نال نوالاً شرحه لا يمكن ناد له طوبى لمن يتمكن
نادى الحبيب بذكره تكليما صلوا عليه وسلموا تسليما

والله مثل محمد لا يشبه وجه الوجود بذاته وبه له
وجدوا وجاد من النجاة مقيما صلوا عليه وسلموا تسليما
وجه علا وبوجهه فتوجهوا

هو أكمل من كل وجه أوجه هو ذا الحبيب القلب منه أوجه
[...] فأولى طيبه وأوجه هول من الأرض المكتر أوجه
هانا بنار الشوق صرت سقيما صلوا عليه وسلموا تسليما

لا ريب لا مثل له والله لا لاحت له الآيات عرشاً قد علا
لاقى ارتقاء ربه فتوصلا لاج به نال المتى إلى الألا
لازم لباب جنابه تقسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

يا أكرماً كل إليه يلتجى يأتي محمدك العفيفي الذي
يقنا توسل بالصفي ويحتدي يده إليك [يمد] فقراً ترنجي
يمن افتتاح باسمه تختيما صلوا عليه وسلموا تسليما

قلت : وإنما أثبت هاتين القصيدتين في جملة ما سردته ، وإن كان فيهما
من التكلف ما لا يخفى لأوجه ، أحدها : أن صاحبهما من الصالحين يسلم له
ويتبرك بكلامه ، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام للملامه ،
الثاني : أنهما مدح للنبي صلى الله عليه وسلم وعليه من الله أركى صلته وأتم
سلامه ، الثالث : أن المراد جمع ما وقفت عليه في البحر والروى والمعنى ،

١ لفظة التكلف هنا قاصرة ، إذ هذا النمط من السداسيات خارج على طبيعة اللفظة ودلالات اللفظ .

لأن بعضاً من العلماء ذكر لي أنه لم يطلع في ذلك إلا على قصيدة ابن الجنان ،
فأحييت أن أتعرض لتعريفه بهذا العدد وإعلامه ، على أن القصد الأعظم ما هو إلا
التلذذ بذكر أمداح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، خصوصاً المقتبس فيها قوله
تعالى ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

وقد كنت نويت أن أولف في ذلك بالخصوص كتاباً أسميته « روضة
التعليم في ذكر الصلاة والتسليم على من خصه الله تعالى بالإمراء والمعاينة والتكليم »
والله تعالى المسؤول في التيسير ، فلتزد عليه يسير .

ومن ذلك هذا التسديس الذي وجدته في كتاب « درر الدرر »^١ للشيخ
الإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد^٢ بن أحمد بن أبي
بكر العطار الجزائري من جزائر بني مزغنة ، وهي المشهورة الآن بالجزائر :

أنوار أحمد حُسْنُهَا يتلألاً	المصطفى بجلى الكمال يحللاً
الشمس تخجل وهو منها أضواً	النور منه مقسم ومجزأ
قد زان ذاك النور إبراهيماً	صلوا عليه وسلّموا تسليماً

صلوا على المسك الفتيق الأطيب	صلوا على الورد المعين الأعذب
صلوا على نور ثوى في يرب	صلوا عليه بمشرق وبمغرب
ما زال في الرسل الكرام كريماً	صلوا عليه وسلّموا تسليماً

صلوا على زهر الكمال النابت	صلوا على طود البهاء الثابت
صلوا على من فاق نعت الناعت	خير الورى من ناطق أو صامت
وأعزهم نفساً وأطهر خيماً	صلوا عليه وسلّموا تسليماً

١ سيورده باسم « نظم الدرر » بمد قليل .

٢ بن عبد . . . محمد : سقطت من ق .

صلّوا على من عهدته لا يُنكث	صلوا على طيب يفوح ويمكث
عنه المعارف والحقائق تورث	صلوا على من بالهدى يتحدث
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	أضحى يعلمنا الهدى تعلّما
صلّوا على من عرفه يتأرجح	صلّوا على من نُورهُ يتبلج
صلّوا على من جازَ مجدأ يبهج	للحضرة العلياء لَيْلًا يعرج
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وبها على العرش المجيد مقيما
صلّوا على صبح الرّشاد الواضح	صلّوا على البدر المنير اللّائح
صلوا على الهادي النبي الناصح	صلوا على المسك الذكي الفائح
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	الرشدَ فهمّ والهدى تفهّما
صلّوا على من عهدته لا يُفسخ	صلّوا على من شرعه لا يُنسخ
عليّاهُ عليا الكمال تؤرخ	صلوا على مَنْ بالثناء يضمخ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	نالَ المفاخر والكمال قديما
صلوا على خير الأنام الأوحّد	صلوا على الهادي لأعذب مورد
بمحمد فزنا، ومن كحمد	صلّوا على بدر التمام الأسعد
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	اللهُ عَظَمَ قدره تَعْظيما
صلّوا عليه فللسعادة يجذ	صلّوا على مَنْ بالنبوة ينفذ
أبصارنا طرأ بأحمد لوذ	صلّوا على من حبه لا يُنبذ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	في موقف بُنسي الحميم حميما
صلوا على الروض البهي الناضر	صلّوا على البدر المنير الزاهر
صلوا على المسك الفتيق العاطر	صلّوا على بحر العلوم الزاخر
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وتنعمّوا بصلاتكم تنعيما

صلّوا على نُورٍ يَلُوحُ ويبرز	بمحمّدٍ حلل الكمال تُطرز
ولمجده درر السيّادة تُفرز	قد نُظِّمت لِكَمالِهِ تَنظيما
صلّوا على مسكٍ يفوح ويحرز	صلّوا على مَنْ بالبهاء يخطط
ولمجده درر السيّادة تُفرز	ولهُ يواقيت السّناء تقسط
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وبنوره أضحى الزمان وسيما
صلّوا على مَنْ بالنوّة يلحظ ^١	صلّوا على مَنْ بالمهابة يلحظ
لِعُصاته نار الجحيم تغيظ	صلّوا على مَنْ بالهداية يلفظ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	ورضاه هبّ لنا وطاب نسима
صلّوا على مَنْ باسمه يُتبرك	صلّوا على مَنْ قدره لا يُدرَك
صلّوا على مَنْ للهدى يتحرك	صلّوا على مَنْ حبه لا يُترك
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وبه تحلى ظاعنا ومقيما
صلّوا على الروض البهيّ الأجمَل	صلّوا على البدر المنير الأكمل
المصطفى الأرقى لأنزه محفل	صلّوا على الهادي النبيّ الأحفل
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	فيه تقدّم وحدهُ تقدِيما
صلّوا على عرْفِ ذِكْمِي ناسِم	صلّوا على زهرٍ أُنْبِقِ باسم
من جوده نلنا بخيرٍ مقاسِم ^٢	صلّوا عليه فهو بدرٌ مواسِم
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	أنوارهُ قد تمّت تَمِيما

١ ق : يحفظ .

٢ ق : صلّوا على من للمقاسم قاسم .

صلّوا على مَنْ بالنّبوة زينا
 صلّوا على هادِ أبانَ وبينا
 للخلقِ أرسلَ رحمةً ورحيما
 صلّوا على من بالكمالِ يخصص
 صلّوا عليه على الدوامِ وأخلصوا
 شملَ الورى طرّاً وطاب عميما
 صلّوا على صبحِ تبلجِ بالرضى
 صلّوا على مَنْ بالنجاة تعرّضا
 وعلا وخيمَ ضوءه تخيما
 صلوا على البدرِ المنيرِ الساطعِ
 صلّوا على الصبحِ المنيرِ اللامعِ
 ووقاه في وهجِ الهجيرِ مغيما
 صلّوا على النورِ الأعمِ السابعِ
 صلّوا على المسكِ الذكيِّ البالغِ
 للواردين بهِ غدا تميما
 صلوا على من بالتقربِ يوصف
 صلّوا على من بالعلّا يتشرف
 المجدِ فحَمَ ذكره تفخيما
 صلوا على المسكِ يطيبِ لناشِقِ
 إشراقه بمغاربِ ومشارِقِ
 بادِ تنمَّ حسنهُ تنسيما
 صلّوا على من بالكمالِ تمكنا
 بمحمدِ فزنا بإدراكِ المُسنى
 صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
 صلّوا على مَنْ نورُه لا يتقص
 ظلُّ ضفا بالأمنِ لا يتقلص
 صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
 وقضى على ليلِ الضلالةِ فانقضى
 صبحِ تذهبَ نوره وتفضضا
 صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
 صلّوا على الروضِ الأنيقِ اليانعِ
 صلّوا على المسكِ الفتيقِ الذائعِ
 صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
 صلّوا على البدرِ الأتمِ البازغِ
 صلوا على الوردِ المعينِ السائغِ
 صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
 صلّوا على من بالمحبّةِ يُعرف
 صلّوا عليهِ بهِ الكمالِ يزخرف
 صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما
 صلوا على الروضِ الأنيقِ الرائقِ
 صلّوا على البدرِ الأتمِ الفائقِ
 صلّوا عليهِ وسلّموا تسليما

صلوا عليه فهو روض الأُنفسِ	صلوا على الدرِّ النّفسِ الأُنفسِ
ومنى الجليس ونزهة المتأنسِ	صلّوا عليه فهو زين المجلسِ
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	راق النفوس شدّا وطاب شميما
صلوا على النور الذي قد أدهشا	صلوا على المختار أفضل من مشى
ورد لظمان إليه تعطشا	بمحمد عرّفُ القرنفل قد فشا
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	يُبري الضنى أبداً ويروي الهيما
بدر التّمام وروضة المتزه	صلوا على الهادي النبيّ الأَنْزه
أبداً بلّم ثراه فخر الأوجه	في فضله كلّ الشهادة تنتهي
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	في جبهِ أضحي الغرام غريما
فعلا وفاض على البسيطة واحتوى	صلّوا على نور بطيية قد ثوى
صلوا عليه فهو يُنجي من هوى	صلوا عليه فليس ينطق عن هوى
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	في موقّفِ يندرُ السّليم سليما
صلّوا على صبح مبين يجتلى	صلوا على نور تالألأ واعتلى
صلّوا على درّ تزان به الحلّى	صلّوا على مسك يخالط مندلا
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وبه المعالي خيمت تخيما
وسما وحاز مفاخرأ ومعاليا	صلوا على منّ نال مجدأ عاليا
وبمدحه الرحمنُ زين حاليا	صلّوا على نور تبدى حاليا
صلّوا عليه وسلّموا تسليما	وإذا سما المخدمون زان خديما

وقد توارد في بعض هذا التسديس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التي أولها :

١ ق : ختمت تخيما .

يا أمة الهادي المبارك أحمد

حسبما يعرفه المتأمل ، والذي في ظني أن صاحب « يا أمة الهادي » متأخر عن ابن العطار فهو الذي أخذ منه ، والله سبحانه أعلم .
وتوارد أيضاً في عدة أبيات مع تخميس الكاتب أبي العباس ابن جمال الدين المتقدم ذكره وأوله :

الله زادَ محمداً تعظيماً

وهما على منوال واحد ، غير أن ذلك تخميس وهذا تسديس ، وابن جمال الدين أقدم من ابن العطار تاريخاً ، فيحتمل أن يكون أمّ بكلام ابن جمال الدين ، أو ذلك من توارد الخاطر .

ورأيت في هذا الكتاب تسديساً آخر لم يرتبه على حروف المعجم ، وجعل روي الشطرين الأخيرين حرف اللام ، فأحببت ذكره هنا زيادة في التبرك بمدح المصطفى عليه أجلّ الصلاة والسلام ، وهو :

أرّبت محاسنه على الأنوار	نور النبي المصطفى المختار
نورٌ يُنجي من عذاب النار	مراه يُخجل بهجة الأعمار
صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً	قد زان ذلك النور إسماعيلاً
صلّوا عليه بمغرب وبمشرق	صلّوا على البدر المنير المشرق
بالمصطفى المختار برق الأبرق	صلّوا على غصن الكمال المورق
صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً	يهدي غراماً للنفوس دخيلاً
صلّوا على من قد تعظم قدره	صلّوا على من قد تنامى فخره
صلّوا على من قد تناسق درّه	صلّوا على من قد تآرج نشره
صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً	عقد السناء لمجده إكليلاً

صلّوا على البدر المعين السلسل
صلّوا على نور الهدى المسترسل
صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا على من فاق عرف العنبر
كم زان ذكر المصطفى من منبر
صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا على من فاق كل مبشر
صلّوا على بدر يرى في المحشر
صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا عليه بمشرق وبمغرب
بالفكر يشرب ويح من لم يشرب
صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا على من في النجاة يفكر
صلّوا على من بالهداية يشكر
صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا على من في الكمال تقسما
صلّوا على طيب سرى وتنسما
صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا عليه سرى وفاح وما انبرى
لبس الجمال مطرزا ومحبرا
صلّوا عليه بكرة وأصيلا

صلّوا على خير الأنام المرسل
صلّوا على أسنى سنا المتوسل
ظل علينا لا يزال ظليلا

صلّوا على النور الأتم الأكبر
صلّوا عليه فهو أصدق مخبر
وأراح من داء الضلال عيلا

صلّوا على النور الأتم الأنور
صلّوا عليه هديتم من معشر
حاز الجمال فلا يزال جميلا

صلّوا على النور البهي المغرب
صلّوا على الورد الشهي المشرب
منه ، وينقع بالورود غليلا

صلّوا على من فخره لا ينكر
صلّوا على من بالنبوة يُذكر
شكراً على مر الزمان حفيلا

صلّوا على من بالسيادة قد سما
صلّوا على صبح بدا متيسما
وغدا وراح معطرأ ولبليلا

صلّوا على مسك يخالط عنبرا
صلّوا عليه حوى الكمال الأكبر
وبذاك قد خص الجليل جليلا

صلّوا على من بالنبوة تُوجّا صلّوا على من بالنبوة تُوجّا
 صلّوا عليه لقد أضاء وأبهجا صلّوا عليه لقد أضاء وأبهجا
 نور يعود الطرف منه كليلًا نور يعود الطرف منه كليلًا
 صلّوا على نورٍ تَبَلَّجَ لائحا صلّوا على نورٍ تَبَلَّجَ لائحا
 صلّوا على مسكٍ تَأرَّجَ فائحا صلّوا على مسكٍ تَأرَّجَ فائحا
 وبجته يستوجبُ التبجيلا وبجته يستوجبُ التبجيلا
 صلّوا على من نوره ملاً الفضا صلّوا على من نوره ملاً الفضا
 صلّوا على من خصَّ حقاً بالرضى صلّوا على من خصَّ حقاً بالرضى
 وهدى إلى نيل الرشادِ سبيلا وهدى إلى نيل الرشادِ سبيلا
 صلّوا على بدرٍ يدوم كماله صلّوا على بدرٍ يدوم كماله
 صلّوا على من قد تعاضم حاله صلّوا على من قد تعاضم حاله
 وإلى الورود به أجدّ رحبلا وإلى الورود به أجدّ رحبلا
 صلّوا بأجمعكم على شمس الهدى صلّوا بأجمعكم على شمس الهدى
 صلّوا عليه فمن رآه تشهدا صلّوا عليه فمن رآه تشهدا
 أرضى التزليل ويبيّن التزويلا أرضى التزليل ويبيّن التزويلا
 صلّوا على من قد تأثّل مجدّه صلّوا على من قد تأثّل مجدّه
 ما زهره لولاه أو ما وردّه ما زهره لولاه أو ما وردّه
 في تربه ما أعذب التقييلا في تربه ما أعذب التقييلا
 صلّوا على محبوبنا مطلوبنا صلّوا على محبوبنا مطلوبنا
 صلّوا عليه فهو روض قلوبنا صلّوا عليه فهو روض قلوبنا
 صلّوا على مطلوبنا محبوبنا صلّوا على مطلوبنا محبوبنا
 صلّوا عليه بكرة وأصيلا صلّوا عليه بكرة وأصيلا
 صلّوا عليه بكرة وأصيلا صلّوا عليه بكرة وأصيلا

١ ق : تأصل .

صلّوا على خير الأنام الأطهر صلّوا على النور الأتم الأزهر
 صلّوا على الصبح المنير الأشهر صلّوا عليه بانصال الأشهر
 الله فضّلنا به تفضيلاً صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً
 صلّوا على من قد تنهى في العلا صلّوا على من كان أكل أجلاً
 صلّوا على درّ تزان به الحلى المجد ألبسه الكمال مكملاً
 والله كمل مجده تسكيلاً صلّوا عليه بكرةً وأصيلاً

وأظن أنني رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب العروسي المغربي ، وهو

متأخر .

[قصائد ومقطعات في مدح الرسول]

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بابن المغربي ، وهي :

أهدت لنا طيبَ الروائح يثربُ فهبوبها عندَ التسم يطربُ
 رقت فرقاً من الصباية والأسى قلب بنيران البعاد يعذبُ
 شوقاً إلى أسنى نبيّ حبهُ يحلو على مرّ الزمان ويعذبُ
 المصطفى أعلى البرية منصباً قد جل في العلياء ذاك المنصبُ
 فزنا به بين الأنام بديمة أبدأ علينا بالأمانى تسكبُ
 حاز السيادة والكمال محمدٌ فإليه أشتاتُ المحامد تُنسبُ
 محبوبنا ونبيّنا وشقيعنا يُدني إلى ورد الرضى ويقربُ
 بضياته الملتاح أشرق مشرقٌ وبنوره الوضاح أغرب مغربُ
 وبه وردنا الأمنَ غذباً صافياً وبه ترقى في المعالي يشجبُ

١ ق : من نبي أنور .

٢ ق : صلّوا عليه فما أتم وأجلاً .

صبح الهدى أنواره بنينا
 إن طابت الأنفاس من زهر الربى
 صيرت أمداح النبي المصطفى
 فعلي من أمداح أحمد خلة
 وبمدحه شمس الرضى طلعت على
 أتري يبشرني البشير بقربه
 ويقال لي بشراك قد نلت المنى
 هذا مقرر الوحي هذا المصطفى
 رد ورد طيبة واشف من ألم النوى
 كم ذا التواني عن زيارة مورد
 منا السلام على النبي محمد

صبحاً تروق الناظرين وتعجب
 رياته أذكى في النفوس وأطيب
 لي مذهباً يا حبتك المذهب
 موشية لها طراز مذهب
 أفقي تضيء ونورها لا يفرب
 وأبت أشواق الفؤاد وأندب
 يا مغربي إلى متى تتغرب
 هذا الذي أنواره لا تحجب
 قلباً على جمر الأسي يتقلب
 عذب المقام به ولذ المشرب
 ما أسفرت شمس وأشرق كوكب

وقد سمي هذا الكتاب بـ «نظم الدرر في مدح سيد البشر» و «الورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين» وليس هو بابن العطار المشرقي الذي كان معاصراً لابن حجة الحموي ، فإن ذلك متأخر عن هذا ، وهذا مغربي وذاك مشرقي ، فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان ، سوى اشتراكهما في الشهرة بابن العطار .

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته : مما أنشأه الشيخ الفقيه القاضي العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن يوسف العطار ، رواية العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشهري ، قرأت هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة

١ يعني بابن العطار المشرقي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الدينيري ، وله في المدائح النبوية « عنوان السادة » (الدرر الكامنة ١ : ٢٨٧) .

بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية - حُرِسَتْ - في دُولٍ متفرقة ، وآخرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة أو آخر عام سبعة وسبعمائة ، ونَصُّ ما كُتِبَ على نص قراءتي عليه : صحيحٌ ذلك ، وكتبه محمد بن عبد الله ابن محمد بن محمد بن العطار ، والحمد لله رب العالمين ؛ انتهى .

ورأيت أثر ما تقدم بخط الأقسهري ما صورته : سمع من لفظي جميع « نظم الدرر في نسب سيد البشر » لجامعه ، القاضي المذكور أعلاه القاضي شمسُ الدين محمد ابن المرحوم عبد المنعم الشيبني وولدهُ أبو محمد عبد الدائم وابنُ أخيه أبو محمد عبد الباقي بن تاج الدين بن حفصُ بن أبي بكر البوري وغيرهم ، نحو سماعي قراءة مني على مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطار سنة سبع وسبعمائة ، قالهُ رأسه الأقسهري ؛ انتهى .

ومن قصائد هذا الكتاب قوله :

أبدأُ تَشْرُوكُ أو تروكك يثربُ	فلإي متى يقصيك عنها المغربُ
هي جنةٌ في النفس يعذبُ ذكرها	والقربُ منها والتداني أعذبُ
المسكُ معترفٌ بأنَّ نسيما	أسمى وأسرى في النفوسِ وأطيبُ
والعنبرُ الورديُّ دان لطيبها	منهُ التعطرُ والتأرجحُ يطلبُ
جيشُ الصبابةِ شنَّ غاراتِ الأسي	من بعدها فالصبرُ منها ينهبُ
والشوقُ يشنُّنا إليها كلِّما	وقف الحمام على الأراكة يخطبُ
حتى النسيمُ إذا سرى من ربعا	يشي من الروض الغصونَ ويُطربُ
حيًا فأحيا المستهامَ بطيبه	فنفوسنا بهبوبه تتطيبُ
يا حبذا في رُبْعِ طيبةٍ وقفةٌ	بين الركايبِ والمدامعِ تُسكبُ

١ ق : أبي حفص .

حتى يرقّ للوعتي وصبابتي
شوقاً لمن زان الوجود ، وجهه
ساد الأنام المصطفى بكماله
بالتور زان حلّى علا آياته
الشمس يغرب نورها وضياؤها
الله أرسله إلينا رحمة
بمحمد فزنا بإدراك المنى
خير الورى محبوبنا ونبينا
روض النفوس محمد ونعيمها
شرف تقادم قبل آدم عهده
متا عليه مدى الزمان تحية

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

طلعت ، وقارنها البهاء ، بدور
من نور أحمد يستمد ضياؤها
ويزيد ذلك التور حسناً فائقاً
محبوبنا أسمى البرية منصباً
فزنا بخير العالمين محمد
لاحت لنا أنواره فزماننا
بالمصطفى المختار قابلنا الرضى
الله فضله على كل الورى
القرب خصصه وعظم قدره
خير النبيين الكرام نبينا

أبدأ على قطب السعود تدور
وبهاؤها ، يا حيداك التور
يوم القيامة والأنام حضور
يوم النشور لواؤه منشور
وجرى بوفق مرادنا المقذور
نور ، وأنس دائم وسرور
بين الأنام فسعيننا مشكور
فهو الحبيب ، وفضله مشهور
فما يبهجة نوره ناحور
بالتور في العرش اسمه مسطور

قلبي بحب المصطفى معمور
 لأنني على ألم الفراق صبور
 فالقلب من بعد المزار يزور
 ومدامني خددي بها ممطور
 لهب ، ومن فيض الدموع بحور
 والقلب مني فارح مسرور
 وابشر فأنت على النوى منصور
 بعد المطال فذنبه مغفور
 وسما وسلا وصاله الحور
 يصبو إليه المسك والكافور

يا صاحبي نداء صب مغرم
 عوجا علي بوقفة وبمطفة
 إن لم أزر بالجسم قبر المصطفى
 نيران قلبي بالبعاد توقدت
 فمن الفراق الحتم نيران لها
 فمتى أفوز بوقفة في طيبة
 ويقال لي إنزل بأكرم منزل
 إن جاد دهري بالوصول لطيبة
 هي جنة من حلها نال المنى
 حتى النسيم إذا سرى من نحوها

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

وبارق المنحني أحياءك ماطره
 من نازح نال طيب الوصل خاطره
 رق النسيم بها إذ راق ناظره
 فاستضحكت فيه من عجب أزاهره
 والبدر طرز ماء النهر زاهره
 والطل قد نثرت منه جواهره
 والبرق يسم في الظلماء ساهره
 وعقدها زين الأغصان دائره
 والليل بالفجر قد شابت غدائره
 وعندما سلها ولت عساكره

أما النسيم فقد حياك عاطره
 خاطر بزوحك في نيل الوصال فكم
 زهر الربى باسم تندي كئامه
 ما حل روض المنى الغض الجنى دنف
 والنهر أبرز للبدر الأتم حلى
 والغصن تلعب أنفاس الرياح به
 والليل قد رقت بالشهب حلته
 والنور مخض جنى فوق الندى درر
 وملبس الروض قد زانت خضرته
 والصبح سل على جيش الظلام طبى

١ ق : الوصول .

والمسكُ إن قُضَّ لا تُخفي سرائره
 فتربها أبداً مسك يخامره
 سمّت وراقت بمن فاقت مفاخره
 حازَ المكارمَ واعتزت عشائره
 يزيدُ حسناً على الأعمار باهره
 أربت على الرمل أضعافاً مآثره
 نظماً فقد زان عقدَ الرُّسل آخِرُهُ
 بحرٌ من العلمِ عذبٌ فاض زاخره
 إلى مقامٍ حبيب أنت زائره
 رامَ الدنوّ فأقصته جرائره
 غربٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره
 إلى محلِّ رسولِ الله عامره

للزهر سرٌّ وعرفُ الروض فاضحه
 هل زار طيبة ذاك العرف حين سرى
 طابت بطيب رسول الله فهي به
 به معدّ تسامى للعلا ، وبه
 أسنى النبيين قدراً نوره أبداً
 وأفضل الخلق من عرب ومن عجم
 إن كان للرُّسل عقدٌ وهو آخرهم
 روضٌ من الحلم غضُّ راق منظره
 إن جاد صاحٍ بلبياهُ الزمانُ فمِلْ
 وصيفٌ له حال صبّ مغرمٍ دنفٍ
 واذكر هناك بعيدَ الدار غربته
 أهدى السلام بلا حدٍ ولا أمدٍ

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

وإلا فجادته الدموعُ السواكبُ
 وحلّى محلاً حلّ فيه الحبابُ
 فما عاب ذاك الأنسَ بالجزع عائب
 ويا أنسنا بالجزع هل أنت آيب
 وقد شيت سودَ الشعورِ الشوايب
 كما كان غصناً مورقاً وهو ذاهب
 وأودى به والدهر للأنس سالب
 وأي بخيل للنفائس واهب
 وقد عزّ مطلوبٌ له أنا طالب
 وإلا فما أنت الصديقُ المصاحب

أمترلتنا جادت ثراك السحابُ
 ووشاك وسمي الغمام بدره
 وحيّا نسيمُ الريح بالجزع أنسا
 فيا عهدنا بالخيف هل أنت عائد
 وهل راجع عصرُ الشباب الذي انقضى
 وهيهات أن يقضى لنا برجوعه
 وقد سلب الدهرُ المفرق أنسنا
 فما وهب الإيناس إلا مغالطاً
 أطلب أيام العقيق بعودة
 فيا صاحبي كن مسعدي في صبابتي

إذا ما بدا برقُ الحجازِ فأدعني
أعاتبُ أيامَ العبادِ ، وقلّما
وأبجلُ بالصبرِ الجميلِ ، وإنّه
ولمّا بدتْ أعلامُ طَيِّبةٍ قصّرتْ
وقفنا وسلمنا وفاضتْ دموعنا
نزلنا وقبّلنا من الشوقِ ترهبنا
فللعينِ من تلكِ المعاهدِ نزهةٌ
حوّتْ سيدَ الرسلِ الذي جلّ قدره
بهِ غالبٌ حازَ المفاخرِ سالفاً
بهادي الورى طراً مناصبهُ سَمّتْ
محمدٌ الهادي بإشراقِ نوره
ترقى إلى السبعِ الطباقي وما بدا
وخطبه في حضرةِ القدس ربّه
نبيٌ بدتْ أنواره وتلاّلات
لقد أشرقتْ شمسُ النهارِ بنوره
أعلّلُ قلبي بالوصولِ لقبّره
وإنّي أناديه وإن كنتَ نازحاً
إذا كنتَ لي يا سيدَ الرُّسلِ شافعاً
بمدحك يا من جلّ قدرأ وحظوة
فيا معشرَ الأحيابِ إنّ نبيّنا
ألا فاذكروه كلّ حينٍ وسلّموا
وقوموا على أقدامكم عند ذكره

تفيض إلى الوراد منها المشارب
يبرّدُ حرَّ الشوقِ بالعتبِ عاتب
لينهبه من وارد البين ناهب
من الشوق ما قد طولته السباب
وحنّتْ إلى ذاك الجناحِ الركائب
وطابتْ بذلكِ التربِ منّا الترائب
وللقلبِ في تلكِ الرسومِ مآرب
له في مقامِ القربِ تقضى المطالب
ولا شرفٌ إلا الذي حاز غالب
وراقّتْ بنجيرِ الرُّسلِ تلكِ المناصب
تمزقَ من ليلِ الضلالِ غياهب
له في ترقّيه من الحجبِ حاجب
وأدناه في حالِ الخطابِ المخاطب
فمنها تضيءُ النيراتُ الثواقب
وبدرِ الدجى لمّا بدا والكواكب
وإن غبتُ ما قلبي وحقك غائب
نداءِ غريبٍ غربتَهُ المغارب
فما أنا من نيلِ السعادةِ خائب
وجاهاً وتمكيناً تُنالُ المواهب
إلى فوزنا داعٍ وساعٍ وخاطب
عليه ، بذاك الذكرِ تسمُّ المراتب
فذلك في شرعِ المحبّةِ واجب

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

ودحت دُجى ليل الضلال المسبل
للخَلْقِ طرّاً في ربيع الأول
وبدت فأبى دُجّة لم تنجل
للمُصطفى اعترفا بعجز مجمل
أومت إليه بالسّلام الأحفل
فأنشقّ للبدر الأتمّ الأكمل
بجمال إسرائ الحبيب الأجمل
حازته من شرف النبيّ الأفضّل
وبدت لنا نار الكليم المصطفى
ومبشراً بورود أعذب منهل
والجفن منه بنومه لم يكحل
فرأى جلالاً لم يكن بمثّل
وبحيثُ يذهلُ عقلُ من لم يذهل
لك يا محمدُ ذا التقربُ ليس لي
واترك حظوظك بالحضيض الأسفل
واصعدْ إلى عرش الحبيب الأول
سبّحاتها تغشى حجى التأمّل
أهلاً وسهلاً بالحبيب المُقبل
أقبلْ إلينا يا محمد تقبل
منا وجرّ الذيل منها وارفل
وبها نجيب وسيلة المتوسل
وانزلْ بأنوار الكتاب المترل

شمس الهدى وضحت بأشرف مرسل
من وجه عبد الله كان ظهورها
خلعت على الآفاق أشرف ملبس
فالنيران المشرقان كلاهما
فالشمسُ لما أنْ بدت أنواره
والبدرُ قابله بحسن كامل
وليلة الإسراء أجمل منظر
فضلت على الأيام من شرف لما
وبدا بها نور النبيّ المُصطفى
إذ جاءه الروح الأمين مسلماً
فسرى إلى أسنى محلّ وارتقى
رفعت له حجبُ الجلال بأسرها
حتى انتهى الروح الأمين لحده
ناداه لما أن ترقى وحده :
أرقا إلى الأفق المُبين مشاهداً
واسعد بزورة من تعاضم ملكه
فسما فشاهد حضرة القدس التي
وبدا الكمالُ له ونودي مقبلاً :
أنت المرادُ لسرنا ولوحينا
والبسْ بحضرة قدسنا خلع الرضى
ولك الوسيلة يا محمد عندنا
فاحكم بما يوحى إليك من الهدى

فيه شفاء للصدر فبرؤها
 يا نفس هل تشفيك زورة طيبة
 ولتى زمانك في التصابي والمنى
 يا قلب ، روعات الجوى هل تنقضي
 وأزور قبر الهاشمي محمد
 لاني وإن بخل الزمان بقربه
 أسقي الثرى تسكابها ، فمعينها
 لهفي على بعد المزار متى أرى
 ومتى أبشر بالمنى ، ويقال لي :
 وتبُّ تلقائي نواسم طيبة
 فلقد بليت بلوعة ودمعة
 خيلت قريك برء داء صبابتي
 شوقاً إلى خير الأنام بأسرهم
 فيه أنا متوسل في مقصدي
 ويجاهه عند الأنام مآربي
 وبه الأمامي قد حللن بساحتي
 بشراك نفسي فالأمامي أعجلت
 بمدحيه أضحي الزمان مسالمي
 فيه إلهي قد رجوتك راغباً
 وإليك ربي رغبتى وتوسلي

بمفصل منه وغير مفصل
 فرسومها برء لكل مقبل
 فدعي التصابي والأمامي وارحلي
 عني ؟ ولوعات الجوى هل تنجلي ؟
 قبل الرحيل وقبل عدل العذل
 فبلوعي وبدمعي لم أبخل
 يهي ، ونار صبابتي ما تأتلي
 يقضي الزمان بقرب ذاك المترل ؟
 هذا مفر الوحي دونك فانزل ؟
 لاني أجود بها إليك وحق لي
 وهوبك الأركى شفاء المبتي
 ضمن البعاد به فطال تحيبي
 سؤلي وأسنى مقصدي ومؤملي
 أسنى التوسل بالرسول المرسل
 ووسائلتي تُقضى وإن لم أسأل
 وحوادث الحدثان صرن بمعزل
 نحوي تبشرنى بخير معجل
 تندى أسرة وجهه المتهلل
 دون الأنام فيابُ جودك موثلي
 وعليك في كل الأمور توكتلي

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته : قال محمد بن عبد الله بن محمد بن
 محمد بن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم : كان الفراغ من
 إكمال هذا الفصل وإتمامه ، حسب نثره ونظامه ، ضحوة يوم الجمعة الثاني من

شعبان المكرم سنة ست وتسعين وستمائة ، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها ،
فإنها تقدمت على إنشائه ، أودعتها فيه ، والله سبحانه المستعان ، وذلك بمدينة
الجزائر - جزائر بني مزغنة - من أقصى إفريقية من أرض متيجة ، صانها الله
تعالى ؛ انتهى .

ونبت في آخره بخط بعض الأكابر ما نصّه : تأليف الفقيه العالم الأديب
البارع أبي عبد الله محمد بن العطار الجزائري ؛ انتهى .
وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر ، فالله تعالى يجازي صاحبه
أفضل الجزاء ، بمنّه وكرمه .

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة
على ما ذكر هنا فنقول : قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب « مطالع
الأنوار ومنابع الأسرار » :

وَحَقِّكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ قَلْبِي
جرت أمواه حبك في فؤادي
فصرتُ أرى الأمور بعين حقّ
إذ شغف الفؤادُ به وداداً
يهيمُ بذكره ويحنُّ شوقاً
يخامرُه ارتياحٌ منه حتى
وما هو حقّ فضلٍ قد رآه
فسوف ينال في الدنيا سروراً
ويعطى ما تمنى من أمانٍ
يجبك قربة نحو الإله
فهام القلبُ في طيب المياه
وكنت أرى الأمور بعين ساهي
فهل ينهأه عن ذكره ناهي ؟
حينَ المستهام إلى الملاهي
يقول أولو الجهالة : ذاك لاهي
فصارَ يجدُّ في طلب الملاهي
وفي الدار الأخيرة كلّ جاه
كما قد حبَّ محبوبَ الإله

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

يا عاذلي في طلابي
سأعملُ العيسَ شوقاً
دعني من العذل دعني
بالعزمِ دونَ التأنّي

مصدق حسن ظني	إلى ضريح رسول
حين الحمام يغني	أشدو على كل فج
بذلتي عبد قن	يا أظهر الخلق إني
وانظر بعطفك مني	فاعتق اليوم رقي
إنيك إنيك أعني	فأنت أنت ملاذي
ما غبت عن عين ذهني	إن غبت عن عين جسми
أشرف من كل جن	لولاك كنا أناساً
فخير فضل ومن	فإذ بعثت رسولا
عساه يصفح عني	لله خالص شكري
قلبت ظهر المجن	فإتني عبد سوء

وقال في خاتمة ذلك الكتاب :

ما لاذت الأرواح بالأجساد	صلتي الإله على النبي الهادي
فكسا محيا الأفق برؤد حداد	صلتي عليه الله ما اسود الدجي
فأبيض وجه الأرض بعد سواد	صلتي عليه الله ما أنبلج السنا
فسقى البلاد برائح أو غادي	صلتي عليه الله ما همع الحيا
وشدا على فني الأراكة شادي	صلتي عليه الله ما هفت الصبا
جفن فخامره للذيد رقاد	صلتي عليه الله ما ألف الكرى
ما استمسكت نار بطي زناد	صلتي على المختار أحمد ربه
من خصه بالنور والإرشاد	صلتي على خير الأنام محمد
حشر الأنام لديه في الميعاد	صلتي الإله على رسول حاشر
في الدهر وهو بفضله كالهادي	صلتي الإله على رسول عاقب

١ ق : وقوله رحمه الله تعالى . . . الباب .

صلى الإله على رسولٍ خاتمٍ
 صلى الإله على المقفَى ما اقتضى
 صلى على ماحي الضلالِ إلهُ
 صلى الإله على رسولٍ فاتحٍ
 صلى الإله على نبيِّ راحمٍ
 صلى الإله على نبيِّ طالعٍ
 صلى الإله على نبيِّ طالعٍ
 صلى عليه الله فهو نبيُّهُ
 صلى عليه الله فهو رسولهُ
 صلى عليه الله فهو خليلهُ
 صلى عليه الله فهو صفيتهُ
 صلى عليه الله فهو وليتهُ
 صلى عليه الله فهو المصطفى
 صلى عليه الله فهو المجتبي
 صلى عليه الله فهو المتقى
 صلى عليه منْ براه مطهراً
 صلى عليه من براه بفضله
 صلى عليه منْ أراه جلالهُ
 صلى عليه من أحلَّ فؤاده
 صلى عليه منْ غَداهُ بنعمةٍ
 صلى عليه منْ كساه عوارفاً

ختمَ النبوةَ بالكتابِ الهادي
 بشرُ نبوتهُ بغيرِ عنادٍ
 ما غردتْ طيرٌ على الأعوادِ
 فتحَ الظلامِ بنورهِ الوقادِ
 بالملَّةِ الغراءِ ، بعدِ فسادِ
 رحمَ الإلهُ بهِ من الإبعادِ
 بملاحمٍ قَصَمَتْ فؤادَ العادي
 ناداهُ بالإرشادِ خيرُ منادِ
 أعطاهُ رايةَ عزيمةٍ ورشادِ
 أسدى إليه منه كلَّ سدادِ
 صفَى سريرتهِ من الأحقادِ
 والاهُ في الإصدارِ والإيرادِ
 منْ كلِّ حضارِ العبادِ وبادي
 يُجني إليه الخيرُ دونَ نَقادِ
 نورُ الزمانِ وواحدُ الآحادِ
 واختاره طوداً من الأطوادِ
 وأعادهُ حياً لغيرِ معادِ
 وأنالهُ من ذاكِ كلِّ مرادِ
 في ظلِّ عرشِ ثابتِ الأوتادِ
 فتضاعفتْ كتضاعفِ الأعدادِ
 واختصهُ منهُ بغيرِ أيادِ

وقال الشيخ أبو عبد الله ابن عمران مادحاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم

مرتباً على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب ، كما تقدم :

ألف : أيا خيرَ البريةِ هذي	مِدْحِي ، وما أنا في مقالي هاذي
باء : بها أظهرتُ صدقَ محبتي	وبذلكَ الجاهِ الكريمِ ليأذي
تاء : تخذتُ وسيلةً ما حكتهُ	وجعلتهُ يومَ المعادِ عيأذي
ثاء : ثنائي ليس يحصرُ فضلكَ إلا	زاهي ولا يحويه باستحواذِ
جيم : جلالك جلُّ طورٍ فخاره	عن شبهِ مثلٍ أو لحاقِ مُحاذي
حاء : حيثُ بمعجزاتٍ ذكرها	يولي ذوي الإيمانِ كلُّ لئاذِ
خاء : خصصتُ بها بفضلِ عنايةِ	منها بلحاتٍ إلى أجلِّ ملاذِ
دال : دحضتُ بحقها مستقرباً	إبطالَ زورِ مشوذِ ملاذِ
ذال : ذراعِ الشاةِ أفصحَ غبراً	عمّا يحاذرُ ضره بنفاذِ
راء : رميتُ عصائباً قد ألجوا	فعموا ولما يُنصروا بلواذِ
زاي : زعيمٍ بالوجهةِ أنتَ إذُ	كلُّ بجاهكَ عاذ كلُّ عيأذِ
طاء : طلابهم لديكِ شفاعَةٌ	فيها بذذتَ الجمعَ أيْ بذاذِ
ظاء : ظمأؤهم بموضكِ سوَّغوا	ربناً كأنَّ بهِ مذاقةَ ماذي
كاف : كفلتُ بما تلته (والضحى)	لجماعةِ الجارينِ باستنفاذِ
لام : لدعوتكِ المجابةِ أسبلتِ	ثرواتُ هتانِ الحيا بهماذِ
ميم : متعين يدبكِ إذْ غلبَ الظُّما	أروى الورى من نوأمِ وفذاذِ
نون : نجاركِ أصلُهُ متخيرٌ	من بطنِ ذاتِ علاٍ وأطهرِ حاذي
صاد : صعدتُ ذرا الموقفِ زلفه	تركَ السعودِ مقطعَ الأفلأذِ
ضاد : ضويتُ إلى جلالِ كافلِ	لكَ بالرضى ذرَّ الجلالةِ غاذِ
عين : علا ذكر افتخاركِ وارتنقى	عن غمزِ مغتابِ وزورِ البأذي
غين : غمام قد علاكِ مظلاً	يمشي بمشيكِ دائماً ويحاذي

فء : فصاحتك البليغة أعجزت	للقوم من قربي ومن شدّاذ
قاف : قواعد صرح كسرى زلزلت	لولادة أو هت قوى ابن قباد
سين : سبقت بكل فضل يغندي	جفن المعالي منه ليس بقاذ
شين : شأوت مفاخر أكل الورى	وتركتهم غرقى بلجة آذي
هاء : هتفت على تنائي شفتي	بعلاك هذي ، ما نخلتك هذي
واو : ولو أني استطعت لسابقت	قلمي خطأ قدمي بالإغذاذ
لا : لا أكيف قدر شوق باعث	لعزائي مستنهض شحاذ
ياء : يميناً لو قدرت لذن لما	أخرت سعي مبادر حذحاذ
دامت عليك صلاة ربك ما همت	ديم بوبل هاطل ورذاذ

رجع إلى الكاتب أبي عبد الله ابن الجنان الأندلسي :

قال - تقبل الله تعالى منه - يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

يا مَنْ تقدّس عن أن	يحيط وصف بذاته
ومَنْ تعالى جلالاً	عن مُشبه في صفاته
ومَنْ قبولُ ثنائي	إليه أسنى هباته
صلى على مَنْ تبدّى	نور الهدى من سماته
ومَنْ علا الفخر لما	نمى إلى معلواته
محمدٌ خيرُ هادٍ	بجلمه وأناته
محمدٌ خيرُ داعٍ	بالصدق من كلماته
محمدٌ خيرُ مُبدٍ	لنا سنا معجزاته
أكرم به من نبي	همت سما مكرماته
أعزز به من رسولٍ	سمت علا درجاته
وخصه الله منه	بالفضل من تكرماته

لما حباه بأوفى صلاته في صلته

وقال :

يا ربّ بلِّغْ سلامي لأحمدِ ذي الشِّفاعةِ
لخاتمِ الرُّسلِ أعني إمامَ تلكِ الجماعةِ
لأبهرِ الخلقِ مجداً بحكي الصِّباحِ تصاعدهِ
لمنْ صفاتُ علاهُ تُعجزُ أهلَ البراعهِ
لسيّدِ لسناهِ يزهي السنا واليراعهِ
لمرشدٍ بهداهُ قد فاز عبداً أطاعهِ
شمسُ النبوّةِ مُعطى شمسِ السماءِ شعاعهِ
وناظمِ الحسنِ نظماً قد ضمّ منه شعاعهِ
وسرُّ سرِّك يا مَنْ أرى العيونِ اطلّاعهِ
ومَنْ حبا بذكاءِ خلالهُ وطباعهِ
ومدّ في كلِّ فضلٍ لصفوةِ الرُّسلِ باعهِ
فزدهُ يا ربّ فخراً وزدْ محبّيهِ طاعهِ

وقال أيضاً غيره :

لقد رفع الإله عن البرايا
أتى والناسُ في الآفاقِ نهباً
فأنقذهم ، ولولاهُ لكانوا
نبيّاً لا يغلُّ عليه إلاّ
كأعمارِ اليهودِ أو النصارى
فبعضٌ للتجاهلِ والتعامي
زعانفٌ لا يهلكُ لها رُواءُ
بيعتِ محمدٍ مِحْنَ الصروفِ
لسُمرِ الخطِّ أو بيضِ السيوفِ
لقى بين الضلالةِ والحنوفِ
سخيْفُ العقلِ ذو رأيٍ مَؤوفِ
أو الفلكيِّ أو كالفيلسوفِ
وبعضٌ للتحيُّرِ والوقوفِ
فإنَّ الجهلَ مائحةُ الظروفِ

إذا جرى بمختلٍ ضعيفٍ
فبرهانُ النبوةِ مستفيضٌ
شعوفُ الرُّسلِ متضخٌّ ولكن
حروفُ الخطِّ أصلٌ للمعاني
فإنَّ صحاحنا فوقَ الألوفِ
ندلُّ بهِ على رغمِ الأنوفِ
لأحمدِ الشفوفِ على الشفوفِ
وللألفِ التقدُّمُ للحروفِ

وما أحسن قول القائل رحمه الله تعالى :

لولا النبيُّ محمدٌ
أعلى الورى قدراً وأكبر
ختمَ الإله بهِ النبوةَ
واختصَّهُ دونَ البريةِ
بدرُ الرسالةِ والصحابةِ
قدَفَ الحصى في أعينِ الامةِ
وتلذعوا ثوبَ الكرامةِ
فأصغى إلى أنبائه
وإذا ابتغيتِ وسيلةً
فاقطعْ بأنك آمنٌ
هلك الورى في سوءِ حاله
رمهم وأظهرهم دلاله
وآيةً بالطهارةِ والرسالةِ
بالمكانةِ والجلالةِ
بهِ حولِ ذلك البدرِ هاله
كفَّارٍ فاعتنقوا الجداله
بهِ بعد إظهار الجزاله
تعلمَ بأنَّ المنتهى له
وملحتهُ وملحت آله
يومَ القيامةِ لا محاله

وقال أبو القاسم سعد بن محمد رحمه الله تعالى :

أطلق لسانك بالصلاة على النبيِّ الأبطحيِّ الهاشميِّ محمدٍ
واجعل شطرك ذاك تنجُ بهِ غدأً
إنَّ النجاةَ بذكرِ يومٍ للغد

ولأبي اليمن ابن عساكر رحمه الله تعالى :

يا ربِّ صلِّ على النبي وآله
واخصص ختم سلامنا بجانبه
واحرس شريعته وأوضح سبلها
وأدمِّ كرامته وأعلِّ مناره
وارفع له الدرجات في رُتب العلا
واقمه بين يديك زلفى موقف
وأنلِّ شفاعته وأورد حوضه
يشتاقه ويعوقه علق به
فيه إليه غلّة ما تشفى
وله عليه في الأصائل والضحي
وبه إلى تقبيل موطنه نعليه

وله أيضاً رحمه الله تعالى :

ألا إن الصلاة على الرسول
فصل عليه ؛ إن الله صلى
وصل عليه قد صلت عليه
ألا إن الصلاة عليه نور
وتثقل لميزان خفيف
إذا صليت صلى الله عشرين
وتحظى بالشفاعة يوم تضحى
فأكثر أو أقل فأنتم تجزى
فصل عليه تجز جزاء ضعف
وأولى الناس أكثرهم صلاة

صلواتنا ما دامت الأيام
كالمسك يعبق فُض عنه ختام
تبدو بها للسالك الأعلام
وأنيله أعلى ما لديك يرام
فهو الذي للمرشدين إمام
للحمد ما لسواه فيه مقام
من لو أتاه [...] منه أوام
لزمانه وزمانه وسقام
إلا بلياه ، وعز مرام
تهدى إليه تحية وسلام
وجد له بين الضلوع أوام

شفاء للقلوب من الغليل
عليه ولا تكونن بالبخيل
ملائكة السماء يجربيل
لدى الظلمات في اليوم المهول
وتخفيف من الوزر الثقيل
بواحدة عليك على الرسول
وما لك من مقبل أو منيل
بذلك من كثير أو قليل
وتجز مضاعف الأجر الجزيل
عليه به وأحرى بالقبول

وأنجاهم من الأهوال عبد
 فكن هجاً بذكراه حفيماً
 وصل صلاة مشتاق إليه
 وصل مدى الزمان على رسول
 وصل على حبيب فاق فضلاً
 فصلّى الله أفضل من يصلّي
 وآتاه الوسيلة مستجيباً
 وأزلفه وشفّعه ليأوي
 وأطدّ شرعه وحمى حماه
 وشرفه ولم يبرح شريفاً
 وزاد عبه شرفاً وفخراً
 وزاد علاه منه بطول عمر
 وأوردنا عليه الحوض وفداً
 بها لهجٌ بدّل قال وقيل
 بلقياه ومنصبه الخليل
 وداو بذكوره سقم العليل
 كريم مصطفى برّ وصول
 مدى شأو الكليم مع الخليل
 عليه في الصباح مع الأصيل
 وبلغه نهاية كلّ سؤل
 إليه الناس في ظلّ ظليل
 وأبده بواضحة الدليل
 فيجمع جملة المجد الأثيل
 بتفضيل وتحويل جزيل
 قصي من مواهب طويل
 لزوى بالروى من سلسيل

وله رحمه الله تعالى :

آدم الصلاة على النبي المصطفى
 وتولّ إقبالاً عليها كلّما
 فالفخر أجمعه له فتلقه
 تخلص بذاك من الجحيم وناها
 هتف المؤذن مشعراً بشعارها
 من نوبة الأسحار فوق منارها

فهذه عذة قصائد في مدحه صلّى الله عليه وسلّم ، أرجو من الله سبحانه أن
 تكون مكفرة لما ارتكبته على وجه الفخر والشهرة من الهزل واللغو ، فإن ذلك والله
 قول لا فعل له ، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر

١ كذا بالتسكين ، وفي هذه القصائد تسامح أحياناً في اللفظ والإعراب لم نشر إليه .

وغير واحد ممن ألف في الأدب وجمعه .
 ولا بأس أن نعزها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة ، وحق لمن توسل
 بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن لا تضيع وسائله ، وكيف وهو صاحب
 المقام المحمود والشفاعة والسيادة ، فمنها قول ابن الجنان المذكور آنفاً رحمه الله
 تعالى :

إلى أحمد المختار نُهدي تحيةً تفأوح روض الحزنِ بلله المزنُ
 إذا نافحت مغناه زاد تأرجاً وإن لثمت يمناه قابله اليمنُ
 أسيرُ أشواقِي رسولاً بعرفها لتسعدنا منه العوارفُ والمن
 وأرجو لديه الفضل فهو منيله وما خاب لي فيه الرجاء ولا الظن
 عليه اعتمادِي حين لا لي حيلةً إليه استنادِي حين ينو بي الركنُ
 به وثقت نفسي الضميفة بعدما أضرَّ بها من ضعف قوتها الوهنُ
 إليه صلاتِي قد بعثتُ مشفَعاً سلاماً به الإحسان ينساق والحسنُ

وقوله رحمه الله تعالى :

أذهبُ يومٌ لم أكفر ذنوبهُ بذكرِ شفيعٍ في الذنوبِ مشفَعِ
 ولم أفضِ في حق الصلاة فريضةً على ذي مقام في الحساب مرفَعِ
 أرجي لديه النفع في صدق حبه ومن يرجع المختار لا شك ينفع
 وأهدي إلى مشواه مني تحيةً إذا قصدت باب الرضى لم تدفعِ

وقوله رحمه الله تعالى :

يا أرحم الخلق يوم الحشر والندمِ أرحم عبيدك يا ذا الطول والنعمِ
 لاني توسلتُ بالمختار ملجأنا الطاهر المجتبي من خيرة الأممِ
 إليك من سيئاتي إنها عظمت يا واحداً لم يزل فرداً ولم يتمِ
 عليه منه صلاة كلما طلعت شمسٌ وما خط في الأوراق بالقلمِ

فهو الشفيع الذي أرجو النجاة به من الجحيم إذ الكفار كالحمم -
وقوله أيضاً رحمه الله تعالى :

بجيب القلوب معتمد الخلا
قد تشفعت من ذنوبي إلى ذي ال
فاشفع اشفع يا خاتم الرسل يوم ال
لظلم لظلم لنفسه قد تناهى
فإذا ما تذكر الذنب فاضت
لا تخيب رجاءه إنه من
وعليك الصلاة بدءاً وعوداً
ق أبي القاسم النبي الشفيع
هزة الواحد العلي السميع
حشر والمشهد العظيم الفطيم
في الخطايا وكل فعل شنيع
مقلناه واغرورقت بالدموع
ربه خائف كثير الخشوع
ما أضاءت ذكاء عند الطلوع

وقوله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

يا رب إن شفيعي من ذنوبي في
محمد خاتم الرسل المبلغ لا
عليه مني صلاة كلما سجع ال
وبعد ذلك أعداد الجبال وره
كذلك أيضاً سلامي طيب عطر
الله وهو كئيب خائف وجيل
يوم القيامة خير الخلق والنسم
دين الحنفي والإسلام للأمم
حمام فوق غصون البان والسلم
ل الأرض والطيور والحيتان والنعم
عليه ما قام عبد في دجى الظلم
من الذنوب حزين القلب ذو ألم

وقول الشيخ الإمام أبي زيد الفازري رحمه الله تعالى :

كملت بنعت محمد خير الورى
واختص دون الأنبياء بدعوة
فاضت على الثقلين منه أشعة
فالإنس تعلم أنه مقصودها
غرر القصائد كلها وحجوها
وسع العباد عمومها وشموها
طلعت وما عقب الطلوع أفوها
والجن توقن أنه مأموها

كم آية بالسبق كان نزولها
لمحمد لزم العباد قبولها
هذا النبي الهاشمي رسولا

كم آية بالصدق كان ظهورها
وكفالك هذا الوحي فهو شهادة
جمع الإله المكرمات لامة

وقوله رحمه الله تعالى :

سُدَّ الباطلَ عَنَّا أَجمعينُ
عندما أكمل سنَّ الأربعينُ
عجزتُ عنه دواعي المدعينُ
وهو باللهِ تعالى مستعينُ
سائرَ الخلقِ إليها مُهطعينُ
أنفُسِ القائلِ والمستمعينُ
فهو تجاجٌ من العذبِ المعينُ
فهو من شيعةِ إبليسِ اللعينُ

أي نورٍ كشف اللهُ به
غمَّ اللهُ به أنوارهُ
وأناناً بدليلِ بينِ
فهو للناسِ جميعاً مرشدُ
تركزتُ دعوته وهو الرضى
فأعدتُ أنباءهُ فهو منى
والذي يهدي إلى شرعته
والذي يرغبُ عن سنته

وقوله وهو كما قبله لزومي :

تدل على التمكين والشرف الأسرى
بنور سماء ينقلوه عن الإسرا
فلا قيصر من بعد ذلك ولا كسرى
تظل به الأوهام ظالعة حسرى
ومن لم يقل هذا تقوله قسرا
حقيقاً ولم يعبر سفيناً ولا جسرا
يمحلها من لا يُيسر لليسرى
وبورك في الساري وبورك في المسرى
فدونك تجميلاً ولا تطلب القسرا

أصغُ فلخير العالمين مناقب
أنى والورى أسرى فكان غياهم
وعقَى رسوم الكافرين وأهلها
تقدم كلَّ العالمين إلى مدى
وخصَّ بتشريف على الناس كلهم
ترقى إلى السبع الطباق ترقياً
وبالجسم أسرى الله وهو دلالة
فسبحان من أسرى إليه بعده
وكم عجب أوحى إلى عبده به

وقوله رحمه الله تعالى :

هاك عن هذا النبي المصطفى
سبحت صم الحصى في كفته
وإذا أبدى نبي عبدة
أي نطق قد روى إعجازه
حُجَجُ الرُّسُلِ التي قد سلفت
فاعتقد صحتها واعمل بها
ممكّناتُ العقل لا يجحدها
خبراً يقبّله من سبعة
ثم في كفت الهداة الأربعة
فهو لا ينكر فيمن تبعه
عن سماع كل من كان معه
أصبحت في أحمد مجتمعه
فدعساوى ضدها منقطعه
غير أهل الطبع والمبتدعه

وقوله رحمه الله تعالى :

إذا أمّلت من مولاك قرباً
وصل عليه أول كل قول
فإنّ محمداً أعلى البرايا
لواء الحمد في يمين يديه
فحدث عن دلائله فصيها
ولست بناقل للعشر منها
فقل للسامعين قفوا فهذا
براهين البسيطة ليس تحصي
فجدّد ذكر خير الأنبياء
وأخره بصبح والمساء
محللاً في السيادة والعلاء
وكل الناس من دون اللواء
شفاء للنهي من كل داء
وهل تفتي الزواجر بالدلاء
محال ليس يحصر بانتهاء
فلونكم براهين السماء

وقوله رحمه الله تعالى :

أما يمين محمد
كلتاهما إن صوح ال
وإذا أضر بنا السقا
ويساره فهما سماء
مرعى لنا طعم وماء
م وغيره فهما شفاء

فاعجب لكف في الورى	فيها عن المزن اكتفاء
فاقطع بأن محمداً	في الخلق ليس له كفاء
فإذا أصخت لآية	فالنور فيها والضياء
هذا الصباح الهاشم	ي بدا فليس به خفاء
فالأرض قد فتحت بم	عنه وفتحت السماء
سبق القضاء بسبقه	والله يفعل ما يشاء

وقوله رحمه الله تعالى :

بركات رسل الله غير خفية	ومحمد خير البرية أبرك
هذا النبي الهاشمي هو الذي	هدي الأنام به وبان المسلك
كم آية لمحمد كم حجة	عز الولي بها وذل الشرك
دعواته مسموعة مرفوعة	والحس ليس يصح فيه تشكك
لا شيء أعجب من دليل واضح	يحيا به بعض وبعض يهلك
أمسك بجبل محمد خير الورى	تظفر بقصدك أيها المستمسك
وإذا عجبت لغاية في رفعة	فمحل أحمد غاية لا تدرك

وقوله رحمه الله تعالى :

قبح الإله الملمدين	فإنهم جحدوا الضرورة
والمعجزات تواترت	عن أحمد في كل صورة
والله أعلى كعبه	في خلقه وأتم نوره
كثر الطعام مع الشرا	ب بكفه عند الضرورة
وتكثفته عناية	من ربه أعلت أموره
نادى البرية فالقلو	ب إلى إجابته مَصوره

وحى الشريعة بالدلي
قل للمشكك حين يي
بني وبينكم الكتا
لِ فدع معاندا وزورة
دي في تشكبه قصوره
بُ فدونكم فأتوا بسوره

وقال رحمه الله تعالى :

إذا بهرت للهاشمي دلالة
فكم مرة أتى الغنى كف سائل
له تحت أستار الغيوب شهادة
يحدث عما كان أو هو كائن
إذا الصديق لم يعوزك في غلواته
وحسبك في الأنباء بالغيب أنه
فكم حجج في طيها ودلائل
وكم مرة أعطى المني فكر سائل
معدلة لم تبق قولاً لقائل
فقس آخراً من صدقه بالأوائل
فلا شك في تصديقه بالأصائل
ستسمعها بالنقل من قول قائل

وقوله رحمه الله تعالى :

يا ذا المعنى بهذا الذكر تسمعه
هذا النبي ، ومن آيات أثرته
قد انقضت معجزات الغيب وافية
وهاك نوعاً من الإعجاز مترها
لا نعدم النقل عن آثار سيدنا
تنقل الأنف في النوار ينشقه
إن القلوب إذا اعتلت خواطرها
في المدح تأثره في سيد الناس
في الطيب والطول لا تجري بمقياس
صحيحة باستفاضات وإحساس
عن نقد منتقد أو صفع قرطاس
فإنما نحن فيها بين أعراس
من ياسمين إلى ورد إلى آس
فذكر أحمد فيها المبرىء الآسي

وقوله رحمه الله تعالى :

تأدب إذا ذكر المصطفى
فإن التأدب عند السماع
بصمت اللسان وخص البصر
يفهم في النطق أو في النظر

وردُّ أحاديثها إنها
 وصلٌ عليه مدى ذكره
 ولا تسترب في براهينه
 فكم آية ظهرت للنبي
 ومن شك في نور برهانه
 فكبر على عقله أربعاً
 دليل على صدق خير البشر
 فذلك أفضل ما يدخر
 فتسلك مسلك قوم آخر
 وكم أثر عنده قد ظهر
 على أن برهانه قد بهر
 وقل فوق طورك هذا الخبر

وقوله رحمه الله تعالى :

اعمل بآثار النب
 واقبل نصيحتها فقيه
 واشدد يمينك بالشر
 خير البرية أحمد
 ذو قوة عند الإل
 زان النبيون الوري
 هاد إلى طرق النجا
 والهج بمدح الهاشم
 ولئن فعلت فلن تفو
 ي فإنها النور المبين
 ها العز والشرف المكين
 عة إنها السبب المتين
 والحق يصحبه اليقين
 م مقرب منه مكين
 ومحمد لهم مزين
 ة مؤيد فيها أمين
 ي فإنه الحصن الحصين
 تك بعد ذا دنيا ودين

وهذا تسديس جعلته للكتاب مسك الختام :

وللناس أعمالٌ فخير وضده
 وما يحسن الأعمال غير الخواتم
 وإلا فالأمداح النبوية بحر لا ساحل له ، وفيها النثر والنظام ، زاده الله شرفاً
 وحباه أفضل الصلاة وأزكى السلام .
 وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجل أبي الحجاج يوسف بن موسى
 المتشاقري الأندلسي - نفعه الله تعالى ببنته ، وبلغه غاية أمنيته - وترتيبها على

حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم ،
وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه ميم أيضاً ، وهذا نصه بحروفه ما عدا حرف
الواو فإنه لم أجده وكملمته على منواله :

حلّ في طيبة رسول كريم	فعلية الصلاة والتسليم
صفوة الخلق خاتم الأنبياء	مرشد الناس للطريق السواء
والعماد الملاذ في الأواء	وشفيح العصاة يوم الجزاء
يوم يبدو لديه جاه عظيم	فعلية الصلاة والتسليم
أذهب الغي نوره والغياب	فأضاءت مشارق ومغارب
وغدا الحق غالباً للأكاذب	وبدت منه للأنام عجائب
صدق أقواله بها معلوم	فعلية الصلاة والتسليم
لبراهين صدقه معجزات	حيثما حلّ حلت البركات
وسمت أربع به وجهات	فه قد تعرفت عرفات
وبه تاه زمزم والحطيم	فعلية الصلاة والتسليم
لم يزل هادياً صدوق الحديث	ووفياً بالعهد غير نكوث
ومجيباً لدعوة المستغيث	وكرماً نداء فوق الغيوث
ويداه بالجوّد جوّد سجّوم	فعلية الصلاة والتسليم
بهج الحق أوضح الابتهاج	سيد نوره أضاء الدياجي
خصه الله ليلة المعراج	باصطفاهاء ورفعة ونتاج
وبتكليمه له التكريم	فعلية الصلاة والتسليم

مصطفى مجتبي كريم صفوح	للتبين جاهه ممنوح
فلاكرامه أجبر الذبيح	ونجا آدم وغلص نوح
وكذاك الخليل إبراهيم	فعلبه الصلاة والتسليم
كل دين بدينه منوخ	فسوى ما قضى به مفسوخ
لهداه بكل قلب رسوخ	فالورى مادح له ومصبخ
كلهم في هوى النبي يميم	فعلبه الصلاة والتسليم
بمه كان رحمة للعباد	دلهم بالهدى طريق الرشاد
وقى كل باطل وعناد	ودعا للإله دعوة هادي
فإذا الحق واضح مستقيم	فعلبه الصلاة والتسليم
أمه بالشكاة ظني أخيد	مستجيراً بجاهه يستعيد
وبه كانت الوحوش تلوذ	وله خاطب الذراع الخنيد
لا تدقني فإني مسموم	فعلبه الصلاة والتسليم
أشع الجيش والطعام يسير	ودعا نخلة فجات نعيم
وهسى من يديه عذب نعيم	وله البدر شق وهو منير
معجزات تحار فيها النهوم	فعلبه الصلاة والتسليم
حجب النور في السموات جازا	فاحتوى الفضل والعلاء وحازا
فيه في غد نال المفازا	وكفى أمة الرسول اعترازا
أن تمني يكون منها كليم	فعلبه الصلاة والتسليم

لأنما الحكمُ منه عدلٌ وقسطٌ لم يجزُ في القضاء والحكم قطُّ
جبه في بلوغِ قصدي شرطٌ وبأمداحه ذنوبي تحطُّ
ويزولُ العنا وتجليُ الهمومُ فعليه الصلاة والتسليمُ
قد حمى ديننا برعيٍ ولحظِ ونفى روعنا بأمنٍ وحفظِ
وحبانا بما لدى الربِّ يحظي هادياً راحماً لنا غيرَ فظِّ
مثل ما نصَّه الكتابُ الكريمُ فعليه الصلاة والتسليمُ
نور برهانه جلا كلَّ شرك وهده أجار من كلِّ هلك
أخيراً العالمين من غيرِ شكِّ فلکم رامةُ العداة بشكِّ
وهو في كلِّ حالةٍ معصومُ فعليه الصلاة والتسليمُ
ما نجيرُ الأنامَ منهم عديلُ لأنه مجتبي نبي رسول
ما عسى مادح الشفيح يقولُ وبأمداحه أتى التنزيلُ
وثناهُ خلاله مرسومُ فعليه الصلاة والتسليمُ
نحن لولا اتباعه لشقيننا نورُ برهانه أرانا يقينا
وغدا ما نخاف منه يقينا وكووساً بجوضه قد سقينا
من رحيقِ مزاجهُ مختومُ فعليه الصلاة والتسليمُ
أحمد عند ربه ذو اختصاصِ جاهه كاملٌ بغيرِ انتقاصِ
عدة للمسيء يوم القصاصِ وشفيحٌ لكل جانٍ وعاصي
يوم يحفو الحميمَ فيه الحميمُ فعليه الصلاة والتسليمُ

ويجازي الذي أجاز وأمضى	بيديه حوائجُ الكلِّ تُقضى
سوف نعطيك ما تحب وترضى	وينادي الحبيب أنتَ المرضى
فعلية الصلاة والتسليمُ	فتحكّم يمضى لك التحكيمُ
إن فيه بدا الجلال الرفيع	فاق بالمولد السعيد ربيع
فملاذ للمذنين شفيع	من هو الذخر والعماد المنيع
فعلية الصلاة والتسليمُ	ورؤوف بالمؤمنين رحيمُ
بيّن الوحي للأنام وبلغ	أفصح الناس في حديث وأبلغ
ولكمّ نعمة من الله سوغ	طيب الحل قد أباح وسوغ
فعلية الصلاة والتسليمُ	فإحسانه علينا عميمُ
أجود الناس بالندى موصوفا	كان بالحقّ والهدى معروفا
هادياً مرشداً رسولاً شريفاً	شرف الله قدره تشريفا
فعلية الصلاة والتسليمُ	مجده في العلاء مجدٌ صميمُ
مجده في صميمه الأصل أعرق ^١	وجهه ^٢ بالبها أضواء وأشرق
باصبع قد أشار للبدر فانشق	مسّ ^٣ في كفه قضيباً فأورق
فعلية الصلاة والتسليمُ	ثمّ قد عاد وهو بدرٌ سليمُ
بلغ الأمر لا تخف من باس	جاءه الوحي أنت خير الناس
واحمهم من مكاييد الوسواس	وخذ العفو للأنام وواس

١ هذا البيت واثنان بعده سقطت من ق .

فعلية الصلاة والتسليم	فعلية الصلاة والتسليم
ليس من غيره يخاف ويخشى	كان في الله أثبت الناس جاشا
وعيون العداة بالترب أعشى	فبكف من الحصى قل جيشا
فعلية الصلاة والتسليم	فنج المصطفى وخاب الظلوم
وعلا جاهه على كل جاه	قد سما قدره بغير تناهي
من يطعه ينل ثواب الإله	أمر بالتقى عن الشر ناهي
فعلية الصلاة والتسليم	وله عنده النعيم المقيم
بجماه يلوذ كل وياوي	عمدة الخلق للمفاخر حاوي
كيف يحصي ثناء أحمد راوي	مبلغ المعنفي الذي هو ناوي
فعلية الصلاة والتسليم	وعليه أثنى الكتاب الحكيم
وندى كفه من الشهد أحلى	حسنه كالصباح بل هو أجلى
مدحه في الكتاب ما زال يتلى	واعتلا قدره من السبع أعلى
فعلية الصلاة والتسليم	فله الفخر والثناء العظيم
في جميع الورى بقدر علي	خصه الله من رسول نبي
فهدى الخلق للصرط السوي	وحباه منه بنور بهي
فعلية الصلاة والتسليم	وصراط الهدى سوي قويم

[خاتمة الكتاب]

قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير أحمد بن محمد المقرئ المالكي ، وفقه الله تعالى إلى حسن المتاب ، وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى

الإصر والعتاب : هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل ، من هذا المقصد الجليل ، الذي يكون إلى ما وراءه من الطُرف الأدبية خير دليل ، ووضعتة والقلب حليف شجن وغربة ، والفكر أليف حزن وكربة ، وأنا أسأل الله تعالى الذي لا يرجي سواه ، أن يجعل بناءه ثابتاً بحسن النية حيث البناء الذي فيه حظ النفس واه ، وأن يكون ما جليته فيه من الهزل بالجد المذكور فيه مكفراً ، وأن ينفع به من وجه إليه وجهته ، فلإني قد جمعت فيه ما يندر جمعه في غيره وكل الصيد في جوف الفرا .

يا مَنْ عليه اتكالي ومن إليه متابي
جُدْ لي بعفوك عني إذا أخذتُ كتابي

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر ، وفيه من حكايات الأولياء والعلماء ، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك . وفيه من الوعظ والاعتبار ، ما لم ينكره المتصف عند الاختبار ، وكفاه أنه لم يُر مثله في فنه فيما علمت ، ولا أقوله تزكية له ، ويعلم الله تعالى أنني تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت ، ولو لم يحز من الشرف إلا ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة ، ذات الظلال الوريقة ، لكان كافياً شافياً ، وها أنا أجعل آخره تيسياً للتيسب ، قول ابن حبيب :

يا خير مبعوث له طلعة
جئتُ إلى ناديك أرجو القري
كن لي شفيعاً فارتكاب الهوى
صلتى عليك الله سبحانه
نور الهدى منها أقر العيون
من غيث كفيك المغيث الهتون
أوقعتني بين الشجا والشجون
ما هزت الريح قُدود الغصون

وقول النواجي :

لقد أفرطت في حسن ابتداء
فبالمختار أرجو عفوَ ربي
ورمتُ تخلصي يوم الزحام
ليرشدني إلى حسن الختام

وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسفر صباحها عن السابع والعشرين
لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف ، بالقاهرة المحروسة ، والحمد لله وكفى ، وسلام
على عباده الذين اصطفى ، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها ، فيكون جميعه
آخر الحجة تامة سنة تسع وثلاثين وألف ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى
آله وصحبه وسلم ، خاتماً أبداً إلى يوم الدين ، آمين .

وجاء في ختام النسخة « ق » :

قال محرر هذه النسخة المباركة العبد الفقير ، الضيف الحقيير ، الراجي من الله سبحانه العفو والفران ،
أحمد بن محمد الحموي الطائر ، غفر الله ذنوبه ، وسو في الدارين عيوبه ، كان الفراغ من كتابته
عشية يوم الأربعاء المسفر صباحها عن الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين لذي القعدة الحرام من
شهور سنة ثلاثين ومائة وألف ، حامداً لله مصلياً ومسلماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم طالباً
لمؤلفه المغفرة ورحمة الله تعالى ورضي عنه وعن جميع العلماء العاملين وعن الأربعة الأئمة المجتهدين
وعن مقلليهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعنا وعن والدينا ومشايخنا ، ومن علمنا ومن هدانا ومن أسدى
إلينا معروفات ، وعن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، من أهل
السياسة والجماعات ، إنه فقور رحيم ، شكور حلیم ، . . . وقد تمت هذه النسخة الميمونة المباركة
المصونة بعون الله وإرادته القادرة ومشيئته الصادرة برسم اقتضار السادة الأشراف . . . مولانا وصيدنا
السيد محمد عاصم أفندي ابن المرحوم السيد عبد المظي أفندي الشهر نصبه بلقلاسي . . . وذلك بمنزلي
العامر الكائن بمحلة القيمرية من دمشق الشام (ثم قصيدة قلها الناسخ في تقرير الكتاب مؤرخاً :
قل تم عرف الطبيب أنجز به وعدي : ١٢٣٠) .

انتهى المجلد السابع وبه تم الكتاب

وبليه المجلد الثامن في القهارس العامة



محتويات المجلد السابع

الباب الخامس

(تتمة)

٩٦-٥

موشحات لسان الدين

٥	[فصل في تاريخ الموشحات والأزجال عن ابن خلدون]
١٧	[ترجمة ابن بابجة من القلائد]
٢٤	[ثناء الفتح على ابن بابجة في مصدر آخر]
٢٦	[ترجمة محمد بن أحمد بن الحداد الوادي آشي]
٢٧	[رجوع إلى أخبار ابن بابجة]
٢٩	[ترجمة الفتح بن خاقان عن الإحاطة]
٣٣	[ترجمة الفتح بن خاقان عن المغرب]
٣٦	[رسائل للفتح بن خاقان]
٦٠-٣٨	[نماذج من تراجم المطمح]
٣٨	١ - أبو بكر الزبيدي
٤٠	٢ - عز الدولة ابن صمادح
٤٣	٣ - رفيع الدولة ابن صمادح
٤٥	٤ - أبو الوليد ابن حزم
٤٦	٥ - أبو بكر الفسافي
٤٦	٦ - أبو علمر ابن عقال
٤٨	٧ - أبو مروان الطيبي
٤٩	٨ - أبو عمر أحمد بن عبد ربه
٥٣	٩ - أبو القاسم المنشي

٥٥	١٠ - أبو الحسن البرقي
٥٧	١١ - أبو الحسن علي بن جودي
٦٠	نص خطبة «المطبخ»
٦١	عود إلى الموشحات
٦١	[موشحة ابن سهل ومعارضتان لها]
٦٥	رجع إلى موشحات ابن الخطيب
٦٩	[موشحة لأبي الفضل ابن محمد المقاد]
٧٠	[موشحة لبعض المراكشيين]
٧٢	[موشحة للسلطان المنصور الذهبي]
٧٢	[موشحة أخرى للمنصور الذهبي]
٧٤	[من مقطعات المنصور]
٨٢	رجع إلى التوشيح
٨٢	[موشحة لبعضهم في ملح المغربي]
٨٦	رجع إلى موشحات لسان الدين
٨٦	[موشحة لابن فهاة]
٨٨	[موشحة للبلطي]
٨٨	[موشحة لمغربي عارضها البلطي]
٨٩	[موشحات للشهاب الغزالي]
٩٤	[موشحة للسوسلي]
٩٥	[موشحة لابن بتي]

الباب السادس

٩٧ - ١٤٤

في مصنفاته ومولقاته

٩٧	سرد أسماء مولقات لسان الدين في الإحاطة
٩٩	ما تأخر تاريخه عن الإحاطة
١٠٢	معلومات عن كتاب الإحاطة

١٠٨	[ترجمة ابن الحاج النبري]
١٢١	[قصائد في ملح تلمسان وفاس]
١٢١	قصيدة لمحمد بن يوسف الثغري في ملح تلمسان
١٢٢	» لابن أجروم في ملح فاس
١٢٥	» للثغري في ملح تلمسان
١٢٥	» للثغري في ملح تلمسان أيضاً
١٢٨	» للمزدغي في ملح فاس
١٢٩	» لسان الدين في ملح تلمسان
١٢٩	» للتلامي في ملح تلمسان
١٣١	» لابن خميس في ملح تلمسان
١٣٢	[تعريف بتلمسان]
١٣٦	[ترجمة أبي ملين]

الباب السابع

في ذكر بعض تلامذته

١٤٥ - ٢٨٨

١٤٥	١ - أبو عبد الله ابن زمرك - ترجمته عن الإحاطة
١٦٠	[تعليقات ابن لسان الدين على الترجمة]
١٦٢	[ترجمة ابن زمرك من كتاب البقية والمدرک لابن الأحمر]
١٧١	[شيء من نظمه منقول من الكتاب المذكور]
٢٤٠	[موشحات ابن زمرك]
٢٦٦	[ترجمة الولي أبي العباس السبي]
٢٧٩	رجع إلى ابن زمرك
٢٨١	٢ - ابن المهنا الطيب العالم
٢٨٢	٣ - أبو بكر ابن جزى
٢٨٢	٤ - أبو عبد الله الشريشي
٢٨٢	٥ - أبو محمد عطية بن يحيى المحاربي

الباب الثامن

٢٨٩ - ٥١٩

في ذكر أولاده

٢٩٠	ترجمة عبد الله بن لسان الدين نقلاً عن الإحاطة .
٢٩٩	أشعار لسان الدين في مخاطبة ابنه عبد الله .
٣٠١	علي بن لسان الدين وتعليقاته على الإحاطة .
٣٠٢	[نماذج من تعليقاته في ترجمة ابن جابر] .
٣٠٣	[رجع لتكميل ترجمة ابن جابر عن الإحاطة] .
٣٠٥	[استطراد بأشعار ابن جابر] .
٣٢٢	[قصيدته في التورية بسور القرآن] .
٣٢٦	[معارضات لقصيدته في السور] .
٣٣٣	[خطبة منسوبة لنياض يوري فيها بأسماء السور] .
٣٣٥	[خطبة على مشالها للطنجالي] .
٣٣٧	[عود إلى نظم ابن جابر] .
٣٣٩	رجع إلى أولاد لسان الدين .
٣٤٠	[خطبة للكفعمي في تصنيف أسماء السور] .
٣٤١	[قصيدة مشابة للكفعمي] .
٣٤٣	[ترجمة الكفعمي] .
٣٤٧	[رجع إلى نظم ابن جابر] .
٣٤٧	[من شعر رفيق ابن جابر] .
٣٤٩	[عود إلى شعر ابن جابر] .
٣٧١	[من شعر رفيق ابن جابر] .
٣٧٧	رجع إلى أولاد لسان الدين - رسائل لعلي .
٣٩١	وصية لسان الدين لأولاده .

٤٠٦	[وصية لابن الجنان على لسان ابن هود]
٤١٥	[ترجمة ابن الجنان]
٤٣٢	[مخمسات من المدائح النبوية لابن الجنان وغيره]
٤٥٩	[مدائح أخرى منقولة من منتهى السؤل]
٤٧٠	[مسلمات في مدح الرسول]
٤٨٨	[قصائد ومقطعات في مدح الرسول أيضاً]
٥١٢	[سدسة للمتشاقري هي مسك الختام]
٥١٧	خاتمة الكتاب

